مذاهب وشخصيات

سيرة عنترة

تأليف

دكتور محمود الحفني

مذاهب وشخصيات

سيرة عنترة

تأليف

دكتور محمود الحفني

الباب الأوّل

الفصل الاول

المقومات الاجتماعية للبيئة العربية

طبيعة الجزيرة العربية

فى اقصى الجنوب الغربى من قارة آسيا تقع شبه جزيرة مستطيلة الشكل تحيط بها مياه البحر من ثلاث جهات .. البحر الاحمر فى الغرب، وخليج عدن مع المحيط الهندى فى الجنوب ، والخليج الفارسى فى الشرق وهى تقع بين خطى طول ٣٥ و ٦٠ شرقا ، وخطى عرض ١٢ و ٣٧ شمالا أى أن مدار السرطان يمر فى وسطها تقريبا .

هذه هى بلاد العرب التى عرفت منذ الجاهلية الساحقة باسم «جزيرة العرب» على سبيل التجاوز ولو أن جغرافيى العرب حاولوا اقصى جهدهم تخريج هذه التسمية فالمقدسى يقول : « ان العرب يسمون شبه الجزيرة جزيرة» (١) فمثلما اطلقوا على بلادهم جزيرة العرب اطلقوا على شبه جزيرة ايبريا اسم جزيرة الاندلس ، واطلقوا على الارض الواقعة بين نهرى دجلة والفرات اسم «جزيرة اتور أو ابن عمر» اما الهمدانى (٢) فيقدم تخريجا آخر مؤداه أن الضلع الرابع من اضلاع شبه الجزيرة يحده الماء كذلك ، وان كان فى هذه المرة ماء نهر الفرات الذى ينبع من مشارف الجبال المطلة على البحر الابيض قريبا من مدينة حلب بالشام ليصب فى الخليج الفارسى .

وتخريج الهمدانى ينتقل بنا الى نقطة بحث اخرى هى تعيين الحدود الشمالية لبلاد العرب . فالهمدانى ــ بقوله ذاك ــ يدخل ضمن بلاد العرب ارض الشام كلها واجزاء من العراق ومن مصر ، وهذه المناطق يفصلها المقدسى عن بلاد العرب التى يعتبر أن حدها الشمالى هو صحراء النفود .

والواقع أن هذه المسألة فيها خلاف بين الجغرافيين ، سواء فى ذلك القدامى والمحدثون ، كما ان فيها خلافا بين الجغرافيين من جهة والمؤرخين من جهة اخرى ، ولعل أقرب الآراء الى الواقع واكثرها تمشيا مع طبائع الاشياء هو ذلك الرأى القائل بفصل بادية الشام وارض العراق عن الجزيرة العربية ، واعتبار أن حدها الشمالى هو اطراف صحراء النفود عند التقائها ببادية الشام .

(١) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٩٧

(٢) صفة جزيرة العرب ص ٤٧

وتتكون شبه جزيرة العرب من هضبة صحراوية يفصلها عن مياه البحر ـ التى تحدها من الشرق والغرب والجنوب ـ سلاسل جبلية تترك بينها وبين الساحل سهولا ضيقة تختلف سعتها باختلاف موقعها، وترتفع قمم هذا الاطار الجبلى الى علو يبلغ ثلاثة آلاف من الامتار فى بعض الجهات الركنية وبذلك وقف حاجزا بين البحر والداخل حيث تنبسط الهضبة فى صورة فيافى وصحارى يختلف نصيبها من العمران باختلاف ما تصيبه من مياه الامطار .

وعلى هذا فانه من الممكن تقسيم بلاد العرب الى ثلاثة اقسام جغرافية متميزة هى :

١ ـ الاطار الجبلى .

٢ ـ السهول الساحلية التى تقع بين الاطار الجبلى والبحر .

٣ ـ الهضبة الداخلية .

أولا ـ الاطار الجبلى :

وهو عبارة عن سلسلة من الجبال البركانية تحيط بشبه الجزيرة من جهاتها الشرقية والغربية والجنوبية . وعلى الرغم من أن جميع هذه الجبال متشابهة من حيث التكوين ، الا ان جبال كل جهة من هذه الجهات الثلاث تختلف عن الاخرى اختلافات كبيرة تبعا لاختلاف طبيعة البحر الذى تتاخمه اذ ان هناك فروقا جوهرية بين البحر العادى ، والمحيط الواسع ، والخليج الضيق .

وعلى هذا الاساس فانه يلزم تقسيم الاطار الجبلى الى ثلاثة اقسام متميزة هى :

١ ـ سلسلة الجبال الغربية :

وتتألف من سلسلة جبال «السراه» التى تمتد من خليج العقبة شمالا حتى اليمن جنوبا بمحاذاة البحر الاحمر وبانحدار شديد نحوه ـ أى نحو الغرب ـ وميل تدريجى نحو الداخل ـ أى نحو الشرق . ويطلق على الشريط الساحلى الضيق المحصور بين هذه الجبال وبين مياه البحر الاحمر اسم «تهامه» .

وتنقسم هذه السلسلة الجبلية ـ تبعا لاختلاف عروضها الجغرافية ـ الى ثلاثة اقسام .. سراة الحجاز فى الشمال ، وسراة اليمن فى الجنوب ، وبينهما سراة العسير .

أ ــ أما سراة الحجاز فتبدأ من خليج العقبة حتى خط عرض ٢٠، اى ان طول سراة الحجاز يصل الى حوالى الف كيلو متر . ويطلق على القسم الشمالى من هذه المنطقة اسم «مدين» . ويقطع سلسلة جبال سراة الحجاز عدد من الاودية التى تكون ممرات طبيعية بين البحر والداخل ، كذا بين الشمال والجنوب . وقد عرفت هذه الممرات منذ القدم على انها طرق للقوافل ومن اشهرها « وادى العقيق » بين مكة والمدينة » و « وادى القرى » (بين الشام والمدينة) .

وتقل الامطار فى هذه المناطق ، وترتفع درجة الحرارة وتعم الرطوبة على الجانب الغربى ــ المواجه للبحر ــ بينما تكاد تنعدم على الجانب الشرقى . وتوجد الزراعة حيثما يكثر المطر او حيث يمكن اختزان مياهه ــ مثلما فى الطائف ــ فيزرع القمح والشعير والذرة والحمص والبلح والكروم والتين . وفى هذه المنطقة ــ سراة الحجاز ــ تقع مدينتا «مكة والمدينة»

ب ــ وسراة العسير تمتد من جنوب مكة حتى مشارف اليمن فى شكل كتلة واحدة صماء لا نبات فيها ولا ماء ولا ممرات للقوافل .

جـ ــ اما سراة اليمن فتنتشر على مدخل البحر الاحمر وتختلف اختلافا كليا عن سابقتيها ، فهى اخصب بقاع شبه الجزيرة وتتبع فى مناخها الاقليم المدارى ذا الامطار الصيفية « ولذلك سميت منذ اقدم العصور باسم «بلاد العرب السعيدة» . وانحدارها متدرج على شكل مساطب مما يساعد على زراعتها . والمحصول الرئيسى لهذه المنطقة هو البن ، واشهر مدنها «صنعاء» .

٢ ــ سلسلة الجبال الجنوبية :

وتمتد من مضيق باب المندب حتى راس الحد «شرقى عمان» . وهذه السلسلة الجبلية مكونة من كتل صخرية تبلغ اقصى ارتفاعها فى الغرب وتتدرج فى الانخفاض كلما اتجهت شرقا . وامطارها صيفية غزيرة تنبت المراعى والاشجار «واهمها اشجار البخور والمطاط» .

٣ ــ سلسلة الجبال الشرقية :

وتمتد من راس الحد «شرقى عمان» الى «راس مسند» (فى مضيق هرمز) وهذه السلسلة الجبلية تشبه سالفتها ــ اى السلسلة الجنوبية ــ الى حد كبير وتبلغ اقصى ارتفاعها فى اقليم عمان ، وتتلقى امطارا شتوية كافية لنمو الاحراش الطبيعية والمراعى الجبلية . وفى هذه المناطق

كذلك يزرع البن والفواكه والحبوب ، وتخترقها أودية خصبة يزرع فيها النخيل .

ثانيا ــ السهول الساحلية :

وهي عبارة عن شريط ساحلي ضيق محصور بين ذلك الاطار الجبلي وساحل البحر . وهذا الشريط يضيق في بعض المناطق بحيث يصير في حذاء الشاطىء مباشرة ، بينما يتسع في مناطق اخرى حتى يصل عرضه الى أكثر من ٥٠ كيلومترا . وكما قسم الاطار الجبلي المتاخم لتلك السهول الى ثلاثة أقسام ، فانها ــ تبعا لذلك ــ تنقسم هي الاخرى الى ثلاثة اقسام مناسبة لاقسام الاطار الجبلي . وهذه الاقسام هي :

١ ــ السهول الغربية :

وهي السهول المحصورة بين سلسلة جبال السراة والبحر الاحمر ويطلق عليها اسم « تهامة » . (وكلمة تهامة اتت من « التهم » وهو ركود الريح . فسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها) «١» . وهذه المنطقة «تهامة» تنقسم الى نفس الاقسام التي تنقسم اليها جبال السراة ، فأمام سراة الحجاز توجد تهامة الحجاز ، وامام سراة العسير توجد تهامة عسير ، وأمام سراة اليمن توجد تهامة اليمن .

وسطح هذه السهول مؤلف ــ في معظم أجزائه ــ من مجروفات السيول ومن رمال البحر ، لذا فهو غير صالح لزراعة . ودرجة حرارته شديدة الارتفاع لا يعدل منها القرب من البحر «لان البحر الاحمر بحر مغلق» ولا هطول الامطار «لانها قليلة جدا باستثناء نهاية الشريط عند اليمن حيث تغزر الامطار صيفا» .

ولهذا فان الحياة في هذا الاقليم الحار الجاف تعتبر صعبة وقاسية ، فالنباتات معدومة الا من أعشاب قليلة واشواك لا تصلح الا لرعي الابل ، بعكس المناطق المرتفعة المجاورة الصالحة للزراعة . وساحل البحر قليل الفجوات غير صالح للملاحة في معظم اجزائه ، وهو عرضة للمد والجزر ويجاوره عدد من الجزر المرجانية والبركانية «ولكن الحاجة الملحة خلقت بعض الموانى لتكون مراكز اتصال بين شبه الجزيرة والبحر مثل مرفأ الوجه وينبع وجده والحديدة» .

---

(١) معجم البلدان ــ ياقوت الحموى ج ٢ : ٤٣٦

٢ ـ السهول الجنوبية :

وتشمل سهول جنوب عمان ومهرة وحضرموت وعدن والمحميات التسع . وهذه السهول يطلق عليها كذلك اسم «تهامة» . وهى سهول فقيرة جافة منعدمة المطر ، ولا تقوم الحياة بها الا فى بعض الوديان حيث يمكن استخراج الماء من الارض . وتهب عليها رياح صيفية حارة تعرف باسم «السموم» .

وبعض سهول عدن والعوالق السفلى غنى بينابيع المياه والاشجار المثمرة «مثلما فى لحج» . وعلى الرغم من أن الساحل الجنوبى لا يصلح كذلك للملاحة «باستثناء مرفأ عدن المشرف على مدخل البحر الاحمر» الا أن معظم سكان المنطقة يعتمدون على الصيد البحرى وتجفيف الاسماك شتاء وجمع بلح النخيل صيفا .

٣ ـ السهول الشرقية :

وهى تسمى فى الجزء الجنوبى منها باسم «تهامة» كذلك اذ يقال لها «تهامة عمان» لشدة شبهها بالسهول الساحلية الغربية . وهذه المناطق يزرع فيها الحبوب والفاكهة والنخيل ، ويشتغل سكانها بالملاحة كذلك لصلاحية الساحل وقيام المرافىء الطبيعية فيه .

اما فى الجزء الشمالى فان جبال عمان تبدأ فى الانعدام وتصبح المنطقة كلها هضبة متدرجة الانخفاض . وهى تتألف من ساحل القرصان وبحر البنات فشبه جزيرة قطر فخليج وجزر البحرين حتى خليج الكويت . وتعتبر الملاحة وصيد اللؤلؤ من المهن الاساسية لسكان تلك المناطق . والاقاليم المتاخمة للساحل رطبة موبوءة بالحميات ، شديدة الحرارة .

ثالثا ـ الهضبة الداخلية :

وهى عبارة عن اراضى منخفضة اطلق عليها اسم «صحارى» . وتنقسم الى أربعة أقسام :

١ ـ الربع الخالى :

ويطلق عليه اسم «الصحراء العربية الكبرى» ، ويشمل حوالى ربع مساحة شبه الجزيرة ولذلك عرف باسم «الربع» ، كما أنه اشتهر بخلوه من السكان لصعوبة الحياة فيه ولنعومة رماله التى تبتلع المار عليها .

٢ ـ النفود الكبرى :

ويقصد بها الصحراء الواسعة الممتدة بين نجد وبين بوادى الشام والعراق ، «ومعنى كلمة نفود هو الرمال الكثيفة التى تسفوها الرياح فيصعب المرور فيها» . وفى أطراف هذه الصحراء توجـــد كثير من المنخفضات التى تتجمع فيها المياه مكونة الواحات «مثل واحة الجوف ـ ودومة الجندل ـ ومعان وتبوك وتيماء » أو توجد آبار المياه الجوفية التى يحفرها رجال القوافل والرعاة . وتجتاز القوافل صحراء النفـود لا سيما فى فصلى الربيع والشتاء حين تهطل بعض الامطـــار وتعتبر الاراضى الشمالية منطقة انتقال بين الصحراء والســهول اذ يكسوها العشب شتاء وتتخللها وديان تبقى فيها مياه الامطار عدة أســابيع وتكثر المياه الجوفية القريبة من الارض وذلك عن طريق حفر الآبار .

٣ ـ الدهناء :

وهى امتداد لصحراء النفود الكبرى نحو الجنوب والشرق ولذلك فانها تعرف أحيانا باسم «النفود الصغرى» وتقع بين الاحســاء ونجد على شكل لسان طويل يصل بين صحراء الربع الخالى جنوبا وصحراء النفود الكبرى شمالا . وهذه المنطقة عبارة عن سلسلة من الآكام الرملية التى يصعب اجتيازها وتخترقها عدة طرق صحراوية تصل بين نجـد والاحساء .

٤ ـ هضبة نجد :

وتشمل وسط شبه الجزيرة وتعتبر اكثر اقاليمها اتساعا ، فهى تتألف من هضبة واسعة يطلق عليها اسم «نجد أو العارض» وتتكون من سلسلة متشابهة من الواحات ترتفع فى وسطها سلسلة من الجبال متجهة من الشمال الى الجنوب يعرف الجزء الشمالى منها باسم «السدير» ثم يتفرع جنوبا الى شعبتين ، شعبة تتجه نحو الجنوب الغربى وتسمى «الطويق» والاخرى تتجه نحو الجنوب الشرقى وتسمى «العرمة» ، كما توجد فى الشمال كتلة جبلية تسمى «جبل شمر» وتحتوى على جبلين متوازيين هما « اجا وسلمى »

وتتلقى نجد كمية من الامطار تكفى لافاضة السيول فى الوديان واقامة واحات استقرارية وحياة زراعية الى جانب قبائل البدو الرحل الذين ينتقلون شتاء الى سهول النفود ويعودون صيفا الى واحـات نجد لتبادل التجارة وكذلك للغزو وشن الغارات .

التقسيم الطوبوغرافى

لشبه جزيرة العرب

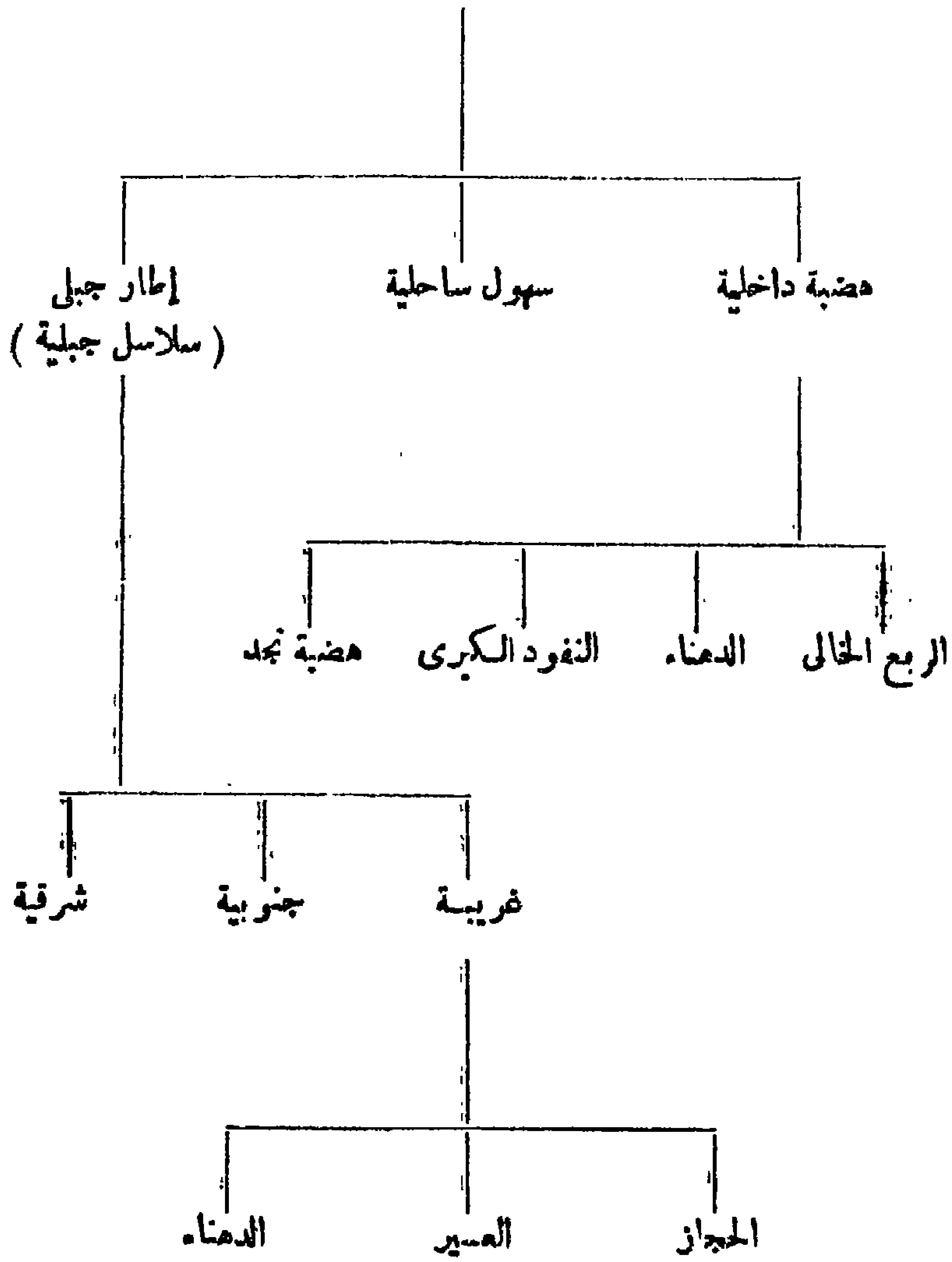

الحياة الاجتماعية
لسكان الجزيرة العربية

من ذلك العرض السريع لجغرافية الجزيرة العربية يتضح لنا ان طبيعة ارض هذه الجزيرة وتضاريسها تختلف اختلافا بينا من مكان لآخر . فمياه البحار والمحيطات تحصر فيما بينها مساحة هائلةمن الارض تعادل ربع أوربا . ومع ذلك فانه لايوجد بها نهر واحد أو بحيرة . وأرض الجزيرة ترتفع فى معظم انحائها ارتفاعا كبيرا فوق سطح البحر ، فهضبة نجد ـ التى فى الوسط ـ يبلغ ارتفاعها نحو الفين وخمسمائة قدم أما جبال اليمن الشاهقة ـ فى الجنوب ـ فتصل قممها الى اكثر من اثنتى عشر الف قدم (١) . وبين هذه وتلك تمتد الصحراء الرملية المترامية الاطراف التى يتخللها القليل من الاغوار والنجاد .

وتبعا لاختلاف تضاريس مكان عن آخر من شبه الجزيرة العربية يختلف كذلك مناخه كما تختلف احواله المعيشية . فالسواحل معتدلة المناخ ـ نسبيا ـ بردها محتمل وحرها يطاق ، والمناطق المرتفعة تكسو الثلوج قمم جبالها شتاء «٢» ويربض فى أرجائها الصقيع بينما وسط شبه الجزيرة الصحراوى يسوده المناخ القارى وتهب عليه رياح السموم والانواء .

وتعتمد شبه الجزيرة اعتمادا كليا على مياه الامطار الى جانب القليل من العيون والآبار وبعض مسايل المياه التى تقوم حولها المدن والقرى اذ يتوفر فيها الماء لرى بعض الزراعات البسيطة ، والا فلينبت الكلا حيث تهطل الامطار ، فاذا لم تهطل حل الجدب والقفر . وهكذا نجد ان قلة الماء بالاضافة الى جفاف الهواء وملوحة التربة جعلت فرص نمو النباتات تقل الى درجة كبيرة بحيث أصبحت «النخلة» هى الاساس الزراعى الاول واصبح بلحها قوام طعام البدوى «٣» .

---

(١) تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى جـ ١ ص ١٦

(٢) المسالك والممالك ـ للاصطخرى ص ١٩

(٣) عيون الاخبار لابن قتيبة جـ ٣ ص ٢٠٩

وعلى ذلك فانه يمكننا أن نقسم الجزيرة العربيـــة ــ من حيث البيئة الطبيعية ــ الى ثلاثة نطاقات اجتماعية هى :

اولا ــ مناطق الاستقرار الطبيعى حيث يوجد الماء وينبت الزرع ويعتدل المناخ فتنشأ دول مستقرة نسبيا مثلما فى اليمن والشـــــام والحيرة . ويكون اعتماد هذه المناطق الاساسى على الزراعة والتجارة . وتجمع اهلها وحدة اجتماعية واسعة فيكونون شعبا أو دولة . ويرتفع مستوى حياتهم الطبقى والحضارى بحيث يصلون الى درجة لا بأس بها من الرقى .

ثانيا ــ المناطق الصحراوية التى تهطل بها بعض الامطار او ينبـع فيها بعض العيون والآبار فتقوم عليها زراعات بسيطة تسمح باستقرار نسبى مثلما فى مدن وقرى الحجاز أو الواحات المنتشرة فى الصحراء . ولما كانت الزراعة لا تكاد تقيم حياة سكان تلك المناطق ، فانهم يعتمدون ــ الى جانبها ــ على الرعى . ووحدتهم الاجتماعية لا تصل الى مستوى الشعب ــ لقلة عددهم ــ وانما تكون على شكل قبيلة أو عدد من القبائل بينها حلف أو جوار . وهؤلاء لا يصـــلون فى مستواهم الحضـــارى الى مستوى سكان المناطق السابقة .

ثالثا ــ المناطق الصحراوية التى لا يفى ماؤها بحاجة الزرع وربما انبتت الكلأ لترعاه الابل فاذا ما غاض الماء وجف الكلأ اضطر سكان هذه المناطق الى الارتحال بحثا عن كلأ جديد . وعلى ذلك فان هؤلاء السكان يكونون مجموعة من البدو الرحل القليلى العـــدد بحيث يصلون ــ فى تكوينهم الاجتماعى ــ الى عشيرة أو فخذ او بطن من قبيلة . وقـــوام حياتهم الرعى كمهنة والغارة كمورد من موارد الرزق ولهذا فان مجتمعهم بدائى غير متحضر .

ومنذ القـــدم قسم جغرافيو العرب أهل الجزيرة العربية الى : «سكان الممالك وسكان البوادى» ، واعتبروا أن سكان الممالك هم أهل اليمن والشام والحيرة ، اما سكان البوادى فقد قسموهم الى قسمين : «أهل المدر ، وأهل الوبر» ، ومثلوا لاهل المدر بقبيلتى الاوس والخزرج فى المدينة وبثقيف فى الطائف وقريش فى مكة ، واعتبروا أهل الوبر بقيـــة سكان الجزيرة من البدو والرحل سكان الخيام «١» ولعل هذا هو مـــا حدا ببعض المستشرقين الى القول بأن العرب لم يكونوا مجتمعا واحدا وانما كانوا طبقات مختلفة تمثل المجتمعات الانسانية التى مرت بهـــا البشرية فى تاريخها الطويل . «٢» .

(١) مختصر الدول ــ لابن العبرى ص ١٥٨

(٢) مصادر الشعر الجاهلى ــ لناصر الدين الاسد ص ٩

ويرجع المؤرخون الشعب العربى الى أصلين أوليين هما العرب العاربة ـ أو شعب قحطان ـ والعرب المستعربة ـ أو شعب عدنان الذين يرجع نسبهم الى اسماعيل بن ابراهيم (١). وهما يختلفان عن بعضهما اختلافات كبيرة من حيث النظام الاجتماعي واللغة والدين والاسماء وذلك تبعا لاختلاف أصلهما وبيئتهما (٢) .

وتناسل من عقب عدنان : معد الذى كان له اربعة أولاد هم : اياد ونزار وقنص وانمار . ولكن الفتنة ما لبثت أن وقعت بينهم فتفرقوا ولعل السبب الاساسى فى تفرقهم هو تكاثرهم المستمر بحيث وصلوا الى درجة أصبح المكان معها لا يتحمل مجموعهم فصار لزاما على البعض أن يرحلوا للبحث عن مأوى جديد .. وتلك هى سنة الحياة البدوية .

ومن نزار انحدر : ربيعة ومضر . ومن مضر تشعب : قيس عيلان والياس ، ومن قبائل قيس بنو غطفان ، التى من بطونها بنو عبس وفارسهم عنترة بن شداد .

وهكذا نجد أن الظروف الطبيعية لتلك البيئة الصحراوية هى التى قسمت أولئك البدو الى وحدات اجتماعية صغيرة أطلقوا عليها اسم «القبيلة» . فاذا تكاثر أفرادها حتى ضاقت بهم الارض انقسموا الى بطون أو افخاذ أو عشائر ، وكون كل منهم وحدة اجتماعية قائمة بذاتها ومستقلة عن غيرها استقلالا تاما مع ارتباطها بقبيلتها الأم ارتباطا معنويا أو نحوه .

والبدوى الذى ترتبط حياته بالكلأ والماء لا بد أن يتكالب عليهما ويتناحر حولها ، فاذا عز عليه الماء والكلأ خرج الى عرض الصحراء باحثا عن القوت فيصيد أو يصاد ، والا فالغارة والغزو لاغتنام ما يقيم الاود . لهذا كانت حياة البدوى دائما قتالا أو تأهبا لقتال ، ولهذا كانت القوة والشجاعة شرطا من شروط بقائه وعاملا من أهم العوامل التى تلعب دورا فعالا فى مجتمعه ، ولهذا أيضا كانوا يكرمون الشجعان ويتفاخرون بأعمالهم ويشيدون بذكرهم وذكر شجاعتهم (٣) . ومن هنا جاءت شهرة عنترة .

والبدو ـ أفراد القبيلة الواحدة ـ لا تجمعهم المصلحة المشتركة التى توحد بين أبناء الامة والوطن ، لان هذه المصلحة لا تلبث أن تضيق عليهم فتنقلب الى مصدر نزاع وخصومة بدلا من أن تكون رابطة عقد وجامعة شمل . لهذا كان لا بد لابناء القبيلة الواحدة من رابطة أخرى

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٨
(٢) العرب قبل الاسلام لجورجى زيدان ص ١٨٧
(٣) مروج الذهب ـ للمسعودى ج ١ ص ٢١١

تجمعهم وتربط بينهم . وقد وجدوا هذه الرابطة فى النسب ، ولذلك نجد أنهم عنوا بحفظ انسابهم وضبطها وردها الى الآباء الاولين والمبالغة فى استقصائها كما تفاخروا بها واعتمدوا عليها كل الاعتماد فى الفخر والمدح والهجاء . ويبدأ النسب عندهم بالعائلة «الوالدان والاخوة والاعمام » ثم الفصيلة التى تتألف من عدد من العائلات ، يليها الفخذ الذى يضم بعض القبائل » وهذه تنضم الى بعضها فتكون البطن ومن البطون تكون العمارة ، ومن العمائر تتألف القبيلة ، ومجموع القبائل هو الشعب .

من هذا يتضح أن الاصل فى العصبية عند العرب هو الابوة والامومة — أى الانتساب الى اب وأم كريمين نسبهما معروف ومتصل . فالأب هو الاصل فى الانتساب والام تقوده الى الخؤولة التى كان لها شأن عظيم عندهم . ولهذا فان العربى كان لا يلحق بنسبه الا من كانت امه حليلة من ذوات النسب . . قال الحجاج بن يوسف مفتخرا «لم تلدنى أمة بينى وبين آدم ما خلا هاجر » (١) وهذا الامر هو الذى أنشأ عقدة العقد لعنترة وكان عاملا ذا أثر قوى سواء فى تكوينه او فى مجرى حياته .

فابن الامة كان يعتبر عبدا بصرف النظر عن ابيه وعن اعترافه بوطء تلك الامة أو عدم وطئها . ومع ذلك فان هذا النظام لم يقف حائلا دون البارزين من العبيد — الذين يأتون أعمالا عظيمة أو تدعو الحاجة الى استلحاقهم والانتساب الى سادتهم من العرب الذين خلص نسبهم ، أو على الاصح الحاقهم بنسبهم ، مثلما حدث لعنترة . فالاستلحاق كان من توابع العصبية العربية ، وعن طريقه يمكن للعربى أن يلحق بنسبه عبدا أو اسيرا أو مولى ، وأن يسميه باسمه وبذلك يصبح كواحد من القبيلة له نصيب الحر وجميع حقوقه وعليه جميع واجباته ، كما أنه يرث ويورث مثله فى ذلك مثل الابن الصريح . (٢)

والدافع الى الاستلحاق — فى هذا المجتمع البدوى — غالبا ما يكون هو الرغبة فى استغلال الشخص الذى يريدونه اما لكسب مادى مثلما روى عن نصيب — المغنى المعروف — حينما اراد مواليه ان يلحقوه بنسبهم فأبى وقال لهم : « والله لأن أكون مولى لائقا احب الى من أن أكون دعيا لاحقا ، وقد علمت انكم تريدون مالى » (٣) . أو أن يكون الدافع الى الاستلحاق هو الرغبة فى الحصول على نصرة المستلحق

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ ص ٧١

(٢) الاغانى جـ ١٧ ص ٩٤

(٣) الاغانى جـ ١ ص ١٣٤

مثلما فعل معاوية بن ابى سفيان مع زياد بن ابيه ـ أو زياد بن سمية ـ فاستشهد خمارا من أهل الطائف أن أبا سفيان جاءه والتمس منه بغيا فأتاه بسمية فحملت منه بزياد وبذلك الحقه بنسبه وسمى بعدها بزياد بن أبى سفيان . (١) أو يكون الدافع الى الاستلحاق هو الحاجة الحقيقية للقبيلة الى هذا الذى ولد لاحد رجالها وكل ذنبه أن أمه كانت أمة وليست حرة ولكن أخلاقه وفعاله تدفع القبيلة الى الاعتراف به ورد حقه المسلوب اليه ، وهذا هو ما حدث لعنترة حينما اعلن شداد الحاقه بنسبه .

ومع ذلك فان الاستلحاق لم يكن يعيد الى الرجل الا حقوقه المادية والرسمية فحسب ، أما الحقوق الاجتماعية والنفسية فانه كان يفتقدها ويظل تحت تأثير المعاناه منها من ذلك انهم كانوا يطلقون عليه اسم « الدعى » ويتحاشونه الا فيما تقتضى الرسميات ، ويعيرونه باصله لاوهى الاسباب اوربما بلا سبب . وهكذا يعيش وسط القبيلة بعقده القديمة أو بعقدة جديدة قريبة الشبه من العقد القديمة .

ولعل السبب فى ذلك هو الحرية الشخصية التى كان يتمتع بها كل فرد من افراد القبيلة لا سيما حرية الراى وحرية القول ، وقد تصل هذه الحرية الى درجة انه يستطيع رفض ما اجتمع عليه رأى الاغلبية من ابناء القبيلة . (٢) ـ ولما كان العربى دائما يحتقر أبناء الاماء (٣) ، فمعنى هذا أن استلحاق الرجل لن يعفيه من هذا الاحتقار بل ربما زاد عليه شيئا من التحامل والحقد وكان سببا من اسباب مناهضته والتحرش به .

من هذا يتضح ان علاقة الفرد بالقبيلة كانت تنقسم الى قسمين متميزين ، أولهما ما كان يتعلق بالسياسة العامة لها ـ اى علاقتها الخارجية ـ وهنا كانت شخصية الفرد تكاد تختفى وتذوب باكملها فى القبيلة . هذه العلاقة هى التى كانت تضمن بقاء الفرد وتيسر معيشته وتحميه من الاعداء ، وأوضح مظاهرها تلك المقولة المتواترة بين القبائل « انصر اخاك ظالما أو مظلوما » ، وهذا هو ما عبر عنه ابو سفيان بقوله عن قريش : انا رجل منها ما فعلت فعلت (٤) كما كان أوضح قوانين هذه العلاقة اجتماع القبيلة كلها على دفع الدية اذا ما قتل احد ابنائها فردا من قبيلة اخرى .

(١) الكامل فى التاريخ ـ لابن الاثير جـ ٣ ص ٢٢٥

(٢) الدعوة الى الاسلام ـ لسير توماس أرنولد ـ ترجمة حسن ابراهيم حسن ص ٣٦

(٣) وفيات الأعيان ـ لابن خلكان جـ ١ ص ٣٢٠

(٤) كتاب المغازى ـ للواقدى ص ٢٠٠

اما داخل القبيلة فقد كانت حرية الفرد مطلقة ومكفولة ما لم يقترف اثما فى حق قبيلته ، فله مثلا حرية القول وحرية معارضة شيخ القبيلة بل واجماعها — وذلك فى الشئون الداخلية فحسب — ولكن اذا استقر رأى الجماعة على امر معين فى شأن من شئونها الخارجية — كغارة ، اورد غارة ، او تحديد علاقة بالجيران — فان كل فرد من افراد القبيلة ملزم بتنفيذه وتابع لها فى كل ما تأتيه . وله كذلك حرية تامة فى طريقة معيشته وفى تنقله ، وفى عقيدته ، وفى تجارته فلم تكن هناك اية قوانين تلزم بمعيشة معينة او بعقيدة معينة ، كما كانت القبيلة لا تتدخل فى تجارة ابنائها وفى دخلهم ومعاملاتهم ، ولكن اذا ما اقترف الفرد امرا من شأنه تعريض سلامة القبيلة للخطر او تهديد وحدتها — كأن قتل فردا من افراد قبيلته — فانه يعد بذلك مجرما وتطارده القبيلة للقصاص منه ، او تخلعه عنها وتتركه رحيدا وسط الفلاة ليفنى » فان كتبت له الحياة انضم الى عصابة من عصابات الصعاليك ، او زاد حظه قليلا فتستلحقه قبيلة من القبائل .

هذه الحريات الشخصية كان عمادها المساواة التامة بين جميع افراد القبيلة ، فلا سيد ولا مسود ولا طبقة تعلو أخرى ، وانما الجميع سواسية لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات ، حتى شيخ القبيلة كان لا يزيد عن أى فرد من أفراد قبيلته ، فهو لا يحتجب ولا يخاطبه أحد بالقاب التعظيم والتفخيم ، وانما ينبع احترامهم اياه لكبر سنه ورجاحة عقله وقيامه بالفصل بينهم فى قضاياهم الداخلية (١) ... فهو « أى شيخ القبيلة — لا يتوج ولا يحرص على ألقاب التفخيم ولا يحتجب عن عشيرته ولا يستأثر بالرأى فى الامور العظام ، فليست سلطته مطلقه . » « ٢ »

والنظم الاجتماعية تختلف من أمة لأخرى اختلافات كبيرة تبعا لاصل السكان وطبيعة البيئة وظروف الحياة ، فقد أثبت البحث فى حياة الأمم أن النظام الاجتماعى للامة هو فى الحقيقة عنوان مشاعرها واحتياجاتها الموروثة . ولما كانت الجزيرة العربية من أكثر بلاد العالم جدبا ، وكان أهلها مقيدين بحدودها لا مناص لهم من الاكتفاء بما تنتجه أرضهم القاحلة ، لذلك فان نظامهم الاجتماعى أحل الغارة والغزو باعتباره مصدرا طبيعيا من مصادر الرزق ، ورفع مفهومه بحيث أصبح بالنسبة لهم يوازى مفهوم الحروب الدولية بالنسبة للامم الحديثة ..

---

(١) ملوك العرب لامين الريحاني حـ ١ ص ٢٦

(٢) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية — للدكتور طه حسين ص ٨٧

فالغارة والسلب لم تكن عملا قانونيا فحسب ، وانما هى عمل بطولى ومصدر شرف ومجال مفاخرة .

وبقدر ما كان الفوز فى الغـارة مفخرة ، كانت الهزيمة فيما مذلة ومجلبة للعار فضلا عن ضياع مصادر الحياة الاساسية من اخذ الابل والانعام وسبى النساء والاطفال . وهذا العار لا يمحوه الا القصاص والاخذ بالثأر . فالبدوى المهزوم لا يعيش الا على أمل واحد هو رد تلك الهزيمة والتمكن من غريمه مهما طال الزمن . لذلك كانت الحرب هى المحور الاساسى للحياة البدوية باعتبارها أول ضرورة من ضروريات تلك الحياة . وكانت فلسفتهم تجاهها أن اغز انت قبل أن يسزوك غيرك وكن دائما على استعداد لدفع محارب أو رد مغير .

وكان من مظاهر ذلك النظام الاجتماعى أنه أصبح من العسير على الفرد أن يعيش بنفسه ، فالانسـان الذى يعيش منفردا فى مثل هذه البيئة مصيره الى زوال عاجل » ولا يزول ضعفه هذا الا اذا انضم الى غيره ليكونوا جماعة هدفها الاول هو العمل على حفظ الحياة لاعضائها ، وبقدر ما يكون من تضـامن بين افراد هذه الجماعة تـكون عداوتها وتربصها بغيرها من الجماعات .

وعلماء الانساب يقسـمون الطبقات الاجتمـاعية فى البيئة العربية الجاهلة الى عدة اقسـام يندرج بعضها تحت بعض هى فى معظمها : الجماهير — أى مجموعة الشعوب — وبعد الشعب تأتى القبيلة فالعمارة فالبطن فالفخـذ فالعشيرة فالفصيـلة فالرهط الذى هو أسرة الرجل خاصـة وقد قال البعض : ان الشـعوب هم العجم بينما القبائل هم العرب . وقد سميت القبيلة قبيـلة لتقاربها وتناظرها وان بعضـها يكافىء بعضا . وقيل لها عمائر من الاعتمار والاجتمـاع ، وقيل لها بطون لانها دون القبائل ، والافخاذ لانها دون البطون ، ثم العشيرة وهى رهط الرجل ثم الفصيلة وهى اهل بيت الرجل خاصة . « ١ »

من هذا نرى ان الرهط والاسرة والفصيلة تكاد تكون كلها بمعنى واحد وتدل جميعا على اهل البيت وان الفرق بينهم هو اختلاف من حيث الحجم فقط ، فالرهط مـا دون العشرة والاسرة فوق ذلـك والفصـيلة اكثر من هذه وتلك ، وقد أعتبر العرب ان هذه الوحـدة العائلية هى اصـغر وحداتهم الاجتمـاعية . اما العشيرة والفخذ والبطن والعمارة فتكاد كلها تتشابه كذلك لتدل على اصغر وحدة من وحداتهم السياسية . وقد عرفوا العشيرة بقولهم : « هم الذين يتعاقلون

(١) العقد الفريد — لابن عبد ربه جـ ٢ ص ٤٥

الى أربعة آباء . » (١) ــ اما القبيلة فمرتبة أكبر وان كانت لا تختلف عن العشيرة الا من حيث الحجم ودرجة البعد عن الاصل المشترك (٢) .

والواقع أن محور الحياة الاجتماعية الجاهلية يدور فى معظمه حول العشيرة لا حول القبيلة . فالعشيرة هى الاصل ، ولم يظهر النظام القبلى بعد ذلك الا عندما اضطرت العشائر الى التقرب من بعضها لضرورة حربية او اقتصادية . ومع ذلك فقد ظلت العشيرة هى الاصل والاساس ، كما ظلت محتفظه بذاتيتها وكيانها داخل النظام القبلى اما الاسرة فلم تعد تسهم فى الحياة الاجتماعية الا بقدر يسير حيث ان كيانها الفعلى قد ذاب فى العشيرة .

وكان يطلق على العشيرة كذلك كلمة « الحى » ، وهى كلمة تدل على ذوى القربى ــ اى الجماعة التى يمت افرادها الى بعض بعلاقة الدم ــ وهذه الكلمة مشتقة فى الاصل من الحياة لاعتقادهم ان لاعضاء الحى حياة واحدة بسبب ما يجرى فى عروقهم من دم واحد . وكان الحى يتكون من عدة بيوت يطلق على كل منها اسم « الدار » . فلما كثرت هذه البيوت وامتدت اطرافها تنوسى المعنى القديم لكلمة «حى» واصبحت تدل على الاقليم او مكان السكنى ، واصبحت العشيرة عبارة عن جماعة اقليمية تتالف من عدة بيوت أو أسر وتقطن مكانا واحدا هو « الحى » (٣) .

وكان لكل حى ــ او مجموعة من الاحياء ــ مرعاها الخاص بها ، وماؤها الخاص بها الذى لايسمح لغريب بوروده او الاقتراب منه . وكان الحى يعمل كجماعة واحدة مترابطة نظرا لظروف البيئة الصحراوية، فكان يرحل سويا ويقاتل سويا (٤) ، وكان جميع أعضائه متساوين فى الحقوق والواجبات ، وكان اقدس تلك الواجبات المطالبة بالثأر للقتيل والتضامن عند دفع الدية لقاتل .

ولما كانت العشيرة هى جماعة اقليمية اوجدتها الظروف البيئية القاسية والمعيشية الصحراوية الصعبة ، لذا وجب عليها ان تواجه امرين متعارضين : اولهما الدفاع عن النفس وهذا يتطلب كثرة فى عدد افراد العشيرة اذ كلما ازداد عددهم كلما ازدادوا مناعة وقوة ، ولكن كيف تفى البيئة الفقيرة بحاجات العشيرة من الماء والكلأ ؟ ان هذا ــ

---

(١) نهاية الارب ــ للنويرى جـ ٣ ص ١٦١

(٢) Smith Kinship p.5

(٣) الاغانى جـ ١٨ ص ٢١٠

(٤) الاغانى جـ ٤ ص ١٦٣

ولا شك ــ يدعو الى ان تكون العشيرة اقل ما يمكن عددا حتى يستطيع الحى ان يستوعبهم ويفى بحاجات معيشتهم . لهذا فان عـدد افراد العشيرة كان يتراوح بين ثلثمائة وستمائة فرد وكثيرا ما يبلغ الالف . ولعل الالف كان هو العدد المناسب للعشيرة حيث نجد ان لفظة «الف» فى العبرية هو اللفظ المستعمل للدلالة على العشيرة . (١) ــ فاذا نمت العشيرة وزاد عددها عما يستطيع الحى ان يقدمه من ضروريات الحياة كان من اللازم ــ بحكم الضرورة الاقتصادية ــ ان تنقسم الى جماعتين او اكثر ، وان ترحل احدى الجماعتين ان هونا وان قسرا ، وتبحث لها عن حى جديد وبذلك تصبح كل جماعة عشيرة مسـتقلة لها ظروفها ومصالحها الخاصة بها والتى ربما تعارضت مع مصالح أختها الاولى فتتنازعان وتتحاربان . وهذه الظاهرة سائدة ومطردة فى حياة العرب الاجتماعية ، نجدها بين الكثير من الاخوة مثل الاوس والخزرج ، وبكر وثعلب ، ومثل عبس وذبيان . فعلى الرغم من ان كل زوج منهما كان فى الاصل يكون حيا واحدا الا انهما ما ان وقفت بينهما ظروف الحياة وافترقا حتى وقع السيف بينهما ودارت عليهما رحى الحرب . (٢)

وكان يرأس العشيرة شيخ يختار من بين افرادها غالبا مايكون اكبرهم سـنا واكثرهم مالا واعظمهم نفوذا واجـدرهم بكسـب الاحترام الشخصى . (٣)

والتخطيط العام لمواضع الحى (كما ذكره كوست (٤)) : هو ان تكون خيمة الرئيس فى الوسط وتليها خيام ابنائه المتزوجين ، فخيام الاقرباء ، فخيام الخدم . وتكون الافراس امام الخيام لتكون حاضرة عند اول اشارة ، ثم تليها مرابط الابل والضأن والماعز وتصف الجمال حول خيمة الحرس على شكل دائرة ، وتنصب خيام الارصاد الصغيرة بعيدة عن المخيم قليلا للرقابة ليلا .

اما داخل الخيمة فانه الى جانب المتاع البسيط الملائم للحياة البدوية لابد أن تحتـوى كل خيمة على أسلحة ورمح ، فالحـروب هى عمـاد حياتهم وهى المحور الاول الذى يدور حوله كل سلوكهم ، فهى بذلك العامل الاساسى فى تكوين المجتمع العربى الجاهلى ، لان البدوى دائما

---

(١) النظم الاجتمـاعية والسـياسية عنـد العرب ــ لمحمود جمعة ص ١٤٦

(٢) راجع أيام العرب فى الجاهلية والعقد الفريد

(٣) الدعوة الى الاسلام ــ لسـير توماس أرنولد ــ ترجمـة حسن ابراهيم حسن ص ٣٦

(٤) حضارة العرب ــ لليبون ص ٣٤٥

اما مغير او معرض للاغارة عليه ، بل انه ربما اقدم على الحرب تلقائياً وبحكم العادة ، « فاذا لم يجدوا من يقاتلونهم قاتلوا انفسهم . ولعل خير ما يمثل ذلك قول القطامى : —

فمن تكن الحضارة أعجبته ... فأيّ رجال بادية ترانا
أغرن من الضِّباب على حلال ... وضبّة أنه مَن حان حانا
أحياناً على بكر أخينا ... إذا مالم نجد إلا أخانا[1]

والبدوى دائما وابدا صاحب ثأر يسعى وراءه ، او انه مطلوب الثأر منه وعليه ان يدافع عن نفسه . وهذا الثأر لا يموت مهمتا طال الامد ، فحروب الثأر دائرة تذكيها اجيال بعد أجيال وتمر عليها السنون التى قد تربو على الاربعين مثلما حدث فى حرب البسوس بين بكر وتغلب ، وفى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان . (٢) — ثم هو بعد كل ذلك وجها لوجه امام وحش الصحراء الكاسر الذى يشاركه سكنى الجزيرة والذي عليه ان يرده عن غنمه وعن نفسه ، فاذا ما جاع سعى وراء ذلك الوحش يطارده ويصطاده ويتخذ منه قوته وقوت اولاده .

هذه الحياة المصبوغة دائما وابدا بالدم والتى لامكان فيها الا للقوى الذى يعرف كيف يدافع عن نفسه اذا هوجم ، وكيف يهجم اذا مادفعته ظروف الحياة الى ذلك ، لا بد ان تكون الصفة البارزة فيها هى اجادة الحرب واتقان اساليب القتال ، وان تكون الفروسية هى المثل الاعلى والهدف الاسمى الذى يسعى اليه الجميع ، وان تكون الشجاعة هى قمة الصفات لا سيما اذا ما واكبها قوة احتمال وحسن تبصر . ولهذا فان طرق التربية عند هؤلاء القوم كانت تقوم على اساس واحد لا اساس سواه هو تعليم الصغار طرق الحرب والقتال وتنشئتهم على الشجاعة والاقدام ، وتهيئتهم لاحتلال مكان الفارس فى مجتمعهم وقد اقر الاسلام هذه السياسة التربوية واستمر عليها ودعمها بكثير من الاحاديث النبوية والاقوال المأثورة .

هذه التنشئة الحربية كانت وقفا على ابناء العرب ذوى النسب ، اما العبيد فعملهم الاساسى هو الرعى والخدمة وليس لهم ان يتدربوا على القتال ، بل أن ذلك كان محرما عليهم لان الدربة على القتال تتطلب جوادا ، والفرس فى الجزيرة العربية كان شيئا عظيما لا يرقى اليه العبيد . ولهذا فان كاتب سيرة عنترة جعل بطله يتدرب على القتال

---

(١) فجر الإسلام — لأحمد أمين جـ ١ ص ١٠ — ١١
(٢) راجع أيام العرب فى الجاهلية والعقد الفريد جـ ٣

خفية وهو بعيد فى الصحراء ، وحينما بلغ امره مولاه شداد عاقبه على ذلك عقابا شديدا .

والحرب فى ذلك المجتمع كانت محصلة للانسان والحصان والسلاح؛ لهذا كان اهتمامهم بالفرس يعادل اهتمامهم براكبه . فكما ان الفارس يجب ان يكون عربيا اصيلا عالى النسب كذلك الحصان يكون معما مخولا معروف الاباء موصول النسب ، وكما كانت افضل وجباتهم هى شرب اللبن الغبوق فى الصباح فان الفرس له نصيب من هذا اللبن كذلك . وكما كانوا يتغنون بأنفسهم فى أشعارهم ويفاخرون بشجاعتهم كانوا أيضا يصفون أفراسهم ويمدحون شجاعتها ويتغنون بمحاسنها . وكما كانت الحرب تندلع اذا ما اهين عربى او مست كرامته كذلك كان القتال يدور بسبب الخيل مثلما حدث للفرسين « داحس والغبراء » . وكما ان هناك مشاهير من فرسان العرب فان هناك كذلك مشاهير من أفراسهم حفظ لنا الرواة أسماءها وأنسابها وافعالها . (١)

ولهذا وجدنا ان كاتب سيرة عنترة لا يرضى بان يركب فارسه فرسا عاديا ، وانما هو يركبه « الأبجر » الذى أبوه «واصل» وأمه «النعامة» ويجعله يدفع مقابله كل ما غنمه فرسان عبس من اسلاب واموال ، بل ويضيف الى ذلك أن عنتره نسى عشقه لعبلة بذلك الحصان (٢) . وليس كاتب السيرة ــ فى ذلك ــ موغلا فى المبالغة اذ من المعروف ان الجواد العادى كان يعادل خمسا وعشرين ناقة (٣) ، فما بال هذا الجواد المعجز المؤصل ؟

لكل ذلك كان الفارس العربى يضع فرسه فى المكان الاول بل وكان يقدمه على نفسه فى كثير من الاحيان ، وكان يطلق عليه من الاسماء ماله دلالة على المكانة والاعزاز ويسومه حتى لايختلط نسبه ، ويعلمه بعلامات تبرزه ويعرف بها . وقد بلغ من وثوق الصلة بين الخيل واصحابها ان الفارس كثيرا ما كان يعرف بفرسه لا بقسماته وزيه (٤) وكان العربى خبيرا بالافراس يعنى بها العناية كلها : روى ان عمر بن الخطاب قال لعمرو ابن معد يكرب : كيف معرفتك بعراب الخيل ؟ قال : معرفة الانسان بنفسه واهله وولده (٥) وقد حفظت لنا كتب الادب والتاريخ

---

(١) راجع العقد الفريد جـ ١

(٢) سيرة عنترة بن شداد مجلدا ص ١٣٦

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ص ٣٧١

(٤) الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى ــ للدكتور عبد الحميد يونس ص ٨٩

(٥) راجع الفهرست لابن النديم

الكثير من اسـماء الخيل العربية الاصيلة كما افلضت فى شرح صـفاتها وما هى عليه من خصال والفوا العديد من الكتب عنها بخاصة (١)

والركن الثالث من اركان هذا المظهر الاجتماعى من مظاهر البيئـة الجاهلية هو السلاح الذى لم تكن تخلو منه خيمة عربى والذى كان يحظى من صاحبه بالعناية الفائقة . وكان البدوى يقضى الوقت فى تثقيف اسلحته وصقلها واعدادها للقتال كما كان يفاخر بجودة صنعها وصلابة نصلها . وقد فطن كاتب سيرة عنترة الى هذه الناحية فسلم بطله سيفا صقيلا مصنوعا من شهاب وقع من السماء ولم يقنع بان يحمل عنترة مهندا أو مشرفيا عاديا مع أن هذه من أشهر اسياف العرب المستوردة من الهند ومشارف اليمن) .

والى جانب السيف الذى كان يعتبر السلاح الاول للفارس العربى وجدت الرماح « الخطية واليزينية » (نسبة الى ذى يزن الملك) . فالسيف كان للمبارزة والقتال عن قرب اما الرمح فللكر والمباغتة . وكما كان الفارس يتدرب تدريبا كاملا على استعمال السيف سواء وهو راكب او هو راجل ، كان عليـه كذلك ان يتدرب تدريبا آخـر على استعمال الرمح . وربما كانت تدريبات هذا الاخير اشق من تدريبات السيف حيث يتطلب استعماله مهارة خاصة فى التصويب .

اما الرمى من بعيد فبواسطة القسى والسهام . وكان اجود انواعها ما اطلق عليه اسم « العصفورية » . واستعمالها يتطلب اجادة التصويب وتحديد موقع الهدف دون رؤيته اعتمادا على السماع والتقدير . وهذه هى الطريقة التى اختارها مؤلف السيرة لينهى بها حياة بطله بواسطة سهم يصيبه من يد الاسد الرهيص (فاقد البصر) صوبه اليه عن طريق السماع والتقدير فاصاب منه مقتلا .

تلك هى اجهزة القتال التى كان العربى لا يفارقها ولا يدخر وسعا فى الاحتفاء بها وتقريبها من نفسه حتى ان كثيرا منهم كان يتصـور أسلحته وكأنها كائنات تنبض بالحياة تعى وتحس وتستطيع التمييز والتعرف على الأعداء وتتأثر بالفاظ الحماس وتستجيب للحث على الاقدام (٢) .

وهناك اجهزة اخـرى كانت تسـتعمل للدفاع يأتى فى مقدمتها الدرع وهو ذلك الرداء الحـديدى الذى يلبسه الفـارس ليقيه الطعنات . وكان لبس الدرع ليس من العيوب التى تؤخذ على الفارس

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٤٧
(٢) بلوغ الارب للالوسى جـ ٢ ص ٣٥٤ و ٣٥٧

العربى وان كان التخلى عنها يعتبر منتهى الشجاعة وقمة الفروسية .
أما الترس فقميص مصنوع من الجلد وكان يسمى « الدرقة أو المجن » .
أما رأس الفارس فيغطيها بالبيضة أو المغفر كما كانت تسمى .

هذه الأجهزة الحربية هى عدة العربى وعتاده الذى يقيم عليه كل حياته حتى ان زيد بن حاتم يقول فى ادرعة اشتراها : « اننى لست اشترى أدرعا وانما اشترى أعمارا (١) » وتلك العدة لا غنـاء فيها اذا لم يحسن العربى استعمالها ، فالسيف لا يبتر الا باليد التى تحمله . قال العتبى ان عمر بن الخطاب بعث الى عمرو بن معديكرب أن يبعث اليه بسيفه المعروف باسم « الصمصامة » ، فبعث به اليه ، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب اليه فى ذلك ، فرد عليه : انما بعثت الى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث بالساعد الذى يضرب به . (٢) وحين استعمال القوس تعتبر المهارة فى اصابة الهدف هى العامل الأول ، وكان المتخصصون فى ذلك يسمون « رماة الحدق » لما لهم من قدرة فائقة فى التحكم والسيطرة على أقواسهم واصابة الأهداف بها ... يروى ان رجلا خرج يقطع الصحراء فى بعض أمره فلما أصحر لحق به اعرابى راكب على حمار معه قوس وكنانة فسارا معا ، وعنت لهما ظباء ، فقال له الاعرابى : أى هذه الظباء أحب اليك ، المتقدم منها أم المتأخر فأذكيه لك . قال له : المتقدم . فرماه فخرمه بالسهم ، فاشتويا وأكلا فاغتبط الرجل بصحبة الاعرابى . ثم عن له زفة قطا فقـال : أيتها تريد فاصرعها لك ؟ فأشار الى واحدة منها ، فرماها فاقتصدها ثم اشتويا وأكلا . (٣)

وهكذا كانت الحرب هى العامل الأساسى الاول فى تكوين المجتمع العربى فى الجاهلية . فهى المحور الذى تدور عليه حياة الناس ، وهى المصدر الذى منه يرتزقون وعليه يعتمدون ، وهى الدستور الذى يسود العلاقات بين القبائل والأفراد ، وهى اللغة التى يفهمها كل عربى والتى يتكلمها مع غيره لسبب ولغير ما سبب .

أما العامل الثانى فى تكوين ذلك المجتمع فهو المرأة ووضعها فيه ؛ ولعل اهتمامنا بها يزداد اذا ما عرفنا أنها كانت العامل الأساسى الاول فى تكوين شخصية عنترة وتطويرها ورسم اتجاهات سيرها ، وتحديد المنحى الذى نحا اليه فارسنا بحيث لا نستطيع تفسير كل ذلك الا على اساس من معرفة مكان المراة العربية فى المجتمع القبلى .

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٥٣
(٢) السابق .
(٣) العقد الفريد جـ ١ ص ٥٥

وأول ما يقابلنا من ذلك هو علاقة الرجل بالمرأة ، أو بمعنى آخر طبيعة الزواج وكيفية بناء الأسرة التى على أساسها يبنى المجتمع . من الثابت أن الانتساب الى الاب كان هو النظام السائد بين عرب الجاهلية ، فكان الأب هو رأس الاسرة المتصرف فى جميع شئونها وأمورها ، المهيمن على كل أفرادها ، اليه ينسب الأبناء وأبناء الابناء حتى أن القبيلة كلها كانت ترجع فى نسبها الى الجد الاكبر لها . وتبعا لذلك كان العربى القديم يظن أن كل شعب منحدر من أب واحد ينتسب اليه ، فكان « الأشوريون » فى نظره منحدرين من رجل يدعى « آشور » ، والكنعانيون من رجل يدعى كنعان ، والمؤابيون من مؤاب ، والاسرائيليون من اسرائيل (١)

ويختلف المؤرخون وعلماء الانثروبولوجى حول هذا النظام ، ففريق يقول بأنه الأصل الذى عرفه العرب وآخرون يدعون أنه تطور طبعى للحياة الاجتماعية البدائية التى لابد أن تكون قد بدأت بنظام الانتساب الى الأم وأن تقدم الجماعة أدى الى تحول هذا النظام الى قيام العصبية الابوية . وسواء صح رأى هؤلاء أو أولئك فمن الثابت أن العرب عرفوا نظام الانتساب الى الأم وأنهم مارسوه بقدر طفيف يدل على انه كان شذوذا وليس قاعدة ، فعلماء الانساب يذكرون أن العرب كانوا يطلقون على ولد الياس بن مضر بن نزار (وهم مدركة وطابخة وقمعة) اسم « خندف » نسبة الى أمهم خندف . (٢) وقد افرد مؤرخو الأدب عددا من الرسائل عمن نسب الى أمه من الشعراء . (٣) ولكن يبدو أن هذا الاجراء الشاذ كانت له دوافع اجتماعية قاهرة اوجدتها نظم الزواج فى الجاهلية . ومع ذلك فان البدوى كان يمقت هذا الوضع ويأنف من قبوله فقد حدث أن خطب عمرو بن حجر الى عوف بن محلم الشيبانى ابنته أم اياس ، فقال : نعم ، أزوجكها على أن أسمى بنيها وأزوج بناتها . فقال عمرو بن حجر : أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا ، وأما بناتنا فننكحهن اكفاءهن من الملوك ، ولكنى أصدقها عقارا فى كنده وأمنحها حاجات قومها لا ترد لاحد منهم حاجة . فقبل ذلك منه أبوها وأنكحه اياها . (٤)

---

(١) النظم السياسية والاجتماعية عند العرب — لمحمود جمعة ص ٧٩

(٢) نهاية الارب — للنويرى ج ٢ ص ٢٦٢

(٣) ورد ذكرها فى كتاب الاصابة لابن حجر العسقلانى والفهرسته لابن النديم

(٤) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٢٣

من ذلك نرى أن أساس قيـــام الأسرة فى الجاهلية كان الزواج العادى الذى يذهب فيه الزوج الى أب العروسة خاطبا ، فان قبل دفع اليه المهر وحمل زوجته الى داره وأصـبحت فردا من افراد عشيرته هو وسـمى أبناءه باســمه . وهذا هو الســبب الذى دفع بعض المستشرقين الى اطلاق اسم « الزواج بالشراء Marrige by purchase على هذا النظام باعتبار أن المهر ان هو الا نوع من أنواع التعويض . فالعرب كانوا ينظرون الى الفتاة نظرتهم الى السلعة القيمة التى تضيف الى مال أبيها الكثير ، ومن أجل هذا كانوا يسمونها « النافجة » وكانوا يحيون الرجل اذا رزق ابنة بقولهم « هنيئا لك النافجة » (١)

ولعل هذا يفسر لنا ظاهرتين اجتماعيتين هامتين وجدتا فى المجتمع القبلى فالعرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من قبيلة أجنبية ، وكانوا يختارون لهن أفضــل أبنــاء القبيلة وأوسعهم ثراء ، وســموا ذلك « بالكفاءة » وعــدوا من الشرف الا تعطى المرأة الا للكفء حتى ان قيس بن زهير قال للنمــر : « ان لم تجــدوا الاكفــاء لبنــاتكم فخير ازواجهن القبور » (٢) ولهذا ايضا كانوا يغالون فى المهر ويجادلون فى طلب المزيد ، فاذا تقدم للفتاة أكثر من خاطب كان أساس المفاضــلة الوحيد بينهم هو ارتفاع المهر . وربما كانت المبالغة فى المهر ضربا من ضروب التعجيز حينما لا يستطيع الأب اظهار الرفض الصريح لسبب أو لآخر مثلما نجد فى قصة عنترة مع مالك ــ أبى عبلة ــ وتعسفه فى طلب مهر ابنته منه . وكان العرب كذلك يرفضون رفضا باتا تزويج بناتهم للموالى ، وكانوا يعيرون من يفعــل ذلك ، وكثيرا ما كان المعير يعترف صراحة بأن دافعه هو طلب المال وارتفاع قيمة المهر (كما فى قصة خولة بنت مقاتل بن قيس) (٣)

فالاسرة العربية اذن كانت قائمة على أساس نظام الزواج العادى، وكما كان هذا الزواج يتم برغبة الرجل وبناء على طلبه فان التحلل منه كان كذلك يتم برغبة الرجل فيقع الطلاق لمجرد مشيئته وبكلمة منه ، ولكن عليه فى هذه الحالة أن يقدم من الاسباب ما يقنع أهل الزوجــة والا وقع السيف بينهم ، فان عددا غير قليل من أيام العرب كان سببه المباشر وقوع طلاق أو انفصال بين زوجين من قبيلتين مختلفتين .

وكما أباح هذا النظام الطلاق ، اباح كذلك تعدد الزوجات . واغلب الظن أن ذلك كان لحاجات بيئية فرضتها طبيعة حياة البدوى فى تلك

---

(١) فى القاموس : النافجة هى البنت لأنها تعظم حال أبيها بمهرها
(٢) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٤٤
(٣) الكامل للمبرد جـ ١ ص ١٨١ والعقد الفريد جـ ٢ ص ٢٤٤

الصحراء ، أهمها الرغبة فى زيادة النسل وكثرة الابناء الذين هم عماد قوى من عمد الحياة القبلية ، ولم يكن دافعه فى معظم الحالات هو مجرد الانغماس فى الشهوة والاغراق فيها ، فكثيرا ما كان الزوج يزف الى زوجة ثانية بناء على رغبة زوجته العاقر وبمساعدتها . ويقدم لنا «لوى» فى كتابه الجماعة البدائية سببا آخر لتعدد الزوجات هو أن المرأة فى كثير من الاحيان كانت تدفع زوجها الى الاقتران بأخرى لشدة رغبتها فى طرح جزء من أعباء واجباتها المنزلية على عاتق المرأة الجديدة(١) وربما كانت لها اسباب سياسية مازالت قائمة حتى الآن منها مجرد الرغبة فى المصاهرة لتوفيق بين جانبين أو للحصول على القوة أو الرغبة فى عقد حلف .

والى جانب تعدد الزوجات كان يوجد فى المجتمع الجاهلى نظام الاماء وما ملكت اليمين . ولعل سبب وجود هذا النظام هو ما كان لزيادة النسل من أهمية كبرى عندهم ، فالزوجة كانت اذا آنست من نفسها عقما آثرت أن يدخل الزوج بأمتها على أن يتزوج من أخرى ، لانها تعلم أن الأمة لن تطمع قط الى مكان الزوجة ولن تنازعها أوضاعها الاجتماعية التى تتمتع بها ، أضف الى ذلك أن تعدد الزوجات يعتبر من الناحية الاقتصادية عبئا يثقل كاهل الرجل بحيث لا يستطيع حمله الا الاغنياء فى حين كان الاحتفاظ بعدد من الاماء والجوارى — على قلة نفقته — ينيل الرجل مآربه الى جانب توفير الايدى العاملة فى البيت وفى خارج البيت .

وكان من عادة العرب فى الجاهلية أسر النساء فى الحروب والغزوات . وكانوا يتزوجوهن قصرا لان سبى النساء هو أحد الاغراض الرئيسية للحرب والغارة . والمرأة التى تؤخذ فى السبى كانوا يطلقون عليها اسم «النزيعة» لانها انتزعت من أهلها وفصلت عنهم . والنزيع ولد الاسيرة ، فاذا ولدت الاسيرة هجينا لم يعترف به ولا ببنوته ولا يورث وانما يعامل معاملة العبيد . ويعتقد البعض أن الزواج بالاسر يرتبط ارتباطا وثيقا بنظام الزواج الخارجى الذى يتطلب من كل فرد من أفراد القبيلة أن يبحث له عن زوجة خارج القبيلة من غير أهله وذوى قرباه لاعتقادهم أن أبناء السبايا أصلح واقوى . قال الاصمعى فى ذكر النساء : بنات العم اصبر ، والغرائب أنجب ، وما ضرب رؤوس الابطال كابن الاعجمية (٢) — وقال حاتم الطائى :

وما أنكحونا طائعين بناتهم ولكن خطبناها باسيافنا قسرا

---

(١) Lowie R. : Primitive society, p. 40

(٢) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٣٢

فما زادها فينا السباء مذلّة ... ولا كلّفت خبزاً ولا طبخت قدراً
ولكن خلطناها بخير نسائنا ... فجاءت بهم بيضا وجوههم زهرا
وكائن ترى فينا من ابن سبية ... إذا لقي الأبطال يطعنهم شذرا
ويأخذ رايات الطعان بكفّه ... فيوردها بيضا ويصدرها حمراً(١)

وهكذا نجد أن نظام زواج الاماء وزواج الاسارى كان لهما أكثر من سبب اجتماعي واقتصادي وحربي مثله في ذلك مثل تعدد الزوجات . فالبيئة الطبيعية هي التي فرضت تلك النظم وأمثالها لتلافي حاجاتها وحاجات أهل العصر . ومع ذلك فان الكثيرين كانوا لا يقرون تلك النظم أو يأنفون منها . فبعض الآباء كان يشترط على الزوج الا يقترن بغير ابنته أو الا يقرب الجوارى والاماء . (٢)

من هذا يتضح أن المجتمع النسائي الجاهلي كان يتكون من طبقات ثلاث : أولها طبقة الحرائر ــ أو بنات العائلات ــ وتلك هي التي يتزوج منها العربي زواجا موثقا ويذهب اليها خاطبا بعد أن يتأكد من جمالها وحسبها ونسبها وربما مالها كذلك ، وهو في نظير ذلك يدفع المهر الوفير ثم يحملها الى قبيلته ليفتح لها منزلا ويبني بها عائلة ، والطبقة الثانية هي طبقة السبايا ، وهؤلاء يبعن في الاسواق ويقمن ــ الى جانب الاستمتاع بهن وانجاب الاطفال ــ بخدمة المنزل والقيام على اوازمه وأداء بعض الاعمال اليدوية من غزل ونسج . وقد يظن أن هذه الطبقة مكونة في معظمها من أجنبيات كان يجلبهن تجار الرقيق لبيعهن في أسواق مكة وغيرها ، ولكن الواقع يدل على أنهن كن عربيات أو على الاقل كانت نسبة العربيات بينهن أكثر من نسبة الاجنبيات ، فحياة العرب كانت قائمة على الغزوات والحروب الداخلية أكثر من الخارجية وكانت هذه الغزوات تسفر عن عدد كبير من السبايا اللائي يعتبرن أسرى وملكا لليمين ويحل وطئوهن كما يحل بيعهن . فليس غريبا اذن ان يكون قوام هذه الطبقة من العربيات ، وليس غريبا كذلك أن يختلفن اختلافا كبيرا ــ من حيث الحقوق والواجبات ــ عن الطبقة الاولى ــ طبقة الزوجات ــ .

أما الطبقة الثالثة فهي طبقة الاماء ، وهؤلاء عليهن القيام بالاعمال الشاقة التي يقوم بها عادة العبيد وأهمها رعي الاغنام والابل ، ثم

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٤٤
(٢) شرح الحماسة للتبريزي ص ١١٩٠

الاعمال المنزلية المجهدة كاعداد الطعام وطحن الغـــلال وجلب الماء . وبطبيعة الحال لم يكن لدى هؤلاء الاماء من المؤهلات الجسدية مايرفعهم الى درجة الســـبايا ومع ذلك فانه كان من الجائز وطؤهن مرة — أو مرات — تحت ظروف متحكمة وليس بصورة منتظمة مثل السبايا .. هذا فضلا عن أن السبية كانت وقفا على سيد واحد ، أما الامة فكانت مشاعا لكل المغيرين ، ولهذا فان الاعتراف بابن السبية كان أمرا طبيعيا مسلما به ، بينما كان الاعتراف بأبنـــاء الاماء أمرا لا يقره العربى ولا يجيزه ...

وهذه الطبقة هى التى كان معظم أفرادها من غير العرب ، بل ومن السودان والحبشة على وجه الخصوص ، وان كان هذا لا يمنع وجـود عربيات بينهن . ونحن وان كنا قد فرقنا تفرقة واضحة بين طبقـة السبايا وطبقة الاماء الا أنهما فى الواقع يتداخلان ببعضهما تداخلا كبيرا اذ كان مجرد غضب الرجل أو رضـاه كفيلا بنقـل المرأة من احدى الطبقتين الى الاخرى ، كما كانت هناك حالات بين بين أى لسن بالاماء ولسن بالسبايا وانما هى شىء وسط بينهما ، وربما يجمعهما معا .

قبيلة بني عبس

«عبس بن بغيض» بطن عظيم من غطفان بن قيس بن عيلان بن مضر من العدنانية ، سكن نجدا وحـــدد صاحب «معجم ما استعجم» منازلهم بأنها بين الابانين والنقرة ومادان والزبدة . (١) «والابانان جبلان غربى القصيم يسمى أحدهما أبان الاسود والثانى أبان الابيض ، والنقرة منهل يقع شرقى المدينة » . أما حديثا فقد حددها صــاحب كتـــاب « فارس بنى عبس» بأن حدها الغربى هو جبلا الابانين ، وحدها الشرقى الرمال الواقعة شرق القصيم ، وحدها الشـــمالى أطراف القصيم الشمالية ، وحدها الجنوبى اقليم السر . أى أن منـــازلهم هى ديار القصيم ونواحيه . (٢)

وكان يجاور عبسا من ناحية الشمال والغرب بنو أسد ، وشرقا جاورهم بنو تميم ، وجنوبا بنى عامر . والى جوار بنى أسد نزلت قبيلة طىء بن أدد فى جبلى أجا وسلمى (٣) وكان بنو فزارة يقطنون وادى القرى والجانب الآخر من جبلى الابانين .

ولم تكن عبس مهيبة الجانب بين جاراتها فحسب ، وانما كانت عالية المكانة بين قبائل العرب عامة ، وبين بطون قيس عيـــلان بصـــفة خاصة . فملكها زهير بن جذيمة كان يعتبر سيد قيس عيلان برمتهـــا وكانت بقية بطون قيس تأتيه بالاتاوة كل عام (٤) ، كما كانت بقيـــــة القبائل تخشاه وترهبه حتى انه عندما قتل ابنه شاس « منبح » على يد رياح من قبيلة غنى لم تستطع قبيلته أن تحميـــه كما كانت تقضى بذلك التقاليد العربية وانما اضطرت الى أن تتبرأ منه وتنفيه خـــوفا من بطش زهير بها (٥) . ولعل أوضح مظهر لقوة زهير ومدى نفوذه فى الجزيرة العربية هو أن النعمان بن المنذر اصهر اليه وتزوج من أخته المتجردة .

وتبعا لسنة الحياة الجاهلية فى الجزيرة العربية فان عبسا لـم

---

(١) البكرى ص ١٧٨ (٢) عبد الله القرشى ص ٢٦

(٣) معجم قبائل العرب ـ لعمر رضا كحالة جـ ٢ ص ٦٨٩

(٤) الأغانى جـ١ ص ٨ (٥) المثل السائر ـ لابن الأثير جـ١ ص٣٣٧

تبلغ هذه المكانة الا اغتصابا ، ولم تنل تلك المنزلة الا بشجاعة فرسانها وحسن بلائهم وكثرة عددهم . ونحن نلمح ذلك لا فى سير حروبهم فحسب وانما فى نظرة القبائل الاخرى اليهم ومن واقع الاوصاف التى يطلقونها عليهم . ففى أخبار يوم النتاءة مثلا نجد أن المستكشف الذى أرسله بنو عامر ليستطلع لهم قوة أعدائهم المغيرين عليهم لا يلبث أن يعود قائلا : «أرى قوما كأنهم الصبيان على متون الخيل ، أسنة رماحهم عند آذان خيلهم . قالوا : تلك فزارة . قال : وأرى قوما بيضا جعادا كأن عليهم ثيابا حمراء . قالوا : تلك أشجع . قال : وارى قوما نسورا قد علوا خيولهم آخذين بعوامل رماحهم يجرونها . قالوا : تلك عبس أتاكم الموت الزؤام . أما فى يوم اللوى فقد قال بنو هوازن عن كل قبيلة وصفها لهم المستكشف أنها «ليست بشىء» الى أن قال لهم : أرى قوما أدمانا كأنهم يحملون الجبل بسوادهم ، يخدون الارض باقدامهم خدا وهم يجرون رماحهم جرا . قالوا : تلك عبس والموت معهم . (١)

وعلى ذلك فان حياة عبس كانت سلسلة متصلة من الحروب المتلاحقة ، اما مشتركة مع قبيلتها الام ـ قيس فى حروبها ضد غيرها من القبائل ، او متلاحقة مع شقيقاتها من بطون قيس وافخاذها لسبب او لآخر من تلك الاسباب التى كانت تدعو اليها طبيعة الحياة الاجتماعية فى البيئة البدوية ومعظمها يتعلق بالغزو والغارة والتكالب على اسباب الحياة مما جعل لها رصيدا كبيرا فى ايام العرب (٢)

ولكن هذه القبيلة لم تلبث أن فقدت ملكها غدرا ، الأمر الذى أقحمها فى سلسلة طويلة من الحروب استمرت سنين عديدة وانتهت بفناء عبس وتحطيم كيانها كقبيلة موحدة .. فبينما كان زهير بن جذيمة فى اوج مجده حقدت عليه هوازن بسبب اعتدائه على احدى عجائزها وتربص له خالد بن جعفر الكلابى وقتله فى يوم النقراوات (٣) فتراس على القبيلة من بعده ابنه قيس الذى لم يكن يثقل كاهله شئون القبيلة بقدر ما كان يثقله الاخذ بثأر ابيه . فسار الى المدينة ليتجهز لقتال بنى عامر . واثناء هذا التجهيز وقعت حادثة لم تكن على بال احد لانها شىء عادى يقع مثله كل يوم . فالعربى معتد بنفسه فخور بها يريد دائما ان يبرز الجميع وان يكون هو الذى فى المقدمة . فهو يفتخر بحسبه ونسبه ، فان تساوت الانساب يفتخر بقوته ، فان كان المجال

---

(١) الأغانى جـ ١ ص ٣٠٣ والمثل السائر لابن الأثير ص ٣٩٥
(٢) راجع العقد الفريد جـ ٣ وأيام العرب فى الجاهلية ـ لجاد المولى
(٣) العقد الفريد جـ ٣ ص ٥٠

لا يسمح بالنزال افتخر بما يملك ، وارفع الاشياء التى يملكها شأنا هو الخيل ، ولا تظهر قوة الخيل الا بالسرعة . حينئذ يأخذ الفخر بهـا مظهرا عمليا هو اطلاقها فى سباق .

وهكذا شاء القدر ان تتحول المفاخرة بين قيس بن زهير وبين جذيمة بن بدر الى سباق تجرى فيه خيولهما . فاجرى الاول فرسيه داحس والغبراء ، واجرى الثانى الخطار والحنفاء . وقيل ان حذيفة خشى الهزيمة فبعث بمن أعاق داحس عن السبق وبذلك وقع الشقاق وثارت الفتنة فقتل قيس ندبة بن حذيفة ، وانتقم هذا منه بقتل أخيه مالك بن زهير ، فجمع كل منهما فرسانه ودارت المعارك بين الشقيقتين عبس وذبيان واستمرت ما يقرب من الاربعين عاما .

وفى حرب داحس والغبراء ظهرت شجاعة عنترة بن شداد . (١) وبدا وسط قبيلة بنى عبس كواحد من فرسانها العتاة ينازل الاعداء فيهزمهم ويقتلهم .. نازل فى يوم المريقب ضمضما ــ أبا الحصين ــ وهو من كبار فرسان بنى مرة فقتله بعد أن قتل العديد من فرسانهم الذين لم يبلغوا شهرة ضمضم . (٢) ثم هو بعد ذلك يظهر بمظهر البطل الذى يحمى القبيلة بأجمعها ، فحينما صاحب قومه فى غزوة لهم على بنى تميم وانهزموا امامها وأخذ بنو عبس فى التقهقر وقف عنترة بمفرده يحمى تقهقرهم ويذود عنهم بنى تميم الذين كانوا فى أثرهم فمنعهم عنترة ونجت عبس دون أن يصيب مدبر منهم أى سوء . وقد دفع هذا بنى عبس الى الشهادة لعنترة بحسن صنيعه وان كان قد داخل اعترافهم ذاك شىء من المرارة دفعت بقيس بن زهير أن يقول : « والله ما حما الناس الا ابن السوداء » . (٤) وهكذا أصبح عنترة بن شداد فارس فرسان بنى عبس التى اسلمت له قيادها واستحق عن جدارة لقب « عنترة الفوارس » (٥) وسارت شهرته فى طول الجزيرة وعرضها وأصبح يخشاه الفرسان حتى أننا نجد فارسا من أشهر فرسان العرب هو عمرو بن معديكرب يصرح دون خجل قائلا : « ما أبالى من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقنى حراها وهجيناها » . (وهو يعنى بالحرين عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث ويعنى بالهجينين عنترة والسليك ابن سلكة) (٦)

ولم تكن حرب داحس والغبراء سببا فى شهرة عنترة كفارس

---

(١) الشعر والشعراء ــ لابن قتيبة جـ ١ ص ٣٠٦
(٢) العقد الفريد جـ ٣ ص ٥٧
(٤) شعراء النصرانية ــ للأب لويس شيخو جـ ١ ص ٧٩٥
(٥) العقد الفريد جـ ٣ ص ٥٧ (٦) الأغانى جـ ٨ ص ٢٤٦

فحسب ، وانما أظهرت – الى جانب ذلك – لونا آخر من الوان بطولته لا يقل فى أهميته عن الفروسية ونعنى به القدرة القولية – التى كانت بالنسبة للعرب – لا تقل قيمة وقدرا عن البطولة الحربية ، فتفجرت مواهب عنترة الفنية ، وتوالت قصائده الشعرية الجيدة التى أخذت طريقها الى أسماع العرب جميعا – فى كل جزء من أجزاء الجزيرة – فتداولوها بكثير من الاحترام للقبيلة والتقدير لذلك الفارس الذى منع قومه بسيفه وبلسانه معا فكان كسبا مزدوجا لها .

ويستمر تقدم عنترة الشعرى مسايرا لتقدمه الفروسى حتى يصل الى منتهى ما يأمل شاعر عربى من مجد ورفعة ، اذ يضم الى صفوة شعراء الجزيرة الذين علقت قصائدهم على أستار الكعبة احتراما وتقديرا ، وبذلك أصبح عنترة فارس الفرسان وشاعر الشعراء ولعل هذا هو ما دفع الدكتور فيليب حتى الى عقد مقارنة بين عنترة وبين « أخيل » فارس اليونان الشهير وبطل الياذة هوميروس . (١) وحبذا لو أن الدكتور فيلب – او غيره – قام بعقد دراسة مقارنة بين سيرة عنترة بن شداد وبين الياذة هوميروس .

ومهما يكن من أمر ، فان حرب داحس والغبراء – التى تعتبر من أطول حروب العرب واشهرها – قد اضنت بنى عبس وانهكت قواهم وأتت على الكثير من رجالهم وقللت اموالهم ، وألبت عليهم معظم القبائل الاخرى الامر الذى اضطر بنى عبس الى ترك ديارهم والضرب فى الصحراء بحثا عن أحلاف ومجيرين . فكانوا كلما نزلوا بقوم حلت عليهم لعنة القتال فلا يلبثون أن يتخلصوا منهم . أو لا يلبث بنو عبس أن يحسوا ضيما أو ضغينة فيشدوا الرجال مرة أخرى . . وهكذا امضى بنو عبس الايام والأعوام فى قتال وحروب حتى بلغوا درجة لم يستطيعوا بعدها مواصلة القتال فقرروا العودة الى ذبيان وطلب الصلح معهم – بعد أن دارت الحرب بينهم اربعين سنة لم تنتج لهم ناقة ولا فرس لانشغالهم بالحرب . (٢) أما ملكهم قيس بن زهير فلم يقبل الانحدار الى هذا الدرك من مذلة التسليم فتركهم وراح يهيم على وجهه فى الصحراء وحيدا الا من ذكرى ملك قد اندثر ومجد قد زال .

وهكذا نجد أن تاريخ بنى عبس يعتبر نموذجا مثاليا لحياة القبيلة العربية . ففيه تصوير صادق للطريقة التى كان يعيش بها هؤلاء القوم ولكن هذا العرض التاريخى لا يتناول الا جانبا واحدا من جوانب

(١) تاريخ العرب جـ ١ ص ١٠٧
(٢) العقد الفريد جـ ٣ ص ٥٦

الحياة التى مرت بقبيلة بنى عبس . ولو اننا اخذنا هذا القطاع من حياة بنى عبس ونظرنا اليه من زاية اخرى لنرصد الاسس الاجتماعية التى قامت عليها حياتهم لا مكننا الوصول الى كثير من الحقائق التى توضح معالم المجتمع العربى الجاهلى . غير ان المصادر التاريخية الموجودة الآن لا تؤهل لاقامة مثل هذه الدراسة الاجتماعية على قواعد سليمة ومن ناحية اخرى يمكننا ان نصل الى ما نريد عن طريق استكشافه من احداث « سيرة عنترة بن شداد » غير ان هذا العمل سوف يكون بعيدا عن الحقائق التاريخية المجردة ، ولكنه — بالرغم من ذلك — يعتبر أقرب الى تصوير هذا الوجه الاجتماعى للبيئة العربية الجاهلية بعامة ولحياة عنترة وقبيلته بصفة خاصة .

وقد كان من الممكن كذلك استشفاف صورة هذه الحياة العربية الجاهلية من ديوان عنترة والاعتماد على شعره فى تبيان المظاهر الاجتماعية لقبيلة بنى عبس . ولكن عنترة — كما سنرى فيما بعد — لم يقل شعرا جماعيا كما هو الحال عند معظم الشعراء الجاهليين وانما خرج على اجماعهم ليكون شاعرا فرديا يصور بشعره خواص نفسه ويعبر عن شخصيته ولهذا فان شعر عنترة ان صلح لاعطائنا صورة عن شخصية قائله ونفسية منشئه ، فانه لايمكن بأى حال من الاحوال ان يعطينا صورة عن قبيلته وبالتالى عن البيئة الاجتماعية الجاهلية .

ولما كان غرضنا الاساسى هو دراسة عنترة وتسليط الاضواء على شخصيته فان ما رايناه من أمر المقومات الاجتماعية للقبيلة العربية يكفى لان ينير امامنا اول الطريق الى شخصية عنترة ، اما بقية الاضواء فنسلطها عليه من زوايا أخرى عمدها تاريخه الخاص وشعره ثم السيرة الشعبية التى الفت عنه .

ولكننا قبل أن نفعل نحاول أن نقتبس شعاعا آخر يضىء لنا الطريق خطوة ، وذلك من معرفة النظرة التى كان ينظر بها العربى الجاهلى الى الفارس البطل ، ومن محاولة تحديد مفهوم الفروسية العربية والوقوف على فلسفتهم تجاهها ، لا سيما وأن هذا المجال كان هو أوضح المظاهر الاجتماعية التى كونت بيئتهم ولونتها بذلك اللون المميز لها .

الفصل الثانى

مفهوم الفروسية العربية وفلسفتها

يختلف مفهوم الفروسية وتصور البطولة من أمة الى أمة تبعا لاختلاف البيئة الطبيعية والظروف الاجتماعية ، الاحوال السياسية ، بل ان هذا المفهوم يختلف عند الامة الواحدة باختلاف الازمان وتطور العصور . ولهذا فان البيئة الاجتماعية الجاهلية فى الجزيرة العربية حددت مفهوما معينا للفروسية ، وجعلتهم يتمثلون مظهرا معينا للبطولة يوائم ظروفهم البيئية ويتمشى مع احوالهم الاجتماعية ويواكب نظمهم السياسية .

العربى البدوى — ابان الجاهلية — كا نلايعيش فردا قائما بذاته ، مستقلا بشخصيته ، كما انه لم يكن يعيش كعضو فى المجتمع الكبير الذى يشمل الجزيرة كلها ، وانما كان يعيش ضمن نطاق اجتماعى محدود هو القبيلة . ومن خصائص هذا المجتمع القبلى ان شخصية افراده تكاد تفنى فى شخصية القبيلة . ولكن مهما كانت قوة الجماعة القبيلية فلا يمكن ان يوجد المجتمع الذى يفنى الذاتية الفردية للانسان فناء تاما ، وعلى ذلك فان المجتمع العربى الجاهلى كان له مظران اساسيان هما المظهر الجماعى والمظهر الفردى غير ان المظهر الاول كان اقوى بكثير من الثانى ، وكان هو صاحب التأثير المباشر — او غير المباشر — على منحى المظهر الفردى ومجالات ظهوره ومدى هذا الظهور .

وتبعا لذلك فلا بد ان يكون لمفهوم البطولة عند العرب نفس هذين المظهرين — الجماعى والفردى — وان يكون المظهر الجماعى اقوى من المظهر الفردى ، ويأتى سابقا له ليؤثر فيه ويحدد معالمه . فاذا نظرنا الى مفهوم البطولة عند العرب من الزاوية الجماعية التى تخفى شخصية الفرد وتذيبها فى شخصية القبيلة وجدنا ان اول مظهر من مظاهرها هو القوة بمعناها العام الشامل الذى يوصل الى الغلبة ، وعكسها الضعف الذى يؤدى الى الهزيمة . والسبب فى هذا ان الغلبة فى البيئة البدوية القفراء معناها الحياة والحصول على الغذاء سواء للاشخاص او للانعام ، اما الهزيمة فمعناها الحرمان من هذا الغذاء والماء ومنه الى الفناء .

ولهذا فان لفظة « القوة » هنا تعنى القوة البدنية الطبيعية سواء فى تكامل اجزاء الجسم وعضلاته ، وفى قوة الاحتمال ، وهى تعنى كذلك القوة البدنية المكتسبة من اجادة ركوب الخيل وحسن استعمال السلاح واتقان فنون القتال والنزال ، ثم هى بعد ذلك تعنى القوة

الفكرية او الشخصية التى تدفع صاحبها الى التقدم والشجاعة بل وربما التهور احيانا . فمحصول هذه القوى جميعا هو ما يريده العربى فى فارسه ليستطيع ان يشن الغارات ويخوض المعارك فينتصر فيها ويعود الى قومه بالانعام والاسلاب ، فاذا ما جاء الدور على قبيلته وهوجمت تصدى هو للمغيرين فيهزمهم ويردهم عن قومه ، وبذلك يحفظ لهم ما حصل عليه فى غاراته .

هذا المفهوم ولا شك مفهوم عادى وطبيعى بالنسبة للبيئة المادية الصحراوية التى تعيش على الفطرة وتبنى حياتها على ما تجود به الطبيعة . والطبيعة الصحراوية قد تكون بخيلة فتقتر عليهم فى الرزق، وقد تقسو فلا تجود بشىء ، وهنا تثور عند هؤلاء القوم غريزة حب البقاء ، والبقاء لا يكون الا بالحصول على الغذاء ، والغذاء فى كف الجار — او حتى فى كف الاخ — فهذا شىء لا يهم لان نفسى اولا ، فيلزم ان احصل على هذا الغذاء باى طريق وباى ثمن والا فالهلاك فى الانتظار، والطريق الوحيد الى ذلك هو طريق القوة الموصلة الى الغلبة . ولذلك كان اول مظهر من مظاهر البطولة عند العرب هو القوة .

ولعل اوضح ما يمثل لنا مدى ارتباط القوة — كمظهر بطولى — بحياة الجماعة هو الوجه الآخر من اوجه هذا المظهر . فقوة القتال والهجوم لها وجه ثان لا يقل عنها قيمة وقدرا عند البدوى، ويتصل بها اتصالا وثيقا ، الا وهو الانتقام والاخذ بالثأر ، تلك العادة التى قامت عليها الحياة البدوية القبلية جميعها . وبصرف النظر عن الآراء الحديثة فى هذه العادة ، فانها لم تكن تعنى عند العربى الا شيئا واحدا هو انه قد خسر الجولة الاولى ، والخسارة فى الصحراء معناها الفناء ، فعليه اذن ان يكسب الجولة الثانية والا فنى وهلك . وحتى يحس بوطأة الفناء والهلاك فانه كان يفرض على نفسه ما يشعره بذلك ، فكان العرب اذا ما عقدوا النية على الانتقام حرموا على انفسهم النساء والدهن حتى يدركوا ثأرهم (١) — اى انهم كانوا يحرمون انفسهم من منابع الحياة الاساسية التى هى الاحتفاظ بالنفس وخلق الانفس الجديدة، وبمعنى آخر انهم يرغمون انفسهم على صورة مصغرة من صور الفناء ليعرفوا فداحة ذلك ويقدموا على القتال بكل قوة وشجاعة حتى يأخذوا بثأرهم فيزيلوا عن انفسهم شبح الفناء وترد القوة اليهم روح الحياة .

هذا المظهر البطولى — بوجهيه — مظهر جماعى تكاد تتلاشى فيه الشخصية الفردية . فهم يخرجون لغزواتهم فى جماعات ، فاذا ماغنموا شيئا عادت الغنائم للقبيلة باكملها قبل ان تعود على اشخاص

(١) العقد الفريد — لابن عبد ربه جـ ٣ ص ٦٥

الغانمين ، واذا كسبوا مجدا توجت به القبيلة كلها دون ما ذكر لاشخاص الكاسبين ، يقابل هذا انه اذا انهزم الفرد هبت القبيلة كلها لنصرته سواء كان ظالما او مظلوما ، وعلى ذلك فان قوة البطل الفرد لم تكن تمثل نفسه أو تعود على شخصه بقدر ما كانت تمثل القبيلة وتعود عليها ، وكل ما يحرزه من مجد ورفعة انما عائد اليها .

اما المظهر الجماعى الثانى من مظاهر الفروسية العربية فيتمثل فى لون آخر من الوان القوة ، ولكنها قوة معنوية وليست قوة مادية. وكلا القوتين الفرض منهما واحد هو حماية القبيلة وتوفير الحياة لها . القوة الاولى تؤدى عملها فى سبيل القبيلة وهى فى حومة الوغى بينما القوة الثانية تؤدى نفس الشيء ولكن فى المجالس والاسواق . والقوة الاولى وسيلتها الخيل والسيف بينما القوة الثانية عدتها القول والنظم : فالشاعر كان لسان القبيلة المتحدث باسمها والمعبر عنها ، وكان صحيفة القوم يذيع بشعره أخبارها واحداثها بين الناس ، وكان المدافع عنها ضد اعدائها ينازلهم بسلاحه القولى فى ميدان الفخر والهجاء . لكل هذا « كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر اتت القبائل فهنأتها وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر — كما يصنعون فى الاعراس — ويتباشر الرجال والولدان لانه حماية لاعراضهم وذب عن احسابهم وتخليد لمآثرهم واشادة بذكرهم » . (١)

فالقوة المادية فى القتال لا تكتمل الا اذا واكبتها قوة قولية فى الاشعار لتصور هذا المجد الحربى الذى حازته القبيلة فتفتخر به وتتيه على غيرها من القبائل وليكون سجلا لتلك الاعمال يحفظها من النسيان ويذيعها بين ارجاء الجزيرة فى صور شعرية يسهل حفظها وتداولها ، ثم هو بعد ذلك يلقن ابناء القبيلة ويحمس رجالها ليحافظوا على ما نالوه من قدر ، او ليبلغوه ويتفوقوا به على غيرهم من القبائل . ولهذا كانت قيمة الشاعر للقبيلة لا تقل عن قيمة الفارس ، فكل منهما نصف من كل ، هو قوة القبيلة ورفعتها ، وبمعنى آخر دوام حصولها على ضروريات الحياة ، وهذا يصل اليه الفارس بسيفه كما يصل اليه الشاعر بلفظه ، وهما معا جماع ذلك السؤدد الذى تصبو اليه كل قبيلة .

فالشعر هو المظهر الجماعى الثانى من مظاهر مفهوم الفروسية والبطولة العربية وكما مثل المظهر الاول القبيلة دون الفرد فان هذا المظهر الثانى يمثل القبيلة دون الفرد كذلك . ولهذا كانت اول سمة من سمات الشعر الجاهلى هى انه شعر جماعى بعيد عن الفردية لايمثل

---

(١) العمدة — لابن رشيق جـ١ ص٣٧

شخصية قائلة بقدر ما يمثل الجماعة التى يتصهر فيها ذلك الفرد.(١)

هذان هما المظهران الاساسيان فى مفهوم البطولة عند العرب ، والجمع بينهما معناه الوصول الى اقصى مراتب الفروسية . فالبطل مهما كان قويا وشجاعا لا يبلغ مرتبة البطولة الحقة الا اذا كان مفوها فى الشعر قدر شجاعته فى القتال . وكان العربى لا يتصور بطلا قويا يعجز عن قول الشعر . ولعل هذا هو التعليل المنطقى لما نجده فى كتب الروايات والسير من شعر عربى فصيح قاله جميع ابطال التاريخ سواء اكانوا عربا او غير عرب ، وسواء أكانوا قدامى ام محدثين ، حتى نوح وآدم قالوا شعرا — او على الاصح قال الرواة شعرا على لسانهم . ولعل هذا كذلك هو التعليل المنطقى لما نجده فى سيرة عنترة — وفى غيرها من السير — من مبارزات شعرية يتبادلها الابطال بالسنتهم قبل ان يتبارزوا بسيوفهم . وكاتب سيرة عنترة يقتنع بالربط بين هذين المظهرين اقتناعا غريبا ينعكس فى ذلك الموقف القصصى الخيالى الذى صور لنا فيه عنترة وهو يحاول تعليق قصيدته على الكعبة . فهو يجتمع بشعراء المعلقات جميعا لا ليتبارى معهم فى قرض الشعر فقط ، ولا لينافسهم فى معرفة علوم العرب فحسب ، وانما هو يبارزهم مبارزة حربية حقيقية فينتصر عليهم ويأسرهم جميعا ، ثم يطلق سراحهم ليعرض عليهم قصيدته فيبزهم فى قول الشعر كما بزهم فى ضرب الحسام . وبذلك يتم فوزه عليهم طبقا لمفهوم الفروسية عند اهل ذلك العصر من انها جماع بين قوة اليد وقوة اللسان . وربما كان هذا هو السبب الذى جعل معظم الكتب التى وصلتنا عن العصر الجاهلى تجمع بين دفتيها مقدارا من الشعر — يكثر او يقل حسب موضوع الكتاب — ولكن مهما كان ذلك الموضوع فالكتاب فيه شعر لا محالة .

اما المظهر الثالث من مظاهر مفهوم البطولة عند العرب فهو مايتمثل فى جانب الشرف والكرامة . هذا المظهر اوجدته الاوضاع الاجتماعية للقبائل العربية ، فالفرد الذى لا يمكنه ان يعيش وحيدا والذى لابد له من الاندماج مع غيره فى وحدة عشائرية اندماجا كليا حتى يضمن حياته وسلامته لا بد ان يفنى فيها بحيث تصبح هى وحدة متكاملة دستورها « الفرد فى سبيل الجماعة ، والجماعة فى سبيل الفرد » ، ويصبح شعارها « انصر اخاك ظالما او مظلوما » . فالقبيلة كلها تنصر رجلها وقت الشدة سواء اكان على صواب او على خطأ ، فاذا ما ارتكب هذا الشخص اثما فى حق قبيلته او فى حق فرد آخر من افرادها فان

---

(١) فجر الاسلام — لاحمد امين جـ١ ص٧١

العقوبة الوحيدة — التى لا عقوبة غيرها — هى خلعة والتبرؤ منه وطرده من الديار .

ويبدو هذا المظهرمن مظاهر البطولةبوجه آخرهو اجارة اللاجئين . فاذا ما لجأ غريب الى القبيلة واحتمى بها اجارته وحمته ودافعت عنه وكأنه فرد من افرادها وشرعت رماحها ولسانها للذود عنه ، وتمسكت بوعدها له مهما تحملت فى سبيل ذلك من مشاق ومهما خاضت من اجله الحروب . فالمظهر البطولى هنا هو « نجدة القبيلة » ممثلة فى افرادها اولا وفيمن آوتهم او قطعت على نفسها العهود لهم وبذلك اصبحوا جزءا من كيانها لهم كل ما لافرادها الاصليين من حقوق . فالبطل لا يعتبر بطلا حقيقيا الا اذا اوفى بهذا المظهر من مظاهر البطولة. ونحن نجد فى سيرة عنترة انه مهما جفا قبيلته واختلف معها وتركها مغضبا فان مجرد وصول رسول منها يدعوه الى نجدتها — او مجرد علمه بان قومه فى مأزق — سرعان ما يجعله ينسى كل خلافاته واحقاده — او يتناساها مؤقتا — لينقذ قبيلته او ليساند حليفا من حلفائها قطعت له العهد وعقدت معه الكلمة .

ورب وجه ثالث من اوجه هذا المظهر الجماعى نجده فى الكرم . فالضيف اذا مانزل على القبيلة أقرته واكرمته وضحت فى سبيل ذلك بخير زادها وعزيز مالها ، وهو يعد فى حماها ويعتبر كأبن من ابنائها ، وربما وقعت بسببه حروب مثل حرب « حاطب » التى ثارت بين الاوس والخزرج بسبب اعتداء الخزرج على ذبيانى كان قد نزل ضيفا على حاطب بن قيس الاوسى . (١)

ولهذا فاننا نجد ان الكرم الجماعى — او كرم القبيلة — هو اشهر الصفات التى اثرت عن العرب ، وانه كان اهم الفضائل واوسع مجالات المديح ، واخصب موضوع من الموضوعات التى كان يدور حولها الفخر ويتشبث بها الهجاء .

تلك هى المظاهر الجماعية لمفهوم البطولة عند العرب . ولكن — كما سبق ان ذكرنا فان القبيلة مهما قوى جانبها الجماعى ونجحت فى اذابة شخصية الفرد فى بوتقة الجماعة فانها لا يمكن أن تفنى هذه الشخصية او ان تجعلها تتلاشى كلية . فالشخصية الفردية موجودة فى كل زمن وفى كل بيئة وفى كل مجتمع مهما كانت ظروفه او اسسه أو مثله ومذاهبه ولكن الذى يحدث — فى الواقع — هو غلبه احداهما على الاخرى بنسب متفاوتة لا يمكن ان تبلغ الصفر باى حال من الاحوال . لذلك فانه — الى جانب تلك المظاهر الجماعية للبطولة عند

---

(١) أيام العرب — جاد المولى ص٧٢

العرب ــ كانت هناك مظاهر فردية تتصل بالشخص نفسه ، وتتمثل فى الغرائز الانسانية والنوازع النفسية .

وكما يرد بعض علماء النفس المحدثين جميع تلك الغرائز الانسانية الى غريزة واحدة هى الغريزة الجنسية ، فان اهم مظهر من المظاهر الفردية للبطولة عند العربى كان هو الجنس كذلك « او بمعنى آخر كان يتمثل فى المراة ... تلك الصورة الجميلة التى ما ان يراها الرجل حتى يشتهيها وينقلب الى طفل تدفعه غريزة حب الاقتناء الى امتلاكها . ولهذا كان البدوى ما ان يلمح امراة وتقع فى نفسه حتى يعمل على الحصول عليها ويتمثل له مفهوم البطولة كله فى نجاح مهمته. فيبدأ بالتقرب اليها ودعوتها اليه ، فان أبت أتى اباها خاطبا وامامه استعداد غير مشروط بان يقدم المهر مهما كانت قيمته ومهما كان نوعه فان رفض الاب ــ لسبب او لآخر ــ فليس هناك الا حل واحد هو استعمال العنف ، وعليه ان يحارب القبيلة بأكملها ، وان يأسر الفتاة وأباها ، وبذلك يرغمه على تزويجها منه ، والا فمصيرها امة من الاماء او جارية من الجوارى .

وربما فسر لنا هذا المظهر من مظاهر البطولة ظاهرة اجتماعية ملفتة من ظواهر المجتمع القبلى الجاهلى التى بقيت حتى الآن دون تفسير مقنع . فمما هو مأثور عن الجاهلية ان الرجل كان اذا شبب بفتاة وتغزل فيها امتنع ابوها عن تزويجه منها بعكس ما هو متوقع فى مثل تلك الحالات ، اذ من الطبيعى جمع شمل المحبين بمجرد ظهور حبهم ، ومباركة هذا الحب بعقد او رباط . فلماذا اذن كان الجاهلى يمتنع عن تزويج ابنته ممن شبب بها !؟... ان تشبيبه بها معناه انه يقول فيها شعرا ويذكر محاسنها ويشيد بجمالها ، وهذا الشعر يسير وينتشر فى ارجاء الجزيرة العربية فيسمعه الجميع ومن بينهم من يأنس فى نفسه البطولة ، ويروم تحقيق هذا المظهر الفردى من مظاهرها وذلك بان يحصل هو على تلك الفتاة الجميلة . وتبدأ القصة بان يذهب الى ابيها خاطبا فلو ان اباها قد وعد بها ذاك الذى شبب وقال شعره فيها لما امكنه التحلل من وعد قطعه ولعرض نفسه لنقمة هذا البطل الوارد اليه فى سبيل تحقيق المظهر الذاتى لبطولته فمن الحكمة اذن ان يمتنع عن تزويجها لمن شبب بها ، وان ينتظر القدر ليهبط عليه بفارس ــ او بفرسان ــ حتى اذا ما فاز احدهم دفع اليه بالعروس دون أن يصيبه من جراء ذلك ضرر أو معرة .

وهذا هو ما حدث لعنترة ، اذ رأى ان اكتمال بطولته وتحقيق المظهر الذاتى لها لن يتم الا بحصوله على سيدته التى كان يقوم على خدمتها حين كان عبدا ، فلما صار سيدا اصبحت هى الهدف الذى

يتركز فيه تحقيق المظهر الذاتى لبطولته . ويتمنع والدها ــ اول الامر ــ احتقارا لوضع عنترة الاجتماعى ، ولكن حاجته الى الحماية دفعته الى الرضوخ ووعد عنترة بها اذا ما أبلى بلاء حسنا فى الذود عنهم وعن القبيلة . ولكن ما ان يشبب عنترة بعبلة ويسير شعره فيها بين العرب حتى يتراجع مالك ــ ابوها ــ عن الوفاء بوعده لعنترة ، او علّه يتأنى انتظارا لما يحدث من وصول ابطال يطمحون الى تلك التى شهرها شعر عنترة . فكان على عنترة ان ينازلهم واحدا واحدا ، وكلما قضي على احدهم تريث مالك فى انتظار وافد جديد .. وهكذا .

ويتمثل المظهر الذاتى للبطولة العربية كذلك فى حفظ كرامة الفرد وعدم قبول ما قد يمسه من قريب او من بعيد . ولعل حرب البسوس ان توضح لنا هذا المظهر ، فكليب بن ربيعة يسأل زوجته ــ جليلة بنت مرة ــ : هل على الارض امنع مني ذمة ؟ فقالت : نعم ، اخواى جساس وهمام . فيخرج كليب مغضبا ليلتقي بناقة لبنى مرة فيطفىء غيظه فيها ويقتلها . ويعتبر فارس بنى مرة ان هذا العمل اهانة موجهة اليه فيقضى على كليب ، وهكذا تدور رحى تلك الحرب الشهيرة التى استمرت اكثر من اربعين عاما . (١) ومثلها تماما كانت حرب داحس والغبراء ، فقيس بن زهير وحذيفه بن بدر لم يقبل كل منهما ان يعد فرسه مهزوما فى السباق لان فى ذلك خفضا لكرامته امام الناس، فلتكن اذن حربا تمكث هى الاخرى اربعين عاما وتنتهى بشبه فناء لبنى عبس . (٢) وتضطر قبيلة عبس اضطرارا الى طلب الصلح من ذبيان، وهنا يقفز هذا المظهر البطولى بشكل آخر ، اذ يأنف قيس بن زهير من فعل ذلك ويؤثر عليه الخروج بمفرده هائما على وجهه فى الصحراء. (٣) والامثلة التى توضح هذا المظهر البطولى الذاتى فى سيرة عنترة

اكثر من ان يجمعها الحصر . تبدأ بتلك الحادثة التى قتل فيها عنترة عبدا من عبيد الامير شاس ابن زهير لاعتدائه على اعرابية عجوز ، وتستمر معه فى كل خطوة من خطواته وفى كل مرحلة من مراحل حياته لتنتهى بتلك الحادثة الدرامية التى تبدو من عامر بن الطفيل ، فعبلة ــ بعد وفاة عنترة ــ تتزوج عامر بن الطفيل عملا بنصيحة عنترة لها ، ولكنها تكثر فى حياتها معه من المقارنة بينه وبين عنترة ، فيحس فى نفسه بالصغار والهوان الذى يدفعه الى قتل عبلة ليتخلص منها

---

(١) أيام العرب فى الجاهلية لجاد المولى ص١٤٢
(٢) العقد الفريد ــ لابن عبد ربه جـ٣ ص٥٦
(٣) السابق

ومن مقارناتها . وعندما يذهب ابوها واخوها للتفاهم معه وهو لايزال تحت تأثير هذه العقد يقتلهما كذلك . (١)

ولعل اعتماد كاتب سيرة عنترة على هـذا المظهر الذاتي للبطولة العربية وحسن استغلاله في بناء شخصية بطله من اول حدث في القصة حتى آخر حدث فيها هو الذي مكنه من تقديم مواقف درامية رائعة واعانة على تطوير شخصية عنترة وتحديد معالمها مرحلة بعد اخرى ، كما ساعده على الاطناب أو الافاضة بحيث أصبحت قصته بهذا الطول المفرط .

وكمظهر ذاتي للبطولة العربية يجب ان يتحلى الفارس بكثير من الخصال التي تعتبر في حد ذاتها فضائل بطولية شخصية . واوضح جوانب هذا المظهر هو العفو عند المقدرة . فالفارس الذي يتمكن من خصمه بحيث يصبح تحت رحمته ويسهل عليه قتله او القصاص منه ، ان فعل كان فارسا عاديا ، اما اذا عفا عنه واطلق سراحه فانه يكتسب بذلك مظهرا بطوليا واعترافا بفرط فروسيته ، فهذا دليل على انه لا يخشى منافسه في شتى الظروف ، وان انتصاره عليه لم يكن وليد صدفة او ضربة حظ وانما هو تفوق ثابت ومضمون . هذا المظهر حققه كاتب السيرة لبطله في لقائه مع الكثيرين من الفرسان الذين قدروا فيه هذا المظهر البطولي واعترفوا له بالفروسية ثم انضموا الى جملة فرسانه ورجاله مثلما حدث مع عروة بن الورد ودريد بن الصمة وهانيء بن مسعود وغيرهم .

ولهذا المظهر وجه آخر لا يختلف كثيرا عن سابقه ، ويتمثل في العفو عن الاسير لا بسبب ضعف بدا منه ، ولكن تقبلا لشفاعة صديق فيه . فعنترة يأسر ذا الخمار عدة مرات وفي كل مرة يتشفع فيه صديق فلا يلبث عنترة ان يطلق سراحه ، ومثل هذا حدث مع عدد كبير من الفرسان آخرهم وزر بن جابر النبهاني الملقب بالاسد الرهيص ويستغل كاتب السيرة هذا المظهر البطولي الفردي استغلالا جميلا اذ يجعلها في النهاية الدرامية التي ينهي بها حياة بطله ، فهو يعفو عن الاسد الرهيص مرة بعد اخرى تحت رجاء صديقه عمرو بن معد يكرب ، ومن هذا العفو المتكرر تتكون السقطة الكبرى التي يتردى فيها فيموت قتيلا بيد هذا العدو الذي طالما عفا عنه واطلق سراحه وبذلك يصبح هذا المظهر البطولي هو العقدة التي تقود القصة الى نهايتها الدرامية .

وفن القيادة مظهر من مظاهر البطولة عند العرب ، فالشجاعة الفردية والكفاية الشخصية وقوة الشكيمة والعريكة في القتال ، كل

---

(١) سيرة عنترة مجلد ٨ ص ١٨٧

فذلك لا يكفى ان يجعل من الفارس بطلا وانما يلزم ان يكون هذا البطل قادرا على ان يقود الفرسان فى المعارك ، وان يتراس الجيوش فى الغزوات والحروب . ولهذا قال الحطيئة عن عنترة بن شداد ردا على سؤال امير المؤمنين عمر بن الخطاب انه كان قائد بنى عبس ، يسيرون خلفه فيهجمون اذا هجم ويحجمون اذا احجم . (١) — ولهذا ايضا خرج كاتب السيرة ببطله عنترة من حيز القبيلة الى حيز الشعب فجعله يقود جيوش العرب ضد النعمان ، ثم جيوش العرب والنعمان ضد كسرى مرة وضد قيصر اخرى ، وبعد ذلك يتأمر عنترة على جميع جميع جيوش قيصر واساطيله ليفتح له ممالك الشرق والغرب ويخضع بسيفه وبفن قيادته كل بلاد العالم المعروفة فى زمانه .

وهكذا نجد ان العرب قد فطنوا منذ قديم الى الفروق الدقيقة بين الفروسية الفردية وبين البطولة العامة — اى بين الشجاعة الذاتية وبين الموهبة القيادية والقدرة على التحكم فى الجماعات وتوجيهها وتسييرها ، واعتبروا ان فن القيادة هذا صفة لازمة للبطل ومظهر من المظاهر الاساسية للفروسية . وقد بعد كاتب سيرة عنترة فى استغلال هذا المظهر لا فى شكله الواقعى فحسب ، وانما فى شكل ملحمى اذ جعل ابناء عنترة يحاربون القبائل — بعد موته — وقد جمعوا عظامه على جمل ودفعوا به فى صدر المعركة رمزا الى ان بطلهم عنترة لا زال هو القائد الذى يقود معاركهم .

أما الجانب الاخلاقى للفارس فأمر له من الاهمية قدر كبير اذ يعتبر أوضح المظاهر الذاتية له والصقها به واقربها فى علاقته بالناس . والمرأة كانت — فى المجتمع القبلى — محورا يرتكز عليه اكثر من مظهر اجتماعى دقيق فى اصالاته بوجدانات هؤلاء القوم ومثلهم وكرامتهم . فأسرها — أو حصول قبيلة اخرى عليها عنوة — يعتبر كارثة الكوارث وقمة الهوان والمذلة والعار ، ولهذا فان حماية النساء من الاسر ومنعهن عن المغيرين يعتبر اول هدف من اهداف القبيلة ، وعلى ذلك فلا بد للفارس الذى يريد ان يحمل لقب البطولة من القيام بهذا العمل الهام وبحيث يكون قادرا على ادائه فى كل وقت وضد كل عدو . ونحن لا نكاد نمر بقصيدة من قصائد الفخر فى الادب الجاهلى الا ونجد ان منع النساء هومجال المفاخرة الاول الذى يزهو به العربى . فاذا تحول الغرض الشعرى من الفخر الى الهجاء وجدنا ايضا ان اقسى معيرة يعير بها البدوى هى عدم تمكنه من حماية نساء قبيلته وتركهن يقعن اسيرات فى ايدى المغيرين .

---

(١) الاغانى جـ ٧ ص ١٥٣

وعنترة لم يشذ عن هذه القاعدة ، فأهم ما افتخر به فى شعره هو منعه لنساء قبيلته وحمايتهن . وقد اولى كاتب السيرة الشعبية هذا المظهر عناية فائقة اذ على اساسه بنى اول لبنة فى صرح المجد الذى شيده لبطله عنترة ، وجعله السبب المباشر لظهور فروسيته سواء حينما قتل عبد شاس لاعتدائه على عبسية عجوز ، أو حينما رد بمفرده فرسان بنى طىء اذ اغاروا على ديار عبس بعد ان رحل الرجال عنها ولم يبق الا النساء ومعهن عنترة الذى هزم المغيرين وردهم . ويستمر هذا الحال على طول السيرة معتبرا ان اهم مظهر من مظاهر الفروسية العنترية هو حماية نساء القبيلة .

وكما يحمى الفارس نساء قبيلته من الاعداء المغيرين ، فان عليه واجبا آخر هو حمايتهن من نفسه . فشهامة الفارس تدفعه الى حفظ اعراض قومه وعدم استغلال مكانته او قوته فى الوصول اليهن وتلويث شرفهن . وليس من شك فى ان هذا المظهر الاخلاقى البطولى كان من أنبل المظاهر الاجتماعية فى الجاهلية ، وليس من شك كذلك فى أن عنترة بن شداد هو المثل الاعلى الذى اتخذه العرب — على اختلاف عصورهم — لهذا المظهر البطولى الاخلاقى . فها هو احد ائمة المسلمين يقول : « وددت لو ان لنا مع اسلامنا كرم اخلاق آبائنا فى الجاهلية . الا ترى ان عنترة الفوارس جاهلى لا دين له والحسن بن هانىء اسلامى له دين ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانىء دينه فقال عنترة :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

وقال الحسن بن هانىء مع اسلامه : —

كان الشباب مطية الجهل ومحسن الضحكات والهزل
والباعثى والناس قد رقدوا حتى أتيت حليلة البعل[1]

وكان الاولى بهذا القائل ان يدرك ان الذى منع عنترة انما هو فروسيته التى يمثلها هذا المظهر ، وان مفهوم الفروسية وفلسفتها التى تغيرت بعد ذلك هى التى جعلت ابن هانىء يقول ما قال ويفعل ما ذكر . وكم الح عنترة بن شداد فى شعره على اظهار هذا الجانب من

---

(١) العقد الفريد حـ ٢ ص ٤٩

جوانب فروسيته ، فهو لايغشى فتاة الحى اذا ما سافر حليلها ، وهو لا يقرب امرأة الا بعد الزواج منها واداء مهرها . (١)

والخمر فى المجتمع الجاهلى كان لها مظهران متناقضان ، فهى من ناحية مظهر من مظاهر السيادة والغنى لا يعاقرها الا الاشراف الذين تسمح مواردهم المالية بدفع اثمانها المرتفعة ، ثم هى من ناحية اخرى رذيلة حيث تذهب بهيبة شاربها وكرامته اذا ما افرط فى شربها وبذلك يصبح مهزاة القوم ومجال سخرياتهم . لهذا كان مظهر الفروسية يتمثل فى ضرورة معاقرة الخمر ولكن الى حد الاعتدال وبالدرجة التى تحفظ للفارس كرامته ولا تفقده وعيه . وقد عبر عنترة عن هذا المظهر الذاتى من مظاهر الفروسية العربية اجمل تعبير حين قال فى معلقته :

فإذا شربت فإننى مستهلك مالى ، وعرضى وافر لم يكلم (٢)

اما كاتب السيرة فقد استغل مكانة الخمر فى المجتمع الجاهلى بمظهريها . فحينما أعجب الملك زهير بعنترة — وهو لا يزال عبدا — قربه اليه ثم قدم اليه الخمر كأعظم مظهر من مظاهر التكريم . فاذا ما أصبح عنترة الفارس الحر بطل الجزيرة العربية ومقوض عروش الملوك وحامى حمى الامبراطوريات ، تهاون فى الحفاظ على هذا المظهر وافرط فى شرب الخمر ، فما كان من زوجته عبلة الا ان سخرت منه امام اترابها وطالبته بتقبيل قدمها ، حينئذ افاق الفارس وعرف سقطته فأوقع على نفسه العقاب المناسب وهو ترك الديار والخروج منفردا الى الصحراء . (٣)

---

(١) ديوان عنترة ص٧٦
(٢) « « ص ٢٤
(٣) السيرة مجلد ٥ ص ٢٢٤

الفصل الثالث

شخصية عنترة فى التاريخ

على الرغم من ان كتب الادب تسرف فى ذكر اسم عنترة وتتخذه مثلا للشجاعة وللحب العفيف البناء وتروى الكثير من شعره ، الا ان القليل من تلك الكتب اهتم بحياته وبذكر اخبـاره ، الامر الذى دفع باحثا كالدكتور طه حسين الى رفض هذا الشعر بل والى انكاد وجود عنترة كانسـان حقيقى عاش فى جاهلية ما قبل الاسلام واعتبره شخصية اسطورية اتخذها الرواة والواضعون اساسا يستمدون منـه مادة لقصصهم ومرجعا ينسبون اليه اشعارهم المنحولة . (١)

والواقع ان الواضعين قالوا من الشعر على لسان عنترة اكثر مما قال هو ، ونسبوا اليه ديوانا ليس له فيه الا النذر القليل ، ولكن هذا لا ينفى شعره جملة وتفصيلا ، فقارىء ديوان عنترة يستطيع فى يسر وسهولة ان يفرق بين شـعره الرصين وبين اشـعارهم المنحولة المغرقة فى ذكر عبلة والموغلة فى التشدق بالشجاعة فى نسج ركيك ملىء بالهفوات والاخطاء ثم ان هذا لا ينفى ــ من ناحية اخرى ــ وجـود عنترة نفسه كشخصية واقعية . فالربط بين الشك فى بعض شـعر عنترة ــ او حتى فى شعره كله ــ وبين الشك فى وجوده امر لايرتضيه منهج البحث الصحيح ، هـذا فضلا عن ان وجـود عنترة كشخصية جاهلية لا يحتاج الى تدليل . فهو ان لم تثبته تلك القصص والروايات وشهرة اسمه فى الافاق ، اثبتته معلقته المعـروف بها من الجميع فهى أساس بين المعلقات سواء كانوا عشرا ام سبعا ، واثبتته كذلك احاديث الرسول عليه السـلام واقوال الصحابة والاقدمين مما هو صريح فى فى المراجع الادبية والتاريخية . وغاية ما هنالك ان الحقائق التاريخية اختلطت بالمواقف القصصية التى الفت حول عنترة بحيث اصبح من العسير استخلاص الاولى وتنقيتها من أوشاب الثانية .

فالرواة جميعا متفقون على ان ام عنترة كانت امة سوداء حبشية الاصل تدعى « زبيبة » سباها آل شداد ووقع عليها احدهم فانجبها هذا الغلام . اما من الذى وطأ الأمة من آل شداد ، وبمعنى اخر من هو اب ذلك الغلام ، فهذا ما اختلفوا فيه . معظمهم يقول ان الذى فعل ذلك هو عمرو بن شداد (٢) ، وبذلك يكون شداد جده الا أن اسمه غلب

(١) حديث الاربعاء حـ١ ص ١٤١

(٢) بلوغ الادب حـ١ ص ١٢٦ وخزانة الادب حـ١ ص ٦٢ والشعر والشعراء حـ ١ ص ٢٠٤ والاغانى حـ٨ ص ٣٩

على اسم ابيه فعرف بعنترة بن شداد . ويقول غير هؤلاء ان اباه هو شداد نفسه ، وعلى هذا الزعم سار كاتب السيرة فى بناء قصته . وقال آخرون ان شداد لم يكن جده ولا اباه وانما كان عمه كفله بعد موت أبيه فنسب اليه . (١)

اما قوم عنترة فقراد من بنى مخزوم ، وقبيلته عبس بن بغيض التى تنحدر من قيس بن عيلان بن مضر . (٢)

وكما اختلف الرواة حول ابيه اختلفوا كذلك حول اسمه . فالاعم انه « عنترة » ولكن بعضهم ناداه « عنتر » محتجين بورود ذلك فى شعره مثلما فى المعلقة : « يدعون عنتر والرماح كأنها .. » ، او فى قوله :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم (٣)

وواضح دون كبير عناء ان التاء هنا محذوفة للترخيم او انها محذوفة لضرورة الشعرية .

والعنترة هى السلوك فى الشدائد والشجاعة فى الحرب . وهذا هو ما دفع صاحب مقدمة احدى طبعات الديوان (٤) الى القول بأن « عنترة » ليس اسما وانما هو لقب خلع عليه بعد تميزه بالبطش ، وغلب هذا اللقب وشاع فمحا اسمه الاول الذى ما كان الا اسما بائسا لولى مغمور ، مثله فى ذلك مثل الشماخ والشنفرى وغيرهم كثيرون (٥) أضف الى ذلك ان لفظة « عنترة » كانت شبه قاسم مشترك بين اغلب القابه الاخرى مثل « عنترة الفلحاء » (لتشقق شفتيه) ، و « عنترة الفوارس » ، وغيرها .

ونحن لا نعلم تاريخ ميلاد عنترة — ولاحتى تاريخ وفاته — مع ان حياته كانت قبل الاسلام بفترة وجيزة ، اذ انه من الثابت اشتراك عنترة فى حرب داحس والغبراء التى انتهت بين عامى ٦٠٨ و ٦١٠ م . وعلى ذلك فان وفاة عنترة تكون حول هذا الزمن دون امكان تحديد تاريخ معين . (٦)

---

(١) شعراء نجد والحجاز . رواية ابن الكلبى حـ٦ ص ٧٩٤ من شعراء النصرانية .

(٢) الاغانى حـ٨ ص ٢٣٧ وجمهرة انساب العرب ص ٢٣٩ ط المعارف

(٣) الديوان ص ٩ ، وص ٣٠ ط بيروت ١٩٥٨

(٤) الاستاذ ابراهيم الابيارى فى مقدمة الديوان ط المكتبة التجارية

(٥) كتاب هدية الاحباب فى ذكر المعروفين بالكنى والالقاب للقمى

(٦) جدد حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون وفاة عنترة بعام ٦١١ م وجددها الدكتور فيليب حتى فى كتابه تاريخ العرب بعام ٦١٥م ص ١٠٧ .

وقد اتفق الرواة على ان عنترة عمر طويلا ، بل وبلغ ارذل العمر حتى لقد ادعى البعض انه مات من البرد ، او انه وقع عن فرســه فى معركة فلم يستطع ركوبه مرة اخرى بسبب شيخوخته ، (١) من ذلك نستطيع القول بان عنترة عاش حياة استغرقت معظم القرن السادس الميلادى دون ان نحاول تحديد سنة مولده . (٢)

ونحن لا نقف من حياة عنترة بعد ذلك الا على بضــع روايات واقاصيص هى فى معظمها تفسير لبعض شعره . ولكن هذه الروايات تدلنا على شيئين هامين لونا حياة عنترة ، اولهما الحرب وثانيتهما هى المرأة . فذلك العبد ـ ابن الامة ـ لم يقعد على رعى الاغنام والقيام بما يقوم به العبيد من اعمال الخدمة ، وانما اتجه الى السيف والفرس فاجاد استعمالهما ، وشارك بهما فى حروب قومه ضد اعدائهم ، وعن طريقهما اكتسب اعترافا بنسبه واستلحاقا بقبيلته ، وبذلك ارتفع عن طبقة العبيد ولحق بطبقة العربان . (٣)

يقول أبو الفرج الاصبهانى : ان السبب المباشر الذى دفع أبا عنترة الى ادعائه هو أن بعض أحياء العرب أغاروا على بنى عبس فأصابوا منهم واستاقوا ابلا ، فتبعهم العبسيون ولحقوهم ، فقاتلوهم عمــا معهم ـ وعنترة يومئذ فيهم ـ فقال له ابوه « كر » .. فقال العبد لا يحسن الكر ، وانما يحسن الحلاب والصر . فقال أبوه : كر وانت حر . فكر عنترة وهو يقول :

أنا الهجـــين عنـــترة كل امرىء يحــمى حـــره

وقاتل يومئذ قتالاحسنا فادعاه أبوهبعد ذلك والحقبهنسبه .(٤)
وهذه القصة تتفق اتفاقا كبيرا مع ماذهب اليه كاتب سيرة عنترة .
ولم يكتف هذا الرجل بما بلغه من مكان بين الفرســان فى قبيلته ، وانما أخذ يتقدمهم ويبزهم حتى تولى قيادهم وأصبح فى مكان الصدارة منهم . يدلنا على ذلك تلك الرواية التى تقول أن عمر بن الخطاب سأل الحطيئة يوما : كيف كنتم فى حربكم ؟ فقال الحطيئة : كان قيس بن

(١) الأغانى حـ٨ ص ٢٣٩ ـ الشعر والشعراء حـ١ ص ٢٠٦ خزانة الأدب حـ١ ص ٦٢

(٢) حددها الدكتور فيليب حتى لعام ٥٢٥ م على أساس أن عنترة توفى عام ٦١٥ عن تســعين ســنة (تاريخ العرب ص ١٠٧)

(٣) الأغانى حـ٨ ص ١٢٣٨

(٤) الأغانى حـ ٨ ص ٢٤٩

زهير فينا — وكان حازما — فكنا لا نعصيه ، وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل اذا حمل ونحجم اذا أحجم . (١)

وهذا النص يدلنا على أكثر من معنى . فقوله « كان فارسنا عنترة » يدل على أنه اعتبر عنترة واحدا منهم ، أى فردا من أفراد القبيلة . والعرب فى الجاهلية كانوا لا يعترفون بالعبيد ولا يعتبرونهم جزءا من كيان القبيلة ، وانما هم متاع مملوك مثلهم فى ذلك مثل الانعام التى يرعونها . فهم لا يحملون اسم القبيلة ، ولا يقرنون بذكرها . واذن فعنترة لم يكن عبدا بينهم انما كان واحدا من احرار القبيلة ، سواء احدث ذلك ابتداء أو بعد أن استلحقه أبوه .

أما قوله « كنا نحمل اذا حمل ، ونحجم اذا أحجم » فمعناه أن الرجل كان مقدما عليهم وقائدا لجيوشهم ، أسلموا اليه القياد وساروا من خلفه ، اذا امرهم بالهجوم هجموا ، واذا اشار بالتريث قبلوا . والعرب ماكانوا ليسلموا قيادهم الى شخص ليس منهم أو الى عبد من عبيدهم الا اذا فاز هذا الشخص بشرف الانتساب اليهم وأظهر من ضروب الشجاعة والاقدام ما أوصله الى مكان الصدارة بينهم . فمن المعروف أن مناصب الرياسة فى القبيلة العربية لم تكن تشغل بالوراثة ولا بالتعيين ، وانما كانت تكتسب بالعمل والخبرة ويستحوذ عليها بالجدارة والكفاءة . وهذا يقطع بأن عنترة لم يصل الى المكانة التى وصل اليها — والتى وصفها الحطيئة — الا لانه كان حائزا على مجموعة من الصفات والمزايا الشخصية التى تؤهله لتولى هذا المنصب .

هذه الصفات والمزايا الشخصية يأتى فى مقدمتها الشجاعة والاقدام وحسن البلاء فى القتال . ولكن النص — سالف الذكر — يلفتنا لفتا لطيفا الى أن شجاعة هذا القائد لم تكن من نوع الشجاعات المطلقة المتهورة ، وانما كان يواكبها ويساندها حكمة مدبرة . [illegible] بفنون القتال والنزال تمكن صاحبها من معرفة الاوضاع معرفة صحيحة وتقدير المواقف تقديرا سليما ، بحيث يستطيع أن يقرر متى يحسن الهجوم فيهجم ، ومتى يكون الاحجام خيرا فيحجم .

وهكذا يثبت لنا هذا النص — أول ما يثبت — وجود عنترة كشخصية تاريخية حقيقية عاش فى الجزيرة العربية فى الحقبة التى سبقت الاسلام مباشرة بحيث عاصر الحطيئة — أو عاصره الحطيئة وعاش بعده ليحكى عنه لعمر بن الخطاب . ثم هو بعد ذلك يثبت أن عنترة كان فردا من

---

(١) الاغانى حـ٧ ص ١٥٣

القبيلة ، أى أن القبيلة كانت قد اعترفت به والحقته بنسبها ، وبذلك أزال عنه وصمة العبودية وتخلص منها الى الابد ، وأن تخلصه ذاك كان بسبب شجاعته وقدرته الحربية الفائقة بحيث اتخذه القوم قائدا لهم يتبعونه فى قتالهم . وليس من شك فى أن هذا القائد كان محاربا بارعا ، وأن ذكره قد ملأ آفاق الجزيرة ، وسار بين العربان بحيث أصبح مجرد الاشارة الى اسمه الاول تكفى للدلالة عليه . فالحطيئة — فى النص السابق — عندما ذكر قيس بن زهير أورد اسمه كاملا بينما ذكر عنترة باسمه المفرد . ومعنى ذلك أن عنترة كان أشهر من آن يعرف باسمه الكامل ، وانه كان اشهر من الملك زهير بن قيس ملك بنى عبس ، وأن فروسيته كانت هى السمة المميزة له ، بل ان اسمه كان الصفة المميزة للفروسية — وليس العكس — بدليل أن الحطيئة يصف قيس بن زهير بقوله «وكان حازما» .

أما عنترة فيصف الفروسية به قائلا « وكان فارسنا عنترة » .

وهكذا تقفز الروايات التاريخية بعنترة من مولده تحت ارساف العبودية الى قيادته لجيوش بنى عبس دون أن تذكر لنا كيف تم ذلك ، ودون أن تتدرج فى حياته مرحلة بعد مرحلة ، ودون أن توقفنا على أى شىء من طفولة عنترة أو صباه أو شبابه ، اللهم الا حادثة اعتراف ابيه به ، بل انها حتى لم تعن بتحديد تاريخ ميلاده .

ومعرفة تاريخ تلك الحقبة من حياة عنترة له من الاهمية قدر كبير . فهذا الطفل الذى ولد عبدا ، وشب ليعهد اليه برعى الاغنام ، كانت له — ولاشك — نفس وثابة عالية أبت ذل العبودية وثارت على العمل الحقير الذى عهد اليه به . ومما لاشك فيه أن هذا الموقف خلق لعنترة العديد من المنغصات وعقد النقص والآلام النفسية وربما البدنية التى لاتذكرها روايات التاريخ بينما تصورها خيال كاتب السيرة تصورا لا بأس به وعرضها علينا فى مجموعة متتالية من الاحداث لا تخلو من حبكة قصصية الى جانب ارتباطها بالبناء العام للسيرة .

وما يقال عن نشأة تلك العقد يقال كذلك عن تغلب صاحبها عليها وهذا أيضا أغفله مؤرخو عنترة بينما أجاد فى تخيله ووصف أحداثه كاتب السيرة الذى لمس عقد النقص عند عنترة فوصفها ووصف موقف عنترة منها واصراره على التغلب عليها ، ثم لم يلبث ان حولها الى اهداف محدودة يتمثل فى الحصول عليها حل كل تلك العقد . ولهذا اوقف عنترة حياته على حلها . وتسير هذه الاهداف فى سلسلة متصلة تبدأ بموضوع النسب ، ثم بحصوله على الزوجة العربية التى يريدها هو ، وتنتهى بتعليق قصيدته على الكعبة بين المذهبات . ولا يصل كاتب السيرة

بفارسه الى تحقيق غاياته الا بعد ان يجعله يمر باحداث تتلوها احداث ، ويخوض المعارك تلو المعارك ، ويقطع من فصول سيرته ما ينيف على ستة عشرا جزءا . اما رواة التاريخ فكما قفزوا بنا من ميلاد عنترة الى حصوله على النسب عاودوا القفز مرة اخرى لنجد انفسنا امام بطولته وهى معلقة على الكعبة .

ويذكر رجال الادب ــ لا التاريخ ــ السبب الذى من أجله قال عنترة تلك القصيدة وهو أن رجلا من بنى عبس سابه وشاتمه فذكر سواده وسواد أمه واخوته وعيره بذلك وبأنه لا يقول الشعر . فقال له عنترة : « والله ان الناس ليترافدون بالطعمة فما حضرت مرفد الناس أنت ولا أبوك ولا جدك قط . وان الناس ليدعون فى الغارات فيعرفون بتسويمهم فما رأيناك فى خيل مغيرة فى أول الناس قط . وأن اللبس ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فيصل . وانما أنت فقع نبت بقرقر . وانى لاحتضر الباس ، وأوفى المغنم ، واعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدى ، وأفصل الخطة الصمعاء ، وأما الشعر فستعلم » . فكان أول ماقال قصيدته :

هــــل غادر الشعراء من مــــتردم

وهى أجود شعره . وكانوا يسمونها المذهبة . (١) أما كيف علقت هذه المذهبة على الكعبة واعتبرت واحدة من مسمطات العرب ، وماالذى فعله عنترة لينال هذا الشرف ويصل بشعره ــ أو بغير شعره ــ الى تلك المكانة ، فهذا مالم يرد له ذكر فى أحاديث المؤرخين والادباء على حد سواء ، بينما تكلف كاتب السيرة عددا آخر من فصول سيرته فصل فيها الكثير من الاحداث ، وذكر الكثير من الاسباب والمسببات التى انتهت بعنترة الى هذا المركز الادبى المتاز الذى يكمل سلسلة الاهداف التى هدف اليها كتعويض للعقد التى صاحبت مولده ونشأته .

ولا يرد لعنترة بعد ذلك من ذكر فى كتب التاريخ اللهم الا اشــارة عابرة تدرج اسمه ضمن من اشتركوا فى حرب داحس والغبراء ، تلك الحرب التى استعر أوارها بين عبس وذبيان ، واستمرت مايقرب من أربعين عاما ، واعتبرت واحدة من أشهر أيام العرب وملأ ذكرها كتب التاريخ والادب . ومع ذلك فان عنترة لايذكر فى أحداثهـا الا ضمنا ، ولا يذكر عنه الا انه كان ممن اشتركوا فى هذه الحرب بحكم كونه واحدا من بنى عبس ، ثم هم لا يذكرون من شعره فى تلك الحرب الضروس الا أبياتا قلائل قال بعضها فى رثاء مالك ابن زهير ، وبعضها فى مناسبات

---

(١) الشعر والشعرا ــ ابن قتيبة حـ ١ ص ٢٠٥ والاغانى حـ٩ ص ٢٢٣ وخزانة الادب ــ البغدادى حـ١ ص ٦١

أخرى متفرقة لا تحدد مكانا واضحا لعنترة في تلك المواقع ولعل هذا هو السبب الذى دعا كاتب سيرة عنترة أن يمر بهذه الحرب المشهورة مرور الكرام دون أن يفيض فى وصفها ورسم صور معاركها مثلما فعل فى تلك الوقائع التى لا نهاية لها والتى أنشأها خياله ، ورسمها تصوره ، وجعل عنترة فيها لا فارسا فحسب ، بل وبطلا تراجيديا مرة ، وملحميا مرة ، وأسطوريا مرة .

ولم تكن شهرة عنترة فى التاريخ والادب كفارس تعادل شهرته كعاشق متيم أحب عبلة ـ ابنة عمه ـ وهام بها وراح يقول فيها الشعر ويذكرها أينما سار وأينما حل وأصبحت قصة حبه ذلك من أشهر قصص الحب المعروفة . وعلى الرغم من ذلك فان المؤرخين ورواة الادب لا يحددون لنا مدى العلاقة التى كانت بين عنترة وبين حبيبته عبله ، ويتركوننا نقف وسط متاهة من التكهنات والاراء المتضاربة دون أن يقطعوا الشك باليقين فيذكروا صراحة : هل تزوج عنترة من عبلة أم لم يتزوجها ؟ .
ونحن لن نحاول تجشم المصاعب ـ مثلما فعل كثير من الباحثين (١) ـ لنرجع أحد الاحتمالين ، ونروح نتصيد اوهى الاسباب لنبنى عليه ونؤكد أن عنترة قد تزوج عبله أو أنه لم يتزوجها ، فهذا أمر ليس له من القيمة مايوازى الافتئات على الحقائق بترجيح رأى ظنى فى موضـــوع تاريخى . واللوم فى هذا يقع ـ ولا شك ـ على عاتق أولئك الذين أغفلوا ذكر هذا الحدث ولم يحددوا لنا ماتم بين عبـــلة وعنترة . أما كاتب السيرة فقد زوجهما ، بل واتخذ من زواجهما خيطا يقيم عليـــه صرح البناء الفنى لقصته الطويلة التى دارت معظم أحداثها حول عبـــلة أو بسببها .

ويسكت عنا مؤرخو الادب فلا يوردون لعنترة ذكرا حتى نصل الى النهاية فيموت عنترة . ولكن ... كيف مات هـــذا البطـــل ؟ ومتى توفى ؟

ان الشق الثانى من السؤال لا يهم مؤرخى الادب فى كثير أو قليـــل ولذلك أغفلوه اغفالا تاما . أما الشق الاول فقد عادوا فيه الى ســـابق عهدهم من اختلاف الروايات وتضارب الآراء . فيقول أبو عبيدة ؟ ان عنترة أغار على بنى نبهان من طىء فطرد لهم طريدة ـ وهو شيخ كبير ـ وكان وزر بن جابر النبهانى ـ الملقب بالاسد الرهيص ـ فى فتوة ، فرماه وقال : خذها وأنا ابن سلمى . فقطع ظهره . ولكن عنترة تحامل بالرمية

---

(١) فارس بنى عبس ـ لحسن عبد الله القرشى ص ٦١ والفتوة عند العرب لعمر الدسوقى ص ٤٣٢

حتى أتى أهله وهو مجروح . (١)

ويذكر أبو عمرو الشيباني قصة أخرى في موت عنترة هي أنه غزا طيئا مع قومه فانهزمت عبس ، فخر عن فرسه ولم يقدر – من الكبر – أن يعود فيركب . فدخل دغلا وأبصره طليعة طيء فنزل اليه وهاب أن يأخذه اسيرا فرماه وقتله . (٢)

ومع أن الرواية الاولى أقرب الى التصور من الرواية الثانية ، لان لقاء عنترة المسن بفارس كالاسد الرهيص – وهو شاب – وتمكن الثاني من الاول أمر أقرب الى طبائع الاشياء من تصور وقوع عنترة عن فرسه فلا يستطيع العودة اليه وهو الفارس المغوار المحنك الا أننا لا نستطيع ترجيح هذه الرواية لان أبا عبيدة لا يستقر عليها وانما يضيف اليها رواية ثالثة أكثر غرابة من رواية الشيباني ، مؤداها أن عنترة كان قد أسن واحتاج وعجز – لكبر سنه – عن الغارات ، وكان له على رجل من غطفان بن بكر ، فخرج يتقاضاه اياه ، فهاجت عليه ريح من صيف وهو بين « شرج وناظرة » – وهما ماءان لعبس – فقتلته ووجد بينهما ميتا (٣) أى أن عنترة المحارب الصنديد الذى لم تقتله الحرب ومنازلة أعتى الفرسان ، ولم تلتهمه المواقع التى خاضها ، تضر به ريح فى منازله اعتادها كل عام فتقضى عليه . ولهذا فان أغلب الباحثين – قدماء ومحدثين – اعتبروا الرواية الاولى أصح الروايات وانها هى الصورة الواقعية التى مات عليها عنترة (٤) وهى كذلك الصورة التى أخذها كاتب السيرة واضاف اليها اضافات درامية جعلتها نهاية رائعة لقصة ممتازة .

ونحن لا يهمنا كثيرا أن نرجح رواية على أخرى ، أو أن نستعمل المنطق والحساب لنحدد سنة وفاة صاحبنا مثلما فعل البعض (٥)أوأن نحدد سنة لذلك دون ماسند أو دليل (٦) ، فان هذه الحقائق التاريخية ليست مجالا للاجتهاد . ولكن الذى يهمنا هو أن نسأل : لماذا سكت مؤرخو الادب عن اثبات ذلك ؟ هل لأن عنترة بن شداد كان شخصا خاملا لا يستحق العناية والتأريخ ؟

---

(١) الاغانى حـ٨ ص ٢٤٤

(٢) الاغانى حـ٨ ص ٢٤٥

(٣) السابق

(٤) المؤتلف والمختلف ص ٩٩ ط القدسى وشعراء النصرانية ، حـ ٦ ص ٧٩٨ وخزانة الادب للبغدادى حـ ١ ص ٦٢ وفارس بنى عبس للقرشى ص ٦٦

(٥) مقدمة ديوان عنترة لابراهيم الابيارى

(٦) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٤٨

والاجابة على هـذا الغرض هى النفى القاطع طبعـا . فعنترة كان شخصا ذا مكانة بارزة فى عصره وبين قومه ، نصبوه فارسا عليهم وقائدا لهم ، وتبعوه ونفذوا أوامره كما أقر بذلك الحطيئة . ولم تكن قيمته وشجاعته أمرا داخليا محصورا فى نطاق قبيلته ، وانما كانت شهرة عامة بين العرب ، وصيته ذائعا فى أرجاء الجزيرة العربية . فهاهو صاحب الاغانى يروى أنه قيل لعنترة : « أنت أشجع العرب وأشدها ؟ قال : لا . قيل : فبماذا شاع لك هـذا فى الناس ؟ . قال كنت أقدم اذا رأيت الاقدام عزما ، واحجم اذا رأيت الاحجام عزما ، ولا أدخل الا موضعا ارى لى منه مخرجا ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثنى عليه واقتله (١)

فعنترة اذن معروف فى الجزيرة العربية كلها ، مشهور بالشـجاعة ومشهود له بها حتى لقد خلعوا عليه لقب « أشجع العرب وأشدها » . فلماذا اذن سكت عنه المؤرخون . ربما كان ذلك لان قصص شـجاعته وبطولته لم تكن تذاع فى الناس ؟ . ولكن الواقع يدحض هذا الغرض كذلك ، فقصص عنترة واخباره كانت تروى وتحكى للناس ، وما كان يروى منها لم يكن خلق خيال وتنميق قاص ، وانما كان أحداثا حقيقية وأخبارا واقعية رائدها الصدق والواقع ، والا لما جسر أحد على حكايتها للنبى محمد عليه الصلاة والسـلام . وهى الى جانب ذلك كانت ــ ولاشك ــ شيئا رائعا مشوقا مشرفا ، أعجبت الرسول حتى أنه قال عنها : « ماوصف لى اعرابى قط فأحببت أن أراه الا عنترة » . (٢) ومعنى هذا أن عنترة كان يذكـر أمام النبى ، وكان يوصف وتروى قصصه وتسرد سيرته ، وأن هذه القصص وتلك السيرة كانت مشرقة رائعة لدرجة جعلت النبى يود لو أن الظروف قد اتاحت له رؤية صاحب تلك القصص وبطل هذه السيرة .

ونعود الى السؤال .. لماذا اذن سكت عنه مؤرخو الادب ؟

وأقرب اجابة على ذلك عندنا هى أن أولئك المؤرخين ماكانوا يهتمون بالقصص والسير ولا بالاشخاص والاعلام ، ولا بالتـاريخ والأحداث ، وانما كان كل همهم موجها نحو الشـعر والشـعر وحده . فهم يرون الشعر أولا وأخيرا ، فاذا ما اتصل ذلك الشعر برجل ذكروه واذا ارتبط بحدث أوردوه ، واذا جرى فى مكان كتبوا اسمه .

ولن نخوض فى أسباب هذا الاتجاه ولا فى نتائجه الضارة ومـدى

---

(١) الأغانى حـ٨ ص ٢٤٤

(٢) بلوغ الأرب ــ الالوسى والاغانى حـ٨ ص ٢٤٣

ما سببت من خسائر أدبية فادحة نحن أمام احداها الآن ، فهذا الحديث يطول وليس هنا مكانه ، ولكن علينا أن نحاول محاولة أخرى ، فنقنع بما وقع بين أيدينا من شعر عنترة وندرسه علنا نستطيع أن نستشف منه تأريخا لحياة صاحبه .

هذا من حيث تأريخ حياة عنترة تأريخا منهجيا ، أما اذا انتقلنا الى ناحية أخرى محاولين استغلال تلك الروايات والاخبار المتفرقة فى رسم صورة لعنترة تبين شخصيته وتوضح حياته ، وتتلمس عاداته ونوازعه متتبعة الاسباب التى أدت الى ذلك وجدنا أن أول ما يلفتنا هو بناء تلك الشخصية . فأم عنترة هى زبيبة الحبشية التى وقعت فى أسر بعض قبائل العرب ، فعملت ورعت الابل وتحملت المشاق . ومعنى هذا أنها لابد كانت فى صحة جيدة وقوة احتمال تعين عليه بنية قوية ، كما كان شكلها – أو منظرها العام – مقبولا الى حد ما والا لما وقع عليها ذلك الفارس العربى الذى انجبها عنترة . وهذا الفارس – سواء أكان هو شدادا نفسه أو ابنه أو أخاه – فانهم جميعا من صفوة فرسان عبس ، تلك القبيلة التى كانت من جمرات العرب بل وكانت أشهر القبائل فى الحرب وأقواها شكيمة وأعزها جانبا . فلاشك أن فرسانها كانوا هم أقوى الفرسان وأعتاهم ، وكان أبو عنترة واحدا من صفوة أولئك الفرسان .

وهكذا نجد أن التزاوج المختلط بين فارس عربى قوى وأمة حبشية قوية – أى بين أصلين قويين صالحين من جنسين مختلفين – قد أنتج خامة جديدة جمعت بين قوة الاصلين وحصلت على مزايا التزاوج المختلف الاجناس ، وامتازت بما فى كل منهما من محاسن وافضال ، وأهلت لعنترة أن يجمع بين القوة البدنية التى يمتاز بها العربى وقوة الاحتمال التى يمتاز بها الجنس الحامى . وهذان العاملان يكمل كل منهما الاخر ، فالقوة البدنية دون مقدرة على الاحتمال مثلها مثل قوة الاحتمال دون قوة بدنية ، كلاهما لا يوصل صاحبه الى شىء ، وانما اجتماعهما هو الذى يبلغه ارفع درجات الفروسية .

وقد التفت مؤلف سيرة عنترة الى هذه النقطة الهامة فى البناء التكوينى لشخصية عنترة فأحسن استغلالها ثم حور فيها قليلا ليكسبها المظهر القصصى وذلك بأن أضاف اليها قوة غيبية خارقة حبا الله بها عنترة فكان كلما أجهد فى القتال تأخر خطوة للخلف وانتظر لحظة ثم تقدم وقد عادت اليه قوته بأكملها من جديد ، وبهذا يستطيع أن يستمر فى الضرب والطعان يوما كاملا أو يومين – وربما أكثر – دون أن يصيبه تعب أو خور أو كلال .

وكان لهذا التزاوج المختلط الذى أنتج عنترة وحباه بمزايا الجنسين المتزاوجين ان شب الصبى وفى صدره رغبة متوثبة نحو الفروسية أخذها عن أبيه ، وفى نفسه قوة احتمال ومثابرة أخذهما عن أمه . فدفعته القوة الاولى الى عدم القناعة بالرعى والقيام بما يقوم به العبيد من أعمال الخدمة فراح يتعلم الفروسية ويتدرب على ركوب الخيل ، وساعدته الثانية على الاستمرار فى هذا العمل اذ لاشك أنه كان يقوم به خلسة دون علم أسياده لانهم لم يكونوا ليسمحوا له بامتهان خيلهم واجهادها وترك العمل الموكول به اليه كما أنهم لم يكونوا ليسمحوا لعبد من عبيدهم بالتمرس على أعمال الفروسية التى هى مظهر من مظاهر السادة محرم على العبيد .

وهنا تظهر فضيلة المثابرة التى ورثها عن أمه الحبشية ، اذ بواسطتها تمكن من مزاولة المران والتغلب على كل ماقد يصادفه فى عمله هذا من عقبات . ولاشك أن هذه الفضيلة ماكانت لتوصله الى مبتغاه لو لم يؤازرها فضيلة أخرى مشهورة عن الجنس الحامى كذلك هى المراوغة وسعة الحيلة وحسن تبصر الامور . وهذه الفضيلة اكتشفها عنترة فى نفسه وأحسن استغلالها وبنى عليها مجده بل وحياته وعبر عنها أصدق تعبير فى عبارة أبى الفرج الأصبهانى . (١) فهذه الفضيلة استغلها فى صباه فمكنته من التدريب على الفروسية واجادة استعمال الخيل والسلاح ، ثم استغلها بعد ذلك فكانت الاساس الاول الذى بنى عليه شهرته ومجده . وكاتب السيرة لم يذكر تلك الفضيلة لعنترة فحسب ، بل وأكد أنها فضيلة حامية مكتسبة من الام ومن جنسها فركزها فى شيبوب — أخى عنترة — وجعلها أظهر صفاته ، ورد اليها الفضل فى تخليص عنترة من كثيرا من المآزق التى كانت تحيق به ، كما جعل من شيبوب وزيرا له ومشيرا يرجع اليه فى كثير من أموره فيشير عليه شيبوب بما تمليه عينه المتبصرة وذهنه ذو الحيل .

وشب الوليد الذى اكتسب تلك الصفات البدنية والذهنية عن والديه المختلطين فوجد نفسه فى مركز لا يليق به ولا تحتمله نفسه العربية الابية . فهو عبد يملكه سيده ، وهو خادم عليه أن يقوم بأعمال وضيعة قليلة الشأن ، وهو تابع يجب أن يطيع كل ما يصدر اليه من اوامر ، ثم هو أسود البشرة بين قوم يعتبرون السواد عيبا وسبة وسمة من سمات العبيد كل هذا جعل الصبى يشعر بالذل والهوان ، وأوجد عنده عددا من مركبات النقص وأمراض النفس ... أوجد

---

(١) الأغانى حـ٨ ص ٢٣٩ ...

عنده عقدة ضد العبودية ، وعقدة ضد اللون ، وعقـدة ضد أعمـال الخدمة التى يقوم بها ، وعقدة ضد السادة البيض الذين يستعلون عليه . ولم يكن عنترة ضعيف الشخصية بحيث تؤثر عليه تلك العقد النفسية تأثيرا سلبيا فيركن الى الفرار والخذلان ، ويقع فريسة سهلة بين براثن الامراض والعلل النفسية ، وانما كان بفضل المزايا البدنية والذهنية التى اكتسبها عن طريق الوراثة ايجابيا فى مجابهته لتـلك العقد جميعا . فبدأ فى محاربتها منذ اللحظة الاولى بأن تدرب على الفروسية وأعد نفسه لمهنة القتال وبذلك تخلص أولا من مهنة الرعى وأعمال العبيد ، ثم أخذت مكانته تعلو بين قومه حتى ساوى فرسانهم وكلون من الوان التعويض أخذ يبزهم ويتفوق عليهم حتى أصـبح وحده حامى حمى القبيلة . ثم يستغلها استغلالا آخـر يمكنه من الحصول على حريته ، فبعد أن أصبح فارس القبيلة الاول يقف فجأة متمنعا عن القتال محددا حريته ثمنا لذلك فلا تجد القبيلة أمامهـا سوى الرضوخ ودفع الثمن وبذلك يتخلص عنترة من عقدة العبودية بعد أن تخلص قبلها من عقدة الرعى فأصبح سيدا حرا وفارسا مغوارا

بعد هذا واجه عنترة عقدة أشد على نفسه من العقدتين السابقتين هى عقدة الجنس واللون . فعنترة — وان تحرر رسميا — الا ان القوم مازالوا يعتبرونه عبدا أسـود الوجه ، وهم يعاملونه — اجتمـاعيا — على هذا الاساس ، ولم تفلح فروسيته وحمايته للقبيلة فى تغيير هذا الوضع الاجتماعى . فعليه اذن أن يسلك الى ذلك سبيلا آخر ، وان يبحث لنفسه عما يوقف هذه التفرقة العنصرية ويعوضه عنها بطريق مباشر — أو غير مباشر —

وجد عنترة امامه طريقين ربما مكناه من بلوغ مأربه فسلكهما معا . وكان أول الطريقين هو المرأة . فالمجتمع العربى يعتز بالمرأة العربية كل الاعتزاز ويحفل بالحرائر العربيات ويعتبرهن آلهة أو أشباه آلهة بالنسبة للعبيد . فعلى عنترة اذن أن يحاول الحصول على واحدة من تلك الحرائر اللائى استعبدنه حينا حتى يثبت لنفسه أنه لم يعـد عبدا وانما صار سيدا له كل ما للسادة من حقوق . فبدأ محاولاته أولا بالحصول على عربية حصولا جنسيا ليرضى هـذه النزعـة التى تمزق نفسه . ولم يقنع عنترة باقتحام خدر أى عربية ، وانما هفت نفسه الى اسمى أولئك العربيات وأعلاهن قدرا عنده وأوثقهن صلة بمشكلته الا وهى « سمية » امراة سيده السابق شداد ، فراح يراودها عن نفسها (١) ولم تحدد الروايات التاريخية ما اذا كانت الصلة قـد

---

(١) اغانى حـ١ ص ٢٣٧

توثقت فعلا بينهما أم أنها لم تتم ولكن اغلب الظن أنها تمتواستمرت. فسمية حين وشت به الى بعلها الذى غضب وضربه ضربا شديدا لا تحتمل النظر الى عنترة وهو يضرب فتلقى بنفسها عليه وتكف زوجها عنه ويسيل منها دمع العين أسى علىحبيبها الاسمر . وحبيبها يعرف هذا الدمع جيدا فكم شاهده من قبل حتى أنه ليقول عنه :

أمن سمية دمع العين مذروف   ولو أن ذا منك قبل اليوم معروف

وهكذا يصل عنترة الى مبتغاه وينجح فى أن يرضى نفسه معوضا عقدة التفرقة العنصرية . ولكن هذا الرضى النفسى الذى بلغه لم يحل المشكلة بأكملها وانما حلها حلا داخليا فقط ، أما المظهر الخارجى فباق كما هو ، فعنترة لازال فى أعين الناس عبدا . اذن فلابد له أن يغير هذه العقيدة . ومادام قد استطاع الوصول الى عربية فى الخفاء فعليه أن يحصل على واحدة فى العلن . وكما اختار فى المرحلة الاولى زوجة سيده التى كان يقوم على خدمتها ابان عبوديته ، اختار للمرحلةالثانية ابنة أخى سيده التى كان يقوم على خدمتها كذلك لما لكل منهما من صلة وثيقة بعقدته . فراح يخطب عبلة من أبيها علنا وأمام الناس. حتى اذا ماتم الزواج منها وأقر له الجميع بهذا كان قد تخلص من تلك العقدة التى أضنته . وهنا تقف الروايات التاريخية دون أن تحدد لنا هل تم لعنترة ما أراد أو أنه لم يستطع تحقيق هدفه ولم يتزوج من عبلة . ولكن الذى لاشك فيه هو أن هذا الهدف الذى وضعه عنترة نصب عينيه كان عاملا هاما من العوامل التى تضافرت على بناء شخصيته ، ودافعا قويا حفزه الى المزيد من الاعمال . فهو يعلم انه لم يحصل على حريته الا باظهار بأسه وقوته ومدى احتياج القبيلة اليه ، فعن نفس هذا الطريق يستطيع أيضا الحصول على هدفه الجديد .

أما الطريق الثانى الذى سلكه عنترة ليجابه به عقدة النقص لديه من الناحية العنصرية فهو طريق الشعر . فالقبيلة كما تحتاج الى الفارس لحمايتها تحتاج الى الشاعر لحمايتها كذلك،وكما تدربعنترة ليكون فارسا وليرتفع بنفسه عن أعمال العبيد ويبز الفرسان ، تدرب كذلك ليكون شاعرا وليرتفع بنفسه بين قومه ويبز الشعراء . وهكذا نجد انه اتخذ الشعر وسيلة الى غاية وعلاجا من عقده النفسية ومركبا يوصله الى مايصبو اليه من مكانة بين العرب . ونحن نجد مصداق ذلك فيما ساقته الاخبار عن السبب المباشر الذى دفعه الى انشاء معلقته فقومه لازالوا يحتقرونه ويسبونه ويعيرونه ، فيرد عليهممعرتهم

مفاخرا بأنه يبزهم فى القتال مثلما يبزهم فى الشعر سواء بسواء ، وبسبب احدى تلك المباريات قال عنترة معلقته (١)

فعنترة اذن ليس فارس القبيلة وحاميها فحسب ، بل هو أيضا شاعرها وصوتها المتحدث بلسانها بين القبائل . وكما أن عقدتى النقص والرغبة فى التعويض عنها دفعاه الى أن يتفوق على الفرسان جميعا فيصبح « عنترة الفوارس » وأشجع العرب وأشدها ، فهو كذلك شاعر الشعراء وأحد الفحول الذين خلد العرب انتاجهم ووضعوه موضع التقديس فوق أستار الكعبة .

وربما كانت هذه العقد النفسية وسلوك عنترة للتغلب عليها هى السبب الذى جعل الفردية تظهر بوضوح فى شعره بخلاف ماهو معروف عن الشعر الجاهلى عامة من أنه تعبير عن الجماعة لا عن شخص قائله ، وانه لسان حال القبيلة بأكملها وليس لسان حال الشاعر الفرد . ولكن بما أن عنترة كان يتخذ الشعر وسيلة للوصول الى مغانم شخصية وطريقا من الطرق التى سلكها فى سبيل التخلص من عقد النقص التى واجهته ، لذلك كان شعره معبرا عن نفسه أكثر من تعبيره عن القبيلة ، وكانت معظم أقواله تعود الى ذاته وتدافع عن شخصه وتفخر بمآثره هو قبل أى شىء آخر .

تلك هى المعالم الكبرى التى حددت شخصية عنترة ورسمت له طريق السير فى الحياة ، وكونت الاسس والدوافع التى جعلته يسلك سلوكا معينا وينهج هذا النهج البطولى . فاذا ما أردنا أن نغوص وراء بعض دقائق تلك الشخصية ، وأن نقف على مزيد من صفاتها الفردية ومزاياها الخلقية وجدنا ان أول اشارة تحدد لنا معالم هذا الطريق هى ذلك الحديث النبوى الذى قاله الرسول عليه السلام : « ماوصف لى أعرابى قط فأحببت ان أراه عنترة . » (٢)

فهذا النص وان كان لا يعطينا أى تفصيلات عن شخصية عنترة ، الا أنه يلفتنا الى أمور عديدة . أولها أن عنترة كان ذائع الصيت فى الجزيرة العربية ، وكان مادة خصبة من مواد السمر الذى يلجأ اليه العرب فى مجالسهم . فصاحب العقد الفريد يذكر أنه قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماكنتم تتحدثون به اذا خلوتم فى مجالسكم ؟ قال : كنا نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليتنا » (٣)

---

(١) الشعر والشعراء حـ١ ص ٢٠٥
(٢) الاغانى جـ ١ ص ٢٤٣
(٣) حـ٣ ص ٤٩

فأحاديث السمر تلك كانت تدور بين القوم كمـا كانت تدور فى حضرة الرسول عليه السلام ، وكان عنترة يذكر فيها كثيرا ، بأشعاره مرة ، وبأعماله مرة ، بل وبصفاته وأخلاقه مرات وكما كانت أشعاره عبقرية رائعة ، وأعماله بطولية فائقة ، فلابد أن أوصافه وخصـاله كانت كذلك حميدة ومثالية استحوذت على اعجاب النبى فخص عنترة بهذا الحديث الذى يرفعه فوق جميع أبطال الجاهلية ورجالها .

ولم يكن عنترة قدوة بين أهل زمانه فحسب ، بل انه كان قدوة للازمان التالية بعده رغم ماطرأ على حياة العرب الدينية والسياسية والاجتماعية من تطور بعيد . ومعنى هذا ان اخلاق عنتره وخصاله الحميدة لم تكن تناسب العصر الذى هو فيه وحده ، وانما كانت مثلا عليا ثابتة القيمة صالحة لـكل انسان فى كل زمان ومكان حتى تمنى بعض أئمة الاسلام لو ان تلك القيم الاخلاقية الجاهلية التى سـنها عنترة بقيت وتأصلت فى نفوس شباب الاسلام فقال : وددت لو ان لنا مع اسلامنا كرم اخلاق آبائنا فى الجاهلية . الا ترى ان عنترة الفوارس جاهلى لا دين له ، والحسن بن هانىء اسلامى له دين ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانىء دينه . فقال عنترة :

وأغض طرفى مابدت لى جارتى   حتى يوارى جارتى مأواها

وقال الحسن بن هانىء مع اسلامه :

كان الشباب مطيـــة الجهل   ومحسن الضحكات والهـــزل

والباعثى والنـاس قد رقدوا   حتى أتيت حليـــلة البعل (١)

ولعل هذا النص هو الذى لفت كاتب السيرة فنقله بفكرته ــ وبما يقارب لفظه ــ ليجرى على لسان « شـاس بن زهير » حيثما يسرع عنترة الى انقاذه وتخليصـــه من الاسر مرة تلو اخرى على الرغم من الاساءات التى كان شاس يلاحقه بها . واخيرا يعترف شاس بافضال عنترة ويحسن خصاله ويتمنى لو كانت له مثلها فيقول مخاطبانفسه : « هذه فعال عنترة معى ومع سائر الناس وهو ابن الامة ، فكيف تفعل انت بضده يا شاس وانت ابن حرة مكرمة » (٢)

وهـكذا نجد ان التاريخ لا يقدم لنا صورة عن حيـاة عنترة ، ولا يزودنا باحداث وافعال تمكننا من تصور هذه الصورة واستنتاجها وكل ما يستطيعه التاريخ هو ان يعطينا تأكيدا بوجود عنترة ثم يطمئننا الى ان حياته كانت مشرقة فاضلة ، وأنها كانت مثالا للفروسية العربية وتطبيقا لمفهومها الصحيح سواء قبل الاسلام وبعده .

---

(١) العقد الفريد ــ ابن عبد ربه حـ٣ صـ ٤٩

(٢) سيرة عنترة مجلد(١) ص ٣٨١

الفصل الرابع

شخصية عنترة من شعره

طبع ديوان عنترة عددا كبيرا من الطبعات فى اماكن متعددة ، وكان اقدم هذه الطبعات هى مجموعة القصائد التى جمعها « اسكندر اغا ابيكاريوس » واطلق عليها اسم « منية النفس فى اشعار عنتر عبس » ونشرها عام ١٨٨٣ م مرتبة ترتيبا ابجديا . وقد اعيد طبعها بعد ذلك عدة مرات فى كل من القاهرة وبيروت . وتلا ذلك محاولة جديدة للاستاذ عبد المنعم عبد الرؤوف شلبى حيث اضاف الى «منية النفس» عددا من القصائد التى رواها البطليوسى والاصمعى واعاد نشره تحت اسم « شرح ديوان عنترة بن شداد » ، ورتب القصائد ترتيبا ابجديا كذلك مع ذكر مصادر كل قصيدة وبحرها ، وذيلها بشرح مختصر لبعض الالفاظ والعبارات .

اما احدث طبعات الديوان فتلك التى اصدرها الاستاذ كرم البستانى عام ١٩٥٨ ونهج فيها نهجا جديدا اذ قسم الديوان الى قسمين متميزين ، القسم الاول يشتمل على القصائد التى اطلق عليها اسم « الشعر الثابت له » ، وهى ما رواه الرواه الذين تقدموا وضع قصته كالاصمعى وابى عبيدة ابى عمر بن العلاء والمفضل الضبى وابى سعيد السكرى والبطليوسى ومن اخذ عنهم . والقسم الثانى يحتوى على القصائد التى اطلق عليها اسم « الشعر المشكوك فى صحته » وهو ما روى فى القصة وما روى فى الديوان دون ان يكون مرويا عن احد اولئك الرواه الثقات

ومعنى هذا ان الاستاذ كرم البستانى وضع الشعر الذى ورد فى سيرة عنترة ضمن ما حمل عليه ، ومعنى هذا ايضا ان شعر عنترة الذى ورد فى ديوانه ليس جميعه مقطوعا بصحته . والاعتماد فى التفريق بين الشعر الصحيح والمنحول يرجع اولا الى روايات الثقات من الرواة ثم بعد ذلك يعتمد على دراسة الشعر نفسه ، تلك الدراسة التى تظهر للقارىء المدقق فرق ما بين الشعرين .

ولسنا هنا بصدد تنخل شعر عنترة لنقبل الصحيح من شعره فنثبته ، ونرفض المحمول عليه فنبعده . وانما غايتنا هى دراسة شخصية عنترة وحسب ، لابراز صور هذه الشخصية فى اوجهها

المختلفة والمقابلة بين تلك الاوجه لا سيما بين الوجه الحقيقى الثابت من احداث التاريخ ووقائعه وبين الوجه الفنى الذه تخيله القاصون المنشئون لشخصية عنترة الروائية . وقد بدأنا بمحاولة رسم الصورة الحقيقية لعنترة كما صورها التاريخ بعد ذلك سوف نحاول تتبع الصورة ــ او الصور ــ التى تخيلها مؤلف السيرة الشعبية له . وعلى ذلك فلست ارى ما يمنعنا من النظر فى شعر عنترة على نفس الاساس فنقبل كل ما حمل اسم عنترة من قصيد لا باعتبار انه صاحبه دائما ولكن على انه يبرز لنا شخصية عنترة فى صورة من الصور . وعلينا ان نقبل مبدئيا ذلك التقسيم الذى اصطنعه الاستاذ البستانى ، فنأخذ القسم الاول اساسا لتبيان شخصية عنترة الحقيقية ونعتبر القسم الثانى تقويما فنيا لتلك الشخصية ، وهذا بالطبع بعد تدقيق النظر فى شعر عنترة جميعه والقيام بعمليات استقرائية فيما صح وما لم يصح حتى نطمئن الى ذلك التقسيم .

هذه « الثنائية » التى تبدو فى شعر عنترة هى فى الواقع ثنائية طبيعية ومنطقية ، فشعر عنترة الثابت له يعبر عن شخصيته الحقيقية او شخصيته التاريخية ــ ولكن من زاوية خاصة هى الزاوية الذاتية فيظهر لنا كيف يرى عنترة نفسه ، وكيف يحس بذاته ويعبر عنها ، وهو فى ذلك ربما رسم لنا خطوطا نفسية مكملة للصورة الشكلية او الخارجية التى رسمها الرواة والمؤرخون . اما الشعر المحمول عليه فمن اوضح مظاهر القصص العربى ان القاص كان يؤيد مروياته بما يعن له من قصائد يحتاج اليها الموقف الروائى ، او يتطلبها الصراع الدرامى ، او ربما ليضفى على مروياته ظلا من الحقيقة يدفعها الى نفوس المتلقين ، او ان المتلقين انفسهم هم الذين كانوا يحسون بتلك الحاجة الى عدد من ابيات الشعر لتثبت الرواية القصصية فى نفوسهم . فعبيد بن شريه ــ الذى استدعاه معاوية بن ابى سفيان ليقص عليه قصصه ــ كان يذكر على لسان ابطاله الشعر الذى قالوه ، فاذا اغفل عبيدا امر الشعر لاحقه معاوية قائلا : « سالتك الا تمر بشعر تحفظه فيما قاله احد الا ذكرته » (١) ، او يقول له : « سالتك الا شددت حديثك ببعض ما قالوه من الشعر ولو ثلاثة ابيات » (٢) . ولهذا فانه لا غرابة فى ان نجد قاصا كوهب بن منبه يذكر قصصه مشفوعة بابيات من الشعر قالها آدم او نوح او حتى غير العرب من ابطال قصصه .

فهذا الشعر اذن هو الصورة المكملة للشخصية الروائية التى

---

(١) التيجان ص ٣١٤
(٢) التيجان ص ٣١٨

يرسمها القصاص ، ووجود هذا الشعر جزء من منهج التأليف الروائي عند العرب بحيث يعتبر اهماله — او طرحه جانبا — قصورا في خطة البحث واغفالا لمقوم اساسي لا تقوم شخصية عنترة التقويم الفني المناسب الا بايراده ودراسته . اما مسألة قبول هذا الشعر او رفضه فامر متروك لمتخصص في دراسة شعر عنترة من ناحية التحقيق والتأريخ الادبي . اما نحن فنقبل هذا الشعر على اعتبار انه جزء من فن الرواية العربية اصطنعه القصاص كمقوم من مقومات البناء الفني لعملهم .

وقد يوحي قبول هذه الثنائية في شعر عنترة بتخبط منهج البحث على اعتبار ان شخصية عنترة من شعره سوف تكون مهزوزة مترددة بين الشعر الصحيح والشعر المنحول ولهذا فاننا نسرع قائلين ان هذه الدراسة يجب انتسير على اساس فهمين مختلفين لشخصية عنترة ، فهم يعطيه شعره الثابت له ، وآخر يعطيه شعره المنحول ، وان كلا الفهمين قائم بذاته منفصل عن الآخر تمام الانفصال وان كانا معا قد عملا في دأب على خلق « عنترة البطل » الذي اخترق حدود الواقع الى دنيا الاساطير . بمعنى ان شخصية عنترة الحقيقية — او الواقعية — كانت مادة جلبت اليها القصاصين كما كانت في نفس الوقت مادة طيعة مكنتهم في سهولة ويسر من تحويلها الى صور روائية. ومعنى هذا ايضا ان شخصية عنترة الاسطورية كانت تجمع صفات الواقع التاريخي الى جانب تخيلات القصاص وما اضفوه عليها من صفات روائية .

وهنا يلزم ان نحدد شخصية عنترة بتحديدين مبدئيين : تحديد خلقي يرسم الهيكل الانساني بخطوطه وقسماته وملامحه الظاهرة ، وتحديد خلقي يرسم النفس الانسانية بعواطفها وغرائزها وانفعالاتها ومواقفها من الحياة والكون . وسوف نرى ان التحديد الاول — اى التحديد الخلقي — قد عنيت به القصة اكثر من عنايتها باى شيء آخر، فرسمت صورة هيكلية لعنترة جعلت منه انسانا مكتملا للصفات البطولية الظاهرية بينما نرى التحديد الثاني — اى التحديد الخلقي — وقد عني به التاريخ فصور بعضه فيما اورده عن عنترة من روايات ، واكمله هو نفسه بما قال من شعر ثابت له .

وربما كان سبب عناية القصاص بالتحديد الخلقي لعنترة دون التحديد الخلقي هو طبيعة البناء القصصي عند العرب ، اذ ان منهج التأليف الروائي العربي كان يعتمد اساسا على طريقة السرد وحدها دون اللجوء في كثير او قليل الى طريقة التحليل . ولهذا فانه لم يحاول

العناية بالنفس البشرية وتتبع خلجاتها والغوص فى اعماقها لاستكشاف مشاعرها وانما وجه كل همه نحو الخطوط البارزة والملامح الظاهرة. واوضح مثل على هذا هو ذلك الجزء من السيرة الذى يحكى لنا التقاء عياض بن ناشد وفرسانه بعنترة واتفاقهم على الغزو معا ، ولكن عنترة رد كل ما غنموه ليحصل على فرسه الابجر ، فاراد عياض ان يؤدبه وينتقم منه ، فتقدم لمبارزته ولكنه ما ان واجه عنترة حتى رجع عن عزمه وعاد الى قومه ذليلا مخذولا . فلما سألوه عن سبب ذلك لم يستطع تبرير خوفه من عنترة على اساس نفسى استبطانى ، وانما بحث له المؤلف عن تبرير مادى ظاهرى وان وضح فيه التكلف والاغراق فى المبالغة اذ قال عياض عن عنترة : « لما نزل يشد حزام فرسه واراد ان يركب رأيت خصيتيه مدلاتين الى قرب ركبتيه فعلمت اننا لم نخطر له على بال ، ولو اننا خطرنا على باله لارتفعت خصيتاه وتغيرت جميع احواله » (١)

وهكذا نجد ان القاص العربى الذى اتبع طريقة السرد لم يحاول حتى فى المواقف النفسية البحتة ــ ان يتزحزح عن ايراد الظواهر الطبيعية دون غيرها . ولهذا فان العناية بالتحديد الخلقى تعتبر الاساس الاول للبناء القصصى عنده . وربما امكن استشفاف الجانب النفسى من بعض الاحداث او الوقائع ، اما ايراده فى صورة مستقلة فأمر تفتقده سيرة عنترة كما يفتقده القصص العربى على وجه العموم. ولهذا فاننا نقرر من البداية ان دراسة القسم الاول من شعر عنترة سوف تكون مكملة لدراسة شخصية عنترة الحقيقية او التاريخية ، بينما تكمل دراسة القسم الثانى من شعره شخصيته الاسطورية فى السيرة .

ونود ان ننوه هنا كذلك باننا لن نعرض للطعون الكثيرة التى تناول بها بعض الباحثين الشعر الجاهلى بعامة ، وشعر عنترة على وجه الخصوص من أمثال المستشرق نللينو والدكتور طه حسين ، حيث أن هناك كثيرا من الابحاث المتخصصة التى تعرضت لهذا الموضوع واثبتت وجود الشعر الجاهلى (٢) ، كما حاولنا نحن من قبل اثبات الوجود التاريخى لعنترة كانسان ولمعلقته كشعر جاهلى . هذا فضلا عن ان بحثنا يتناول تصوير شخصية عنترة فى مصادرها الموجودة دون الخوض فى تحقيق وجود تلك المصادر .

والناظر فى شعر عنترة يجد ــ منذ الوهلة الاولى ــ ان شعره

---

(١) السيرة مجلد (١) ص ١٤١

(٢) من ذلك كتاب « مصادر الشعر الجاهلى » للدكتور ناصر الاسد

يختلف عن الشعر الجاهلى عامة فى مظهرين اساسيين . المظهر الاول هو ان شعر عنترة يتسم بالرقة والوضوح مع بلاغة التعبير وجودة الاسلوب ، وانه لم يأخذ مأخذ الشعر الجاهلى عامة من حيث ضخامة الالفاظ وخشونة المعانى ووعورة الوصف (١) . والمظهر الثانى أن شعره يكاد يكون فى معظمه شعرا ذاتيا يعبر عن فردية قائله بعكس ما هو معروف عن الشعر الجاهلى من انه شعر جماعى يعبر عن القبيلة اكثر مما يعبر عن قائله . ولا شك ان هذا العامل سوف يساعدنا على استكشاف شخصية عنترة من شعره ، اذ لو كان هذا الشعر جماعيا اكثر منه فرديا لما استطعنا الوقوف على سورة واضحة المعالم لشخصية قائله .

واول خبر تاريخى لعنترة هو انه ولد عبدا لشداد من أمة تدعى زبيبة ، ثم استمر عنترة يرسف فى اغلال تلك العبودية الى أن اعتقه ابوه والحقه بنسبه عندما ابلى بلاء حسنا فى الدفاع عن قومه . هذه الفترة من تاريخ عنترة ، وهذه النقطة بالذات ــ نقطة العبودية ــ ليس لهما اى ذكر أو اشارة فى شعره . فديوان عنترة لا يعرض لعنترة « العبد » ولا يصوره ، بل انه لا يكاد يذكر هذه الكلمة اطلاقا . ولسنا نرى لذلك من تفسير الا ان يكون احد هذه الفروض الثلاثة : ــ

اولا : ان عنترة لم يقل شعرافى تلك الفترة ، وانه بدأ قول الشعر بعد ان تخلص من عقدة العبودية واصبح سيدا حرا مالكا لنفسه . اى ان ملكة عنترة الشعرية لم تترعرع وتزدهر الا حينما تخلص من « القينية » وذل الرق (٢) .

واصحاب هذا الرأى يعززونه بتلك الرواية التى ذكرت بين يدى معلقته مبررة السبب الذى حفزه على قول الشعر وهو ان رجلا من بنى عبس سابه وشاتمه فذكر سواده وسواد امه واخوته ، وعيره بذلك وبانه لا يقول الشعر . فقال له عنترة : « واما الشعر فستعلم » . فكان أول ما قال قصيدته تلك(٣) .

والواقع ان اصحاب هذا الرأى لفتتهم الظاهرة ، ولكنهم ارادوا أن يريحوا ويستريحوا فعللوها هذا التعليل الساذج دون أن يحاولوا سؤال انفسهم : كيف يبقى الفنان طوال هذا الوقت دون ان يستجيب لنزعاته الفنية ؟ ولو امكن حدوث ذلك فانه من غير المستساغ أن

---

(١) شعراء النصرانية : للاب لويس شيخور جـ ١ ص ٨٨٢
(٢) تاريخ الادب العربى ــ للزيات ص ٤٨ وفارس بنى عبس ــ للقرشى ص ٣٥ .
(٣) الشعر والشعراء ــ لابن قتيبة حـ ١ ص ٢٠٥

يبدأ شاعر قرض الشعر بمثل تلك القصيدة التى تعتبر عينا من عيون الشعر العربى ، والتى لم تعلق على الكعبة فحسب وانما وضعت ضمن المعلقات سواء أكانت عشرا أم سبعا . أضف الى ذلك انها اجود ما فى الديوان طرا ، ومن غير المعقول ان يبدأ شاعر قول الشعر بمثلها ثم كلما تقدم فى عمره وفى فنه وفى تجاربه اخرج قصائد تقل عنها قدرا وكما وجمالا وفنا . ثم ان عنترة فى هذه القصيدة يصور عشقه لعبلة بما يدل على ان هذا العشق قد مضى عليه زمن طويل ، وهو يتباهى بفروسيته وحمايته للقبيلة بما يدل كذلك على انه قد تربع على عرش البطولة منذ أمد بعيد . فلماذا اذن لم يقل شعرا طوال ذلك الزمن ؟ الاوفق ان نقول بوضع تلك المقدمة ، وانها وضعت بعد القصيدة — كتفسير لها — وربما بعد حياة عنترة نفسه. والدليل على ان هذه المقدمة من اضافات الرواة هو ان السبب الاساسى من قول القصيدة — كما تزعم المقدمة — كان الرد على عبسى سابه وشاتمه وعيره ، ومع ذلك فان عنترة لم يرد على شيء من كل هذا ولم يذكر ذاك الخصم ولا الحادثة ، فى الوقت الذى ذكر فيه ابنى ضمضم (وهما ليسا من عبس) بما يشبه هذا الادعاء حيث قال عنهما :

ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تدر للحرب دائرة على ابنَى ضَمْضَمِ
الشاتِمَىْ عرضى ولم أشتِمْهُمَا والنـاذِرَيْنِ إذا لم ألقَهُمَا دمى(١)

ولهذا فاننا نعتقد انه من ابعد الامور ان تكون هذه القصيدة اول شعر قاله عنترة كما نرفض تلك المقدمة التى زج بها بين يديها. ثم نحن لا نوافق على الزعم بان عنترة قد امضى تلك الفترة الطويلة من عمره — التى ذاق فيها طعم الحب ، وعاقر الخمر ، وانتشى بالنصر — دون ان يقول شعرا ، ودون ان تترعرع ملكاته وتزدهر .

ثانيا : والفرض الثانى لهذه الظاهرة هو أن عنترة لم يكن قينا قط ، وان كان هذا الزعم يخالف كل ماورد عن عنترة سواء فى التاريخ او فى السيرة ، فى الوقت الذى لا يسنده فيه سوى خلو الديوان من شعر او اشارة تعرض لتلك المرحلة من حياته ، اللهم الا تلك الابيات الثمانية التى تسبقها مقدمة تقرران « امرأة ابيه — قبل ان يدعيه ابوه — حرشت عليه وقالت انه يراودنى عن نفسى ، فغضب أبوه من ذلك غضبا شديدا وضربه ضربا مبرحا بالسيف ، فوقعت عليه امرأة أبيه وكفته عنه ، ولما رأت ما به من جراح بكت » (٢) .

---

(١) الديوان ص ٣٠ — ٣١ ط ١٩٥٨
(٢) الديوان ص ٥٣

فالخبر بهذا السياق صريح فى أن عنترة مر بفترة لم يدعه فيها ابوه ، وهذه الفترة هى حياته فى ظل القينية . اما الابيات فليس فيها دليل على الخبر سوى لفظة واحدة وردت فى البيت الذى يقول فيه : —

المالُ مالُكُمُ والعبدُ عبدُكُمُ فهل عذابُكَ عنى اليومَ مصروفُ

والبيت بهذه الصورة لا يدل على قينية باى حال من الاحوال. فان ناقشنا حركة الضمير فى كلمة (عذابك) ووجدنا انها «فتحة» فى الديوان عجبنا ان تكون كذلك والخطاب فيما قبل البيت وفيما بعده موجه الى « سهية » مما يستدعى ان يكون الخطاب فى هذا البيت كذلك موجها اليها وان تكون حركة الضمير فيه هى « الكسرة » لا الفتحة .

ولكن .. من هى سهية هذه ؟ ان الابيات ليس فيها اشارة واحدة تنم عن انها زوجة ابيه ، بل — على العكس من ذلك — فان فيها ما ينم عن انها لا يمكن ان تكون زوجة ابيه وانما هى مجرد صديقة يتغزل فيها . وآية ذلك قوله : —

كأنها يومَ صدّت ما تُكلِّمُنى ظبىٌ بُعُسْفَانَ ساجى الطرف مطروفُ

فبالله .. كيف يصف عبد من العبيد زوجة ابيه بهذا الوصف ، وكيف يوجه اليها هذا الغزل الصريح وهذا الادعاء ، بل وكيف يصرح بقيام علاقة بينهما فيها الكلام وفيها اللقاء وفيها الصد وفيها الغزل .

اغلب الظن ان هذا الخبر كله مصنوع ، وانه — مثل سابقه — وضع بعد قول الابيات وربما بعد عصر عنترة . اما القصيدة نفسها فلابد ان تكون المرأة فيها غير زوجة ابيه . وفى هذه الحالة لا يكون فيها اشارة الى « قينية » او نحوها ، اذ يفسر البيت الذى اثار هذا الزعم: « المال مالكم والعبد عبدكم » على انه ضرب من ضروب الضعف عند العاشق حتى انه ليسلم لصاحبته بكل شىء ويجعلها فوق الجميع ويرضى منها بمكان العبد تتصرف فيه وتتأمر دون ان يقدر هو على مخالفة او عصيان .

يبقى بعد ذلك عدة ابيات فيها ذكر لسواد جلده دون اى تصريح بالقينية . والمفهوم السائد عند العرب هو ان الاسود ينبغى ان يكون عبدا . ولهذا اخذت تلك الابيات على انها موحية بعبودية عنترة. ومن الواضح خطأ هذا الاعتقاد اذ لا يلزم أن يكون كل اسود عبدا لا سيما

فى بيئة صحراوية لافحة الشمس ومجاورة لمناطق الحاميين الذين يتبادلون معهم التجارة والناس .

ولكن ــ على الرغم من كل ذلك ــ فليس من السهل أن يدعى بعدم قينية عنترة وليس لدينا من دليل سوى عدم ذكر ذلك فى ديوانه . وعليه فلا يبقى امامنا الا الفرض الثالث وهو : ــ

ثالثا : ان عنترة ترفع عن القينية فابى ان يسجلها على نفسه وان يذكر شيئا عن حياته خلالها فاسقطها من شعره عامدا متعمدا ، ونسيها آملا ان ينساها الناس كذلك بل انه ــ كتعويض لهذا النقص الذى يحسه ــ أفاض فى تصوير نفسه كسيد عظيم مترئس على قومه ، آمر فيهم ، اذ يقول : ــ

نادبتُ عبساً فاستجابوا بالقَنا وبكل أبيضَ صارمٍ لم يَنْجَلِ (١)

فالعبد لا يمكن ان يدعو فيستجيب له الاحرار .

وهو فضلا عن ذلك حامى حماهم ومقيل عثراتهم ، يلجأون اليه فى الملمات ويستجيرون به فى النوازل .

يدعون عنترَ والرماحُ كأنها أشطانُ بئرٍ فى لَبَانِ الأدهمِ (٢)

ولا شك ان هذا الوضع التعويضى قد سبب له راحة نفسية لم يستطع اخفاءها فصرح بها قائلا : ــ

ولقد شفى نفسى وأذهبَ سُقمها قِيلُ الفوارسِ وَيكَ عنترَ أقدِمِ (٣)

ثم هو يركز كثيرا من الاهتمام حول فعل بالذات كان سمة من سمات الاشراف هو معاقرة الخمر ، لان العبد لم يكن من حقه شربها علنا ، ولهذا حاول عنترة فى اكثر من موضع ان يذكر الخمر وان يفتخر بمعاقرته اياها وكأنما ليقنع نفسه ــ والناس ــ بانه سيد من الاشراف . فيقول :

ولقد شربتُ من المُدامَةِ بعدما ركدَ الهواجرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ (٤)

وهو لا يشرب الخمر مثل السادة فحسب ، ولكنه يصرع اولئك السادة الاشراف الذين يعاقرون الخمر ليكون اكثر منهم تعمقا

---

(١) الديوان ص ٥٧
(٢) الديوان ص ٢٩
(٣) الديوان ص ٣٠
(٤) الديوان ص ٢٣

فى السيادة . فهو اذ يصور لنا سيدا من هؤلاء السادة الذين كان يصرعهم ، يحرص الحرص كله فى هذه الصورة على اظهار ذلك السيد بمظهر « هتاك غايات التجار » ، اى رايات الخمارين التى كانوا ينصبونها، والتى كان عنترة يتخذها هدفا لهجومه حيث تحتها اكثر من سيد واكثر من بطل ..

رَبِذٍ يداه بالقِداحِ إذا شَتَا هَتّاكِ غاياتِ التِّجارِ مُلَوَّمِ (١)

وتكمل مقومات السيد لعنترة فى هذه القصيدة ذاتها حين نراه يصطحب جارية له . فهذه الخاصة لم تكن للقين قط وانما السادة فقط هم الذين يملكون العبيد .

فبعثتُ جاريتى فقلتُ لها إذهبى فتحسّسى أخبارها لى واعلَمى (٢)

وكأنما يريد عنترة ان يقول انه ليس بعبد ولكنه سيد ومالك للعبيد . ومهما يكن من امر عنترة وعبوديته ، فمن الواضح انه نجح نجاحا كبيرا فى اخفاء ذلك من شعره ، وجعل ديوانه يظهره بمظهر السيد البعيد كل البعد عن القينية ..

وقارىء الديوان يلحظ — منذ النظرة الاولى — ان ما فيه من شعر يعطى صورة كاملة للفارس كما تصورته البيئة العربية البدوية، وانه يساير فى ذلك — خطوة بخطوة — فلسفة الفروسية العربية بجميع مظاهرها ودقائق مفهومها وبشطريها الجماعى والفردى .

وقد سبق ان بينا مدى اهتمام العربى بنسبه حفظا للعصبية وتوثيقا لارتباطه بالقبيلة وتماسك وحدتها سواء فى ذلك النسب الى الاب والنسب الى الام . وهنا تبدو الهوة سحيقة امام عنترة ، فهو لا يستطيع ان يفخر بنسبه كاملا ، وانما يقر فى صراحة بان امه ليست عربية فيقول عن نفسه :

يقدّمُهُ فَتًى من خيرِ عبسٍ أبوهُ ، وأمُّهُ من آلِ حَامِ (٣)

فنسبه لابيه يكفيه . اما النصف الثانى من النسب فانه يستعيض عنه بسيفه :

---

(١) الديوان ص ٢٧

(٢) الديوان ص ٢٨

(٣) الديوان ص ٦٧

إنى امرؤ من خير عبس منصباً شَطرى وأحمى سائرى بالمُنْصُلِ (١)

وهو فى ذلك خير ممن سلم نسبه من الناحيتين ، ناحية ابيه وناحية امه :

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
أُلفيتُ خيراً من مُعَمٍّ مُخْوَلِ (٢)

بل ليعترف صراحة بان سواد امه وعدم عروبتها كانا يسببان له احراجا ويؤلبان عليه القوم . يقول :

فإن تكُ أمى غرابيةً من أبناء حَامٍ بها عِبْتَنِى
فإنى لطيفٌ ببيض الظُّبى وسُمْرِ العوالى إذا جِئْتَنِى (٣)

ونقف هنا وقفة قصيرة لنناقش هذه الابيات التى تثبت امرين دون الثالث . ففيها يعترف عنترة بسواد لونه وبان امه ليست عربية وانما من بنات حام ، ولكن هذه الابيات لا تثبت باى حال من الاحوال عبودية عنترة فى اى فترة من الفترات . فمن المسلم به انه ليس كل اسود عبدا . وهذا الشعر — بالاضافة الى المعلقة — يثبت ان عنترة كان له اكثر من عدو واكثر من حاسد ، وان هؤلاء كانوا يسبونه ويشتمونه ويعيرونه . ولكن كل ذلك اقتصر على سواده وسواد امه ، ولم يذكر اى واحد من هؤلاء مسألة عبوديته ولم يعيره بها او يذكره بايامها . ومسألة العبودية سلاح نافذ بتار ، لو انه وجد حقا لما اغفله اولئك الاعداء والحاسدون . فهل معنى ذلك ان عنترة لم يكن عبدا فى اى مرحلة من مراحل حياته ؟ ام لان العربى كان اذا وافق على الحاق احد بقبيلته احترم كلمته ونسى كل ما كان قبل ذلك ، او ان عنترة بلغ من العظمة والسطوة وقوة الشكيمة ما مكنه من تكميم جميع الافواه بالنسبة لهذه النقطة بالذات — حيث كانت مركز عقده النفسية — ونجح فى ابعاد كل الاقوال وكل الاشارات عنها . أو لعل ما اداه للقبيلة من خدمات سودته عليها ، ودفعهم الى أن يخجلوا من ذكر ماضى ذلك العبد الذى نصبوه سيدا عليهم وقائدا لهم ، فاسقطوا تلك الفترة من حياته وتناسوها تناسيا كليا .

ان واحدا من تلك الفروض جميعا لا يستطيع ان يرجح على غيره

---

(١) الاغانى حـ٣ ص ١٥٣
(٢) الديوان ص ٥٧
(٣) الديوان ص ٣٦

دون دليل ، وطالما اننا لا نملك هـذا الدليل حتى الآن ، لذلك سيبقى هذا السؤال الحائر : هل كان عنترة عبدا ، ام لم يكن ؟.

وقد سبق لنا القول ان اول مظهر من مظاهر البطولة هو القوة البدنية ــ سواء أكانت طبيعية او مكتسبة ــ وتتمثل القوة الطبيعية فى الشجاعة والاقدام والقدرة على مقارعة الفرســان ، بينما تتمثل القوة المكتسبة فى اجادة ركوب الخيل وحسن استعمال السلاح واتقان فنون القتال والنزال . ولما كانت القوة مظهرا من مظاهر البطولة الجماعية فقد تغنى عنترة بقوة قومه فى قصيدتين من قصائد الديوان ، واختار لهم من الصفات كل تلك التى كان يحتاج اليها البدوى ويأتى على رأسها كثرة العدد . ولهذا يصفهم قائلا :

إذا ما مَشَوْا فى السَّابِغاتِ حسبتهم سُيُولاً وقد جاشت بهنّ الأباطحُ (١)

وليست المسألة مجرد عدد فحسب ، وانما كل فرد من ذلك العدد الكبير يتصف بقوة الشكيمة ورجاحة العقل والقـدرة على ممارســة القتــال ، وهو بعد ذلك لا يهاب الحــرب ولا يطيش لهولها صــوابه . يقول عنترة :

فأشرعتْ راياتٍ وتحت ظلالها من القوم أبناء الحروبِ المَراجحُ (١)

وهؤلاء القوم ليسوا حديثى العهد بالحــروب ، ولكن لهم فيها قدم راسخة وكفاح طويل وتجارب متعددة . فهو يصفهم بقوله :

فلم أرَ حياً صابروا مثل صَبْرنا ولا كافحوا مثلَ الذى نُكافحُ (٢)

ويعدد عنترة بعض المعــارك التى خاضها قومه وكتب لهم فيهــا النصر قائلا :

فلما التقينا بالجفارِ تضعضعوا وردّتْ على أعقابهنّ المسالحُ
تركنا ضِراراً بين عانٍ مُكبَّلٍ وبين قتيلٍ غابَ عنه النوائحُ
وعمراً وحَيّـــاناً تركنا بقفرةٍ تعودُهُما فيها الضِباعُ الكوالحُ (٣)

---

(١) الديوان ص ٣٨
(٢) الديوان ص ٣٨
(٣) الديوان ص ٣٨ ، ص ٣٩

كما يعدد عنترة بعض المواقع المشهورة التى حازت عبس فيها النصر على اعدائها واثبتتها فى سجل ايام العرب باسمها . يقول :

فَإنْ يَكُ عِزٌّ فى قُضَاعَةَ ثابتٌ   فإن انا رَحْرَحانَ وأسْقُف (١)

ولم يتغن عنترة بقوة قومه كثيرا ، وانما راح يتغنى بقوته الفردية ويفيض فى ذكر شجاعته وحمايته للقبيلة بأسرها ، وكأنما هو يدل عليها بذلك . وهنا تظهر فردية عنترة واضحة وطاغية . وربما يرجع هذا السلوك الى سببين أساسيين، اولهما اخفاقه فى ربط نفسه بالقبيلة ربطا نسبيا فامه حامية غير عربية الامر الذى فصل بينه وبين القوم وجعله لا يستطيع التباهى بنسبه اليهم والفخر بخؤولته فيهم - تلك الخؤولة التى كان لها عند العرب شأن كبير - فلم يجد امامه من سبيل سوى الاعتماد على نفسه ورفعها لتكون خيرا من كل معم وكل مخول . ولهذا وضحت الفردية فى شعر عنترة بشكل لم يظهر فى شعر اى شاعر جاهلى غيره .

اما السبب الثانى لهذا السلوك فهو عقد النقص العديدة التى كان يعانى منها فى حياته الجماعية ، ويأتى فى مقدمتها عقدة اللون التى لم يفتأ القوم يعيرونه بها ، والتى لم يستطع اخفاءها مثلما فعل بعقدة العبودية التى نجح فى اغفالها اغفالا تاما من شعره . وفى لباقة وثقة بالنفس حول عنترة عقدة اللون عنده من مطعن الى مفخرة مظهرا اعتزازه بها ، معتبرا اياها مجال مدح لا مجال قدح . وكعمل تعويضى انساق عنترة فى فخره ذاك مبالغا بعض الشىء ليقنع نفسه - ويقنع المستمعين معه - بهذا العمل التعويضى . فيقول مثلا :

إنى أنا عنترةُ الهجينُ   فجُّ الآذانِ قد علا الأنينُ

يُخْضَدَ فيه الكَفُّ والوَتينُ   من وقعِ سيفى سقطَ الجنينُ

عندكُمُ مِنْ ذلك اليَقينُ (٢)

وعلى هذا الاساس اعتبر عنترة ان التعويض الطبيعى لعقدالنقص عنده هو التمادى فى ذكر شجاعته وقوته والفخر بانه اشجع الجميع وتذكير القبيلة دائما بانه هو الذى يحميها ويرد كيد اعدائها . ولهذا فانه لا تكاد تخلو قصيدة واحدة من قصائد ديوانه من تلك الصيحات المعوضة لعقد النقص ولآلام النفس . ولعل هذه الفردية التى بدت

---

(١) الديوان ص ٥٢
(٢) » ص ٧٣

فى شعر عنترة ، وتلك الصور الشعرية التى رسم فيها شجاعته وفروسيته هى التى لفتت اليه مؤلف السيرة ليختاره بطلا لقصته الطويلة .

اما اجادة فنون القتال ، وحسن الدربة على استعمال الاسلحة والعتاد مع العناية بانتقائها وتثقيفها ، فان هذا جزء مكمل للفروسية، ولذلك نجد ان عنترة لا يذكر شجاعته وقوة بأسه الا وقد اكمل الصورة بذكر سلاحه والتغنى بحسن استعماله له . يقول مثلا لعمارة بن زياد العبسى :

مَتى ما تَلْقَنى فردَيْنِ تَرجُفْ رَوانفُ اليَتَيكَ وتُسْتَطارا
وسيفى صارمٌ قَبَضَتْ عليه أشاجعُ لا ترَى فيها إنتشارا
وسيفى كالعَقيقةِ وهو كِمْعى سلاحى لا أفَلَّ ولا فُطارا(١)

والدروع يلبسها ولا يكاد يخلعها لكثرة حروبه ولاعتماده عليها فى تلك الحروب . يعطينا عنترة صورة شعرية جميلة للفارس الدائب الحرب الذى لا يجد فى قته متسعا لخلع الدروع والاغتسال . يقول :

عجِبَتْ عُبَيْلَةُ من فتىً مُتَبَذِّلٍ عارِى الأشاجعِ شاحبٍ كالمُنْصُلِ
شَعِثِ المفارِقِ مُنْهَجٍ سِرْبالُه لم يَدَّهِنْ حولا ولم يَترَجَّلِ
لا يكتسى إلا الحديدَ إذا اكتسى وكذاكَ كل مغاورٍ مُسْتَبسِلِ
قد طالما لَبِسَ الحديدَ فإنما صدأُ الحديدِ بجلده لم يُغسَلِ(٢)

وهو كما يجيد استعمال السيف يجيد كذلك استعمال الرمح .
قال فى يوم جبلة :

وما لبِنيه إلا وسَيفى ورُمحى فى الوغى فَرَسا رِهانِ(٣)

والفرس بالنسبة للبطل شيء هام ، بل انه اهم عنده من نفسه ومن أهله . فلا غرابة أن نجد تلك المقطوعة المعبرة لعنترة يزجر فيها امرأة لامته لانه يحابى فرسه ويؤثره بالغبوق دونها ، فما كان من عنترة الا ان رد عليها قائلا :

لا تذكُرِى مُهْرى وما أطعمتُه فيكونَ جلدُكِ مثلَ جلدِ الأجربِ
إن الغَبوقَ له وأنتِ مسوءةٌ فتأوّهى ما شئتِ ثم تَحَوَّبى(٤)

---

(١) الديوان ص ٤٣
(٢) « ص ٥٩
(٣) الديوان ص ٧١
(٤) « ص ٣٣

ثم يرسم لنا عنترة صورة رائعة معبرة لذلك الفرس يعدد فيها أسباب ايثاره اياه ، ويعترف له فيها بالفضل ، ويجعل منه شريكا وصاحبا يقاسمه امجاده وجهاده . تقول هذه الصورة الانسانية الجميلة :

جزى اللهُ الأغرَّ جزاء صدق إذا ما أوقدَتْ نارُ الحروبِ
يَقِيني بالجبين ومَنْكِبيهِ وأنصرُهُ بمطَّرِدِ الكعُوب
وأدْفِئُهُ إذا هبَّتْ شمَالا بَلِيلا حَرْجَفاً بعدَ الجنوبِ (١)

ويختمها هامسا فى اذن الأغر :

ألستَ بصاحبي يومَ التقَيْنا بسيفَ وصاحبي يومَ الكثيبِ

اما الكر والفر وحسن تقدير الموقف مع خفة الحركة واصطناع الحيلة فانها جميعا خصائص لازمة للفارس وركن هام من اركان الحرب والنزال . ولقد زادت العناية به فى العصر الحديث فخصصت له الدراسات والطرق والتعليمات تحت اسم « التكتيك العسكرى » . واول مبدأ من مبادىء هذا التكتيك هو حسن تقدير المواقف واتخاذ الاجراءات المناسبة لها . وهذا ما نجده فى بيت عنترة :

إن يَلْحَقوا أَكْرُرْ، وأن يُسْتلحَموا أشْدُدْ، وأن يُلْفَوْا بِضَنْكٍ أَنْزِلِ (٢)

ثم هو يصف لنا خطة هجومية ناجحة يقول فيها :

وَسَرَيْتُ فى وَعْثِ الظَّلَامِ أقودُهُم حتى رأيتُ الشمسَ زال ضُحاها
ولقِيتَ فى قُبُلِ الهَجِيرِ كَتيبةً فطعنتُ أول فارس أولاَها
وضربتُ قَرْنَيْ كَبْشِها فتَجَدَّلا وَحَمَلتُ مُهْرِى وَسْطَها فمَضَاها (٣)

ولمظهر القوة فى البيئة الجاهلية وجه عكسى لا يقل فى قيمته وقدره عن الوجه الاساسى ونعنى به الانتقام والاخذ بالثأر . وهذا الوجه يظهر فى شعر عنترة باعنف صوره واقوى مظاهره . فهو وديع طيب مسالم ما لم يعتد عليه أحد ولكنه يضيف :

وإذا ظُلِمْتُ فإن ظُلْمِىَ باسِلٌ مُرٌّ مذاقَتُهُ كطعم العلقَم (٤)

---

(١) الديوان ص ٣٤
(٢) الديوان ص ٥٧
(٣) » ص ٧٥
(٤) » ص ٢٣

وإذا غـدر به الحليف فاقل جزاء يلحق به هو جـدع الانف

وأنا كذلك يا سُهَيّ إذا غَدَرَ الحليفُ نقودُ بالخطمِ (١)

اما الثأر فهو صنو الحياة ولايحول دونه حتى الموت . يقول عنترة:

لقد خشيت بأن أموتَ ولم تدُر للحربِ دائرةٌ على ابنَيْ ضمضمِ (٢)

ويقـول : ـ

وقد كنتُ أخشى أن أموتَ ولم تقُمْ قَرَائِبُ عمرو وَسْطَ نَوْحٍ مُسلّبِ (٣)

ثم هو يوصى قومه بالثأر له اذا ما حالت المنية بينه وبين مبتغاه، فيقول لهم :

إنّ ابن سَلْمى ـ فاعلموا ـ عنده دمى وهيهات لا يُرجى ابن سلمى ولا دمى (٤)

وحينما قتل مالك بن زهير العبسى اقسم عنترة لينتقمن له ، ووجه اليه الخطاب قائلا :

فسوفَ ترى إن كنتُ بعدك باقيا وأمكنني دهرٌ وطولُ زمانِ

وأقسمُ حقا لو بقيتَ لنظرة لقرّتْ بها عيناكَ حين ترانى (٥)

وهكذا نجد ان المظهر الاول من مظاهر الفروسـية العربية ـ وهو مظهر القوة بوجهيها ـ يكتمل عند عنترة ويصوره شـعره فى وضوح وجلاء يدلان على انه كان بحق نموذجا مثاليا للفارس العـربى . فاذا انتقلنا الى المظهر الثانى من مظاهر الفروسـية العـربية وهو القـوة القولية والفصاحة الشعرية ، وجدنا ان ما بين ايدينا من ابيات تسلم لعنترة بالقيادة الفنية مثلما سـلم الاقدمون له بها وعلقوا قصيـدته على الكعبة .

والمظهر الثالث من مظاهر الفروسية العربية ـ وهو ما يتمثل فى الشرف والكرامة وحميد الخصال ـ فان شعر عنترة يرسم لنـا صورة وضاءة له . ولعل ابرز ما فى شعر عنترة خاصا بهذا الموضوع هو ذلك الشعور الانسانى الفياض ضد الحرب وويلاتها والملفت هنا حقا هو ان هذه اللفتة الانسانية صادرة عن فارس تعتبر فروسـيته مصدرا اساسيا لوجوده ولبناء كيانه الاجتماعى ، ثم هى صـادرة عن

---

(١) الديوان ص ٦٤
(٢) الديوان ص ٣٠
(٣) الديوان صـ ٣٥
(٤) الديوان ص ٦٨
(٥) » ص ٧٠

عنترة بالذات وهو الذى اتخذ من الحرب وسيلة يرقى بها من طبقة الى طبقة ويصل عن طريقها الى مصاف السادات ــ بل انها كانت الدواء الشافى لعقده النفسية ــ ومع ذلك فاننا لا نستطيع الا ان نجل ذلك الشعور الانسانى الذى فاض به شعر عنترة وهو ينعى على أولئك الذين يتسببون فى اشعال نار الحرب ليكتوى بها الناس وهم فى غنى عنها ، اما هو فما أثار حربا ولا سعى اليها ولكنه مضطر للدفاع عن نفسه وعن قومه ضد تجار الحروب ، وكم يتوق الى انتهاء تلك الحروب والخلاص منها .. يقول :

وإن تَكُ حَربُكُمْ أمست عوانًا ... فإنىّ لم أكُنْ ممّن جَناها
ولكنْ وُلْدُ سَوْدَةَ أرّثُوهَا ... وشبّوا نارهَا لمن أططلاها
فإنى لستُ خاذِلَكُمْ ولكن ... سأسعى الآنَ إذْ بَلَغَتْ أناها(١)

وهو وان كان يكره الحرب الا ان شهامته تأبى الاشاحة عن مستجير استجار به ، فاذا ما دعاه مكروب هب لنجدته وفرج كربه . يقــول :

وَمكْروبٍ كشفتُ الكربَ عنه ... بضَرْبةٍ فيصــلٍ لمّا دعانى
فلَمْ أمسكْ بسمعى إذ دعانى ... ولكن قد أَبانَ له لسانى
ففرقتُ المواكبَ عنــه قهراً ... بطعنٍ يَسبقُ البرقَ اليمانى
ومــا لبيته الا وسيفى ... ورمحى فى الوغى فرسا رهانِ(٢)

فاذا انتقلنا للبحث عن الخصال الحميدة والسلوك الاخلاقى الكريم وجدنا ان عنترة يرسم لذلك ــ بشعره ــ صورة مثالية لم تكن فريدة وفذة فى عصره الجاهلى فحسب وانما اعجب بها كذلك كبار رجال الدولة الاسلامية وحثوا شبابهم على اتباعها (٣) . وجماع هذه الفضائل نجده فى قصيدته الهائية التى يقول فيها :

ما استمْتُ أنثى نفسها فى موطنٍ ... حتى أوَفّى مَهْرها مَولاها
وَلما رَزَأتُ أخا حفاظٍ سلمةً ... إلاّ له عندى بهـا مثلاها
واغشى فتاةَ الحى عند حليلها ... وإذا غزَا فى الجيش لا أغشاها

(١) الديوان ص ٧٧
(٢) الديوان ص ٧١
(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه حـ٣ ص ٤٩

وأغضّ طرفي ما بدَتْ لي جارتي حتى يوارى جارتي مأواها

اني أمرُؤٌ سمح الخليقةِ ماجدٌ لا أُتبعُ النفسَ اللجوجَ هواها(١)

وهكذا يضع لنا عنترة دستورا اخلاقيا اجتماعيا فريدا يحدد اصول المعاملات ، ويبين واجبات الفرد تجاه مجتمعه ، ويعين علاقاته بجيرانه ، ويوضح السلوك السوى للمواطن الصالح . فاذا اضفنا الى ذلك بعض التعاليم الاخرى التى وردت فى شعر عنترة اكتملت لنا الصورة الأخلاقية المثالية للفارس العربى . فالى جانب تلك الفضائل الاجتماعية التى تتحرى الحق والعدل فى المعاملات ، والتى ترعى حرمة الجار ، والتى تنادى بالسماح وعدم اللجاجة ، فان الرجل الابى لا ينال عيشه الا عن طريق شريف مهما لاقى فى سبيل ذلك من مصاعب . ولهذا فان عنترة يقول :

ولقد أبيتُ على الطوى وأظلّهُ حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ(٢)

وعفة النفس من الصفات التى اسندها عنترة الى نفسه حين قال:

يخبرك مَنْ شهدَ الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعفّ عند المغنمِ(٣)

ومن حسن الخصال حفظ الجميل وشكر النعمة . وفى ذلك يقول عنترة :

نُبِّئْتُ عَمْراً غيرَ شاكرِ نعمتى والكفر مَخْبَثةٌ لنفس المُنعِمِ(٤)

والفارس قد يشرب الخمر ، ولكن عليه فى هذه الحالة الا يسرف فى الشراب الى الدرجة التى يفقد عندها وعيه او هيبته ، اذ يجب عليه ان يظل دائما محافظا على وقاره وكرامته ، يقول عنترة :

فإذا شربتُ فإنني مُسْتَهْلِكٌ مَالِي . وعِرضى وافرٌ لم يُكْلَمِ(٥)

والندم من الصفات المذمومة التى لا يرضى عنها عنترة فينفيها عن نفسه قائلا :

وإذا حُمِلْتُ على الكريهة لم أقُلْ بعد الكريهةِ ليتنى لم أفعلِ(٦)

ثم هو بعد ذلك شريف المعاملة شريف الخصومة ، يعتبر المبارزة

---

(١) الديوان ص ٧٦
(٢) الديوان ص ٥٧
(٣) الديوان ص ٢٥
(٤) الديوان ص ٢٨
(٥) الديوان ص ٢٤
(٦) الديوان ص ٥٨

مباراة رياضية ما ان تنتهى حتى تنتهى معها الخصومة ، فلا يستوجب الامر بعدها حقدا على مهزوم أو تشفيا فى مغلوب . قال عنترة عن جرية ابن الهجيم بعد أن قاتله وقرعه :

فإن يبرأْ فلم أنفِثْ عليه وأن يُفقَدْ فَحُقَّ له الفُقُود(١)

وتكتمل صورة البطل فى شعر عنترة بذلك الايمان بقدرة الخالق والتسليم بالقدر . ولن نستند فى ذلك على بيت عنترة المشهور :

ياعَبْلُ أينَ من المنية مهربى إن كان ربى فى السّماء قضاها(٢)

حيث ان البعض يشك فى هذا البيت لا لشىء سوى ذكر الله والسماء فيه مع ان قائله جاهلى لم يدرك الاسلام . ومن الثابت ان الجاهلية عرفت الاديان السماوية واعترفت بوحدة الخالق فى الدينين المسيحى واليهودى اللذين كانا منتشرين فى الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وليس هناك ما يمنع من معرفة عنترة لدين من هذه الاديان بل وربما ايمانه به . وقد يعزز هذا الرأى عدم ذكر عنترة لأى اله من آلهة الوثنية واصنامها ، ويعضده كذلك تلك الدساتير الاخلاقية السامية التى ضمنها عنترة ابياتا كثيرة له مما يكاد ان ينطبق انطباقا كاملا مع تعاليم الاديان السماوية . ولكننا لن نعتمد على هذا البيت وانما نعتمد على ظاهرة واحدة بدت فى شعر عنترة بصورة ملحة وملفتة ، وكان لها — ولا شك — اثر عظيم على سلوكه حتى اننا لانغالى اذا ما قلنا انها كانت الدافع الاول لشجاعته وفروسيته. تلك الظاهرة هى تسليمه المطلق بالقدر وايمانه بان الحياة الانسانية موكولة الى قوة غيبية ، وان الموت لا ينجى منه شىء ولا يبعد عنه خوف أو هرب أنظر اليه وهو يقول :

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِى الحُتُوفَ كأنَّنى أصبحتُ عن غَرَضِ الحتوفِ بمَعزِلِ
فأجبتها : إن المنية منهلٌ لا بدَّ أن أُسقَى بكأسِ المَنْهَلِ(٣)

ويقول فى قصيدة اخرى :

وعَرَفْتُ أنَّ منيتى إن تأتنى لا يُنْجِنى منها الفِرَارُ الأسْرَعُ(٤)

---

(١) الديوان ص ٤٢
(٢) الديوان ص ٧٤
(٣) الديوان ص ٥٨
(٤) الديوان ص ٤٩

وهكذا نجد ان شعر عنترة يرسم لنا صورة متكاملة واضحة للفارس العربى ، ويجعلنا نرى فى صاحب هذا الشعر نموذجا مجسما للبطل حسب مفهوم العصر الجاهلى ولكن هذه الصورة تعتبر فى واقع الامر قاسما مشتركا بين الفرسان جميعا ، وبذلك فاننا لا نخرج منها الا بان عنترة كان فارسا جاهليا وبطلا من ابطال العرب ، وهو فى ذلك يشبه الكثيرين غيره من الفرسان والابطال . اما اذا اردنا ان نستخلص صورة مفردة له تميزه عن غيره من الفرسان والابطال ، وتوضح جوانب شخصيته ، فاننا ما نكاد نعيد النظر فى شعره حتى تكشف النقاب عن حقيقتين هامتين — لا باعتبار ان كلا منهما قائمة بذاتها ومنفصلة عن الاخرى — ولكن على اساس انهما ممتزجتان ومتفاعلتان مع بعضهما .

هاتان الحقيقتان هما الصورة المستخلصة لعنترة الفارس البطل، والصورة المستخلصة لعنترة المحب المدنف . فالجمع بين هاتين الظاهرتين يجعل بؤرة الصورة تتركز على شخص واحد هو فى نفس الوقت « محارب عاشق » ، اى ان البطولة والعشق قد تفاعلا معا وانتجا شخصية مميزة لا تشبهها اية شخصية جاهلية اخرى سواء فى الفرسان كفرسان فقط او فى العشاق كعشاق فحسب .

هذه الشخصية الفريدة فى تكوينها ومواصفاتها يصورها لنا شعر عنترة تصويرا ممتازا جاء بعضه فى لاميته المشهورة التى مطلعها :

عَجِبَتْ عُبَيْلَةُ من فتىً مُتَبَذِّلِ ... عارِي الأشاجعِ شاحبٍ كالمُنْصُلِ (١)

فنحن نرى فى هذه القصيدة صورة العاشق الفارس . . العاشق الذى يريد ان يهب روحه لصاحبته، والفارس الذى يريد ان يقدم حياته للنصر . والمعنى فى الحالين سواء ، اذ هو بذل وسماحة وكرم مسرف . وقد ظهر هذا الاتجاه — اول ما ظهر — فى الملاحم القديمة ، ثم تقدم بعد ذلك على اعتبار انه ممثل لمرحلة من مراحل التطور فى وجدانات الامة حتى رأيناه فى الطور الرومانسى يظهر عند جميع الامم .

ولقد كان الفارس فى اوروبا فى القرون الوسطى يجمع بين القوة الخارقة والضعف الجميل ، فهو قادر على كل شىء ما دام بعيدا عن حبيبته ، فان عرض له امر معها سلم لها القياد لانه يحب ولانه يريد ان يرضى حبيبته .

هذه هى الصورة الفريدة لعنترة التى تميزه عن جميع فرسان الجاهلية وأبطالها فغيره من الفرسان كانوا بدوا تعتبر المرأة عندهم متاعا يشترى بالمهر أو يحصل عليه بالسلاح ، وفى هذه الحالة تكون متعتهم معها متعة جسدية لا مكان فيها للمشاعر الوجدانية والتجاوب

---

(١) الديوان ص ٥٩

الروحى . والمؤهل الأول للمرأة ــ بهذا الوضع ــ هو جمال الشكل الخارجى . فاذا ما ذوى الجمال ، أو بشم منه الرجل ، أو عرضت له من هى أجمل ، ترك الأولى ــ غير مبال ــ وراح يسعى وراء متعة جسدية جديدة . أما عنترة فقد أعطانا صورة للعشق بمعناه الروحى الذى يحيل البطل الغضنفر الى قط وديع تسعده البسمة أكثر من اللمسة ، ويغنيه الرضى النفسى عن اللقاء الجسدى .

ولعل هذه الظاهرة هى التى لفتت كاتب السيرة ، فكانت عاملا من العوامل التى دفعته الى اختيار عنترة كشخصية أولى لروايته مع الاحتفاظ له بطابعه الحقيقى . وقد صور الكاتب هذه الظاهرة ثم ضخمها تضخيما روائيا فجعل عبلة تتمادى فى تدللها على عنترة وتسخره للقيام بكثير من الاعمال ، ثم يصل الامر الى منتهاه حينما تطلب منه أن يقبل قدمها أمام اترابها امعانا فى التدلل . ولعل هذه الظاهرة كذلك هى التى اوحت للكاتب المعاصر ــ الاستاذ محمود تيمور ــ بفكرة مسرحيته « حواء الخالدة » التى جعلها تدور أساسا حول تدلل عبلة وتحكمها فى عنترة وبالتالى فى غيره من الفرسان

ونعود الى القصيدة لنرى عنترة يتشفع الى حبيبته بصفة خلقيه هى النحول ويقول انه خفيف أشعث الشعر ، يريد بذلك أن يلفت نظرها الى أنه رجل رحلة وحرب . وقد قرر صراحة فى مطلع القصيدة انه « متبذل » أى باذل نفسه فى الحرب ، لذلك فانه . . .

لا يَكْتَسِى إلاّ الحديدَ إذا اكْتَسَى ... وكذاكَ كلُّ مُغَاوِرٍ مُسْتَبْسِلِ
قَدْ طَالَمَا لَبِسَ الحديدَ ، فإنَّمَا ... صدأُ الحديدِ بجلْدِه لم يغْسَلِ

على أن هذا الفارس المغوار يهون أمام حبيبته ويرجوها ويتوسل اليها ألا تهجره ، فيقول لها :

لا تَصْرِمِينى يا عُبَيْلَ وراجعى ... فِىَّ البصيرَةَ نظرةَ المُتأمِّلِ

وهو يحب عبلة حبا صادقا لذاتها وليس لجسدها ، فلو أن غرضه كان قضاء لبانة أو نحوها فان سبيل ذلك امامه ميسور ، وطريقه الى غيرها من الحسان موصول ، لانه مطمح الفتيات ، وقبلة انظار الغانيات . وعنترة لايجد غضاضة فى التصريح بكل ذلك لحبيبته قائلا :

فلَرُبَّ أملحَ منْكِ دَلاًّ فاعلمى ... وأقرَّ فى الدنيا لعينِ المُجتلِى
وَصَلَتْ حبالى بالذى أنا أهلُهُ ... منْ ودِّهَا وأنا رخِى المطْوَلِ

وعنترة ــ ذلك الفارس العاشق ــ يعرف من نفسه هذه

الظـاهرة ، ولا ينى يرددها فى الكثير من شـعره . فنحن نراه مثلا يقول فى المعلقة :

إن تُغْدِ فى دونى القناعَ فإننى طَبٌّ بأخذِ الفارسِ المُستلئمِ (١)

ولعل عنترة هنا يتساءل فى دهشة : كيف يستطيع رفع اللامة عن هامة الفارس ، ولا يستطيع رفع القناع عن وجه حبيبته ؟ . وربما كان هذا البيت الذى نسوقه بعد أقوى لمسة فى قصة هذا الشاعر العاشق الذى امتزج هذان العاملان فى نفسه امتزاجا كاملا وأنتجا طرازا فريدا من الرجال جعلته أحاسيسه يهمهم قائلا فى حيرة .

عُلِّقْتُها عَرَضاً وأَقْتُلُ قومَها زَعْماً لَعَمْرُ أبيكَ ليس بِمَزْعَمِ (٢)

فهو فى ميدان الوغى لا ينسى قلبه ، وهو فى ساعات عشقه لايغفل عن حربه ، وهو فى الحالين نتاج للتفاعل بين الفارس والعاشق ، ذلك التفاعل الذى خلق له شـخصية معينة هى شخصية عنتـرة الفارس الذى يختلف عن جميع الفرسان ، وعنترة العاشق الذى يختلف عن بقية العشاق ، وعنترة الشـاعر الذى يختلف عن غيره من شـعراء الجاهلية .

هذه الظاهرة تتكرر فى شعر عنترة باطراد وتكاد تلح على جميع قصائده ، ففى غارة له على بنى ضبة نراه يقول :

تَعالَتْ بِىَ الأشواقُ حتى كأنما بِزَنْدَين فى جوفى من الوجد قادحُ

وقد كنتَ تُخفى حبَّ سمراء حِقبة فَبُحْ لأنَ منها بالذى أنتَ بائحُ

ولكنه لا يلبث عقب هذه الأبيات الرقيقة الحالمة ان يهدر مرعدا وقد انتقل بكيانه كله الى الحرب والقتال . فيقول :

أعاذِلَ ، كم من يوم حربٍ شهدتهُ له منظرٌ بادى النواجذ كالحُ

فلم أرَ حيّا صابَروا مثلَ صبرنا ولا كافحوا مثلَ الذى نـكافحُ

إن شئتُ لا تلقى كَمِىٌّ مُدَجَّجٌ على أعوجىٍّ ، بالطعان مُسامحُ

نزاحفُ زحفاً او نلاقِ كتيبةً تطاعننا او يذعَرُ السّرحُ صائحُ (٣)

وفى معلقة عنترة لمحة فنية تدل بوضوح على روحه التى امتزجت فيها عواطف الحب بشعارات الحرب . فعنترة شـاعر مرهف الحس متأجج العواطف له روح الفنـان وقدراته الابداعية فى نفس الوقت

(١) الديوان ص ٢٣
(٢) الديوان ص ١٦
(٣) الديوان ص ٣٧

الذى تمتلىء فيه نفسه بالشجاعة والفروسية . يصور لنا هذه اللمحة بيت عنترة الذى يقول :

عُلِّقتها عرضا وأقتلُ قومها زعما لعمرُ أبيكَ ليسَ بمزعمِ (١)

وقد يزعم البعض أن هذا البيت يوحى بانفصام عصابى أو بلون من الوان المرض النفسى ، اذ انه يظهر تناقضا فى سلوك الشاعر ويترجم عن تضارب عواطفه وتذبذبها ، ويجعل لعنترة شخصية مهزوزة قد جمعت بين عاطفتين متناقضتين تجاه انسان واحد . وابسط رد على هذا الزعم هو أن ذلك البيت المفرد قد جمع بين شطريه كل المعانى والأحاسيس والانفعالات التى حملها « شكسبير » لمسرحيته الشهيرة « روميو وجولييت » .

والواقع أن شاعرية عنترة تتجلى فى التعبير عن هذا المزج الشعورى عند الفارس العاشق ، اذ نراه لا يلبث أن يتبع البيت السابق بقوله :

ولقد نزلتِ فلا تظنى غيرَهُ منى بمنزلة المحبِّ المكرَمِ (٢)

فعنترة محب صادق الحب وليس طالب لذة عابرة ، وهو مصر على هذا الحب مهما لاقى فى سبيل حبه من صعاب وعقبات ومهما تدخل القدر الساخر ليحكم العداء بينه وبين أهل حبيبته . هذا الحب الذى يحسه اذن حب حقيقى مركز حول حبيب واحد لا يمكن استبداله أو تركه الى غيره . ولهذا فان عنترة حينما يصف لنا عبلة يبدأ بذكر صفة مادية لها هى عذوبة الثغر ولذة المقبل . ولكنه لا يلبث أن تتحول وجداناته عن النواحى الموضوعية المادية وتحلق فى أقصى آفاق التجريد والتحليل . يأخذ عنترة فى البحث عن أسباب يعلل بها عذوبة ثغر حبيبته ، فيبتعد ذهنه ابتعادا كليا عن الماديات ويتجه من فوره نحو الرائحة الزكية ، ولكن هذا التجريد لا يشبع انفعالاته العاطفية فيجعل تلك الرائحة ناتجة من روضة . ولكن ... أى روضة ؟ انها ليست الروضة فى صورتها المادية ، وانما يريد الشاعر صورة تعبيرية يبدع فى وصفها وتحليلها فى أبيات لا تحتاج الى تعقيب أو تعليق ، يقول فيها :

وكأنَّ فارةَ تاجرٍ بقسيمةٍ سبقت عوارضَها إليكَ من الفمِ
أو روضةً أنفا تضمّن نبتَها غيثٌ قليلُ الدمنِ ليس بمَعْلَمِ

(١) الديوان ص ١٦
(٢) الديوان ص ١٦

جادتْ عليه كُلُّ بِكْرٍ حرَّةٍ   فتركْنَ كُلَّ قرارةٍ كالدرهم
سَحًّا وتسكابا فكُلُّ عَشِيَّةٍ   يَجْرى عليها الماءُ لم يَتَصرمِ
وخَلا الذبابُ بها فليس ببَارِحٍ   غَرِداً كفعلِ الشاربِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجاً يحكّ ذراعهُ بذراعِهِ   قَدْحَ المكب على الزِناد الاجذم (١)

فهذه الصور الشعرية المتتابعة التى انساق وراءها عنترة مدفوعا بصدق فنيته الشعرية حتى كان أن ينسى أصل التشبيه واندفع — فى حماس — محاولا التعبير عن الصورة الفنية التى تخيلها لتلك الروضة ، محددا كمية الغيث التى تسقيها ومشبها قطراته بالدراهم ، ثم وصفه ما فى الروضة من طيور وشبهها بالشارب المترنم مرة ، وبالأجذم المكب على الزناد مرة أخرى . ونوشك على الاعتقاد بأن عنترة قد نسى حبه وغزله وفتنه جمال الروض ، ولكن فجأة تطفو مشاعر الفارس العاشق وتنطلق جميعها فى بيت واحد يوقظنا من تلك الرحلة التخيلية التى قطعناها مع عنترة فى روضته ، ويعيدنا — أمام انفعالات الفارس العاشق — الى تلك الحقيقة التى لا تزال تلح عليه . يقول :

تُمْسى وتصبحُ فوقَ ظهرِ حَشِيَّةٍ   وأبيتُ فوق سَراةِ أدهمَ مُلجَمِ

وهكذا نجد انفسنا امام مثال ناطق لفارس فريد يمثل جماع الصفات والخصال التى كان عليها الفارس البدوى ، ويترجم لنا فلسفة الفروسية كما فهمها المجتمع العربى ، ويحدد الاصول والاسس التى تقوم عليها الفضيلة الجاهلية ، ثم ينفرد عنترة بعد ذلك بصورة من صور الفروسية تميزه من الناحية العاطفية وتجعل منه نموذجا ناجحا لعمل روائى ممتاز .

***

وننتقل الى الشعر المشكوك فى صحة نسبته الى عنترة — بما فى ذلك شعر السيرة — لننظر فيه من الناحية الموضوعية وحدها ونطرح جانبا مسألة صحة نسبته أو عدم صحتها ، كما لا نحاول أن نبحث له عن صاحب أو قائل . وانما نحاول فقط أن نستخلص منه صورة لشخصية عنترة تكون هى فى الواقع الصورة التى تخيلها شعراء ذلك العصر لعنترة . وهذه الصورة تختلف كثيرا عن الصورة التى يصورها شعر الشاعر لصاحبه ، كما تختلف أيضا عن الصورة التى تصورها له

(١) الديوان ص ١٨ — ١٩

السيرة الشعبية . فشعر الشاعر يعبر عن الانفعالات الذاتية له والاحساسات النفسية التى يستشعرها هو الامر الذى لايستطيع غيره أن يعبر عنه بلسانه ، والسيرة تعطى صورة كاملة محددة المعالم ، واضحة القسمات ، مرسومة بحذق قصصى وطبقا لتخيل سابق مساير للاحداث والمضامين . أما هذه المقطوعات الشعرية التى قالها بعض الناس فى مناسبات مختلفة ولاسباب متفاوتة وتحت وقع ظروف تختلف من شخص لآخر ومن موقف لآخر فانها لا يمكن أن تعطينا صورة تامة كاملة لشخصية عنترة لا سيما واننا نلاحظ منذ القراءة الأولى لتلك المقطوعات أن معظمها موضوع على مثال من شعر عنترة الحقيقى . فمثلا يقول عنترة مخاطبا عمارة بن زياد

فإن تَكُ أمّى غرابيةً من ابناء حامٍ بها عِبْتَنى

فإنى لطيفٌ ببيض الظُبى وسُمْرِ العَوالى إذا جِئْتَنى[1]

فيأتى الواضعون ليحملوه قولهم على لسانه :

لئن أكُ أسودا فالمسك لونى وما لسواد جلدى من دواء

ولكن تَبعُدُ الفحشاء عنى كبعدِ الأرض عن جو السماء[2]

فضعف هذين البيتين الأخيرين يكاد يشير الى وضعهما والى انهما موضوعان على قياس واحتذاء لبيتى عنترة الصحيحين . ويشبه هذا الى حد كبير احتذاء كاتب هذه القصيدة لنفس المعنى اذ يقول :

لئن يعيبوا سوادى فهو لى نسب يوم النِزالِ إذا ما فاتنى النسب[3]

وواضح أن هذا القول لا يمكن أن يصدر عن عنترة ، لا لما فى نسجه من هزال وتفكك — فهذه وصمة تسوم كل الشعر المنحول عليه — ولكن لأن هذا المعنى الذى فى البيت يتعارض تعارضا كاملا مع ما فى شعر عنترة الصحيح . فعنترة — فى شعره الصحيح — قد فرق بين مشكلة اللون ومشكلة النسب وناقش الاولى بعيدا عن الثانية التى اغفلها — أو كاد — فاذا ما اضطرته الظروف الى ذكرها اعتز بنسبته الى القبيلة ، وبنسبته الى أبيه ، بل واعتز كذلك بنسبه الحامى الى أمه زبيبة ، ولم يذكر مطلقا وضاعة نسبه أو معرته منه كما فى البيت المنحول .

---

(١) الديوان ص ٣٦
(٢) الديوان ص ٨٨
(٣) الديوان ص ٩٢

فالشعر المنحول قد وضع على مثال من شعر عنترة الصحيح ، ولكن المثال الواحد وضع على ظله العديد من القصائد التى تمتاز جميعا بوحدة التقسيم الشكلى لها ، فهى تبدأ بالغزل ، وهذا الغزل يتناول عبلة بالذات ويصر على ذكر اسمها عددا من المرات قد يصل الى العشر فى القصيدة الواحدة وبعد ذلك يأتى الحديث عن بطولة عنترة ومغامراته ، وتنتهى القصيدة عادة بحكمة مناسبة . وقد يعكس ترتيب القصيدة فتبدأ بالحكمة وتنتهى بالغزل وبينهما وصف شجاعة عنترة وقوته وبلائه فى الحروب .

وليس هنا مكان تحليل هذه القصائد فنيا للدلالة على وضعها ، ومع ذلك فان مجرد القراءة السريعة لها تظهر ما فيها من ضعف وسقطات وتكاد تقطع بأنها ليست لعنترة على الرغم من أنها موضوعة على مثال من شعره الصحيح . فمثلا مقطوعة عنترة الشهيرة التى يقول فيها :

إنّى أنا عنترة الهجينُ ... فَجِ الأتانِ قد علا الأنينُ

يُحْصَدُ فيه الكَفُّ والوتينُ ... من وقع سيفى سقط الجنينُ (١)

نجد قصيدة منحولة على منوالها تتناول معظم هذه المعانى الى جانب الاطار العام للقصيدة ولكنها تظهر بوضوح مفهوم الناحلين عن عنترة . تقول القصيدة المنحولة :

دعنى أجدُّ إلى العلياء فى الطلب ... وأبلُغ الغايات القصوى من الرُّتَبِ

لعل عبلة تُضحى وهى راضيةٌ ... على سوادى ، وتمحوا صُورَةَ الغضب

إذا رأتْ السادات سائرةً ... تزور شعرى بركن البيت فى رجبِ

فبادرى وانظرى طعنا إذا نظرتْ ... عينُ الوليد إليه شاب وهو صبى (٢)

ولعل من حقنا بعد ذلك أن نتصور عبلة بعد أن تنظر الى هذا الطعن الذى اذا نظر اليه الوليد شاب ، فما الذى سوف يصيب عبلة منه ؟

وفى قصيدة أخرى من تلك القصائد المنحولة يعمل العقل الباطن لواضعها عملا يكاد يكشف أمره ويجعله يعترف بالحقيقتين السابقتين

---

(١) الديوان ص ٧٣

(٢) الديوان ص ١٠٢

وهما انه هو الذى وضع القصـــيدة على لسان عنترة ، والثانية انه وضعها على مثال من قصائده الحقيقية . فبعد أن انهمك هذا الواضع فى وضع ما يقارب الاربعين بيتا ــ على لسان عنترة ــ يصف فيها حملة له على الفرس ، يختم القصيدة بقوله :

فدونَكُمُ يا آلَ عبسٍ قصيدةٌ يلوح لها ضوء من الصبح أبلَجُ
ألا إنها خيرُ القصائد كلها يُفصّل منها كل ثوبٍ وينسج (١)

وكأنى بهذا الواضع ــ بعد طول ما عاناه ابان وضع قصيدته ــ قد تصور نفسه متقمصا شخصية عنترة ، وتصـور أن الناس الذين يقدمهـا اليهم هم آل عبس ، ولما كان هـذا الرجل يعرف أنه ينسـج قصيدته على منوال قصائد عنترة الصحيحة ، فقد تصور مدى ما فى هذا العمل من فخر لصاحب القصـيدة الاصلية ، فدفعه عقله الباطن الى الافتخار بأن القصيدة التى وضعها الآن سوف تكون أحسن مثال ينسج على منواله الواضعون والناحلون فيما بعد

وقد يتمـادى الواضع فى اتخاذ المثـال الذى يطلبه ، فلا يكتفى بشعر عنترة نفسه وانما يسطو على شعر غيره من الجاهليين ليتخـذ منه مثالا لما ينحل . ففى احدى تلك القصـائد يقول ناحلها على مثال قول عمرو بن كلثوم فى ختام معلقته :

إذَا بَلَغ الرَّضيعُ لَنَا فِطَاماً تَخِرُّ لهُ الجبابِرَ سَاجِدِينا(٢)

فيقول ناحل شعر عنترة :

إذا بلغَ الفِطَامَ لنـا صبيٌّ تَخِرُّ له أعادينا سُجودا(٣)

ولعل معلقة عمرو بن كلثوم كانت أقرب الشـعر الجاهلى الى أذهان واضعى شعر عنترة وأكثره ارتباطا بتصورهم لبطلهم . فنحن لا نلبث أن نلتقى بما يشبه أبيات عمرو بن كلثوم التى يقول فيها :

ونحن إذا عِماد الحى خَرَّتْ عن الأحفاضِ نَمْنعُ من يَلَينا
ونحن غَداةَ أوقِدَ فى خَزازَى رَفَدْنـا فوق رِفْدِ الرَّافِدِينا
ونحن الحابسون بذى أُراطَى تَسَفُّ الجِلَّةُ الخُورُ الدَّرِينا(٤)

---

(١) الديوان ص ١١٣
(٢) شرح المعلقات السبع ــ للزوزنى ص ١٣٥
(٣) الديوان ص ١٢٣
(٤) شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١٣٠

ويقول واضع الشعر على لسان عنترة :

ونحنُ العادِلون إذا حكمنا ونحن المُشفِقون على الرَّعِيَّة

ونحن المُنصِفون إذا دعينا إلى طَعْنِ الرِّماحِ السَّمْهَرِيَّة

ونحن الغالبون إذا حَمَلْنَا على الخيلِ الجيادِ الأعوجية

ونحن الموقدون لكلّ حرب ونصلاها بأفئدة جَرِيَّة[1]

ومهما يكن من امر ، فالذى يهمنا هو الصورة التى يرسمها هذا الشعر المنحول لعنترة ، والشخصية التى تخيلها واضعو شعر عنترة له وتقمصوها ليكتبوا الشعر على لسانه ومن العجيب حقا أن هذه الصورة لا تكاد تتفق مع الصورة التاريخية الواقعية لعنترة ، كما أنها تتعارض تعارضا تاما مع الصورة التى يرسمها شعره الصحيح .

أول وجه للخلاف بين صورة الشعر الصحيح وصورة الشعر المنحول هو طبيعة التصور أو أساسه المبدئى ، فبينما يهتم الشعر الصحيح بتصوير اللمحات الخلقية عند عنترة ، يميل الشعر الموضوع الى رسم الجوانب الخلقية معتمدا فى رسمه على المادية .. والمادية فى كل شيء . فعنترة بن شداد ــ ذلك الفارس المغوار ــ لابد أن يكون وحيدا فى نسجه ، فريدا فى نوعه ، لا يشبهه أحد ، ولم يخلق الله من طرازه سواه . يقول عن نفسه :

إننى لَيثٌ عَبوسٌ ليس لى فى الخَلْقِ ثانى[2]

وتبدأ قصة هذا الاوحد منذ مولده . فهو لم يولد لام آدمية كما يولد الاطفال ، وهو لم يرضع من لبنها ، ولكن الحرب هى التى ولدته ومن لبن المعامع أرضعته :

وفى الحرب العَوانِ ولدتُ طفلا ومن لبن المَعَامع قد سُقِيتُ[3]

فهذا البطل الذى ولد فى الحرب ورضع من لبن المعامع لابد أن تكون خلقته مناسبة لهذا المنبت الشاذ ، فيكون له شكل رهيب مخيف يكفى النظر اليه لارهاب العدو وحمله على الفرار يبكى حظه العاثر الذى أوقعه بين براثن هذا الوحش المخيف :

وآخَرُ هاربٌ من هولِ شخصى وقد أجْرَى دموعَ المُقلتين[4]

---

(١) الديوان ص ٢٤٠

(٢) الديوان ص ٢٢١

(٣) الديوان ص ١٠٧

(٤) الديوان ص ٢٢٥

ومع ذلك فان هذه الصـــورة الرهيبة لعنترة التى تجعل الناظر اليها يفر هلعا ورعبا تقل كثيرا عما يتصوره فى نفسه ، فهو يعتقد أن صورته لا تدفع الى الهرب وحده وانما هى كفيلة بأن تميت النـــاظر اليها . ولهذا يقول :

إنّى لأعجبُ كيف ينظرُ صورتى   يومَ القتالِ مبارزٌ ويعيشُ (١)

ويساعدنا الشاعر على تصور هذا الشكل المخيف بابراز لمحات من وجهه ربما كانت كفيلة بجعلنا نتخيل باقى معـــالم خلقته . فهـــذا البطل ـــ غير الآدمى ـــ ينفث اللهب من مقلتيه . يقول الشـــاعر : انه يواجه الأعداء ...

بوجهٍ مثلِ ظهرِ التُّرس فيه   لهيبُ النار يُشعلُ فى المـآقِ (٢)

فالمقل يشـــــع منها اللهب ، أما الفم فيخرج أنفاسا حارقة يلين لها الحديد :

تخالُ أنفاسى إذا رددتُها   بين الطلولِ محتْ نقوشَ المبرَدِ (٣)

وتشبيه هذا البطل بالاسد الهزبر الغضـــنفر تشبيه عام دارج تكاد لا تخلو منه قصيدة ، ولكن المهم فى الموضـــوع هى أوصاف هـــذا الهزبر ... انه هزبر شرس عبوس

إنـــــى ليث عبــــــوس ليس لى فى الخلق ثانى

أما الشراسة فيحدث عنها عبلة قائلا :

يا عبلَ إنّى فى الكريهةِ ضيغم   شرس إذا ما الطّعنُ شقّ جباها (٤)

وهو قوى الاحتمال لدرجة معجزة ... يقول عن نفسه :

وإنى لحمّالٌ لكلّ مُلمّةٍ   تخرُّ لها شمُّ الجبال وتزعج (٥)

وقد ســـاعدته قوة التحمل هـــــذه على مداومة الطراد وعـــدم الشـــــعور بأى كلل أو ملل منه ، ولهـــذا نراه ينذر عمـــــارة بن زياد العبسى قائلا :

لقد عاديتَ يابن العمِ ليثا   شجاعا لا يَملُّ من الطِرادِ (٦)

---

(١) الديوان ص ١٦٢
(٢) الديوان صـ ١٧٦
(٣) الديوان ص ١٣٧
(٤) الديوان ص ٢٣٦
(٥) الديوان ص ١١٢
(٦) الديوان ص ١١٨

ولا تظهر قوة هذا الليث فى المبارزات الفردية فحسب ، وانما هو يبيد الجيوش ويقضي على الجحافل ولا يخشى لقاء الاعادى مهما كان عددهم ... يقول :

ياعَبْلَ لو أنى لقيتُ كتيبة   سبعين ألفاً ما رَهبتُ لقاها(1)

وكما أن هذا البطل لا يرهب العدد الكبير ، فانه كذلك لا يرهب الليل والوحدة والبيداء ووحش الفلاة ... يقول :

كم ليلة سِرتُ فى البيداء مُنفرداً   والليل للغرب قد مالَتْ كواكبُهُ
سيفى أنيسى ورمحى كلّما نَهمَتْ   أسدُ الدَّحالِ اليها مالَ جانبُهُ
وكم غديرٍ مَزجتُ الماءَ فيه دمًا   عند الصَّباح وراح الوحشُ طالبُهُ(2)

ولعل وصف بعض المعارك التى خاضها هذا البطل يساعد على استكمال الصورة التى تخيلها له الواضعون حتى أنهم جعلوه يخاطب سباع الفلا قائلا :

يا سباعَ الفلا إذا اشتعل الحَرْ   ب اتبعينى من القِفارِ الخوالى
اتبعينى تَرى دماءَ الاعادى   سائلات بين الرُّبا والرمال
ثم عُودى من بعدِ ذا واشكرينى   واذكرى ما رأيته من فِعالى
وخذى من جماجم القوم قوتا   لبنيك الصغارِ والأشبــال(3)

وهكذا نرى أن صورة عنترة فى اذهان الواضعين لشعره صورة مادية تجسد البطولة فى الشكل والخلقة أكثر مما تتصورها معنويات كامنة فى النفس وقدرات يجيدها الشخص . وهذه الصورة تكاد تكون عكسا تاما لما يرسمه شعر عنترة الصحيح من تفسير معنوى للبطولة يكاد يطابق تمــام المطابقة مفهوم الفروســية انذاك ، ويعتمد على المعنويات والخلقيات أكثر من اعتماده على الماديات والشكليات . فعلى الرغم من أن حصيلة هذا الشعر المنحول تصــل الى ثلاثة أضــعاف ما جمع من شعر عنترة الصحيح ، فانه لم يرد بيت واحد فى كل هذا القدر من الشعر الموضوع يذكر شيئا عن خلق عنترة وعن سلوكه وعن خصاله بينما رسم لنا شعره الصحيح صورة مشرقة لمكارم الاخلاق

---

(1) الديوان ص ٢٣٧
(2) الديوان ص ٩١
(3) الديوان ص ٢٠٠

وحدد لنا دستور الفضائل وبين هذا الجانب الهام من جوانب البطولة الذى يعتبر جزءا مكملا لمفهوم الفروسية العربية .

ولم يقتصر هذا الفهم العادى لشخصية عنترة على تصور خلقته وقياس بطولته بمقياس الدم والقتل ، وانما انتقل من شخصه وحربه الى حبه ، فغفل — أو تغافل — عن جميع المعنويات التى تكمن فى هذه العاطفة الانسانية الرقيقة ، وبعد عن جميع المشاعر والأحاسيس التى يثيرها العشق الصادق ، وراح يصور هذا الحب بصورة المادية كذلك . فعنترة لم يحب عبلة بقلبه وانما أحبها بعينه :

يا عَبْلَ لولا أن أرَاكِ بناظرى ... ما كنتُ ألقى كلَّ صعب مُنْكَرِ (١)

وعبلة — هى الأخرى — تحب من عنترة فعاله فقط ، أما هو — كشخصية متكاملة — فليس له دور فى هذا الحب ، اذ أن المسألة لا تعدو أن تكون صفقة قابلة للمساومة والاستبدال والمزايدة ، فلو أتى من رفع الثمن فاز بها ... والثمن هو الضرب والطعن من جانب عنترة فى مقابل الحب والوصل من جانب عبلة . ويبدو أن عنترة كان واثقا من نفسه كل الثقة اذ نراه لا يسمح لها بتغيير المشترى اذا مادفع ثمنا أعلى وانما هو يقبل حتى من يدفع نفس الثمن الذى يدفعه .. ويعبر لها عن ذلك قائلا :

ألا يا عبل قــــد عاينت فعلى ... وبان لك الضلال من الرشاد
وأن أبصرت مثلى فاهجرينى ... ولا يلحقك عار من سوادى (٢)

فاذا كان هذا هو مفهوم الحب عنده ، فالحبيبة اذن لا تقاس الا بالمعيار الجسدى الذى يحكم على الارداف والخصر والبطن والســاق فضلا عن اجادة الممازجة والغنج . وتجتمع كل هذه الصفات فى قوله :

فيا طالما مازحتُ فيها عُبَيْلةً ... وما زحنى فيها الغزالُ المغُنَجُ
أغنٌ مليحُ الدَّلِ أحورُ أكحلُ ... أزجٌ نقىٌّ الخدِّ أبلجُ أدعَجُ
له حاجبٌ كالنونِ فوق جفونِه ... وثغرٌ كزهرِ الاقحوانِ مُفَلَّجُ
وَرِدفٌ له ثِقلٌ وخصرٌ مهفهفٌ ... وحدٌّ به ورد وساقٌ خَدلجِ

---

(١) الديوان ص ١٥١
(٢) الديوان ص ١٢٢

وبطنٌ كطَيِّ السَّابِرِيَّةِ لينٌ أَقَبُّ لطيفٌ ضامرُ الكشحِ مُدَمَّجُ
لهوتُ بها والليلُ أرخى سدوله إلى أن بدا ضوء الصباح المُبَلَّجِ [1]

وعلى كثرة ما ورد فى هذا الجزء الموضوع من ديوان عنترة من قصائد مطلعها الغزل بعبلة وأخرى اقتصرت على هذا الغرض وحده ، فانها جميعا لم نتناول من عشيقة عنترة سوى هـذا الجانب المادى ، ولم تخرج بعلاقتهما عن اللقاء الجسـدى . فعنترة حين يلقاها يقبلها ويضمها و ... يقول :

فضممتُها كى ما أقبلَ ثغرهَا والدمعُ من جفنَى قد بل الثرَى
وكشفتُ برقعَها فاشرق وجهُها حتى أعاد الليلَ صبحا مُسفرا
عربيةٌ يهتزُّ لين قوامهِا فيخالهُ العُشَّاقُ رمحا أسمرا [2]

وحتى ذكرياته عنها لا تخرج من نطاق الناحية المادية ... يقول:

كم ليـلة عانقتُ فيهـا غادةً يَحْيَاَ بها عند المنامِ ضجيعهُا [3]

وحين يتذكر مراتع صباه يقول :

أرضُ الشَّرَبَّةِ كم قضيتُ مبتهجا فيها مع الغيدِ والأترابِ من وَطَرِ [4]

فاذا كان هذا هو الحال بالنسبة لعاطفة رقيقة كالحب ، فليس من المستغرب أن تطغى هذه المادية التجسيدية على كل معنى من المعانى التى وردت فى ذلك الشعر المنحول الذى وضع على مثال من شـعر عنترة الصحيح . فحين يصف الفرس يتناول الجوانب المادية فيه ، بل ويجسد الفرس نفسـه ليكلم عنترة داعيـا اياه للقتـال مرة (٥) ، ومجيبا عليه مرة اخرى اذ نبهه عنترة قائلا : « كن مسـتيقظا غير ناعس » ...

فجاوبَنى مهرى الكريمُ وقال لى أنا من جياد الخيلِ كن أنتَ فارسى [6]

ولا يقتصر الامر على الجواد ، فالغربان هى الاخرى تفهم لغته وترد عليه . (٧)

---

(١) الديوان ص ١١٠
(٢) الديوان ص ١٥٩
(٣) الديوان ص ١٦٩
(٤) الديوان ص ١٥٠
(٥) الديوان ص ١٠١
(٦) الديوان ص ١٦١
(٧) الديوان ص ٢٢٧

ولن نستطرد فى هذا المجال أكثر من ذلك لننتقل الى نقطة أخرى أهم مما سبق وهى أن واضعى الشعر على لسان عنترة لم ينظروا الى شخصيته من الناحية الخلقية فحسب ، ولكنهم لم يفهموا حقيقة هذه الشخصية على الاطلاق . فعنترة – فى شعره الصحيح – لم يعترف بعبوديته اطلاقا – كما سبق أن بينا – أما واضعو تلك الاشعار فقد اعترفوا بعبوديته اعترافا صريحا ورد فى عشر قصائد(١) . وقد عللنا الدوافع التى حدت بعنترة الى انتهاج هذا السبيل ، ولكن أحدا من واضعى الشعر على لسانه لم يفطن لهذا ولم يحاول مساندته بشكل أو بآخر ، واندفعوا جميعا وراء مؤلف السيرة الذى أصدر عليه حكمه بالقينية فظلت تلك الوصمة عالقة به عند الجميع .

ويشبه هذا الى حد كبير موضوع النسب . فعنترة لم يأنف من نسبه ولم يعترف فى شعره الصحيح بأنه كان مطعنا وجهت اليه منه الطعنات ، وانما هو يثبته ويفتخر به . أما فى هذا الجزء من شعره المنحول فالاعتراف صريح بوضاعة النسب . قال فى أكثر من موضع :

لئن يعيبوا سوادى فهو لى نسبٌ يومَ النزالِ إذا ما فاتنى النسبِ (٢)

وهكذا خلط الواضعون الأمور ، فالعبودية التى تبرأ منها عنترة الحقوها به ، والنسب الذى افتخر به جردوه منه . أما السواد الذى قبله عنترة راضيا فقد حاول هؤلاء الواضعون تبريره بتعلات هزيلة ممنطقة مثلما فى قوله :

وإن يعيبوا سواداً قد كسيتُ به فالدرُّ يستره ثوبٌ من الصدَفِ (٣)

فاذا ما أعجزتهم هذه التبريرات الممنطقة الهزيلة نفوا عنه السواد كلية ووصموا من يدعى ذلك بالكذب . قالوا على لسان عنترة :

ومن قال إنى أسودٌ ليعيبنى أريه بفعلى أنه أكذبُ الناسِ (٤)

ثم هم بعد ذلك ألصقوا بعنترة وصمة لم تكن أبدا من شيمة وهى أنه شاعر مداح يخصص قصائد بأكملها للمدح والتزلف . فقالوا على لسانه قصيدتين فى مدح ابنة قيس بن زهير(٥) ، بينما نحن لا نجد فى شعره الصحيح بيتا واحدا فى المدح كما نجد أن الصورة التى يرسمها ذلك الشعر لا يمكن أن تجعل منه شاعرا مادحا .

---

(١) الديوان صفحات ١٤٦ – ١٤٨ – ١٥١ – ١٦٨ – ١٧١ – ١٧٨ – ١٩٧ – ٢٠٤ – ٢١٩ – ٢٤٠ .
(٢) الديوان ص ٩٢
(٣) الديوان ص ١٧٢
(٤) الديوان ص ١٦٠
(٥) الديوان ص ٢٢٣ – ٢١٢ – ٢٠٩ – ٢٣٤

وكما لم يفهم الواضعون الشخصية السوية لعنترة ، فانهم بالتالى لم يفهموا ذلك الجانب الهام من جوانب بطولته متمثلا فى تلك الصورة الناتجة عن التفاعل بين الحب والحرب عنده . فعنترة بالنسبة اليهم عاشق عادى يتمثل عشقه فى الجانب الجسدى من المرأة وقضاء الوطر منها ، فلابد له اذن من أن يخضع ويتذلل ويريق ماء وجهه تحت أقدامها لتنيله ما يريد ... انظر اليه وهو يقول لها :

سأندبُ حتى يعلَمَ الطيرُ أننى حزينٌ ، ويرثى لى الحمامُ المغرَّدُ
وألثمُ أرضاً أنت فيها مقيمـةٌ لعلّ لهيبى من ثَرَى الأرض يبرُدُ(١)

ويصل هذا الضعف الى منتهاه حينما نجد عنترة ينعى نفسه بنفسه قائلا :

أيا صادحات الأيك إن متُّ فاندُبى على تُربتى بين الطيور السواجع
ونوحى على من مات ظلما ولم ينَل سوى البعدِ عن أحبابه والفجائعِ
ويا خيلُ فابكى فارساً كان يلتقى صدورَ المنايا فى غُبارِ المعامِع(٢)

وبعد هذا التذلل فى الحب نعجب أشد العجب حين نجد أن الشاعر قد انقلب فجأة الى عدو لدود للمرأة ، ثائر ضدها وحانق عليها ، وان هذه الثورة قد انطقته بحملة يقول فيها :

موت الفتى فى عِزَّةٍ خيرٌ له من أن يبيتَ أسيرَ طرفٍ أكحلِ(٣)

أو يقول عن نفسه مفاخرا :

وأنى أعشَقُ السُّمرَ العوالى وغيرى يعشَقُ البيضَ الرشاقا(٤)

هذا التضارب العاطفى لا نلمحه فقط فى علاقة العاشق بالمعشوق ، وانما نلمحه كذلك فى علاقته بما يذكره به . فأكثر قصائد هذا الجزء من الديوان تبدأ بالوقوف على الاطلال والبكاء على الدمن وسؤال الصحاب مشاركته فى ذلك . ولكننا لا نلبث أن نفاجأ بثورة «نواسية» ترفض كل هذا الهذر وتنادى الصحاب قائلة :

ياصاحبى لا تبكِ ربماً قد خَلا ودَعِ المنازلَ تشتكى طول البلى

---

(١) الديوان ص ١٤٢
(٢) الديوان ص ١٦٤
(٣) الديوان ص ١٩٧
(٤) الديوان ص ١٧٨

من أين تَدْرى الدارانك عاشقٌ أو عندها خبرٌ بانك مُبْتلَى[1]

هذه الصورة المهزوزة التى يرسمها شعر عنترة الموضوع تدفعنا الى اعادة النظر فى هذا الشعر لمحاولة الوقوف على سره ومعرفةالدوافع التى دفعت اليه . وسرعان مانكشف أن السر الكامن وراء وضع هذا الشعر انما هو السيرة الشعبية . فهذا الشعر جزء مكمل للسيرة ، أو على الاصح هو جزء من التأليف القصصى الذى وضع ليكون رواية طويلة بطلها عنترة .

تبدأ القصة ـ فى الشعر الموضوع ـ متمشية تماما مع أحداث السيرة ، فيقول عنترة فى أول حياته لحبيبته عبلة :

أنا العبدُ الذى خُبِّرتِ عنه رَعَيْتُ جمالَ قومى من فِطَامى
أروحُ من الصباح إلى مَغيبٍ وأرقُدُ بين أطناب الخيام
أذِلُّ لعبلة من فرط حبي وأجملها من الدنيا أهتمامى
وامتثِلُ الأوامرَ من أبيها وقد ملك الهوى منىّ زمامى
وان عابتْ سوادى فهو فخرى لأنى فارس من نسل حام[2]

ولكن سرعان مايحصل هذا العبد على حريته فى موقعة يتقاعس فيها عن نصرة قومه فيستصرخونه النصرة نظير استلحاقه ، وينم له ولهم ما أرادوا (٣) ، حينئذ يفرغ لعبلة ، ولكن لايلبث أن يأتى اليها الربيع بن بدر خاطبا فيقاتله عنترة ويرده عنها (٤) . ويأتى من بعد الربيع مسحل ليخطبها كذلك فيقف منه عنترةنفس الموقف(٥) ويتألب عليه فرسان العرب كل يطالب بعبلة فينازله عنترة فى سبيلها (٦) ، بينما يهرب مالك ـ أبو عبلة ـ بابنته من ديار عبس (٧) فيدركه عنترة ويقنعه بقبوله بعلا لها فيطلب مالك ألفا من النوق العصافير كمهر لابنته ، ويسرع عنترة الى ديار المنذر طالبا تلك النوق

---

(١) الديوان ص ٢٠٥
(٢) الديوان ص ٢١٩
(٣) القصيدة ص ٢٠٣
(٤) الديوان ص ١٥٨
(٥) الديوان ص ١٧٧
(٦) الديوان ص ١١٩
(٧) الديوان ص ١٤٢

العصافير(١) ، ولكن المنذر بن ماء السماء يأسره ويلقى به فى غياهب السجن(٢) ويخرج عنترة من سجن المنذر ليلتحق ببلاط كسرى الذى يعجب به ويغدق عليه النعم فيمدحه عنترة (٣) .

وتستمر قصائد هذا الجزء من الديوان تسير مع أحداث السيرة خطوة بخطوة ، ذاكرة كل لقاء لعنترة مع مشاهير فرسان العرب أمثال: بسطام (٤) ومقرى الوحش (٥) وكل موقعة خاضها عنترة سواء فى اليمن (٦) ، أو ضد العجم(٧) . وبعد ذلك يتحدث هذا الشعر عن صدور عروة بن الورد وعن ابنه ميسرة(٨) ، كما لايفوته أن يذكر الغول والجن الذى التقى به عنترة فى أسطورته(٩) .

والواقع أن هناك أكثر من دليل على أن هذه الاشعار انما وضعت لخدمة السيرة . وأول هذه الادلة هو أن كثيرا من ألفاظ السيرة تردد بشكل ملفت فى تلك الاشعار . فعنترة مثلا يناجى عبلة بقوله :

وحق هواكِ لا داويتُ قلبي بغيرِ الصبرِ يا بنت الكرام(١٠)

فنعت عبلة « ببنت الكرام » تعبير غير شعرى ولكنه كثير الورود فى السيرة . ومثله نعت الاعادى « ببنى اللئام » الذى تكرر فى أكثر من من قصيدة لانه اصطلاح شائع فى السيرة . يضاف الى هذا أن عنترة — عند كاتب السيرة — أصبح رمزا أكثر مما هو شخص ، ولهذا استعمل اسمه كوصف لكثير من الاشياء مثل «الصرخة العنترية» (١١) ، و « الحملة العنترية »(١٢) ، وحتى ذلك المثل — أو الذى أصبح كذلك فيما بعد :

« ولا كلُّ من خاض العجاجةَ عنترُ »(١٣)

ويلفتنا هنا التركيب « ولا كل » فهو الى المصرية الدارجة أقرب منه الى العربية الفصحى . وسيرة عنترة — كما سنبين فيما بعد — مصرية التأليف ، وأحد أدلتنا على ذلك هو شيوع الالفاظ والتعبيرات

---

(١) الديوان ص ١١٩
(٢) الديوان ص ١٦٣
(٣) الديوان ص ٢١٢ ، ص ٢٢٣
(٤) القصيدة بالديوان ص ١٦٥
(٥) القصيدة بالديوان ص ٢٠٥
(٦) القصيدة بالديوان ص ١٣٩
(٧) القصيدة بالديوان ص ١٨٤
(٨) القصيدة بالديوان ص ١٣٥
(٩) القصيدة بالديوان ص ٢٠٢
(١٠) الديوان ص ٢١٩
(١١) القصيدة بالديوان ص ١٥٤
(١٢) القصيدة بالديوان ص ١٥٤
(١٣) الديوان ص ١٤٧

والامثال المصرية فيها . هذه الالفاظ والتعبيرات والتراكيب المصرية نجدها كذلك فى هذا القسم من شعر عنترة . ففيه مثلا ذكر للصعيد فى قوله :

فأفحمها ولكن مع رجال كأن قلوبها حجرُ الصعيد[1]

والقبر يذكره باسمه المصرى وهو « التربة » قائلا :

أيا صادحات الايك إن مت فاندُبى على تربتى بين الطيور السواجع[2]

وكذلك « الحنا » اعتادت المصريات أن يخضبن بها فى الافراح ، يقول عنها عنترة :

وكم من سيد أضحى بسيفى خضيبَ الراحتين بغير حنّا[3]

كل هذا يدل على أن القسم المنحول من شعر عنترة لم يوضع الا لخدمة غرض واحد هو السيرة ، أو أنه على الاصح وضع كجزء مكمل لها ، ولهذا جاءت الصورة التى حاولنا استشفافها منه لشخصية عنترة قاصرة مهزوزة ومتناقضة .

والسؤال هنا : هل هذه الصورة الهزيلة هى نفس الصورة التى ترسمها السيرة ؟

ونسرع لنقرر أن هذه المقتطفات الشعرية لايمكن أن يكمل بعضها بعضا ، وبالتالى لايمكن استخلاص صورة منسقة متكاملة منها. أما السيرة فاننا سنحاول فى الفصل التالى استكشاف الصورة التى ترسمها لشخصية عنترة لنستطيع بعد ذلك الحكم على ذلك العمل الروائى المصرى القديم الذى يعتبر أقدم الاعمال الروائية العالمية .

---

(١) الديوان ص ١٢١
(٢) الديوان ص ١٦٤
(٣) الديوان ص ٢٣١

الباب الثاني

سيرة عنترة بن شداد

الفصل الاول

مخطوطات السيرة

ذكر الاب لويس شيخو — فى كتابه شعراء النصرانية — ان الشيخ يوسف بن اسماعيل « اخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها على الناس » . (١) وذكر اسكندر اغا ابيكاريوس — فى كتابه منية النفس فى اشعار عنتر عبس — فى سياق قصته عن الرجل الحمصى الذى كان يتحمس لعنترة ويداوم على حضور حلقة القصاص كل ليلة فلم يتحمل فى احدى الليالى أن يقطع القاص الكلام عند أسر كسرى لعنترة، وقصد الى منزل القاص ورجاه أن يكمل السياق .. « فأخذ القصاص الكتاب وقرأ له باقى السياق الى أن اخرج عنترة من السجن . (٢) وذكر ابن أبى أصيبعة — فى كتابه عيون الانباء فى طبقات الاطباء — ان أبا المؤيد بن الصايغ العنترى .. « كان فى أول أمره يكتب أحاديث عنتر عبس فصار مشهورا بنسبته اليه » (٣) .

من هذا يتضح أن قصة عنترة أنشئت — فى أول أمرها — مكتوبة ، وتدوولت بين الناس — عبر العصور المختلفة — مكتوبة كذلك، فلا غرو أن يكون لها عدد غير قليل من المخطوطات منتشرة فى المكتبات العالمية المختلفة . ولكن نظرا لطول هذه السيرة طولا مفرطا فان من العسير العثور على مخطوط كامل لها ، وانما هى فى أغلب الاحيان فصل أو عدة فصول قليلة من السيرة التى قسمها صاحبها أساسا الى اثنين وسبعين فصلا .

وقد حصر المستشرق « كارل بروكلمان » مخطوطات سيرة عنترة

فيما يلى :

١ — نص كامل للسيرة بدار الكتب المصرية ويقع فى خمسة وثلاثين جزءا .

---

(١) ص ٨٨٢

(٢) ص ٣

(٣) جـ ١ ص ٢٩٠

٢ ــ قطعة بمكتبة برلين تحمل رقم ٩١٢٣/٥

٣ ــ قطعتان بالمتحف البريطانى تحت رقم ٦٦٣/٥ و ٣١٩/٢٤

٤ ــ قطعة بمكتبة باريس رقمها ٣٦٨٨

٥ ــ قطعة بمكتبة ميونخ رقمها ٦٢٠

٦ ــ قطعة بمكتبة جوته برقم ٢٤٣٥١/٧٥

٧ ــ قطعة بمكتبة واين رقم ٧٨٢

٨ ــ قطعة بمكتبة ليدن رقم ٥٤١/٢

٩ ــ قطعة بمكتبة بوهار تحت رقم ٣٧/٤٧

١٠ ــ قطعة بمكتبة بانك رقم ٤ ــ ١١٠٣/١١١٠ (١)

وفى معهد المخطوطات ــ التابع لجامعة الدول العربية ــ قطعة هى الجزء الثالث من سيرة عنترة بن شداد مصورة عن مخطوط بمكتبة استامبول كتب عام ٨٤٨ هـ .

والواقع أن الظروف لم تتح لنا فرصة الاطلاع الا على المخطوط الأول ومصور المخطوط الاخير ، ولهذا سوف نقصر الكلام عليهما الى أن تتاح لنا فرص أوفى للاطلاع على بقية المخطوطات أو العثور على مخطوطات أخر تشمل السيرة بأكملها .

* * *

مخطوط سيرة عنترة المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ز ١٣٥٢٥ يقع فى خمسة وثلاثين جزءا كل جزء منها فى مجلد يحمل عنوانا يبدأ برقم الجزء ثم عبارة : « الجزء ... (كذا) ... من سيرة فارس الطراد الامير عنتر بن شداد على التمام . » ، وتحت العنوان مختصر لما فى الجزء من أحداث ، ففى الجزء الثانى مثلا يقول هذا الفهرست المقتضب : « هذا فيه ظهور عنتر ، وقتل الذيب والاسد ، وقتل المتغطرس لما أتى بنى عبس فى غيبة زهير ، وقتل بسام عبد الربيع وسبب عداوة شاس والربيع فى عنترة لاجل قتل عبيدهم وهما داجى وفاجر ، وعشقه لعبله ، وطلبه الحسب والنسب من أبيه ، وغضبه على بنى عبس لاجل نفور شداد فيه ، ومقابلته بعياض ابن العتب وأخذ الابجر بالغنيمة التى غنموها ، والحاقه بالحسب والنسب من بعد قتل العساف ، وزواج حصن ، ولقيته بالسيف الضامى وهو مدفون لما أن قابل الاثنين الذين كانوا يتقاتلون عليه وقتل عنترة

---

(١) تاريخ الادب العربى ــ ملحق الجزء الثانى ط ١٩٣٨ ص ٧٤

أحدهم ونصر الآخر ، وعودته بالسيف وأخبار مالك بذلك وزواج عماره بعبلة ، وسير الملك زهير الى بنى المصطلق ، وسبى عبلة — والله أعلم . »

أما فهرست الجزء الثالث فيقول : « ان هذا فيه رواح عنتر الى الملك المنذر ، وأسره ، وأخذ النوق العصافير ، وقتل الاسد وهو مقيد ، وقتل الحاجب خصروان وسيره الى كسرى ، واجتماعه بعبلة وهى سبية بعد أخذ العطايا من الملك كسرى ، وخلاص عبلة من الاعداء وذلك بعد قتله البطريق البدرموط عند كسرى ، وملتقاه بعبلة — والله أعلم . »

وهكذا نجد ان كل جزء من أجزاء سيرة عنترة فى هذا المخطوط تبدأ صفحته الاولى بالعنوان وتحته مثل هذا المختصر لما يحتوى عليه الجزء من الموضوعات ومايجرى فيه من أحداث .

وهذا المخطوط مكتوب بخط معتاد واضح ومنقوط ولكن بأقلام مختلفة الامر الذى يدل على اختلاف كاتبيه . ولا يحدث هذا الاختلاف بين جزء وآخر ، وانما يحدث كذلك فى الجزء الواحد وعند منتصف الكلام — أى دون انتظار لانتهاء الصفحة أو حتى الفقرة . فالجزء الاول يتقاسمه ثلاثة أقلام مختلفة وبأجزاء غير متناسقة ، فالقلم الاول كتب العنوان والمقدمة حتى بداية ذكر تاريخ ابراهيم والنمروذ عن رواية وهب بن منبه ، ثم كتب القلم الثانى بعد ذلك نصف صفحة فقط أكملها القلم الثالث الذى استمر حتى نهاية الفصل . وقد تكررت هذه العملية — بغير تواتر — فى الفصول التالية حتى نهاية السيرة مما يدل على أن هذا المخطوط اشترك فى كتابته ثلاثة أشخاص — وربما أكثر — كان كل منهم يكتب وقتما تسنح له الفرصة وبالقدر الذى يستطيع .

والمخطوط مكتوب بالمداد الاسود عدا العبارات « قال الراوى أو قال الاصمعى » أو ماشاكل ذلك فانها مكتوبة بالمداد الاحمر حتى الصفحة التاسعة والثلاثين من الجزء الاول حيث تبطل الكتابة بالمداد الاحمر ويترك فراغ للعبارة شاغرا دون أى كتابة فيه . وتعاد الكرة بالنسبة لجميع الاجزاء اذ تستمر كتابة تلك العبارات بالمداد الاحمر لعدة صفحات قليلة يترك بعدها الفراغ شاغرا .

هذه الظاهرة — بالاضافة الى ماسبق ملاحظته من تعدد كتاب المخطوط ، ثم عدم اهتمامهم سواء بتحسين الخط أو باستقامة الاسطر وحسن تنظيم الصفحة ... كل ذلك يدل على أن هذا المخطوط يفتقر الى العناية والتنسيق اللذين كان يكتب بهما المخطوطات للخلفاء

وعلية القوم ليحتفظوا بها فى خزائنهم . فأغلب الظن — اذن — أن هذا المخطوط كان لاحد القصاص يقرأ منه على الناس فى الحلقات التى يعقدها كل ليلة ، يبدو هذا من طريقة كتابته كما يبدو من آثار كثرة التناول على أوراقه وانطماس لون الحبر فى معظم أجزائه ، أما اشتراك اكثر من قلم فى كتابته بالطريقة التى أوضحناها فدليل على أن صاحبه القاص ليس هو كاتبه وانما الذى قام بكتابته أناس وربما اشتركوا معا وامتهنوا صناعة نسخ تلك المخطوطات كذلك الطبيب العنترى الذى حدثنا عنه ابن أبى اصيبعة ، ويدل على ذلك أيضا كثرة الاخطاء الهجائية فى المخطوط ، ناهيك بالاخطاء النحوية والصرفية والتعبيرية.

وينتهى الجزء الخامس والثلاثون — وهو آخر اجزاء السيرة — بهذه العبارة وكان الفراغ من كتابة هذه السيرة العجيبة ، الفائقة المطربة الغريبة ، يوم الاثنين المبارك الموافق تسعة وعشرين من شهر جماد الآخر سنة ١٢٨٩ تسع وثمانين ومائتين بعد الالف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام والله الموفق للصواب ، واليه المرجع والمآب ، والله أعلم .

وعلى جانبى هذا الكلام الذى كتب على شكل هرم مقلوب ورد اسم مكتوب باحرف افرنجية وباللغة الفرنسية هو « السيد ا . على صادق » Monsiour A. Ali Sadic

واذا قارنا بين هذا المخطوط لسيرة عنترة وبين الطبعة التى بين أيدينا منها (طبعة المطبعة السعيدية) وجدنا اختلافا ظاهرا فى العنوان حيث تحرص النسخة المطبوعة على ذكر نوع السيرة وذلك بالنص على انها السيرة الحجازية فيقول العنوان : « سيرة فارس الحجاز ، أبى الفوارس عنترة بن شداد . وهى السيرة الفائقة الحجازية ، المشتملة على الاخبار العجيبة والانباء الجليلة » . وثمة فرق واضح هنا كذلك بين المخطوط والمطبوع هو اسم عنترة الذى ذكر فى عنوان النسخة المطبوعة بالتاء (أى عنترة) بينما ذكر فى عنوان المخطوط بدونها (أى عنتر) .

والفرق الثالث هو أن كل جزء من أجزاء المخطوط كان يحمل تحت العنوان فهرسا مقتضبا لما احتواه من أحداث ، أما النسخة المطبوعة فقد أحلت محل ذلك نبذة قصيرة عن عنترة نفسه تقول : « وهو الفارس المشهور ، والبطل الجسور ، سيد الشجعان وقاهر الاقران عنترة بن شداد من شعراء الطبقة الاولى . وكان من أحسن الشعراء شيعة وأعلاهم همة وأعزهم نفسا وأقواهم بطشا وفتكا . وكان مع هذه الشجاعة التى ضربت بها الامثال لين العريكة سهل

الاخلاق شديد النخوة رقيق الشعر ، وقد عمر تسعين سنة ومات مقتولا . وفى سيرته من آثار البطولة وآيات الشجاعة مالا يندثر بل يبقى على ممر الايام وتدوم سيرته مادامت العصور . وفيها يجد القارىء من الوقائع والحروب معارك مسترسلة فى ميادين القتال . »

وتتواتر هذه المقدمة — متكررة بنصها — فى أول كل مجلد من مجلدات هذه الطبعة من السيرة عدا المجلد الثانى الذى ترد فيه عبارة اخرى تتفق مع السابقة نهجا ومعنى وتختلف معها فى اللفظ والاطناب .

فاذا انتقلنا الى صلب السيرة وجدنا أن النسخة المطبوعة تكاد تطابق النسخة المخطوطة انطباق الحافر على الحافر — كما يقول قدامى البلاغيين — فمنذ « البسملة » التى فى أول كل منهما حتى نهاية السيرة ينطبق النصان عدا تحوير بسيط يبدو فى استبدال لفظ بلفظ أو زيادة عبارة قصيرة فى النسخة المطبوعة عما فى المخطوط هى فى حد ذاتها مرادفات لغيرها بحيث لا تحيل معنى أو تضيف جديدا .

ومع ذلك فان الاثنين لا يتفقان فى التقسيم ، فبينما يشتمل المخطوط على خمسة وثلاثين جزءا كل جزء فى مجلد فان هذه الطبعة من السيرة تشتمل على خمسة وخمسين جزءا فى ثمانى مجلدات ، الامر الذى يجعل نهايات الفصول فى كل منهما غير متحدة مع مافى الآخر . ولكن ليس لهذا الخلاف أهمية كبيرة بالنسبة لسيرة عنترة بالذات لان كاتبها الاول لم يفصل بين فصولها وينتهى بالكلام فى كل فصل عند نهاية يمكن السكوت عندها ليبدأ الفصل الجديد بموضوع جديد ، ولكنه « التزم فى آخر كل فصل أن يقطع الكلام عند معظم الأمر الذى يشتاق القارىء الى الوقوف على تمامه فلا يفتر عن طلب الكتاب الذى يليه ، فاذا وقف عليه انتهى به الى مثل ماانتهى الاول ، وهكذا الى نهاية القصة . » (١) ومعنى هذا أن السيرة متصلة فى الحالين وان هذه الوقفات التى تقسمها الى فصول تأتى فى أى مكان فلا تحدث خلافا طالما أن السياق العام مستمر ومترابط فى القصة بأكملها .

وتتفق النسختان فى المقدمة — لفظا بلفظ — بما فى ذلك تلك العبارة التى تذكر أن من رواة هذه السيرة العالم العلامة عبد الملك ابن قريب الاصمعى (ناعتة اياه بعدة أوصاف ، ومعللة سبب تسميته بالاصمعى) ، ومنهم أيضا أبو عبيدة ، وجهينة ، والبلخى ... الخ . أما الخاتمة فان النسختين تختلفان اختلافا بينا وخطيرا ، فالنسخة

(١) شعراء النصرانية — لويس شيخو ص ٨٨٢

الخطية أثبتت تاريخ انتهاء كتابتها بعام ١٢٨٩ هـ بينما أثبتته النسخة المطبوعة على أنه عام ٤٧٣ هـ ، ثم أضافت الى ذلك زعمين كبيرين جمعتهما جملة واحدة هى « قال مؤلف هذه السيرة الحجازية — وهو الاصمعى رضى الله عنه — كان الفراغ من تأليفها يوم الجمعة المبارك فى أواخر جمادى الثانى سنة ٤٧٣ من الهجرة فى أيام الخليفة أمير المؤمنين هرون الرشيد العباسى . »

وليس هنا مجال اثبات أن الاصمعى لم يكتب سيرة عنترة وانما هو فقط أحد الرواة — أو المصادر — التى استقى منها كاتب السيرة مادته التاريخية (فقد أثبتنا ذلك فى مكان آخر) ولكن من العسير أن تمر هذه العبارة التى تقرن عام ٤٧٣ هـ بالاصمعى وبالرشيد ، اذ أنه من التواريخ الثابتة وفاة الرشيد عام ١٩٣ هـ ، ومن التواريخ الاحتمالية وفاة الاصمعى عام ٢١٠ هـ (أو على الاصح بين عامى ٢٠٨ و ٢١٠) وعلى ذلك فانه لا يمكن بأى حال من الاحوال أن يكون الاصمعى هو الذى كتب هذه النسخة من السيرة وانتهى منها عام ٤٧٣ هـ كما لا يمكن بأى حال من الاحوال أن يكون ذلك قد حدث ابان خلافة الرشيد العباسى .

يضاف الى ذلك أن العبارة السابقة تنعت هذه النسخة من السيرة باسم « السيرة الحجازية » ، ونحن نعرف أن هناك ثلاثة أشكال لسيرة عنترة هى السيرة الحجازية ومقرها الاساسى مصر ، والسيرة الشامية ومقرها الشام ، والسيرة العراقية ومقرها العراق . لهذا فان الاقرب الى التصور أن تكون السيرة التى ينشئها الاصمعى — أكبر رواة الدولة العباسية — وهو فى بغداد مقر الخلافة ، وبأمر من الرشيد ... هى السيرة العراقية وليس السيرة الحجازية كما تنص على ذلك الخاتمة .

لكل هذا فانه يمكننا فى بساطة ان نرفض هذا التاريخ الذى ورد فى طبعة السيرة وأن نرفض معه اسم الاصمعى كمؤلف لها واسم الرشيد كآمر بالتأليف لنقرر أن هذا الجزء (وهو الخاتمة) مدسوس على النص الأصلى بدليل تطابق السيرة المطبوعة مع النسخة المخطوطة التى انهت السيرة دون تحديد نوعها — أحجازية هى أم عراقية — ودون تحديد اسم مؤلفها ودون ذكر للرشيد فيها ، وعنيت فقط بتحديد تاريخ انتهاء كتابتها وهو يوم الاثنين المبارك الموافق تسعة وعشرين خلت من شهر جماد الآخرة عام تسع وثمانين ومائتين بعد الالف من الهجرة النبوية . أما النص المطبوع فجعله يوم الجمعة المبارك فى أواخر جمادى الثانى سنة ٤٧٣ هـ . وهنا يفلتنا التقارب بين النصين والتحريف المتعمد الذى أدخل على النص المطبوع اذ

استبدل يوم الاثنين بيوم الجمعة ــ يوم العيد الاسبوعى لدى المسلمين ــ وعمم تاريخ اليوم فجعله أواخر جمادى الثانى بدلا من تحديد المخطوط له باليوم التاسع والعشرين من جماد الآخر . أضف الى ذلك أن شهر جماد الاخر معروف منذ أول التاريخ الهجرى بهذا الاسم وان تلقيبه بجمادى الثانى لم يحدث الا فى عصور متأخرة مما يؤكد تأخر تلك التسمية كثيرا عن عام ٤٧٣ هـ

لكل هذا ــ وحيث أننا لم نعثر بمصر على نسخة كاملة مخطوطة للسيرة سوى هذه ــ فاننا نكاد نجزم بأنها هى الاصل الذى أخذت عنه هذه الطبعة الا أن الطابع أراد أن يعزز قيمة بضاعته بنسبتها الى الاصمعى وبتأخير تاريخ كتابتها وباقحام الخليفة هرون الرشيد فيها ، فتخبط بين التواريخ والاسماء والحقائق فانفضح أمره . وعلى ذلك فان هذا المخطوط هو أصل السيرة الحجازية المطبوعة والمنتشرة بمصر .

◆ ◆ ◆

وفى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية نسخة مصورة (ميكروفيلم) لجزء الثالث من سيرة عنترة بن شداد منقولة عن مخطوط موجود بمكتبة أحمد الثالث باستامبول تقع فى ثمانية وثمانين ورقة وكتبت عام ٨٤٨ هـ بقلم تعليق وبدايتها : « الحمد لله سبحانه، قال الاصمعى : ونزلت عليهم البوائق ، وحقت منهم الحقائق ، وتضاربوا بالسيوف على العواتق فقطعت منهم العلائق ، وتطاعنوا بالرماح فكانوا للدروع خوارق ، وتضاربوا بالسيوف فكانوا كالصواعق فلم يرى الا رمح خارق وسيف بارق وفارس شاهق والخصم لخصمه معانق والشجاع فى الدم غارق ، والقنا عليهم قد مد على الفرسان سرادق ، فسبحان العظيم الخالق ، الحاكم بالقنا على الخلايق . قال الراوى : ولم يزالوا كذلك حتى زادت بهم الحرق ، وكثر القلق وعظم الحنق وتراشقوا بالنبال فى الحدق وتناثرت الرؤوس مثل الورق ــ قال ــ هذا وعنتر قد مزق الكتايب المتطابقة ، وطعناته كالقضا سابقة ، وقد بحسامه كل درع وطارقة ، ونثر جماجم الابطال المتلاحقة. فلما اتسع المجال ، أظهر الأهوال ، وخطف بحسامه مهج الابطال ، وأبصرت عساكر العساف الاهوال . قال الراوى : بينما هم كذلك وعنتر يهمهم ويضحك وعلى الأعداء يجول ، وقد جندل الابطال عرضا وطول ، اذا بمالك ابن الملك زهير وهو ينادى ، يا أبا الفوارس الحقنى من الهلاك ، وخلصنى من الارتباك » .

فاذا بحثنا عن هذه الفقرة فى النسخة المطبوعة من سيرة عنترة وجدنا أنها ليست بداية الفصل الثالث وانما تتأخر عن ذلك حوالى

اثنتى عشرة صفحة ، وان نصها هو : « ... وقد حقت الحقائق ، وعمل السيف فى المفارق ، وزاد القلق ، وكثر الحنق ، وجرى الدم ، وسلت السيوف ، وقطعت الرؤوس ، وكان يوما عبوس . هذا وعنتر قد فرق الكتائب ، ونثر الجماجم . واتسع المجال ، ونظرت أهل اليمن شيئا ماكان لها على بال . قال الراوى : وبينما عنتر يجول ، واذا بصوت مالك وهو ينادى ، يا أبا الفوارس الحقنى قبل الهلاك » (١)

والنظرة الأولى الى هذين النصين تظهرنا على مدى ما بينهما من فروق . فمن حيث الكم نجد أن فقرة المخطوط تربو على ضعف فقرة المطبوع اذ تبلغ الاولى أربعة عشر سطرا بينما لاتزيد الثانية على ستة أسطر . ومن حيث اللغة نجد أن المخطوط قد كتب بلغة فصحى سليمة فى معظمها أما لغة الكتاب فقد تحللت كثيرا من قواعد النحو والصرف .

ويلفتنا هنا أمران ، أولهما أن كاتب المخطوط قد أوضح الكلمات بالشكل وعنى عناية خاصة بشكل الكلمة الاخيرة من كل جملة منبها الى الوقوف عندها حتى تتناسق السجعات . ويظهر فى صورة المخطوط (وهو صورة فوتغرافية غير ملونة) اختلاف بين لون المداد الذى كتبت به حركة الحرف الاخير وبين المداد الذى كتبت به الكلمات وبقية الشكل ، وأغلب الظن أن مداد الكلمات من اللون الاسود بينما مداد حركة الحرف الاخير من اللون الاحمر ، والدليل على ذلك أن لون هذا الأخير يشبه لون المداد الذى كتبت به كلمات « قال الاصمعى » و « قال الراوى » وهذه الكلمات تكتب عادة باللون الاحمر مثاما فى المخطوط الكامل الموجود بدار الكتب المصرية . أما النسخة المطبوعة من السيرة (التى بين أيدينا الآن) ومثلها نسخة الطبعة الشامية فانها جميعا غير مشكولة الكلمات ، وربما كان سبب ذلك صعوبة اصطناع الشكل فى الطباعة لاسيما لتلك الطبعات الشعبية ، ولكن الاهم من ذلك هو أن نسخة المخطوط الذى رجحنا اخذ هذه الطبعات عنه — وهو مخطوط دار الكتب — يخلو تماما من شكل أى كلمة من كلماته .

أما الأمر الثانى الذى يلفتنا الى فروق مابين النصين فهو أسلوب الكتابة الذى يبدو رصينا لماحا حسن التصوير والترتيب فى المخطوط ، بينما يظهر التفكك وعدم التناسق والربط فى أسلوب الكتاب . فصاحب المخطوط يذكر أنه قد نزلت عليهم البوائق وحقت منهم الحقائق » ، ويفسر لنا ذلك بأنهم « قد تضاربوا بالسيوف وتطاعنوا بالرماح » أما ضرب السيوف فقد نتج عنه تقطع العلائق ، وأما طعن

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ١٧٣

الرماح فقد خرق الدروع . وأصبح المنظر العام للمعركة هو برق السيوف وخفق الرماح وتعانق الفرسان وسط بحر من الدم وتحت سرادق من ظلمة الغبار وبين رءوس تتناثر مثل الورق . هذه اللوحة المعبرة لصورة المعركة التى رسمها قلم صاحب المخطوط ضاعت معالمها وانطمست خطوطها وبهتت ألوانها عندما صار اختصارها فى الكتاب المطبوع الى بضع كلمات مرصوصة هى « جرى الدم وسلت السيوف وقطعت الرءوس » .

ولو اننا سرنا فى هذه المقارنة النقدية بين المخطوط والكتاب لوجدنا اطراد ظاهرة الخلاف الواضح بين أساوب التصوير القصصى فى كل منهما ولاقتنعنا بأن السيرة التى بين أيدينا مطبوعة ليست هى القصة التى كتبها ذلك الفنان العربى القديم وان ما ادخله عليها النساخ والرواة من تحريف وتصحيف وتغيير قد بعد بها كثيرا — من حيث الأسلوب على الأقل — عن النص الاصلى الذى كتبه صاحبه .

وهنا يعن لنا أن نتساءل : هل مست تغييرات الرواة تلك الأحداث والاشخاص مثلما فعلت بالاسلوب والالفاظ ، أم أنها حافظت على المبنى والمعنى واقتصر التصرف على الاسلوب والكم ؟

وللاجابة على هذا التساؤل نستكمل نص المخطوط وهو : « قال ابو عبيدة : وكان مالك قد حمل فى قبائل مسعود بن معاد الكلبى وجرى بينهم قتال شديد ، ماعليه من مزيد ، حتى كلت السواعد عن القتال ، وقد تقهقرت رجال مالك وضاق عليها الحال ، وأدركه مسعود ابن معاد الكلبى ، وكان هذا الفارس جبارا من الجبابرة ، معروفا بين الفرسان بالشجاعة الباهرة ، فقتل من فرسان بنى عبس ثلاثة فرسان ، المعروفين بالضرب والطعان ، وضايق على مالك ابن الملك زهير فى الميدان ، وأكربه فى الجولان ، وقد طلع عليهم الغبار الى الأعناق ، ونظر مالك المنية بعينيه ، فزعق من وسط جنبيه ، وصاح لعنتر بذلك الصوت والزعاق ، وقد بلغت روحه الى النواق ، حتى يخلصه من ضيق الخناق . فلما سمعه عنتر عدل اليه وقاربه ، وفرق الفرسان من جوانبه ، وصار يطعن فى الصدور ، وينزل الدم من أنابيب النحور ، وقد طلب مسعود بن معاد ، وقفز اليه بالجواد ، وقد أظهر العناد ، وأراد أن يطعن مسعودا بن معاد ، فرآه محترزا لنفسه ، فطعن جواده فى قلبه ، ووقع مسعود عن مركبه ، ومن حلاوة الروح قام على قدميه ، ولم يحس بثقل الحديد الذى عليه ، وهرول بين يديه ، ودخل بين الخيل الذى له وعليه ، وهو لا يصدق بالنجاة من عظم مابدا له حين كبكبه بطعنته ورماه . »

فالواضح من هذا النص ان الذى كان يحمل على مالك بن زهير هو مسعود بن معاد ، وأن عنترة حين هاجمه لم يقتله وانما ترك له فرصة الفرار من الميدان . أما النص المطبوع فيقول : « وكان مالك قد حمل فى مقابلة العساكر فأدركه عنتر ، ولما لحقه رأى عسافا ظافرا على مالك ففاجأه عنتر وحمل عليه ، وأراد عساف أن يجول مع عنتر واذا بأبى الفوارس تأخر عنه وتمطى فى رمحه وطعنه » (١)

وواضح من مقارنة النصين أنهما يختلفان فى سير الاحداث وفى اصطناع الشخصيات والأسماء اختلافا بينا . فبينما يذكر المخطوط أن مهاجم الامير مالك كان يدعى مسعود بن معاد تذكر النسخةالمطبوعة أنه عساف نفسه ، وبينما يرسم المخطوط لوحة لقتال عنترة مع مسعود يصور فيها الكثير من مظاهر الفروسية وفنون القتال ينهى الكتاب المطبوع مابينهما بطعنة واحدة نجلاء ، وأخيرا فان المخطوط يترك لمسعود فرصة الهرب ليبنى عليها أحداثا أخر فيما بعد أما الكتاب المطبوع فيسرع بقتل عساف لينهى الموقعة كلها وينصر بنى عبس على بنى مازن .

وهكذا نجد أن فروق مابين هذا المخطوط القديم وبين الطبعات الحالية للسيرة تشمل — الى جانب الاسلوب — شخصيات الرواية واحداثها ، الامر الذى يجعل من الضرورى بذل جهود صادقة لمحاولة العثور على نسخة كاملة من السيرة يكون تاريخ كتابتها أقرب مايمكن الى تاريخ تأليفها ، حينئذ سوف نجد بين أيدينا احدى روائع التأليف القصصى العربى القديم .

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ١٧٣

الفصل الثانى

طبعات السيرة

ما أن خرجت سيرة عنترة للناس حتى نجحت نجاحا منقطع النظير فى الاستحواذ على أسماع أبناء الشعب جميعا والحصول على تقديرهم لها تقديرا ارتفع فى كثير من الأحيان عن مجرد الاعجاب بها كعمل فنى ممتاز وبلغ درجة جعلت حضور حلقات قاص هذه السيرة كل ليلة فريضة واجبة . فى هذا الوقت الذى لقيت فيه سيرة عنترة ذلك النجاح العريض بين أبناء الشعب ، أعرض عنها الادباء الرسميون وأغفلها مؤرخو الادب وأنكرها رجال العلم والدين اذ اعتبرها بعضهم من أعمال السوقة بينما عدها آخرون رجسا من عمل الشيطان .(١) ولهذا ظلت المراجع العربية وكتب الأدب والتاريخ غفلا من ذكر عنترة وسيرته .

ولكن الشعب الذى تلقف هذا العمل الفنى المتجاوب مع مشاعره ووجدانه لم يأل جهدا فى تداول هذه السيرة وفى تناقلها عن طريق النسخ . وقد زاد اقبال الناس على مخطوطاتها تلك الى درجة كبيرة دفعت بعض النساخ الى التخصص فى نقل سيرة عنترة وحدها وأصبح امتهانهم لهذا العمل صفة تطلق عليهم أخذت ــ مع مرور الزمن ــ قوة اللقب وأضيفت الى اسمائهم مثلما حدث لابن الصائغ الطبيب الذى لقب بالعنترى لانه اشتغل فى أول حياته بنسخ سيرة عنترة ابن شداد . (٢)

وقد انتشرت سيرة عنترة فى جميع أرجاء البلاد العربية على اختلاف بيئاتها وظروفها الاجتماعية والسياسية الأمر الذى دفع نساخ كل اقليم الى اجراء بعض التغييرات فيما ينسخون وذلك بتعديل أو حذف مايرونه غير ملائم لبيئتهم والاطناب فيما جاء مناسبا لها .

---

(١) ابن كثير جـ ٩ ص ٣٣٤
(٢) عيون الابناء فى طبقات الاطباء ــ لابن أبى اصيبعة حـ ١ ص ٢٩٠

لهذا عندما ما عرفت سيرة عنترة طريقها الى المطبعة جاءت فى اشكال ثلاثة يختلف كل منها عن الاخر باختلاف الاقليم الذى طبع فيه ، وان كانت تلك الاختلافات تمس الشكل الخارجى والكم دون أن تصل الى اسس بناء السيرة سواء من حيث الشخصيات أو الاحداث او اسلوب العرض القصصى . وكان اوضح مظهر من مظاهر الخلاف هو وجود مقدمة فى طبعة وعدم وجودها فى الاخرى او بسط بعض التفصيلات فى واحدة واجمالها أو اغفالها فى غيرها . وليست تلك الفروق أمرا يستحق عقد مقارنة بين طبعات السيرة المختلفة ، ومع ذلك فلابد من الابقاء على ذلك التقسيم الثلاثى لطبعات السيرة حيث اختص كل قسم منها باقليم من اقاليم النهضة الثقافية العربية وحمل اسمه فكانت « السيرة الحجازية » و « السيرة الشامية » و « السيرة العراقية » .

والسيرة العراقية على قلة انتشارها وندرة وجودها — تكاد تكون صورة طبق الاصل من السيرة الشامية بحيث يمكن اعتبارهما دون تحرج — أصلا واحدا طبع فى مكانين مختلفين(١) ، وفى هذه الحالة نكتفى عند المقارنة بذكر السيرة الشامية لتدل على السيرة العراقية بالتبعية وتقف امام السيرة الحجازية . حينئذ نجد ان هذه الاخيرة تمتاز على السيرة الشامية بمقدمة طويلة تناول فيها المؤلف موضوع خلق العالم منذ بدايته حتى قبيلة عبس وملكها زهير بن جذيمة ، بينما تغفل السيرة الشامية كل هذا وتبدأ بزواج الملك زهير مباشرة .

وبعد ذلك تتحد السيرتان اللهم الا من زيادات أسلوبية طفيفة نجدها فى السيرة الحجازية دون ان يكون لها قرين فى السيرة الشامية فاذا ما كانت النهاية وجدنا خاتمة السيرة الحجازية ليس لها مثيل فى السيرة الشامية الامر الذى يدفعنا الى القول بان السيرة الشامية ان هى الا مختصر للسيرة الحجازية (١) وانها ليست اصلا وانما مأخوذة عن السيرة الحجازية التى هى الاصل . يعزز هذا الرأى ان ناشر السيرة الشامية يذكر فى صدر طبعته انه اخذ السيرة عن اصدق رواياتها وانه قام باختصارها وتهذيبها وأسقاط مالم يتفق مع ذوقه وأهدافه ، وجود وحور ما استطاع حتى تجىء القصة خليقة باقبال أهل المطالعة والذوق السليم . يضاف الى ذلك أن طبعة بيروت لسيرة عنترة التى ظهرت عام ١٨٧١/١٨٦٩ ثم تلك التى ظهرت عام ١٨٨٥/١٨٨٣ نسبت كل منهما تاليف السيرة الى يوسف بن اسمعيل المصرى (٢) مما يدل على أن سيرة عنترة وضعت فى مصر وبذلك تكون

---

(١) دائرة معارف الاسلام — م هارتمان — مجلد ١ ص ٣٦٢

(٢) معجم المطبوعات العربية — يوسف سركيس حـ ٨ ص ١٣٨٧ط سنة ١٣٤٧ .

السيرة الحجازية هي الاصل الذى اخذت عنه السيرتان والتوأمتان الشامية والعراقية .

وقد ظهرت اولى طبعات السيرة الحجازية فى القاهرة عام ١٢٨٣هـ مقسمة على اثنين وثلاثين جزءا ، تلتها طبعة ثانية عام ١٢٨٦ هـ ، اما الثالثة فكانت عام ١٣٠٧/١٣١١ (١) ، بينما كانت الطبعة الرابعة فى عام ١٣٣١ هـ (٢) .

والسيرة الشامية ظهرت أولى طبعاتها فى بيروت عام ١٨٦٩ ، ١٨٧١ م (٣) ، وكانت مشتملة على مائة وأربعة وخمسين كتابا فى ستة مجلدات (٤) وظهرت الطبعة الثانية عام ١٨٨٣/١٨٨٥ (٥) ، بينما ظهرت الطبعة الثالثة عام ١٨٩٣/١٩٠١ .

وقد اعتمدنا فى بحثنا هذا على الطبعة القاهرية الحديثة للسيرة الحجازية (وهى طبعة المكتبة السعيدية) ، كما اطلعنا على طبعة بيروت عام ١٨٨٥ وذلك عند المقارنة بين السيرتين الحجازية والشامية.

ولما كانت سيرة عنترة تعتبر شعبية التأليف شعبية التناول ـ ونعنى بالشعبية هنا بعدها عن الادب الرسمى وحرمانها من اهتمامات أدباء الدولة الذين يطلق عليهم المجتمع هذا الاسم ، لذلك فانه لم يكن غريبا على الاطلاق ان تصدر جميع طبعاتها فيما بعد بشكل يمكن ان نطلق عليه كذلك اسم « طبعات شعبية » ونعنى بالشعبية هنا ضعف امكانيات الطباعة ، ثم فى المكان الاول عدم توافر اسس التحقيق العلمى لتلك الطبعات ، بالاضافة الى عدم العناية وتحرى الدقة فى نقل النص او تصحيح الاخطاء . اما نظام الطبع وجودة الورق فليس لهما مكان الى جوار ما سبق .

ومع ذلك ، فليس من شك فى ان هذه الطبعات ـ رغم جميع العيوب التى يمكن ان توصف بها ـ قد حفظت لنا صلب السيرة العنترية بشكلها العام ، وحمته من الضياع بانقراض الرواة الذين يشتغلون بقصها على الناس ، كما جنبتها الكثير من التضارب

---

(١) تاريخ الادب العربى ـ كارل بروكلمان جـ ٢ ط سنة ١٩٤٩

(٢) السابق ملحق جـ ٢ ط سنة ١٩٣٨

(٣) دائرة المعارف البريطانية مجلد ٢ ص ١٤

(٤) معجم المطبوعات العربية جـ ٨ ص ١٣٨٧

(٥) تاريخ الادب العربى ـ كارل بروكلمان ـ ملحق الجزء الثانى سنة ١٩٣٨ .

والتعارض الذى قد ينشأ من الاعتماد على ذاكرة هؤلاء الرواة اذا لم يكن هناك نص مطبوع .

وهذا لا يعنى — من ناحية اخرى — ان ما بين ايدينا من طبعات السـيرة هو النص الذى كتبه مؤلفها ، فالدراسـة المقـارنة لمخطوطى دار الكتب وجامعة الدول العربية اظهرتنا على ان الأول — ذا التاريخ المتأخر والذى اعتمدت عليه معظم الطبعـات — يختلف عن الثـانى اختلافات جوهرية من حيث لغة الكتابة والاسـلوب والكم الامر الذى يدل بوضوح على ان السيرة الاصلية قد وجدت فى شكل مغاير — من وجوه كثيرة — لذلك الذى تظهر به طبعاتها الحالية .

لهذا فان اول خطوة يجب ان يرنو اليها القائمـون على تخطيط مستقبل حياتنا الثقافية هى محاولة البحث الجدى بغية الحصول على مزيد من المخطوطات الكاملة لتراثنا القديم حتى نستطيع الوقوف على الصورة الحقيقية التى أنشئت عليهـا تلك الاعمال الفنية ، وأن نؤرخ لحياتنا الادبية تأريخا سليما . وهذا الجهد لا يستطيعه الافراد بقدر ما تطيقه الهيئات واجهزة الدولة المعنية بامر الثقافة .

مختصرات السيرة

عادت سيرة عنترة الى الظهور فى عصرنا الحديث بصورة جديدة ليست هى اعادة طبع السيرة كاملة ، كما انها ليست اعمالا ادبية مستقلة ومستوحاة من السيرة ، ولكنها شىء بينهما يمكن أن نسميه « اقتباسات من السيرة » او « مختصرات للسيرة » .

وهذا الاعمال نتلقى بثلاثة منها تختلف عن بعضها البعض اختلافات بينة تبعا للغرض الذى وضعت من اجله . اولها — حسب التسلسل الزمنى — وضع لغرض تربوى كجزء من القراءات الحرة للمدارس الثانوية ، وقدمه تحت عنوان « عنترة بن شداد » الاساتذة : حسن جوهر ومحمد احمد برانق وامين احمد العطار . وقد قدم المؤلفون لكتابهم بمقدمة عن القصة ، مفهومها ، واقسامها ، وطرق اخراجها ، ومكانتها بين فنون الادب ، ومدى تأثيرها فى المتلقى . ثم خصوا قصة عنترة بالحديث على اعتبار انها اطول القصص العربية واعظمها حتى انها لتعتبر الياذة العرب ، وتحدثوا عن تضارب الاقوال فى مؤلفها ، ثم عن اقسامها وابطالها واهدافها حديثا مختصرا يناسب عقلية الصغار ، ورجحوا انها وضعت بمصر فى اواخر القرن الرابع الهجرى (اى حوالى عام ٣٨٠ هـ) دون ابداء الاسباب .

اما القصة نفسها فقد اخرجوها فى ثلاثة عشر جزءا تتضمن حياة عنترة وحده — اى دون المقدمة التى فى السيرة الحجازية ، ودون الامتداد الذى يصور حياة عنترة بعد وفاته — كما انهم حاولوا وضع القصة فى قالب يوائم الغرض التربوى الذى من اجله اقدموا على هذا العمل ، فحافظوا — ما امكنهم ذلك — على الشكل العام للسيرة بأحداثها الكبرى وهيكلها الخارجى مع سقاط كثير من المناظر المتكررة للمعارك والاحداث الخارقة التى تجافى المنطق (مثل معارك الجن والسحر) او تجافى الذوق الرقيق (مثل انتقام عنترة من قتلة ابنائه وصور ذبحهم وحرقهم) . ولكن الاهم من هذا وذاك هو ان المؤلفين اعادوا صياغة القصة اعادة كاملة ليضعوها فى اسلوب عربى سليم بعيد عن الالفاظ العامية والاسلوب المحرف ، وكرد فعل طبيعى ظهر فى أسلوبهم شىء من المغالاة فى تحرى الرصانة واختيار الالفاظ بحيث

اصبح أسلوب السرد اعلى كثيرا من مستوى التلاميذ الذين من أجلهم وضع الكتاب .

وكما اغفل المؤلفون المقدمة (التي تتناول خلق العالم حتى عنترة)، والامتداد (الذي يتناول حياة ابناء عنترة خلال الاسلام) ، اغفلوا كذلك جميع الاشعار التي وردت في السيرة ومعها فقرات كثيرة من الحوار ومن تعليق الراوي على الاحداث . ولعل اخطر شيء قاموا به في هذا الصدد هو محاولتهم تحوير بعض المفاهيم والمضامين التي وردت في السيرة لتلائم عقلية التلاميذ الصغار وكي لا تستعصي على فهمهم وذوقهم جميعا فكان عملهم هذا عكس ما ظهر في اسلوبهم . وقد تضافر الاثنان (تحوير مضامين الاحداث مع التزام التزمت اللغوي) على البعد بالقصة عن الغرض المنشود منها ، فأصبحت لا تلائم الصغار كما أنها لا تصلح للكبار لافتقارها الى سلاسة الاسلوب القصصي الذي ييسر للمتلقي عملية الاستمتاع بالاحداث وتخيلها والانفعال بها دون ان يحول بينه وبين ذلك لفظ رصين معجمي أو أسلوب متزمت قوي ، لان الاسلوب في العمل القصصي وسيلة لا غاية بينما هو في هذا الكتاب المدرسي اصبح غاية أساسية عمد اليها المؤلفون مع استعارة بعض أحداث سيرة عنترة الاصلية . ولهذا حدث في عملهم الانفصال بين الشكل والمضمون واصبحت قصتهم لا هي بالعمل الادبي المحقق لذاته الفنية المستقلة ، ولا هي بالكتاب المدرسي المحقق لاغراضه التربوية .

◆ ◆ ◆

يلي هذا العمل المدرسي — في الترتيب الزمني — عمل صحفي استغل سيرة عنترة ليقدم الى جمهور الصحافة رواية من « روائع القصص العالمي » ، اصدرتها دار الهلال تحت عنوان « عنترة بن شداد — تأليف يوسف بن اسماعيل من ادباء الدولة الفاطمية » . وقد اعدها هذا الاعداد الصحفي الاستاذ طاهر الطناحي واهتم فيه اهتماما خاصا بـ « توضيح بعض المواقف بالرسوم الجميلة ، والعناية بالحوادث الغرامية » (١) ، وجعل الرواية في ثلاثة أجزاء يستقل كل جزء منها بحوادثه عن الاجزاء الاخرى بحيث يمكن تناوله مفردا ، كما يحمل الجزء الثاني — والجزء الثالث تباعا — ملخصا للجزء الذي سبقه يستغرق صفحة وبعض صفحة . وكل جزء من هذه الاجزاء يبدأ بثبت لاسماء الشخصيات ، كما يحمل كل حدث من الاحداث عنوانا فرعيا مثيرا .

والملفت في هذه الطبعة الصحفية هو انها اسندت تأليف السيرة الى يوسف بن اسماعيل دون ادنى مناقشة ، واثبتت ذلك على الغلاف الخارجي بينما قدمت تعريفا مقتضبا بالمؤلف هو انه « اديب مصري

(١) العدد ١٠١ من روايات الهلال ص ١١

فى عهد العزيز بالله الفاطمى ، كان واسع الرواية فى اخبار العرب كثير الاحاديث والنوادر » . ثم يعترف الناشر بان يوسف بن اسماعيل هذا وضع روايته فى ثمانى مجلدات لا يقل كل منها عن ستمائة صفحة بينما قدمها هو فى ثلاثة أجزاء كل منها حوالى مائة وخمسين صفحة .

ومن الطبيعى ان يلعب هذا الاختصار الصحفى دوره فى اختيار المواقف ــ او اللقطات ــ على الاساس الذى وضع لذلك وهو الاهتمام بالمواقف الغرامية ومحاولة جعل كل جزء من الرواية يكاد يستقل بنفسه ويستطيع الوقوف بمفرده . لهذا فقد بدا التفكك واضحا فى الرواية بصفة عامة وظهر عدم الترابط لا بين الاجزاء فحسب وانما بين الفصول فى الجزء الواحد ، فضلا عن ان جميع هذا العمل الصحفى لم يتناول سوى المرحلة الاولى من مراحل السيرة الاصلية (ونعنى بها مرحلة التكوين) ــ وهى المرحلة التى تتناول حياة عنترة منذ بدئها حتى نجاحه فى الزواج من عبلة ، وحتى فى هذه المرحلة فقد اهمل كفاحه فى سبيل تعليق قصيدته على الكعبة اهمالا تاما .

فالجــزء الاول يبــدأ بعنوان صحفى مثير هو « الطفل الذئب » ويقتطف من السيرة شيئا عن شداد وزبيبة ومولد عنترة ثم يقفز الى افتتانه بعبلة ليوصلنا الى عنــوان مثير آخر هو « الفارس العاشق » حيث تتركز جميع الاهتمامات حول هذه العملية الغرامية الى ان يعود عنترة من ارض العراق بالنوق العصافير ، الا ان مالكا ــ ابا عبلة ــ يهرب بابنته من الديار .

اما الجزء الثــانى فانه يبتعــد كثيرا عن عنترة وقصــته ليركز اضواءه على قصة غرامية اخرى بطلاها النعمان والمتجردة ــ بنت زهير بن جذيمة ملك عبس ــ ، اما عنترة فانه لا يزال يســعى وراء عبلة . وينتهى هذا الجزء بمقتل الملك زهير وانتقام عنترة له . (١) ويبــدأ الجزء الثالث (٢) بحــرب داحس والغبراء ثم بزواج عنترة من عبلة وبعد ذلك يأخذ فى تعداد الفرســان الذين لقيهم عنتــرة بادئا بدريد بن الصمة ثم عمرو بن معد يكرب ، فالسليك بن السلكة ، وفى النهاية ينتقل عنترة الى بلاط قيصر حيث يظهر على جند الروم ويعــود الى عروسه عبلة منتصرا .

وهكذا نجد اثر الصحافة واضحا فى هــذا العمــل الذى تناول سيرة عنترة ، فالتحقيق معدوم ، والتدقيق متروك ، والاختصار مخلّ ، والاعتماد مركز على الاثارة سواء فى الموضوع او الرسوم أو العناوين ،

---

(١) العدد ١٠٣ من روايات الهلال

(٢) العدد ١٠٥ من روايات الهلال

اما الاختيار ونقل الاحداث فبعيد عن الصدق العلمي — وقد تضافرت كل هذه العوامل لتجعل من الطبعة الصحفية للسيرة مسخا مشوها وعملا بعيدا كل البعد عن حظيرة الادب والفن والصدق فى النقل والنشر جميعا .

◆ ◆ ◆

واحدث الاعمال التى تتناول سيرة عنترة بن شداد خرجت من بيروت فى اعقاب مؤتمر الادباء العرب الذى عقد بالكويت عام ١٩٥٩ وناشد الادباء عامة ان يعملوا على تعزيز البطولة وحفز شباب العرب على التضحية والبذل فى سبيل الحرية والخلود ، فاستجاب لهذا النداء الاستاذ عمر ابو النصر وقام باعداد سيرة عنترة وتنسيق اخبارها تحت عنوان « عنتر .. بطل العرب وفارس الصحراء » .

وقد اختار الاستاذ عمر من السيرة الاصلية الاحداث — واللقطات — التى تتفق مع ما يهدف اليه ، فبدأ بزواج الملك زهير من تماضر ، ثم انتقل الى شداد وزبيبة وانجالها لعنترة ، وبعد ذلك قفز الى حبه لعبلة اذ ظهرت قوته وشجاعته ، ثم ذهابه فى طلب النوق العصافير من المنذر ، فأتصاله بالفرس ونصرته اياهم بطريق الروم ، وعودته الى اهله محملا بالاسلاب والهدايا . ولكن عبلة تصده فيخرج الى الصحراء هائما حيث يلتقى بالفرسان فارسا فارسا ثم بقبائل العرب قبيلة قبيلة ثم باهل فارس فأهل اليمن ، واهل الشام . واخيرا يعود ليتزوج من عبلة . وبعد ذلك اجمل المؤلف مبارزاته مع دريد بن الصمة وذى الخمار الى ان وصل لقتله على يد الاسد الرهيص .

ويمتاز هذا العمل — على سابقيه — بان كاتبه اعاد صياغة عباراته فى لغة سليمة سهلة مع المحافظة على روح النص ومعناه فى الاجزاء التى وقع عليها اختياره ولكنه لم يحاول ان يربط بين تلك الاجزاء بل اكتفى بضمها الى بعضها البعض فجاءت وكأنها مقتطفات من السيرة الاصلية لا تتوافر لها الوحدة الروائية ولا البناء القصصى .

◆ ◆ ◆

وهكذا نجد ان هذه الاعمال الثلاثة التى حاولت اختصار سيرة عنترة — او تهذيبها على زعم البعض — بدت جميعا — رغم اختلاف اهدافها — بعيدة كل البعد عن روح السيرة الاصلية ، غير واعية للبناء القصصى الذى ابدعه المؤلف القديم لها . فالطبعات الحديثة الثلاث سواء تلك التى كان هدفها تربويا او التى كان هدفها صحفيا او التى قصد بها الحماس وتعبئة الشباب ، فانها جميعا لم تهتم من السيرة الاصلية الا بالجزء الاول فقط (وهو مرحلتا التكوين والفروسية) ، وهذا الجزء من السيرة — كما يتبين فى دراسة شخصية عنترة — يكاد يعتبر مقدمة للقصة ، حاول المؤلف فيها ان يكون طبيعيا

ومنطقيا حين يتناول حياة بطله منذ البداية ثم يأخذ فى تطوير شخصيته وتنميتها نماء تدريجيا تحت وقع احداث معينة بحيث يبدو هذا النماء غير شاذ ولا مستبعد . لهذا فان ذلك الجزء من السيرة يعتبر مرحلة تقديم لشخصية البطل فقط بينما تتلوه عدة مراحل تمثل كل مرحلة منها طورا من اطوار حياة البطل ، وهدفا من اهداف السيرة ، كما انها جميعا تتمشى مع اسس التأليف القصصى عند العرب من تجريد وملحمية واسطورية وغيرها ، اما مرحلتا التكوين والفروسية فلا تزيدان عن كونهما فترة ولادة الشخصية وتحديد ملامحها وتبيان سماتها واتجاهات تطورها .

وربما كان السبب الاساسى لذلك هو أن اولئك الذين قاموا باختصار السيرة واعادة طبعها لتحقق غرضا معينا ابتغوه وجدوا ان هذا الجزء وحده من السيرة هو الذى يحقق اهدافهم . فأصحاب الطبعة المدرسية اعتبروا ان عقلية التلاميذ اصغر من ان تستوعب المواقف الدرامية والصور الملحمية التى فى المراحل المتقدمة من السيرة واصحاب الطبعة الصحفية سعوا وراء الاثارة وجذب القراء — انصاف المتعلمين — فصوبوا كل سهامهم نحو الاجزاء الغرامية من السيرة باعتبارها اسرع السبل وايسرها الى قلب هؤلاء القراء ، اما صاحب الطبعة الاخيرة فاختار الجزء التاريخى المنطق ، الطبيعى التسلسل ، الواضح الاهداف ليتلافى الارهاصات الاسطورية والتأويلات البعيدة الاحتمال التى ربما تعارضت مع الحقائق التاريخية والمفاهيم المنطقية.

والدليل على ذلك أن جميع من قاموا باختصار السيرة واختاروا لعملهم هذا الجزء الاول منها فقط ، اغفل — ثلاثتهم — فيما تناولوا جانبا هاما كانت السيرة الاصلية قد أولته عناية فائقة واعتبرته الوجه الثانى من اوجه الفروسية واستكمال البطولة ونعنى به جانب التميز الشعرى . فعلى الرغم من استناد هذا الجانب الى اسس تاريخية لا تقل ثبوتا عن الحقائق التى استندوا اليها فى رسم حياة عنترة وتصوير شجاعته ، حيث انه من الثابت تعليق قصيدته على الكعبة ضمن المذهبات ، الا ان الصورة القصصية التى رسمها مؤلف السيرة الاصلية عن هذا الجانب من جوانب الفروسية لم تستقم مع منطق الاحداث بالشكل الذى يساير التفكير الواقعى الحديث ، ولم تقم على تحقيق الاهداف التى هدفوا اليها — رغم اختلافها فى الاعمال الثلاثة ، بالاضافة الى عدم اعتبارهم لطبيعة التأليف القصصى الذى يضحى بحقائق التاريخ ومنطق الاحداث فى سبيل اخراج صور روائية . لذلك فقد آثروا جميعا اغفال هذا الجزء من السيرة الاصلية اغفالا تاما دون حتى محاولة تحويره ليلتقى مع ما هدفوا اليه .

وليس ادل على بعد مختصرى السيرة عن التأليف القصصى واقامة اعمالهم على اسس غير فنية من اغفالهم تلك اللمحات البارعة التى لجأ اليها مؤلف السيرة الاصلية ليقيم عليها شخصية بطله الروائية، وينميها ويطورها ، ويعدها لمواجهة البناء الفنى لعمله القصصى . فمؤلف السيرة كان على علم بانه سوف يقدم فى سيرته بطلا لا كالابطال تتسم الكثير من افعاله باللامعقولية والاغراق فى الخيال ، ولهذا اوضح لنا — منذ اللحظة الاولى — ان بطله تسنده قوة غيبية ليحقق اغراضا سماوية ، ثم استكمل له عدة قتال عجيبة تناسب هذا الغرض وتتمثل فى فرس معم مخول يسابق الظليم دفع فيه عنترة كل ما غنمه آل عبس من اسلاب ، وسلمه سيفا مصنوعا من شهاب اسقطته القصصية السماء ، هذه اللمحات البارعة التى تدل على توفر المواهب القصصية لدى المؤلف ، اعتبرها مختصرو السيرة تهاويم بعيدة عن الواقع والمنطق فأغفلوها — كما اغفلوا الكثير من امثالها — الامر الذى جعل بطلهم يبدو شاذا ويظهر فى صور مفاجئة لم يمهد لها التمهيد الروائى اللازم . ولهذا فقدت اعمالهم احكام البناء الفنى واصبحت مجرد سرد لمقتطفات من تاريخ عنترة .

وهناك لمحات اخرى ناجحة قدمها مؤلف السيرة الاصلية على اساس انها دعامات قصصية قوية ولكن مختصرى السيرة اغفلوها كذلك ، اما لاعتقادهم انها لا تتلاءم مع اهدافهم او لعدم التفاتهم اليها . فمثلا يوضح مؤلف السيرة الاصلية نقطة التقاء شداد بزبيبة مؤكدا امتناعها على غيره من الفرسان المغيرين — بعكس ما كانت تسير عليه عادات الجاهلية وذلك ليثبت صحة نسب عنترة ، ثم يعود المؤلف ليفيض فى وصف اوجه الشبه بين عنترة الوليد وبين ابيه شداد ، ويعود مرة ثالثة ليصف لنا جلسة حكيم العرب التى اصدر فيها حكمه بالصبى لشداد مستندا الى ادلة مادية ومنطقية . كل ذلك ليؤكد المؤلف نقطة واحدة هى صحة نسب عنترة ، اما مختصرو السيرة فقد اغفلوا كل هذا رغم لزومه لاقامة البناء القصصى ، ورغم انه مكون هام من مكونات المرحلة التى اختاروها من السيرة .

وغرام عنترة بعبلة لا يقف مستقلا فى السيرة وانما هو يمثل جانبا من جوانب كفاح البطل وصراعه من اجل استكمال حريته وبناء شخصيته وبلوغ المكانة التى يصبوا اليها . ويكاد مؤلف السيرة الاصلية ان يفصح معلنا ان هذا الغرام ليس غاية فى حد ذاته وانما هو وسيلة الى غاية ، بدليل ان عنترة نسى غرامه لها حين فاز بفرسه « الابجر » ، وانه ضاجع غيرها من النساء لينجبهن اطفالا ، ثم هو لم يحتمل منها السخرية به فكان يتركها مغضبا ويذهب ليهيم فى الصحراء

صائدا ومحاربا . أما مختصرو السيرة فقد فصلوا جميعا غرام عنترة بعبلة عن السيرة ـ التى هى وصف تفصيلى لحياة بطل بكل مكوناتها ومقوماتها ـ وجعلوا مسألة الغرام هذه شيئا قائما بذاته ولذاته دون ان تكون له اى علاقة بالتكوين النامى لشخصية عنترة ، بل ان صاحب الطبعة الصحفية جعله الهدف الرئيسى ـ وربما الوحيد ـ للقصة التى قدمها .

من هذا يمكننا القول بان من قاموا باختصار السيرة حديثا لم يوفقوا فى فهم الاسس الروائية التى بنيت عليها، ولم يصلوا الى اللمحات الفنية التى فيها ، ولم يقفوا على روح السيرة ـ كفن من فنون الادب العربى ـ ، كما لم يراعوا تكامل البناء القصصى الذى اصطنعه مؤلف السيرة الاصلى ، وربما لم يدرسوا العمل الذى يزمعون اختصاره دراسة كافية تعينهم على اخراج قصة مناسبة منه لا تقل ـ من حيث القيمة الفنية ـ عن العمل نفسه ، وانما كان لاتسرع وبساطة الاخذ ، بالاضافة الى الاغراض المستترة والواضحة ، اثر كبير فى تشويه تلك الاعمال وظهورها بمظهر يقل كثيرا فى الدرجة والقيمة عن السيرة الاصلية .

ترجمات السيرة

لم تعرف الآداب الغربية فن القصة الا منذ عهد قريب ، اذ كانت نشأة ذلك الفن شرقية وكان مهد القصة الاول هو ارض العرب . يقول المستشرق جوستاف ليبون : « العرب هم الذين ابتدعوا روايات الفروسية .. وترى فى روايات العرب ـ مع قلة اعتنائهم بنفسية الاشخاص ـ فوائد كثيرة لاشتمالها على ضروب من المغامرات العجيبة ... وقد جمل العرب بخيالهم الساطع كل شيء لمسوه فهم الذين لا نظير لهم فى الفن » . (١)

وعندما انتقلت هذه الثروة الفنية الى اوروبا فى ركب الحضارة العربية حظيت بقدر كبير من الاهتمام ، وعمل كثير من المستشرقين على نقلها الى لغتهم . وقد كان لسيرة عنترة نصيب من هذا الاهتمام. بدأه عام ١٨٢٠ الانجليزى تاريك هاملتون Terrik Hamilton فترجم الى لغته الثلث الاول من السيرة ونشره فى اربع مجلدات تحت عنوان « عنتر .. قصة حب بدوية » (٢) Antar... A Bedween Romance.

وتلى ذلك ترجمة فرنسية لمعظم اجزاء السيرة قام بها المستشرق هامر برجستال Hammer Pirgastall ، ثم اتبع ذلك بتلخيص لسيرة عنترة معتبرا اياها مثالا لقصص الحب والفروسية عند العرب نشره فى المجلة الآسيوية عام ١٨٣٨ . (٣)

وقد اثار عمل برجستال هذا انتباه ادباء فرنسا آنذاك ولفتهم الى الفن القصصى الذى لدى العرب ، فأقدم كثير منهم على ترجمة اجزاء ـ او تلخيصها ـ من سيرة عنترة بن شداد بما لا يزيد عما فعله هامر ، نذكر منهم : ـ

١ ـ كوسين دى برسيفال A. Caussi de Perceval وقد خص عنترة وسيرته بفصل من كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام » وذلك فى عام ١٨٣٦ . (٤)

(١) حضارة العرب (مترجم) ص ٤٤٨

(٢) دائرة المعارف البريطانية مجلد ٢ ص ١٤

(٣) Victor Chauvin : Bibliographie des Ouvrages Arabes, Part. 3 p. 113

٢ — بيرون M. A. Perron
وقد نشر فى المجلة الآسيوية مقالين عن عنترة وسيرته احدهما عام ١٨٤٠ والآخر عام ١٨٥٠ (١)

٣ — اما الشاعر الفرنسى الذائع الصيت «الفونس دى لامرتين» A. de Lamartine فقد اطلع على سيرة عنترة ابان زيارته للشرق فخصها بفصل فى كتابه الذى الفه عن تلك الرحلة واطلق عليه اسم « رحلة الى الشرق » (٢) ، ثم دفعه اعجابه بتلك القصة البطولية الى اعادة الكتابة عنها فى مجلة التمدن La Civilisateur عام١٨٥٤ تحت عنوان «عنتر او التمدن الرعوى»
Antar, au la civilisation pastorale
وبعد ذلك بحوالى عشر سنوات اعاد نشر هذا المقال منفصلا عام ١٨٦٤ (٣) .

٤ — كتب المستشرق دوفيك L. Marcel Devié ملخصا للسيرة نشره تحت عنوان « حوادث عنترة بن شداد » صدر فى باريس عام ١٨٧٨ .

وغنى عن البيان ان جميع تلك الترجمات والتلخيصات لم تعن بنص السيرة بحيث تنقلها الى اللغات الاخرى نقلا سليما ملتزما لاسس الترجمة الادبية حيث ان الذى لفتهم اليها واستحوذ على اعجابهم فيها هو القصة نفسها — اى الاحداث والوقائع بحكم غرابتها وطرافتها ثم التركيب الهيكلى للقصة والقدرة على الربط بين تلك الاحداث ربطا روائيا متسلسلا ومقيما لبناء قصصى سليم .
وكان الاعجاب بقصة الحب فى السيرة اقوى من الاعجاب بقصة الصراع البشرى فيها ، ولهذا فقد اختار معظم اولئك المترجمين القسم الاول منها فقط ، وهو ذلك القسم الذى يحكى غرام عنترة بعبلة والجهود التى بذلها فى سبيل الفوز بها واعتبروا ان ما اظهره البطل من ضروب الشجاعة والاقدام فى سبيل تحقيق الهدف العاطفى يكفى للدلالة على الناحية البطولية فى القصة ، ولم يفطن اى منهم — او لعلهم تغاضوا — عن اعتبارها قصة متكاملة من نوع « السيرة » التى تحكى الحياة الكاملة لشخصية البطل بجميع اطوارها ومراحلها ومكوناتها ومقوماتها . ولهذا فان احدا منهم لم يطلق على ما قام بترجمته من عنترة اسم النص المترجم وهو « سيرة عنترة » ، وانما اختاروا لها

---

(١) السابق ص ١١٤
(٢) Voyage en Orient — Tome 2. P. 471 (Paris 1911) —
(٣) Chauvin, P. 114 —

اسماء جديدة تعبر عن الناحية العاطفية وحدها وتدل على قصة الحب الذى كان بين عنترة وابنة عمه عبلة .

ولما كان هؤلاء المترجمون قد اختاروا جزءا فقط من السيرة ، ثم قاموا بترجمة احداثه وحدها دون التزام النص ودون اهتمام بالاسلوب اللغوى للاصل يضاف الى ذلك قيامهم بتحويرات فى معظم تلك الترجمات لجعلها تتلاءم مع الذوق الأوروبى الامر الذى يجعل نسبة التحرر فى تلك الاعمال اكثر من نسبة الالتزام . لكل هذا يمكننا فى غير تحرج اخراجها من حظيرة الترجمة لنص عربى واعتبارها اما اعمالا ادبية غربية قائمة بذاتها قد استقت فكرتها الاساسية من قصة عنترة ، واما نقلا لطرفة من طرف الشرق الى لغة من لغات الغرب دون ان يكون ذلك ترجمة لنص او لجزء من نص . والواقع ان الناظر فى تلك الاعمال سوف يجد ان معظمها ينطبق عليه هذا التعريف الاخير . ومعنى ذلك ان الصلات المباشرة تكاد تكون معدومة بين تلك الاعمال الغربية وبين الاصل العربى اللهم الا تلك الصلة المعنوية التى توحى بالقيمة الفنية للاثر العربى بحيث وقع عليه الاختيار باعتباره الافضل .

من هذا يتضح ان دراسة مثل تلك التراجم بغية الوصول الى معلومات اوفى عن الاصل العربى المنقولة عنه لن توصل الى الغرض المنشود منها وذلك لانها ليست ترجمات كاملة وليست دراسات مستقلة وانما هى نقل لمعنى الاثر العربى الى لغة اجنبية ، مثلها فى ذلك مثل تلك الفصول التى كان يكتبها الدكتور طه حسين ملخصا بعض المسرحيات العالمية والروايات الاجنبية واعتاد ان ينشرها تباعا فى الجرائد والمجلات أو يجمع عددا منها بين دفتى كتاب . فمن المحال الادعاء بأن تلك الفصول تعتبر ترجمة للمسرحية العالمية أو الرواية الغربية وتبعا لذلك فانها لا يمكن أن تساعد على دراسة الاصل .

لهذا آثرنا الا نطيل فى السعى وراء تلك الترجمات او الملخصات الاجنبية لسيرة عنترة اعتقادا بانها لن تضيف جديدا ، وحرصا على دراسة النص نفسه فى لغته الاصلية التى أنشىء بها .

الفصل الثالث

تاريخ سيرة عنترة بن شداد

تنتهى الطبعة الحجازية لسيرة عنترة بن شـــداد بهذه العبارة :

« قال مؤلف هذه السيرة الحجازية ــ وهو الاصمعى رضى الله عنه ــ كان الفراغ من تاليفها يوم الجمعة المبارك فى اواخر جمـادى الثـانى سنة ٤٧٣ من الهجرة النبوية ، فى ايام الخليفة امير المؤمنين هارون الرشيد العباسى . وقد ارشدنى الى تأليفها رغبته فى سـماع قولها ونثرها ونظمها . وقد جمعت ما عنـدى من الاوراق مما سـمعته عن سيرة عنترة بن شداد المشهور فى سائر الافاق ، واضفت اليه ما رأيته بعينى . ورتبت القوافى على بعضها بحسن نظام من غير زيادة ولانقصان، وانتقيتها من زبدة الكلام . وهذه السيرة الحجازية قد رويتها بروايات قوية عن الحمزة وعن ابى طالب وعن عمرو بن معـد يكرب وعن حاتم طى وعن امرىء القيس الكندى وعن حازم المكى وعن عبيده وعن عامر بن الطفيل ، فانه بعد عنترة تداولت افعاله على السن العرب ، فالذى رأيته وسمعته صرت اكتبه عندى بالاوراق ، من اشعار ومن افعال ، والذى ما رأيته ولا سمعته فهو ترتيب القوافى على بعضها ، والله اعلم بالصواب » . (١)

هذه العبارة تكاد تكشف عن نفسها وتكاد تنطق بأنها موضــوعة ، لان الاصمعى لا يمكن ان يكون هو مؤلف هذه السيرة باى حال من الاحوال. ورغم ورود هذا النص الصريح فى نهـاية الطبعة التى بين ايدينـا من السيرة ، مقررا ان الاصمعى هو مؤلف السيرة ومحددا سبب تأليفهـا والطريقة التى اتبعا المؤلف فى ذلك ثم تاريخ انتهائه منها ، رغم كل ذلك، فان احدا من الباحثين لم ينخدع بما جـاء فى هـذا النص وانما قرر الجميع ان هذه العبارة لم توضع الا للتستر وراءها حتى تضفى على السيرة صبغة الجد ، وتدفع القارىء الى منحها شـيئا من الاهتمام والتقدير يتناسب وشهرة الاصمعى ، ثم ليقبل عليها الناس باعتبارها عملا من اعمال كبير رواة العصر العباسى سمير الخليفة هارون الرشيد.

وجميع الباحثين الذين رفضـوا هـذا النص لاقتناعهم بعـدم صحته اكتفوا بأن اشاحوا بوجوههم عنه دون أن يحاولوا تبرير رفضهم له . فالمستشرق الفرنسى «هيرت» يكتفى بان يقول: « ان اسم الاصمعى

---

(١) السيرة مجلد ٨ ص ٣٥٢

موضوع للتستر وراءه » . (١) — والاب لويس شيخو لا يرفض النص فحسب ، وانما يقدم لنا مؤلفا آخر لسيرة عنترة (٢) ، ويتابعه فى ذلك باحثوا العربية منذ الزيات وجرجى زيدان حتى الآن . (٣) — اما المستشرق « هامر بيرجستال » فيدعى اكتشاف مؤلف سيرة عنترة — وهو بالطبع غير المؤلفين السابقين — (٤) .

يقول صاحب كتاب الادب القصصى عند العرب : « ان مافى السيرة من اخطاء نحوية وصرفية ، وما فيها من ضعف فى الاسلوب يبلغ بها — بعض الاحيان — حد الاسفاف يحملنا على الحكم ان مثل هذا الاسلوب يختلف اختلافا بينا عن اسلوب الاصمعى » (٥) . والواقع ان هـذا الدليل الوحيد الذى يستند اليه الاستاذ موسى سليمان يبدو سطحيا وواهنا بحيث لا يمكن الاعتماد عليه فى تقرير مثل هذا الرأى العظيم الخطر ، ولكننا اذا ما بحثنا قليلا عثرنا على اكثر من دليل قوى يكاد يجزم بان الاصمعى ليس هو مؤلف سيرة عنترة بن شداد .

واول ادلتنا ان كاتب هذا التذييل فى نهاية السيرة نسى أن اسم الاصمعى ذكر قبل ذلك مرات عديدة — فى سياق القصة — على اعتبار انه مصدر رواية حدث واحد من احداثها ، والى جانب اسم الاصمعى ذكرت اسماء رواة عديدين كمصدر لاحداث أخر . فكاتب السيرة يذكر مثلا ان مقدمة السيرة مأخوذة عن وهب بن منبه (٦) . وفعلا نجد ان هذه الرواية ذكرت بصورة مشـابهة فى كتب : التيجان ، وعبيد ، والسـيرة وهى الكتب الثلاثة التى رواها ابن هشام عن وهب بن منبه .

ومؤلف سيرة عنترة قد لا يرجع الحادثة الواحـدة الى راوية بعينه ، وانما ينسبها الى اثنين او ثلاثة وربما كان الاصمعى واحدا منهم ، كأن يقول : « قال الاصمعى وأبو عبيدة » (٧) . وقد ينسب تأليف السـيرة نفسـه الى غير الاصمعى حيث نجد مثل هذه العبارة : « قال نجـد مؤلف تلك العبـارات » . (٨) أو يرجع الرواية — أى رواية

---

(٢) شعراء النصرانية جـ ١ ص ٨٨٢

(٣) أصول الادب للزيات ص ٢٤١ والهلال مجلدة ص ٧٣٠ وفارس بنى عيسى للقرشى ص ٦٨ ثم روايات الهلال العدد ١٠١

(٤) الجريدة الاسيوية سنة ١٨٣٨ ص ٣٨٦

(٥) موسى سليمان ص ٩٥

(٦) السيرة مجلد ١ ص ٥

(٧) السيرة مجلد ١ صفحات ١١٩ ، ١٤٩ ، ٢٢٤ وغيرها

(٨) السيرة مجلد ١ ص ١٢٠

الحادثة ــ الى نص معروف من نصوص الاصمعى مثل : « قال الاصمعى فى تاريخ العرف والمورود » . (١) ــ ثم هو بعد كل هــذا ــ أو على الاصح قبل كل هذا ــ قد بدأ السيرة يسرد اسماء الرواة الذين اخذ عنهم فقال : « أن من رواة هذه السيرة العجيبــة ، المطربة الفــائقة الغريبة ، فصيح ذلك الزمان ، المتكلم على ما مضى من احاديث العربان الاولين فى ذلك الزمان، العالم العلامة « عبدالملك بن قريب الاصمعى » رحمه الله تعالى ، الذى كان من المعمرين ، والذى عاش عمرا طويلا ، جاهلية واسلاما الى ان ادرك الخلفاء والاموية وغيرهم . ومما ذكروا انه ما سمى بالاصمعى الا لانه ليس له شحمتا آذان ، غير ان رأســه كانت صــومعة وآذانه خرقين فى الصــدغين لا غير وكان فصيح ذلك الزمان وعالما فى دين الاسلام ، وهو من جملة من روى الحــديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يقول : « سمعت رسول الله يقول كذا وكذا » . ومن جملة من روى هذه السيرة العجيبة ايضــا ابوعبيده ، وجهينة بن المثنى اليمنى ، والبلخى ، وحماد ، وسيار بن قحطبة الفرازى ، والكاهن الغسانى الثقفى ، وابن خداش النبهانى ، وكل منهم روى ما شهد وما ســمع عمن يوثق به ممــن حضر وقائع العربان » . (٢)

فكانت سيرة عنترة يذكرها هنا ــ صراحة ــ ان الاصمعى ليس الا واحدا من الرواة العديدين الذين اخذ عنهم احداث قصته . فتأليفها اذن ليس للاصمعى لان وضعه فيهــا مثل وضــع ابى عبيدة وجهينة والبلخى وسيار وغيرهم .

يلفتنا هذا النص كذلك الى ان السيرة كتبت بعد وفاة الاصمعى. فالكاتب يطلب له الرحمة من الله ، ثم هو ينساق وراء هذا الشعور أو يستمر يطلب له الرحمة كلما ورد ذكره فى السياق(٣) ولا يدل النص على أن السيرة كتبت بعد وفاة الاصمعى نقلا عما ذكروه عنه ، ثم يدعى انه عاصر الجاهلية والاسلام فالامويين ، وهو بعد ذلك يذكر تلك العصور بشكل يوحى بوجود فرق زمنى بعيد بينه وبينها .

وهكذا نجد ان ما جاء فى اول سيرة عنترة يهدم ما جاء فى آخرها ويثبت ــ بما لا يدع مجالا للشــك ــ ان الاصمعى ليس هو مؤلفها . وفضلا عن ذلك فان الاصمعى من اشهر أدباء القرن الثانى للهجرة ،

---

(١) السيرة مجلد ٧ ص ٣٣٤
(٢) السيرة مجلد ١ ص ٤
(٣) السيرة مجلد ١ ص ٤

وابعد الرواة صيتا واغزرهم مادة ، ثم هو بعد كل هـذا من خاصـة الرشيد واقرب فرد فى حاشيته الادبية اليه ، فلو أنه كان حقا مؤلف هذه السيرة ، ولو انه وضعها بناء على تكليف من الخليفة الرشـيد ، لذاع هذا الامر وانتشر وملأت اخباره جميع كتب التاريخ والادب . ولكن لم يذكر واحد من المؤرخين ــ قدماء ومحدثين ــ ان الاصمعى الف سيرة عنترة بن شداد .

ليس هذا فحسب ، بل ان النظرة الاولى الى ثبت الكتب التى نسبت الى الاصمعى ــ او التى روى عنه اجزاء منها ــ تدل دلالة قاطعة على ان صاحبها بعيد كل البعد عن التأليف القصصى بالمعنى الدقيق لهذا الفن من فنون الادب ، فى الوقت الذى تدل السيرة وما فيها من بناء فنى سليم على انها من صنع رجل متمرس فى هذا الفن ، طويل الباع ، له تجارب متعددة سـابقة ــ وربما لاحقه ــ من الاعمـال القصصية . فمؤلفات الاصمعى التى ذكرت فى كتب مثل «وفيات الاعيان لابن خلكان والفهرست لابن النديم » والتى رتبها الدكتور عبد الجبار جومرد فى ثبت طويل بحيث اربت على الخمسين مؤلفا (١) تدل اسماؤها جميعا على بعد موضوعاتها عن التأليف القصصى ــ او حتى السردى ــ فهى تدور حول الاجناس والخـراج والخيل والشـاة والفرق بين الانسـان والحيوان والوحوش والنبـات والشجر والنخيل والكروم والابل وخلق الانسان . فهى ــ بصفة عامة ــ كتب لغـة أكثر من اى شىء آخر . وحتى كتابه « النوادر » الذى يدل اسمه على قربه من التأليف القصصى ــ او السردى ــ يقول الانبارى انه ليس كذلك ولكنه كتاب فى اللغة (٢) . اما القسم الادبى من تاليف الاصمعى فمعظمه الشعر مثل الاصمعيات والقصائد الست ورجز العجاج وشرح عـدد من الدواوين الشعرية القديمة .

والنظرة العابرة فى الموجود من كتب الاصمعى تدل دلالة قاطعـة على أن صاحبها كاتب وليس قصاصا ، وانه يتمسك بالواقع العـلمى والتاريخى ويبعد كل البعد عن التخيل والتصور والتأليف الروائى .. وليس ادل على ذلك من انكاره وجود مجنون ليلى «قيس ابن الملوح» ثم التعقيب على قصته بقوله : «فى بنى عامر عـدة مجانين فى الحب صنعتهم أخيلة الرواة والشـعراء منهم قيس بن الملوح (٣) وهـذا

---

(١) الاصمعى ص ٢١٧
(٢) نزهة الالباء ص ١٠٥
(٣) نزهة الالباء ص ١٣٧

النص لا يدل على بعد صاحبه عن التأليف القصصي فحسب ، بل انه يكاد ينطق بمقته لهذا اللون من التأليف وعدم الإعتراف به . وسيرة عنترة مؤلف قصصي يلعب الخيال فيه دورا كبيرا مما يجعل مجرد القول باحتمال نسبتها الى الاصمعى امرا بعيدا عن الحقيقة وعن العلم بطبائع الاشياء .

لكل هذا فاننا نجزم بأن سيرة عنترة ليست من وضع الاصمعى وانما هى من تأليف شخص آخر سواه . وقد سبقنا كثيرون الى هذا الاعتقاد كان آخرهم الدكتور عبد الجبار جومرد (١) ، غير أن أحدا منهم كما سبق أن ذكرنا ــ لم يحاول تبرير رأيه أو تدعيمه بالادلة والاسانيد

ومع ذلك فاننا لا نستطيع ان ننكر انه كان للاصمعى دور كبير فى سيرة عنترة بن شداد ــ اوبمعنى ادق ــ فى تقديم المادة العلمية والتاريخية التى استخدمها كاتب السيرة . ففى زمن الاصمعى (الذى ولد عام ١٢٣ هـ وتوفى عام ٢١٧ هـ) كانت الاخبار تعتبر مرحلة من مراحل نشوء علم التاريخ ، فكان مما جمعه الاصمعى من الرويات والاخبار مايصلح ان يكون مادة تاريخية مثل ذكر الوقائع الحربية والمغامرات والاحلاف ثم الغزوات فالفتوح ، ومنها ما يدخل فى سير الملوك والولاة والقواد وغيرهم من الشخصيات الرسمية والشهيرة ، ومنها ما يعتبر جزءا من حياة الشعراء والادباء واحوالهم كما انه روى بين هذا وذاك اخبار كثيرة تكشف عن جوانب من اخلاق القبائل والمجتمعات العربية (٢) ، فهو مثلا يحكى عن حرب البسوس بين بكر وتغلب ، وعن داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، وعن أبطال بنى عبس أمثال زهير بن جذيمة وقيس ابن زهير وعنترة بن شداد . وتحدث عن فارس بنى جشم ــ دريد ابن الصمة ــ وعن عشقه للشاعرة الخنساء بنت عمرو (٣) ، وعن ربيعة ابن المكرم وعامر بن الطفيل (٤) ، ونقل أخبار العدائين الصعاليك أمثال عروة بن الورد والسليك بن السلكة ، ثم روى أخبار حاتم الطائى ونقل مناقشته للنابغة الذبيان(٥) ، كما روى بعض المعلقات ــ ان لم يكن كلها ــ واهتم اهتماما خاصا بشعر عنترة فروى معظم ما قاله فى

---

(١) الاحمص ص ٣٢٥
(٢) وفيات الاعيان ــ لابن خلكان جـ ٢ ص ٣٤٩
(٣) الاغانى جـ٩ ص ١٢
(٤) الاغانى جـ ١٥ ص ١٤٦
(٥) الامالى للسقالى جـ ٣ ص ١٥٢

المغازى والحروب حتى أصبح اسم الاصمعى مقرونا بأشعار هـــذا البطل العبسى وأخبار غزواته . (١)

من هذه المادة التاريخية الخصبة التى خلفها الاصـمعى استقى مؤلف سيرة عنترة موضوع قصته وعناصرها وأحداثها وأسـماء شخصياتها ، ثم صاغ كل ذلك فى قالب روائى فيه خيال وفيه تفنن وفيه بناء قصصى سليم . وبذلك يمكننا القول بأن المادة العلميـة والتاريخية فى سيرة عنترة ويرجع الفضل فيها ــ أول ما يرجع ــ الى الاصمعى ، أما الصورة الروائية للسيرة فانها ــ دون أدنى شـك ــ ليست للاصمعى وانما هى لشخص متأخر عنه زمنيا اطلع على تراث الاصمعى واستغله فى صياغة روايته القصصية .

فاذا كان الاصمعى ليس هو مؤلف سيرة عنترة بن شداد ، فمن يكون مؤلفها اذن ؟ .

يجيب على هذا السؤال المستشرق «هامر برجستال» فى المجلة الآسيوية (٢) قائلا : « ان واضعها هو أحد أطبـاء وشعراء العـراق المشهورين المسمى بأبى المؤيد ابن الصايغ والملقب بالعنترى» . ويسوق هامر دليله على ذلك من قول عابر جاء على لســان ابن أبى أصيبعة «صاحب كتاب عيون الانباء فى طبقات الاطبـاء» هو أن العنترى كان فى أول أمره يكتب أحاديث عنترة العبسى فصار مشهورا بنسبته اليه (٣) ويعتقد برجستال أن هذا الذى وصل اليه يعتبر كشفا أدبيا عظيمـا حتى أنه ليفاخر به مفاخرة عريضة ــ أو بمعنى آخر ــ يعتبر أن هذا الدليل الذى ساقه دليلا قاطعا لايقبل المناقشة أو الجدل .

وعلى الرغم من أنه لا يمـكن ايجاد صـلة ربط بين « أحاديث عنترة » وبين « سيرة عنترة » لمـا بين اللفظين من اختلاف واضح فى المضـمون والمفهوم ، فان أبا المؤيد هذا طبيب عـراقى عاش فى القرن السادس الهجرى وهو زمن متأخر جـدا بحيث يصـدر فيه كتاب لا يعرف صاحبه ولا ينشر فى حينه منسوبا لكاتبه . أضف الى ذلك أن أحـداث السيرة وطريقة معالجتها ــ لا سـيما فيما يتعلق منها بالعراق ــ تدل دلالة قاطعة على ان كاتبها لا يمكن أن يكون عراقيا ، بل ــ على العـكس من ذلك ــ شخص يشـعر نحو العراقيين بشىء من النفور وعدم التقـدير . ولهذا فليس من المستساغ أن يكون كاتب السيرة عراقيا ولا أن يكون منبت السيرة هو أرض العراق .

---

(١) الاغانى جـ ٣ ص ١٨٩
(٢) سنة ١٨٣٨ ص ٣٨٦
(٣) عيون الابناء لابن أبى أصيبعه جـ ١ ص ٢٩٠

والنص السابق يذكر أن العنترى كان فى أول أمره يكتب أحاديث عنترة ، أى أنه كان فى بدء حياته الثقافية ــ والسيرة ــ كما سبق أن أشرنا ــ عمل فنى متكامل لا يخرج الا على يدى كاتب قدير متمرس وليس عن حدث فى أول عمره لم يلبث أن ترك الأدب الى مهنة أخرى هى الطب .

وربما كان الاقرب الى التصور هو استيحاء هذا النص فى اتجاه آخر مؤداه أن سيرة عنترة كانت قد وجدت فعلا فى عصر أبى المؤيد ، وأنها كانت تذاع فى الناس على شكل كتيبات أو صحائف مسلسلة ، وأن الناشئين من النساخ كانوا يتكسبون بكتابة تلك الصحائف وكان من بينهم ابن الصايغ هذا . ثم ان هؤلاء النساخ كانوا لاينقلون النص الاصلى للقصة وانما كانوا يغيرون فيه بعض الشىء لاعتبارات اقليمية وسياسية وغيرها وعلى ذلك فان تلك الصحائف يمكن أن تكون هى الاصل الاول الذى تجمع بعد ذلك تحت اسم « السيرة العراقية » فى مقابل الصحائف التى كانت بمصر وبالحجاز على أساس أنها « السيرة الحجازية » . فاذا ما اعتبرنا هذا الرأى أرجعنا اليه الخلافات الطفيفة التى نجدها بين السيرتين الشامية (ومثلها العراقية) وبين الحجازية .

ومهما يكن من أمر فان أبا المؤيد بن الصائغ الملقب بالعنترى لا يمكن أن يكون هو مؤلف سيرة عنترة بن شداد كذلك ، وان هذا الكشف الذى ادعاه المستشرق برجستال ليس له ما يؤيده وان كان النص الذى أورده لابن أبى أصيبعة يفيد فى استنتاج أمور هامة منها :

١ ــ ان سيرة عنترة بن شداد ظهرت فى الوجود قبل القرن السادس الهجرى .

٢ ــ ان السيرة كانت تذاع فى الناس كتابة (فى صحائف) ولم يكن أمرها قاصرا على سماع الرواة .

٣ ــ ان سيرة عنترة فى هذا الوقت كانت موجودة فى العراق كما كانت موجودة فى مصر والحجاز .

٤ ــ ان نسخ السيرة كان عملا مربحا يفى بنفقات دراسة الطب الباهظة وهذا دليل على سعة انتشارها وعلى اقبال الناس عليها .

أما الاب لويس شيخو فيذكر فى كتابه « شعراء النصرانية » شخصا آخر باعتباره واضعا للقصة اذ يقول : « نشأ بمصر من أفاضل الرواة الشيخ يوسف بن اسماعيل كان يتصل بباب العزيز فى القاهرة ، فاتفق أن حدثت ريبة فى دار العزيز لهجت الناس بها فى المنازل والاسواق ، فساء العزيز ذلك ، وأشار الى الشيخ يوسف أن يطرف الناس بما عساه أن يشغلهم عن هذا الحديث . وكان الشيخ يوسف واسع الرواية فى أخبار العرب ، كثير النوادر والأحاديث ، وكان قد أخذ روايات شتى عن أبى عبيدة ونجد بن هشام وجهينة اليمانى

الملقب بجهينة الاخبار وعبد الملك بن قريب المعروف بالاصمعى وغيرهم فأخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها على الناس ، فأعجبوا بها واشتغلوا عما سواها . ومن تلطفه فى الحيلة انه قسمها الى ٧٢ كتابا ، والتزم فى آخر كل كتاب أن يقطع الكلام عند معظم الامر الذى يشتاق القارىء الى الوقوف على تمامه فلا يفتر عن طلب الكتاب الذى يليه ، فاذا وقف عليه انتهى به الى مثل ما انتهى الأول ، وهكذا الى نهاية القصة . وقد أثبت فى هذه الكتب ما ورد من اشعار العرب المذكورين فيها ، غير انه لكثرة تداول الناسخين لها فسدت روايتها بما وقع فيها من الاغلاط المكررة بتكرار النسخ (١)

ورغم ان الاب لويس شيخو لم يقدم بين دعواه هذه أى دليل ، فانها مع ذلك تكاد تكون أقرب الروايات الى الصحة اذا ما نظرنا اليها بعين فاحصة تحكم بالمنطق وبطبيعة الاشياء ، وتعتمد على دراسة النص نفسه وملابساته المختلفة . ولسنا نعنى بذلك القصة التى رواها الأب لويس بتمامها وتفاصيلها ، وانما نعنى مجملها وما تحمله من معان أولها : ان كاتب السيرة فرد واحد . فنحن نقر هذا الرأى على اساس انه عين الصواب وليس يهمنا ان كان هذا الشخص هو يوسف بن اسماعيل أو غير يوسف بن اسماعيل ، وانما المهم هنا هو أن كاتب السيرة شخص واحد وليس عدة أشخاص كما يذهب كثير من الباحثين سواء منهم من أعتبر أن اول مظهر من مظاهر الأدب الشعبى أن يكون قد نشأ على الزمن كانتاج مشترك لكثير من الأشخاص وربما فى كثير من الاجيال ، وبما أن سيرة عنترة من الأدب الشعبى فيجب أن يصدق عليها هذا الاعتبار ويتحتم ان يكون قد أسهم فى انشائها أكثر من شخص . أو من اعتمد منهم على ضخامتها وعلى ما فيها من اطناب ومن أخطاء ليستدل على أن سبب ذلك هو اشتراك أفراد عديدين فى وضعها

والذى نود أن نؤكده هو أن كاتب سيرة عنترة فرد واحد ولا يمكن أن يكون أكثر من فرد بأى حال من الاحوال . والدليل على ذلك يكمن أولا فى البناء القصصى الممتاز الذى نلحظه فى السيرة (والذى أفردنا له فصلا كاملا) ، ففيها تسلسل الاحداث تسلسلا سليما من أول فصولها حتى الفصل الأخير ، ثم الاحالات التى يلجأ اليها الكاتب ، ففى الفصل الأول مثلا يقدم لنا زبيبة — أم عنترة — ويبرر عدم انقيادها لبقية الفرسان الذين أسروها مع شداد بقوله : « وقد انكرت منهم تلك الأحوال لأنها من نسل قوم كرام ، وسوف نذكرها فى تأصيل نسبتها ، ونذكر سبب غربتها وفرقتها . ولكن نذكر كل شىء فى مكانه — بعون

(١) شعراء نجد والحجاز والعراق القسم السادس ص ٨٨٢

الله وسلطانه ـ اذا ما وصلنا اليه . » (١) ويستمر فى كتابة سيرته الفصل تلو الفصل حتى يصل الى الفصل الرابع والثلاثين حيث ينتقل بفارسه الى بلاد الأحباش ليقوم بسلسلة من مغامراته هناك فيفى المؤلف بوعده ويذكر لنا نسب زبيبة واصلها وسبب غربتها قائلا : « وكانت أم عنترة ـ زبيبة ـ بنت النجاشى ملك الحبشان ، وكان ملك الحبشان قد زوج أمها بالملك بسام ، وهو أبو الملك همام ، وان الملك النجاشى هو جد زبيبة من الابوين ، ونسبهم الى حام بن نوح عليه السلام ، وقد غدر بزبيبة الزمان وحكم عليها القادر أن تقع فى يد العربان ، وارسلها الى بنى عبس وعدنان ، وأخذها شداد واتت منه بعنتر ، وجرت هذه القصة بأمر مكون الاكوان ، الذى هو كل يوم فى شأن » (٢) .

فالقصة التى يرتبط فيها الفصل الأول بالفصل الرابع والثلاثين، والتى يجىء فى مجلدها الأول اشارة لما سوف يرد فى مجلدها الخامس ، هذه القصة لا يمكن الا أن تكون قائمة على أساس بنائى سليم ومتكامل ، ولا يمكن الا أن تكون لكاتب واحد يكتبها وفق فكرة موضوعة واصل منهجى . فهذه الاحالة والربط بين الاحداث ظاهرة نلمحها فى سيرة عنترة من أولها الى آخرها وبشكل متكرر متواتر يقطع بأنها عمل قصصى سليم البناء وصادر عن كاتب واحد واع لما يصنع .

ويلفتنا هنا أن معظم السير الشعبية الاخرى لم يذكر لها مؤلف سواء فى صلب السيرة أو فى الروايات التى أثرت عنها الامر الذى ربما أشار من بعيد الى الاعتراف بأن تلك السير الفت على يد أكثر من كاتب وفى أوقات متفاوتة بحيث يمكن أن نطلق عليها اسم « الأدب الشعبى » طبقا لذلك المفهوم . أما سيرة عنترة فقد اتفق الجميع على وحدة مؤلفها سواء فى نص السيرة أو فى الروايات التى دارت حولها ، ولم يتناول الخلاف سوى شخصية هذا المؤلف ، حيث يدعى نص السيرة انه الأصمعى بينما يرشح الرواة لذلك يوسف بن اسماعيل أو ابا المؤيد . فالجميع متفقون على وحدة المؤلف ولم يعترض الاب لويس شيخو الا على النساخ الذين اقحموا خيالاتهم ورغباتهم للتزيد والتظرف والحصول على رضى العامة (٣) . وهذا الاعتراض سليم ومقبول ، يثبته قصة ابن الصايغ سالفة الذكر ، كما يثبته اختلاف نصوص السيرة ما بين حجازية وشامية وعراقية ، وتثبته اخيرا سعة انتشار سيرة عنترة ومدى الف الناس لها فى جميع الامصار وتعلقهم بها .

---

١ ـ السيرة مجلد ١ ص ٧٦
٢ ـ السيرة مجلد ٥ ص ٤٠٢
٣ ـ شعراء النصرانية جـ ١ ص ٨٨٢

ومهما يكن من امر فان سيرة عنترة كانت قصة متكاملة مكتوبة يقوم النساخ بنقلها كما يقوم القصاص بقراءتها من تلك الصحائف التى نقلها القصاص عن الاصل الذى دفع به اليهم مؤلفها . وهذا يؤيد — الى حد ما — نص الاب لويس شيخو عن أن يوسف بن اسماعيل كان يكتب فصول قصة عنترة ويوزعها على الناس ، وأن الناس شغفوا بمطالعتها ولم يفتروا عن طلبها مما دفع النساخ الى اتخاذ نسخها مهنة مربحة وحتى تخصص بعض النساخ فيها ولقبوا باسمها .

وفى الطبعة البيروتية للسيرة الشامية نص للمؤلف يقول فيه : « أما السبب فى تأليف هذه السيرة العجيبة ، والقصة الفريدة الغريبة ، فهو أنى رأيت الناس قد أكثروا فى تلفيق الروايات السقيمة ، واشتغلوا بالغيبة والثلب والنميمة ، فأحببت أن أجمع الأحاديث الصحيحة ، واشغل بها الناس عن سوء العشرة القبيحة » (١) .

وهذا النص لا نريد منه الآن سوى التدليل على فردية كاتب السيرة الذى يذكر صراحة أنه هو وحده مؤلفها ، بمعنى أنه كتبها طبقا لخطة قصصية موضوعة وانه استقاها من احاديث صحيحة حدد لنا فى السياق رواتها مع ذكر اسم كل منهم قرين الخبر المأخوذ عنه ، فاذا كان الخبر مرويا عن أكثر من واحد ذكرهم المؤلف جميعا . أما اذا أراد أن يربط بين روايات الرواة باحداث مؤلفة نص على ذلك صراحة بعبارة : « قال المؤلف » (٢)

كل هذا يجعلنا نقطع بأن سيرة عنترة بن شداد ليست — كما يدعى البعض — اشتاتا من اقاصيص وروايات متفرقة تداولتها الالسن على مر العصور ثم جمعت فى كتاب على أساس واحد هو انها جميعا تدور حول عنترة بن شداد ، وانما هى قصة متكاملة حاوية لجميع معالم القصة العربية ، بل ولكثير من مفاهيم القصة فى النقد الحديث من وحدة الموضوع وسلامة البناء ونماء الشخصيات والحبكة والمضامين الدرامية وغيرها . وليس هذا قاصرا على سيرة عنترة وحدها ولكنه يكاد يتواتر فى جميع قصصنا الشعبى اذ نلمحه فى سيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذى يزن والاميرة ذات الهمة وغيرها .

فاذا حاولنا ان نستشف شخصية كاتب سيرة عنترة من خلال عمله القصصى وجدنا ان هذا الشخص تتوفر له خصال اربع هى : —

١ — خبرة واسعة باخبار العرب وايامهم وحروبهم ووقائعهم ونوادرهم واحداثهم وتاريخهم وعاداتهم وطباعهم . ثم هو خبير كذلك باشعارهم واقوالهم ، مما يدل على ان هذا الشخص كان واسع الثقافة

---

١ — طبعة المطبعة الادبية سنة ١٩٠٢ ص ٤

٢ — السيرة مجلد ١ صفحات ٨٥ — ١٠٨ — ١٢٨ وغيرها

غزير القراءة ، له نظرة عميقة مدققة فى تراث المكتبة العربية آنذاك ، كما ان له معرفة جيدة بالشعر والقوافى .

٢ ـ تدل معالجة كاتب السيرة لتاريخ البلاد غير العربية من فرس وروم وسودان واحباش وغيرهم على خبرة واسعة باحوال تلك الامم وتاريخها وعادات اهلها وربما لغالتها كذلك ، كما تدل معالجته للاديان المختلفة من مسيحية ويهودية وبوذية وغيرها على إنه خبير كذلك بتلك الاديان عليم بموقف الاسلام منها ، فنحن مثلا نجد انه لايمنع بطله (عنترة) من دخول الكنائس بينما هو يمتنع عن ادخاله بيوت النار ـ وهذا يدل على خبرة بالثقافات الاجنبية ـ الى جانب الثقافة العربية ـ وعلى معرفة بتعاليم الاديان المختلفة ، كما يدل على معرفة بموقف الاسلام من تلك الاديان وموقف العرب من تلك الشعوب .

٣ ـ سبق ان اوضحنا خبرة هذا المؤلف بالنفس البشرية ومعرفته باحوال جمهور المتلقين الذين دفع اليهم بعمله القصصى فلقى اعظم النجاح مما يدل على عمق دراسات هذا الكاتب وحسن تمرسه واتساع دائرة تجاربه وخبرته بالنفس البشرية .

٤ ـ عملية بناء مثل هذا العمل الادبى تحتاج ولاشك الى كاتب متفنن له حاسة قصصية وموهبة روائية وتمرس طويل فى هذا الفن من فنون الانشاء الادبى وتجارب عديدة فى مثل هذا العمل .

هذه الخصال الاربع التى تتوفر لكاتب سيرة عنترة تحدد شخصيته الفنية ، اما اسلوبه فيكاد يحدد مكان كتابة السيرة ـ او على الاصح ـ اصل كاتبها والاقليم الذى ينتسب اليه، فالالفاظ المصرية والاصطلاحات التى كانت منتشرة فى مصر انذاك تنتشر لا فى السيرة الحجازية (المطبوعة فى القاهرة) وحدها ، وانما فى السيرة الشامية كذلك ثم فى السيرة العراقية ، الامر الذى جعل الدكتور فؤاد حسنين يقول : « ان وطن السيرة هو مصر » (١) . وهذه التعبيرات المصرية لم تنتشر فى السيرة فحسب وانما وجدت كذلك فى الشعر المنحول على عنترة (كما سبق ان بينا) مما يعزز نص الاب لويس شيخو الذى ذكر فيه ان مؤلف السيرة هو الشيخ يوسف بن اسماعيل المصرى الذى كان يتصل بباب العزيز بالله الفاطمى الذى حكم بين عامى ٣٦٥ و ٣٨٦ هـ، وهو ثانى الخلفاء الفاطميين بعد المعز لدين الله الذى فتح مصر وإنشأ فيها الدولة الشيعية .

---

١ ـ قصصنا الشعبى ص ٧٧

ولكن كتب الادب والتاريخ لاتذكر لناشيئا عن يوسف بن اسماعيل هذا ، ولا تدرجه ضمن كتاب العزيز او تورد ما يؤيد علاقته به . فاذا تقدمنا مع نص الاب لويس شيخو وجدناه يقول بان سبب تأليف السيرة هو وقوع ريبة فى قصر العزيز لهج الناس بها فى المنازل والاسواق فشاء العزيز ان يشغلهم عنها فأشار على الشيخ يوسف ان يطرفهم بكتابة هذه القصة .

ولكن كتب التاريخ كذلك لاتحدثنا عن ريب حدثت فى قصر العزيز ، بل انها على العكس من ذلك تصور لنا العزيز بالله باعتبار انه المدعم الحقيقى للدولة الفاطمية وان عصره كان قمة حكمهم ، فقبل ذلك كان ابوه ــ المعز لدين الله ــ يسعى لانشاء الدولة الفاطمية ويجاهد فى ارساء دعائمها، وبعده جاء ابنه الحاكم بأمر الله الذى بدأ يميل بحكم الفاطميين نحو النهاية ، وهكذا كان عصر العزيز هو عصر القمة للدولة الفاطمية. يضاف الى هذا ان العزيز لم يكن من الخلفاء سكان القصور وطلاب المتع وانما قضى معظم سنى حياة حكمه فى توسيع رقعة دولته وفى قمع حركات المناهضين له . ففى تلك الفترة التى لم تزد على العشرين عاما ضم العزيز بالله الى ملكه كلا من حمص وحماه وشيراز وحلب والموصل واليمن . (١) ، وفيها ايضا واجه ثورة القرامطة ثم ثورة افتكين التركى الذى كان قد استقل ببلاد الشام ، ومات العزيز وهو فى حربه مع القرامطة (٢) . فاحتمال وقوع الريب فى قصر مثل هذا الرجل احتمال بعيد بعض الشىء .

وسيرة عنترة ، لو انها وضعت حقا بأمر الخليفة لحظيت برعايته ولاحتفى بها الفاطميون ودعاتهم ولاتخذوها وسيلة من وسائل نشر مذهبهم وبسط سلطانهم وتأثيرهم على العامه

يقول الدكتور محمد كامل حسين : ان فن السير ــ وهو ذلك الفن الذى يعد من فنون التاريخ ــ كان له شأن كبير فى الحياة الفكرية لمصر الاسلامية ، فابن الداية كتب سيرة احمد بن طولون وسيرة ابنه ابى الجيش ، وابن زولاق كتب سيرة الاخشيد وسيرة ابنه وسيرة كافور وسيرة المعز لدين الله وسيرة العزيز . ثم حدثنا الدكتور محمد كامل حسين بعد ذلك عن سيرة جوهر الصقلى وسيرة المؤيد الشيرازى (٣)

وجميع اصحاب هذه السير ــ كما نلمح من اسمائهم ــ ليسوا بمصريين، بل وربما ليسوا بعرب كذلك، ولكن وجود سيرهم يدل على أن عمل السير امر لم تكن تمنعه التعاليم الشيعية ولايقف امامه الخلفاء

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى لحسن ابراهيم حسن جـ ٣ ص ٢٥٧

(٢) السابق جـ ٣ ص ٢٥٩

(٣) فى أدب مصر الفاطمية ص ١٢٣

الفاطميون وانمـا كان على العكس من ذلك وسيلة من ســائل تعريف الشعب بخلفائه الجدد وبكبار رجال دولته ، كما كان لونا من الوان دعايتهم المذهبية . فنحن نجد ابن النديم فى كتابه الفهرست يعدد لابن مسعود العياشى — احد فقهاء الشعية — مايقرب من المائتى كتاب ثم يضيف قائلا : «ومما صنفه من رواية العامة كتاب سيرة ابى بكر ، وسيرة عمر ، وكتاب سيرة عثمان ، وكتاب سيرة معاوية » (١) .

اذن فهذا هو المجال الذى يستطيع المصريون ان يفروا اليه هربا من وطأة الشيعيين وتضييقهم الخناق على تعاليمهم السنية ، وتعويضا عما يلقونه من عنت الفاطميين الذين أتوا اليهم من بلاد المغرب . فعلى منوال سير الخلفاء الاعاجم ورجال دولتهم الاجانب ، راح المؤلف المصرى المتفنن يضع سيرة من طرازها تحمل نفس المضامين التاريخية وتتفق معها فى المنهج البنائى العام وفى طريقة العرض ، وفيما عدا ذلك فانها تتجه اولا الى المشرق لتختار بطلها من هناك — ذلك البطل الذى هزم المغاربة وفتح بلاد شـمال افريقيا ، وهو بعد ذلك ليس بملك ولا ابن ملك — مثل خلفاء الفاطميين الذين الهوا انفسهم واعتبروا ســواد الشـعب عبيدا — وانما هو عبد حقيقى حطم قيود عبوديته وسار ليذل بشجاعته أعتى ملوك الارض من فرس وروم واحباش وهنود .

وسواء قصد مؤلف سيرة عنترة الى هذه الاهداف التعويضية التى حملها لها ضد الحاكم المستبد ، ام انها ظهرت دون قصـد منه ، فالذى لاشك فيه هو أن السيرة كانت تحمل الراحة النفسية والرضى الوجدانى لذلك الشعب المغلوب على أمره مما دفعه الى الاقبال عليها بحب وشغف تغلغل فى أعمـاق النفوس وتوائه الافراد جيلا بعـد جيل حتى العصر الحديث » .

لهذا فاننا نعتقد أن سيرة عنترة بن شداد كانت من أوائل السير الشـعبية ، وأنها وضـعت فعلا فى أوائل العصر الفاطمى ، وربما الفها يوسف بن اسماعيل — أو غير يوسف بن اسماعيل — ولكن ليس بأمر الخليفة العزيز ولا لخدمة الفاطميين .

واختيار عنترة بطلا لهذه القصة الشعبية لم يكن مجرد اختيار عابر ، وانما كان اختيارا له أسبابه واهدافه ، وطبقا لاغراض سياسية واجتماعية ونفسية . ويضيف الدكتور فؤاد حسنين — الى ما سبق — سببا آخر اعم وهو أن هذه السير الشعبية « أريد من تأليفها تثقيف الشعب وتعليمه تاريخه القـومى ليتبصر فى ثقـافته ويتعصب لقوميته . » (٢) .

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٧٧ .

(٢) قصصنا الشعبى ص ٤٤ .

وهذا القول لا يتعارض مع ما سبق أن ذهبنا اليه ولكنه أعم منه آذ يقصد به السير الشعبية على وجه العموم ومن بينها سيرة عنترة ، وهو بالنسبة لهذه السيرة أوضح مما فى السير الاخرى .

لكل هذا فاننا نعتقد أن سيرة عنترة بن شداد قد وضعت فعلا بمصر فى تلك الفترة من تاريخها التى وقعت فيها تحت سيطرة حكام من غير أهلها وفرضت عليها تعاليم ومذاهب تختلف عن تعاليمهم ومذهبهم . وقد لقيت هذه السيرة كل الرواج لدى الشعب المتلقى فى الوقت الذى لقيت فيه كل اعتراض واهمال من المؤرخين والدارسين المرتبطين بالسلطات الحاكمة .

ولا يهمنا بعد ذلك ان كان مؤلفها هو الشيخ يوسف بن اسماعيل أو غير الشيخ يوسف ، وانما الذى يهمنا هو تأكيد وحدة مؤلفها ، وانها عمل روائى متكامل لكاتب متفنن وضعه تحت الحاح انفعالات وجدانية معينة ولتحقيق أهداف بذاتها وطبقا لخطة منهجية موضوعة وسليمة من حيث البناء القصصى .

الفصل الرابع

مقدمة السيرة الحجازية

تنفرد السيرة الحجازية بفصل طويل يصل الى حوالى السبعين صفحة ، وهذا الفصل يضم تمهيدا روائيا للقصة ، وهو تمهيد تبدو اصالته واهميته بما يحمل من سمات عرفت عن الروايات العربية ، ذلك أنه يحدد موقف بطل القصة ــ أو صاحب السيرة ــ من التيارات التى تتحكم فى بيئته وعصره ودوره فى هذه التيارات مما يخلق للبطل رسالة معينة لها سمة دينية وتبدو تفسيرا طبيعيا يقدمه مؤلف السيرة بين يدى هذه الرواية. ذلك انه يذكر ان المحدثين والمخبرين ذكروا أمر العرب الشجعان فى الجاهلية وما عكفوا عليه من عبادة للاصنام وتقديس للاوثان ، وما كرسوا حياتهم له من منافسة على الشهرة والنفوذ ... « وكان كل منهم يريد أن يكون ما مثله أحد على وجه الأرض ، ويقهر شجعانها بالطول والعرض ، وكانوا لا يخافون الله ولا يراقبونه ولا يخشونه ولا يحترمونه » (١)

فهذا هو المهاد البيئى والاجتماعى الذى ظهر فيه عنترة شجاعا لا يقل عن اى منهم شجاعة ان لم يزد ، يتحرك فى اطار اسطورى يجعله سيفا مسلطا على أعناق هؤلاء الفرسان جميعا ، وكأنما يتعمد الكاتب أن يخلق المواقف القصصية التى تجعله يلتقى بأشهر أبطال الجاهلية واعتاهم متجاوزا فى هذا كثيرا عن الترتيب الزمنى والحقائق التاريخية ، وعنترة دائما منتصر ، وهو دائما قاتل لخصمه .

وهنا يبدو بوضوح أهمية هذا المهاد الذى رسمه المؤلف لأنه يحدد الهدف الذى من أجله يعيش عنترة ، وينتصر عنترة . يقول : « ولما أراد الله سبحانه وتعالى اهلاك أهل تجبروا وتكبروا أذلهم الله تعالى وقهرهم بأقل الاشياء عليه واحقرهم لديه، وكان ذلك غير عسير عليه . وذلك بالعبد الموصوف بأنه حية بطن الواد ، الذكى الفؤاد ، الطيب الميلاد ، عنترة بن شداد . الذى كان فى زمانه شرارة خرجت من زناد ، فقمع الله به الجبابرة فى زمن الجاهلية ، حتى مهد الأرض قبل ظهور سيدنا محمد خير البرية . » (٢)

فعنترة اذن فارس له دور بين أبطال الاسلام ، وهو فارس يضربه

(١) السيرة ص ٤

(٢) السيرة ص ٤ ــ ٥

بسيف الايمان ويحارب أعداء الله الكفار الذين افسدوا الجزيرة قبل الاسلام وأصبح من المحتم أن يزولوا حتى لا يقفوا امام محمد عليه السلام حجر عثرة دون نشر الدعوة الاسلامية ؟ وفتح القلوب امام الدين الجديد .

وعنترة بهذا فارس — وان كان جاهلى المولد والحياة — الا انه يمت بسبب كبير الى الاسلام. وحسبك من سبب أن يكون هو السيف الذى يمهد الأرض قبل ظهور الدين الجديد .

البطل فى هذه الرواية يتفق اذن مع أبطال العرب جميعا فى رواياتهم التى دونت فى العصور الاسلامية من ناحية الهدف . وهذه السمة لابد أن تتوفر فى كل بطل اسلامى. ففى السير التى تشابه سيرة عنترة نجد سيف بن ذى يزن مثلا يخرج من اليمن وقبل ظهور المرحلة التاريخية التى عاش فيها عنترة بزمان طويل ليدافع عن الاسلام بمعناه المطلق ، وهو المعنى العربى الذى يربطه بدين ابراهيم الخليل والحنيفية ذاتها . وكاتب سيرة سيف يوضح هذا بصراحة . فسيف يقتل كل مشرك وكافر يعترض طريقه ، ويعيد الناس بالسيف الى الاسلام . والظاهر بيبرس فى سيرة الظاهر يحارب الصليبيين وينصر دين الاسلام — وهو هنا دين الاسلام بمعناه الخاص — على الكفرة الذين يريدون بأرضه الشر .

بل اننا نلمح هذا فى السير التى عرفت عن العرب قبل الاسلام ودونت فى عصور متأخرة . ولعل أوضحها فى هذا المعنى ما نراه فى الحكايات التى يرويها وهب بن منبه مثلا فى كتابه « التيجان » عن الصعب بن ذى مراصد ذى القرنين الذى خرج ليقتل الكفار فى شرق الأرض ومغربها ، والذى اجتاح العالم بأسره بجيوشه حتى وصل الى أرض الشياطين وأرض الملائكة ، يقتل كل من كفر ، ويعيد الى الايمان بالله كل من صادف من بشر . يقول وهب : « فسارا (أى ذو القرنين والخضر) يريدان مطلع الشمس يدعوان الى الايمان ، ولا يأتيان على أمة الا آمنته أو هلكت ، حتى بلغا المحيط من عجز الأرض تحت بنات نعش ، فأصابا فيها أمما من بنى يافث بن حام واوشابا من بنى سام ، فلم يزل يحملهم على الايمان ، فمن آمن نجا ، ومن صرف عن الحق حمله على السيف » (١)

وتتكرر هذه الظاهرة فى جميع الشخصيات البطولية التى يعرفها الادب العربى . فلا بد ان يكون البطل دائما مدافعا عن حق ، وان يكون هذا الحق على علاقة بالدين وعنترة ليس ملكا من ملوك الجاهلية الاولى

(١) التيجان ص ٩٧ ط حيدر اباد

حتى نقول انه كان يدافع عن دين الدولة ، كما أن عنترة ليس من قوم يصح أن يكونوا على علاقة بدين من أديان الجزيرة المعروفة حتى يرتبط اسمه بهذا الدين ، بل ان عنترة كان يعيش فى الفترة التى سبقت الاسلام وهى فترة برزت فيها صور الالحاد وعدم التمسك بالتقاليد الدينية الاولى والانصراف الى عبادة الأصنام مما يجعل من عنترة بطلا وثنيا لولا هذا الهدف الواضح الذى شاء مؤلف السيرة أن يربط به عنترة ربطا واضحا ليساير التقليد العام فى الابطال الأسطوريين من ناحية ، والعرف العربى العام الذى يريد من البطل دائما أن ينصر حقا ويهزم باطلا من ناحية أخرى ، بل وليساير الروح الاسلامية التى تملأ قلوب من يروى لهم هذه السيرة ويربط بين بطله وبين نفوسهم وقلوبهم برباط من التعاطف والود ، اذ يجعل من بطله مقدمة قوية لظهور الاسلام للبطولات التى تمت بعد ذلك وظهرت فى الاسلام .

ومؤلف السيرة ــ بهذا التحديد ــ قد نفى عن بطله شبهة القسوة التى لا مبرر لها ، وشبهة العنف التى قد تجعله بغيضا الى قلوب المتلقين ، كما غطى بلباقة تلك العورة التى يحسها كل مسلم فى بطل غير مسلم وهى أنه لم يعرف الاسلام . وصل المؤلف الى كل ذلك بأن وضع لبطله هدفا يساير جميع تلك العوامل ويتجاوب معها فتجد الاحداث بعد ذلك تجاوبا فى قلوب الناس . ثم هو أيضا قد وجد لنفسه مايبرر به الاعمال الخارقة التى كان عنترة يأتى بها ، ذلك انه مؤيد بقوة خفية تفتح أمامه الطريق وتنصره فى وقت اشتداد الازمة وتعيد اليه قوته الذاهبة اذا ما اشتدت المعركة ، وترمى بهيبته فى قلوب أعدائه . تلك القوة الخفية الخارقة هى التى كرسته لهذه الغاية وجعلت منه « أقل الأشياء » التى قهر الله بها الكافرين وقمع الجبابرة فى زمن الجاهلية « حتى مهد الأرض قبل ظهور سيدنا محمد خير البرية . »

وعنترة هنا يكتسب صفة ثانية من صفات البطل الاسطورى العربى وهى مساندة القوى الخفية . فمن الواضح أن أبطال العرب الاسطوريين امتازوا دائما ــ الى جوار مالهم من قوة بدنية ــ بمساندة قوى خيرة غير محدودة بما للقوى البشرية من حدود . فنحن نرى ذا القرنين تأتيه الاخبار فى أحلامه بما يفتح له آفاق الغد فيعلم مايجب عليه أن يقوم به من أعمال ، وهو أيضا تقف الى جواره شخصية خالدة هى شخصية «الخضر» عليه السلام تشرح له ماغمض عليه من أمور وتؤيده بعلم غيبى يفهم كل شىء ويحيط بكل شىء . وسليمان الحكيم كذلك تؤيده ــ حسب رواية القرآن الكريم نفسه ــ قوى الجن والرياح وتسخر له الجمادات والحيوانات ، ويخضع له كل مخلوق ــ ظاهر ومستتر ــ على ظهر الارض أو فى باطنها . ونرى فى قصة سيف بن ذى يزن صراعا بين قوى

الخير وقوى الشر يمتد — لابين بنى الانسان فحسب — بل بين الجن الخير والجن الشرير ، وبين أصحاب السحر والكهانة من خيرين وشريرين . والخيرون بالطبع — فى كل هذه القوى — يؤيدون سيفا .

اما بطلنا عنترة فالقوة التى تؤيده ليست بهذا الاغراق فى الغيبية، وانما هى قوى تتركز فى ظاهرة واحدة هى قدرته العجيبة على الاستمرار فى الحرب ليل نهار دون ماكلال أو ملال . فاذا أحس الكاتب أن المتلقى بدأ يعجب من صمود عنترة الطويل هذا قال — وكأنما هو يهمس فى أذنه — « وكان عنترة يتميز بهذه الظاهرة ، أيده بها الله سبحانه وتعالى ، وهى أنه كلما أوغل فى الحرب ازداد نشاطا وقوة وقدرة على مواصلة الحرب ، وكأنما هو لم يبذل فيها جهدا قبل هذا » . فعنترة اذن مؤيد بقوة غيبية تسانده وتساعده على تحقيق الغايات التى كرسه الله من أجلها وهى القضاء على الكافرين .

الا أن كاتب سيرة عنترة يصر على التمهيد لظهور بطله والحديث عن أهله وقبيلته قائلا : « ولكنا لا نذكرهم حتى نذكر حديث سيدنا ابراهيم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وبعد ذلك نذكر الأصل والفرع ، ونصلى نحن وأنتم على صاحب السنة والشرع ، وماجرى له مع النمروذ ابن كنعان لعنة الله وغضبه عليه ، وكيف أراد أن يلقى خليل الرحمن فى النار ، كيف جعلها الله عليه بردا وسلاما ، وكيف أهلك الله النمروذ بأضعف الأشياء عليه . ونذكر حديث سيدنا اسماعيل ، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وأتم الرضوان من الملك المنان . ونذكر من يتفرع من أهل العرب الشجعان ، وما تفرع غيرها من قبائل العرب . وبعد ذلك نذكر كل قبيلة وعربها وفرسانها وشجعانها وماتم لهم فى زمن الجاهلية من القيل والقال » . (١)

ومؤلف السيرة فى هذا انما يرفع نسب بطله الى ابراهيم ، ويشير اشارة ضمنية الى ان مايجرى لعنترة من احداث انما هو امتداد لما جرى لابراهيم ، وهو يختار من حياة ابراهيم موقفا بذاته يقف عنده وقفة طويلة ذلك هو موقفه من النمروذ بن كنعان كأنما ليجسد موقف الأبطال من قوى الشر والكفر . وهو أيضا يربط — من حيث النسب — بين عنترة والقبائل التى سبقته الى اسماعيل ثم الى ابراهيم . وتحديد النسب للبطل عامل من أخطر العوامل بالنسبة للبطل الاسطورى العربى ومؤلف سيرة عنترة يذكر نسبه بنى عبس بذكره لنسب ملكها فيقول : «وكان اسمه زهير بن جذيمة بن رواحة بن بغيض بن عبس بن ذبيان بن قيس بن خزاعة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . » وشداد أبو عنترة

(١) السيرة مجلد ١ ص ٥

واحد من هذه القبيلة . وهذه القبيلة التى تنتهى بنسبها عند عدنان واحدة من قبائل العرب التى ترتبط بهذا النسب ثم ترفعه الىاسماعيل ومنه الى ابراهيم فعنترة بهذا اذن عربى يتصل نسبه بأبى العرب اسماعيل وبالنبى العربى الاول ابراهيم .

واذا كان من سمات البطل العربى الأسطورى أن يدافع عن رسالة ويرفع شعلة حق ، واذا كان من سمات البطل العربى ان تؤيده قوة خفية — وهى لابد أن تكون قوة خيرة — ، فان من سمات البطل العربى كذلك أن يكون عربى النسب واضح الأبوة أبا عن أب حتى ابراهيم . وربما كان ذلك لان العرب شغفوا بتحديد أنسابهم وأقاموا علما كاملا يحفظ لهم ذلك هو علم الانساب الذى كان من أوائل العلوم التىظهرت فى بداية الاهتمام بالرواية فى صدر الاسلام ، ومن أشهر من ألف فيه زياد بن أبيه والنسابة البكرى . ومؤلف السيرة يحس منذ البداية بأن بطله الهجن الام ، الاسود الوجه ، يقف عند هذه النقطة موقفا ضعيفا . ولهذا نراه يحاول منذ اللحظة الأولى ان يعالج هذه المشكلة بل انه ليجعلها لا تغيب عن باله فى كل فصل من فصول روايته الطويلة .

ففى مطلع السيرة نراه يدمج نسب عنترة فى نسب قبيلته ، ثم يدمج نسب قبيلته فى نسب ملكها ، ثم يرفع هذا النسب فى سلسلة تصل به الى غايته . فاذا ماكانت أحداث الفصول الأولى احسسنا مدىالجهد الذى يبذله المؤلف ليبرز هذا الجانب من الصراع فى شخصية عنترة ، ولا يقدمه لنا بطلا اسطوريا خارق الافعال الا بعد أن ينتهى روائيا من اقرار هذه النقطة والوصول بها الى الحل المنشود . فعنترة فى الأجزاء الاولى من السيرة يصارع صراعا مريرا فى سبيل اتصال نسبه بأبيه . وهو — حتى يحقق هذه الغاية — ليس الا فارسا عاثر الحظ يحاول أن يتغلب على مايواجهه من مشكلات النسب ومشكلات اللون فهو فى هذه المرحلة ذاتى الصراع . فاذا ماتغلب على تلك المشكلات وحظى بصحة النسب ، استطاع الكاتب بعد ذلك أن يبدأ فى تقديمه لنا بطلا أسطوريا يحقق لقبيلته ولقومه وللعرب جميعا انتصارات باهرة ، ويخرج ليؤدى الغاية التى رسمها له المؤلف وهى أن يزيل الجبابرة والكفار من طريق الرسالة المحمدية .

عنترة اذن عربى النسب ، ونسبه يرتفع فى وضوح الى جد العرب جميعا ابراهيم وقد يكون فى هذا شرف يكفى البطل ، ولكن المؤلف يحس بأن هناك نقطة تحتاج هى الأخرى الى حل قبل أن يصل ببطله الى المكانة الاسطورية . تلك النقطة هى أمه زبيبة الجارية الحبشية .ويرجىء المؤلف الحديث عن هذه النقطة ، ويظل منها على وجل ، حتى ينتهز فرصة المعارك بين عنترة والاحباش ليكشف لنا عن مفاجآته الكبرى

وهى أن زبيبة كانت ابنة ملك الاحباش . وبذلك يتصل نسب عنترة الى حام كما اتصل من قبل حتى سام ، ويصبح عنترة شريف النسب عاليه من ناحية أبيه الذى يتصل نسبه واضحا الى ابراهيم ومنه الى آدم ، وشريف النسب عاليه من ناحية امه كذلك وهى التى كانت مطعنا يوجه اليه - بعد أن أوصلها المؤلف فى حذق بأعلى رأس فى السود - فلن يضير عنترة أن يكون سبطا لملك الاحباش كما كان يضيره أن يكون ابن أمة سوداء مجهولة النسب .

بهذا تغلب مؤلف السيرة على كل ماقد يقف حائلا دون اكمال الشرط الثالث من سمات البطل الروائى العربى وهو شرط اتصال النسب ورفعته . وبعد ذلك يستطيع أن يقدم لنا فارسه - الذى تحققت له سمات البطل العربى الأصيل - ويجعل منه نموذجا للفارس العربى .

والواقع أن ما تكلفه المؤلف فى هذه المقدمة التى تنفرد بها الطبعة الحجازية من السيرة انما يحقق للبطل كل هذه السمات ، ويمهد لظهوره تمهيدا طبيعيا من الناحية الروائية . فيبدأ بذكر معارك الايمان ضد مظاهر العسف والكفر والطغيان منذ آدم ، ويحكى لنا قصة ابراهيم مع النمروذ بن كنعان بادئا بذكر آباء النمروذ الذى هو من أولاد « كوش ابن حام » الذين تتمثل فيهم صفات التجبر والطغيان . فاخو كوش - زاغور - جبار لا يطيقه أحد ، وكوش نفسه أشد قوة وتجبرا ،يسىء ويخرب ويقتل وينهب بل انه ليخادع كذلك .

وهذه السمات لا توضع هكذا عبثا ، وانما يحدد بها المؤلف - بطريقة تقريرية مرة ، وخلال أحداث روائية مرة أخرى - مواقف الامم حول العرب وسماتهم ليبين فضل العرب عليهم وهو الفضل الذى يؤكده عنترة بحروبه الكثيرة التى يهزم فيها الأحباش مرة والفرس مرة والروم مرة ، ويجعل من سمات الفارس العربى سمات لا مثيل لها ، هى جماع الفضائل ، وهى فى الوقت ذاته المثل الاعلى ... يقول مؤلف السيرة : « وكان الملك فى أولاد سام ،والتجبر فى أولاد حام ، والفتوة والنبوة فى أولاد يافث . » (١) ويقسم الكتاب بعد ذلك الامم الى أماكنهم محددا بهذا قيمة العرب ومكانهم ، كما يحدد لهم أيضا موقفا نفسيا معينا من الامم الاخرى يجعلنا نتقبل انتصارات عنترة بتجاوب نفسى قد مهد له المؤلف بما أثبته فى هذه المقدمة من سمات للعرب لا يجاريهم فيها غيرهم من الامم .

والمؤلف يقص علينا قصة ابراهيم والنمروذ كاملة . فبعد أن أورد

---

(١) السيرة مجلد ر ١ ص ٥

فصلا كاملا عن بعثة ابراهيم وماجرى له من أحداث ، قدم لنا صورة روائية رائعة لحكايته مع النمروذ ، ولتلك الحروب التى ثارت بين جيوشهما ، وكيف صنع ابليس المنجنيق للنمروذ ، وكيف قطع الله نسل البغال لانها كانت تحمل الحطب للنار التى أوقدوها لحرق ابراهيم، ثم يمضى المؤلف مع ابراهيم فى رحلته الى الشام ثم الى مصر ثم الى الحجاز ، ويروى كيف تزوج ابراهيم من هاجر القبطية — ولعله يقصد المصرية — ثم يحكى لنا قصة هاجر وابنها اسماعيل فى أرض الحجاز ، وكيف أيد أهل اليمن اسماعيل حتى غدا أبا العرب ، ثم قصة ذبح اسماعيل وكيف افتداه الله ، ويذكر بعد ذلك زواج اسماعيل وتملكه على تلك البلاد ... وكان من أولاد اسماعيل « قيدار » فيحكى المؤلف ماجرى له مع يعقوب بن اسحق — وهو ابن عمه — ثم يحكى كيف تزوج قيدار وظل يتعاقب نسله الى زمان معد بن عدنان ، ورزق معد ولدا فسماه نزار ، ورزق نزار أربعة أولاد فكانوا أيادا وربيعة ومضر وانمار .

والجزء الاول من هذه القصة — وهو مايتعلق بموقف ابراهيم والنمروذ ثم بحكاية ابراهيم مع هاجر — يغلب عليه سمة المصادر اليهودية . فاذا تقدمنا قليلا فان تلك الأجزاء من حكاية اسماعيل وفدائه تكاد تكون تفسيرا لآى من القرآن الكريم . وعندما ينتقل الى الحديث عن الجزيرة العربية نراه يميل الى نصفة اليمينيين ، ثم هو يفرق فى أولاد اسماعيل بين اسحق — والد يعقوب ومن تلاه من بنى اسرائيل — وبين قيدار وولده نزار جد النبى عليه الصلاة والسلام .

هذه الرغبة الملحة فى القص عن الأنبياء وعن الجزيرة العربية قبل الوصول الى سيرة بطل الرواية انما هى تحديد لاماكن الابطال الذين سيأتى ذكرهم بعد ، وهى أيضا تمهيد لظهور الاسلام الذى يريد المؤلف أن يجعل من عنترة حاميا من حماته وممهدا لظهوره وليس من عجب أن تروى هذه الأجزاء كلها عن « وهب بن منبه » . فمعروف أن وهب

يعتبر من أقدم رواة سير الأنبياء فى الجزيرة العربية كما يعتبر من امهر رواة القصص . ووهب من اصل يهودى ، وهو ايضا يمنى ، ومن هنا جاءت التأثيرات اليهودية كما جاءت التأثيرات اليمنية . ووهب من رواة المغازى بعد الاسلام ، فهو اذن اسلامى الثقافة الى حد ما ، ومن هنا بدت بعض اجزاء روايته وكانها تفسير لآى القرآن حول هاجر والبيت الحرام وقصة الفداء.

وليس من شك فى ان التفسيرات الاسطورية التى يقدمها الكتاب لهذه القصة — قصة ابراهيم — تحمل من الخصب والاصالة مايجعلنا نشك فى ان كاتب السيرة قد نقلها نقلا عن وهب من بعض كتبه التى لم تصل

الينا ، خاصة وانه يردد بين فقرة واخرى الاحبار ، وكعب الاحبار من اشهر رواة القصص الجاهلي .

مؤلف السيرة فرق اذن بين اولاد نوح ووضع لكل منهم سمة من السمات ، ثم استمر بعد ذلك حتى فرق بين اولاد ابراهيم بن سام فجعل قيدار من ناحية وجعل اسحق فى ناحية . ثم استمر بعد ذلك ايضا ليفرق بين أولاد قيدار حينما يصل منهم الى نزار فيجعل اولاد نزار أربعة هم : اياد وربيعة ومضر وانمار وكلهم أولاد نزار بن معد ابن عدنان .

والمؤلف فى هذه الوقفة يحاول أن يقسم الاصول العربية التى تكون الشعب العربى الى سمات أربع . فحين تأتى الوفاة نزارا يجمع أولاده ويوصيهم بأن يفضوا رقعة معينة تحوى وصيته بعد موته وان يعملوا بما جاء فيها ، فاذا ما اختلفوا فليقض بينهم الملك الافعى بن الجرهمى . فلما مات وفتحوا الرقعة وجدوا مكتوبا فيها أن الخيل والسيوف والرماح وآلة الحرب والكفاح لاياد ، أما الغنم والجمال والابقار فهى لانمار ، والخيل الشقر والقباب الحمر لربيعة ، بينما النعم والعبيد والاماء فلمضر . واختلفوا فقصدوا الى الأفعى ليحكم بينهم ، واذا بهم فى الطريق يقفون موقفا قصصيا يريد منه المؤلف أن يكشف لنا عن سمات أخرى تفرقهم ... يكشف عنها هذه المرة ببيان ملكاتهم . أما الحادثة فهى أنهم وجدوا أثر بعير كأنه شارد والى ناحية الماء الذى بين أيديهم وارد (١) فقال ربيعة : ان الجمل أهوج . وقال مضر : وأنا أقول انه اعور . فقال انمار : وأنا أقول انه ازور . وقال اياد : وأنا أقول أنه أبطر . وحين يصل اليهم صاحب البعير يحكون له صفاته فيتهمهم بسرقته ، ويسيرون جميعا الى الأفعى الجرهمى ليحكم بينهم .

فاذا ما وصل أولاد نزار بن معد الى الملك الأفعى ادخلهم الى دار الضيافة وأحضر لهم الطعام خروفا مشويا وخبزا أبيض وخمرا وبعد أن اكلوا ودارت الخمر برءوسهم قال ربيعة : ما أطيب لحم هذا الخروف لولا أنه رضع من كلبة . وقال مضر : ما أطيب هذا الخمر لولا أن كرمه مفروس بجانب جبانة . وقال اياد : ما أطيب هذا الخبز لولا أن عاجنته كانت حائضا . وقال انمار : ان صاحب هذا الزاد ينسب الى غير أبيه .

وسمعت جارية مادار بينهم من حديث ونقلته الى الملك فغضب وأحضرهم ومعهم صاحب الجمل . وحكى له الاعرابى قصة جمله الذى تاه وعرفه بصفاته هؤلاء الاخوة ، وحين سألهم كيف عرفوه برروا له هذا الذى وصفوه تبريرا يكشف عن مواهب كل منهم . امامن قال عنه أنه اعور فقد لاحظ أن البعير أكل النبات من جهة واحدة ، ومن قال أنه

(١) السيرة مجلد ١ ص ٥٤

أزور أى مخلوع الحنك ـ فقد لاحظ ان مكان أكله متعفش ، أما من قال عنه أنه أهوج فقد لاحظ أن مشيه ليس مستقيما ، أما من قال أنه ابتر فقد لاحظ أن روثه كتل والجمل ذو الذنب يفرق روثه بذنبه .

وهكذا انتهت القصة الاولى وخرج الرجل صاحب الجمل بينما بدأ الأفعى يسألهم عما قالوه عن طعامه . وقد اثبتت اجاباتهم جميعا دقة ملاحظتهم وعرف الملك الافعى أنهم صدقوه فى استنتاجاتهم وحكم بينهم بأن يرضوا بما قسم أبوهم . وبهذا أكد المؤلف ما اراد ان يؤكد من سمات للعرب جميعا وهى سمات الذكاء ودقة الملاحظة وسرعة البديهة ، كما اوضح مابين هذه الأصول العربية من فروق .

ثم أفرد المؤلف بعد ذلك الحديث عن مضر ، وخص بالذكر ربيعة ومنها ذلك الحى الذى منه عبس وهو غطفان ـ أكبر أحياء ربيعة . وخص من أولاد مضر بنى عبس ، فبدأ بذكر ملكهم الأكبر جذيمة وما استطاع أن يحققه من مال وقوة وبأس ، وراح يرسم لنا صورة قصصية لعصر ذلك الملك وما امتلأ به من حروب أدت فى نهاية الأمر الى مصرعه على يد الملك الرباب . ثم تولى من بعده ابنه عمرو ، فابنه زهير . وكأنما يحكى المؤلف سلسلة تاريخ بنى عبس متتبعا فى هذا التاريخ أخبار ملوكهم من خلال أخطر الحوادث التى مرت بحياتهم وراسما فى نفس الوقت صورة كاملة لما تحلى به ملوك عبس من شجاعة وقوة ، وما اتصف به فرسانهم من جلد على القتال ومهارة فيه. فاذا ماوقف المؤلف عند زهير فهو يشير الى ماوصل اليه من عز وسؤدد وذلك بمحاولته أن يبنى بيتا الى جوار الكعبة ، ومانهاه الناس عن ذلك الا لخوفهم ان يلقى جزاء بغيه اذ ينافس بيت الله الحرام .

والمؤلف بهذه الاشارة يدلل على ما كان لزهير من مكانة كبيرة فى الجزيرة العربية . ثم يمضى يرسم لنا حياة زهير وما امتلأت به من مظاهر القوة والدهاء ذاكرا قصته مع زوجته تماضر التى امتلأت هى الأخرى بفنون المكر والخداع والحيل ، وكأنه هو يريد أن يضيف الى أمجاد زهير الحربية أمجادا أخرى فى أصالة الرأى وحسن التدبير .

ويذكر المؤلف أصول هذه القبيلة وهم : بنو عبس ، بنو زهير ، وبنو قراد ، وبنو زياد . وهو يعنى بالأصول هنا أكثر من عنايته ببطون القبيلة . فاذا ماركز اهتماماته بعد ذلك على بنى عبس ورسم لنا صورة كاملة لها ولسماتها ، ركز الحديث على بنى قراد ومنهم شداد وأخوه مالك وأخوه زخمة الجواد ، وماذلك الا لأن الامير شداد هو أبو فارسه وبطل روايته عنترة .

فالتسلسل الروائى اذن عند الكاتب سليم ومنطقى ومعقول ، وهو لا يبدأ بحديثه عن عنترة قبل أن يربط فارسه بسلسلة كاملة من الامجاد

الحربية تبدأ بأبيه شداد بن قراد وتشمل بنى عبس وتتصل بمضر وإبنزار ومنه الى قيدار ثم الى اسماعيل فابراهيم . وهو لا يكتفى بمجرد التقرير ، وانما يرسم صورا قصصية كاملة تحمل السمات الاجتماعية والذاتية للمكان والناس جميعا ، والكاتب لا يغفل في حديثه عن أولاد نزار التقسيم الجغرافى أيضا ، فمضر له مكان أبيه ، وربيعة له أرض العراق ، وأياد له ملك اليمن ، أما انمار فله أرض الشام ... « وسميت عرب ربيعة الفرس لأجل حسن حالهم وملبوسهم ، وعرب اياد قحطان ، وعرب الشام بنى غسان ، وعرب الحجاز بنى عدنان » (١) فكأن عرب الحجاز — وهم المضريون — هم الذين خصوا باسم بنى عدنان الذى هو جد ابيهم نزار . ومن مصر هؤلاء — لا من غيرهم — كان بنو عبس (*)

واذا كانت السيرة الشامية — ومثلها السيرة العراقية — لا تعنى بهذا الجزء ، اذ انها تبدأ بتسليط الضوء على شداد مباشرة ، فان السيرة الحجازية بذكرها له قد حققت — من الناحية الروائية — عدة اهداف هى :

١ — رفع نسب صاحب السيرة الى الجد الاكبر للعرب .

٢ — ربط كفاح صاحب السيرة — من حيث الهدف والغاية — باشرف ما يذكر من كفاح اجداده الذين لا يذكرون فى كتب السيرة والاخبار الا بكفاح له علاقة بالدين (*) وبذلك فهو يحقق لهذه السيرة الهدف الدينى المنشود .

٣ — استطاع الكاتب ان يرسم لناصورة قبيلة بطله فى اطار يبين مكانها من العالم العربى انذاك ، بل ومكانها من العالم المعروف حول الجزيرة العربية ، بما يحمل هذا المكان من علاقات هى الود حينا ، وهى العداء احيانا ، وهى صلات النسب والقربى للجد الاعلى فى حالة ، وهى صلات العداء والقطيعة منذ التاريخ الأول فى بعض الاحيان .

من كل ذلك يمكننا القول بان هذا الجزء الاول من السيرة ليس اضافة وانما هو اصل اغفل من السيرة الشامية لسبب او لآخر ، ولكنه بغير شك موجود فى العمل الاصلى لانه اقرب الى طبيعة الروايات العربية التى تحب دائما ان تبدأ كل سيرة بخلق العالم — ان امكن — او باقرب الأحداث ارتباطا بها إن تعذر البدء منذ خلق العالم .

وقد جمعت هذه المقدمة كل السمات المميزة للرواية العربية مما يدل على ان لكاتبها المامة واضحة بهذا الفن وبتاريخ الكتابة الروائية العربية ، وان له صلة وثيقة بتلك الروايات — قديمها واسلاميها

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٤

ومعاصرها ـ ، فرجوعه الى وهب بن منبه ، ورجوعه الى كعب الاحبار والى عبد الله بن عباس ، بل ونسبته الكتاب الى الاصمعى ، كل ذلك فيه من الدلالات ما يجعلنا نقطع بانه قد اطلع على اعمال وهب وعلى اعمال ابن اسحق واعمال غيرهم من الروائيين العرب .

ووهب يبدأ كتابه « التيجان » (وهو الكتاب الوحيد المحقق والمطبوع له) بداية مشابهة ، فهو يبدأ منذ خلق العالم وخلق الارض والسماء ثم خلق آدم . وعن وهب ـ وعلى منواله ـ سارت فئة كبيرة من الكتاب مثل الثعلبى (صاحب كتاب قصص الانبياء المسمى بالعرائس) اذ يبدأ ايضا بخلق الارض من الماء معتمدا فى رواياته على وهب بن منبه وعلى غيره . اما ابن اسحق فيبدأ السيرة النبوية من مكان شبيه وقريب من هذا ، اذ يبدأ بذكر النسب ابتداء من آدم ،ويتسلسل فى هذا النسب حتى يصل الى النسب القريب ، ثم يبدأ بعد ذلك فى الحديث عن عدنان وما تفرق من القبائل من ولده .

وهذا الاغراق فى الابتعاد ببدء القصة او السيرة تقليد اخذه مؤلف سيرة عنترة عن الكتاب القدماء أمثال وهب بن منبة وابن اسحق وغيرهم . وربما اغفلت السيرة الشامية هذا الجزء من الكتاب لانه تكرر ـ ويتكرر ـ فى كثير من الاعمال المشابهة . وربما دخل عامل الحذف فحسب عند النقل ، او ربما كان لهذا اسباب اخرى تتعلق أما بالنساخ واما بعقلية المتلقين ، أو ضاعهم الاجتماعية ؛ الا انه من المؤكد ان هذا الجزء يدخل فى صميم السيرة وليس مضافا اليها ولا هو فضول وزيادات .

الباب الثالث

حول السيرة العنترية

الفصل الاول

مكان السيرة العنترية

كلمة سيرة تطلق فى تراثنا على اعمـال كثيرة تتفاوت من حيث دلالاتها الاجتماعية ، كما تتفاوت من حيث لغتها التى تصل الى العربية الفصيحة مرة ، والى العاميـة مرات ، ثم هى مزيج منهما فى كثير من الاحيان . غير انها جميعا تتفق فى مظهر هام يعكس قيمتها كعمل فنى . هذا الالتقاء هو شعبية التلقى الذى جعل من تلك الاعمال ــ التى سميت سيرا ــ متعة شعبية يحظى بها غير القارئين عن طريق المنشد او الشاعر ، كما يحظى بهـا القارئون عن طريق نسخها المختلفة التى تدون وتطبع أكثر من مكان .

والتعريف العلمى المعاصر لكلمة « سيرة » يحدد مكانها بين التاريخ والادب . فهى تاريخ من حيث تناولها لحياة فرد له اهميتـه كموجه للاحداث فى عصره ، او جماعة لعبت فى تاريخ الشعب او الانسانية دورا ذا اثر . وهى ادب من حيث كونها تحمل انطباعات مؤلفها وتتلون بثقافته ووضعه الاجتماعى وموقفه من الحياة . اى انهـا ليست عملا علميـا تاريخيا يعتمد على الوثائق الثابتة القيمة المحققة الوجود ، ثم ينهج الى مناقشتها ومقابلتها ببعضها لاستخلاص الحقائق المجردة التى لا تهم من الناس الا اصحاب العلم والدراسة العاملين فى نفس الميدان ، بل هى قد لا تعنى على الاطلاق بهذا التمحيص والمناقشة ، وقد تختار اضعف الاقوال بما يتفق دن غيره مع موقف المؤلف ووجهة نظره وهـذا يؤكد ذاتية السيرة كعمل ، وليست الذاتية من العلم فى شىء وانما هى الى الادب اقرب وبه الصق .

وحين نحدد السيرة بهذا المفهوم نجد اننا لا نبتعد كثيرا عما تحت ايدينا من سير اسميناها « السيرة الشعبية » وتقف على قمتها سيرة عنترة . ويمكننا بالتالى ان نقول ان شاعرنا الشعبى ومتلقينا الشعبى وقد أسميا هذه الاعمال بالسيرة لم يخطئا فى كثير أو قليل .

فسيرة عنترة بن شـداد ليست ثبتا تاريخيا لاحداث حيـاة الفارس

الشاعر العربى عنترة بن شداد وليست تتبعا لمراحل حياته المختلفة ذلك التتبع المبنى على الوثائق التاريخية ولا الاحداث التى ثبتت صحتها فحسب ، كما ان هذه السيرة ليست تتبعا لحياة بنى عبس — قبيلة عنترة — وحدها وبنفس الطريقة التى يهمها تحديد المنازل التى نزلت بها جغرافيا ، وتحديد الشخصيات التي لمعت فيها تاريخيا . وعنترة بن شداد — شاعر المعلقات — لم يلعب فى تاريخ الجزيرة العربية ولا فى تاريخ الامة العربية ذات الدورالهام الخطيرالذى يجعله اجدر من غيره من اصحاب السيف او اصحاب القصيد الذين عاصروه او الذين تشابهوا معه فى الظروف التاريخية بحيث ينفرد وحده بهذه السيرة بينما لايحظى الآخرون الا بنتف من الاخبار متناثرة فى كتب الادب والتاريخ ، وكذلك قبيلة عبس ليست هى الاخرى بدعا بين القبائل ، وليست اهم مثلا من قبيلة قريش التى شع منها نور النبوة ، لتنفرد وحدها بمثل هذه السيرة .

فسيرة عنترة اذن — وربما مثيلاتها من السير — ليست اعمالا تاريخية يقصد منها وجه التاريخ وحده ، وانما هى سير بالمدلول العلمى المعاصر . هذا ما تثبته النظرة الاولى . ولكن .. اصحيح ان سيرة عنترة — او سيرة الظاهر بيبرس ، او سيرة سيف بن ذى يزن او سيرة ذات الهمة تشابه من حيث المنهج وطريقة التأليف تلك الاعمال التى اطلق النقاد المعاصرون عليها اسم « السيرة » ؟

حقيقة الامر ان هناك نقاط التقاء وهناك مجالات للفرقة . ويوم أطلق كاتبو هذه السيرة الشعبية — ومتلقوها — اسم السيرة عليها لم يكونوا يعرفون المفهوم العلمى الحديث لهذا المصطلح ، بل ان اصحاب هذا التفسير العلمى الحديث لم يكن ادبهم قد بدأ بعد ، ومع هذا فنحن نناقش هذه القضية على الرغم مما قد يبدو فيها من اعتساف اذ ان تطبيق المدلول المعاصر على اعمال لها ظروفها التاريخية، ولها تنقائيتها الفنية ، امر لا شك فيه من القصر والتعسف قدر كبير .

بيد ان سيرنا الشعبية هذه تتفق مع المصطلح الحديث فى انها تحوى حديثا عن شخص أو عن جماعة عرفهم التاريخ فعلا وقاموا فيه بدور ما — ان لم يكن ظاهرا عند المؤرخ صاحب النظرة العلمية ، فهو واضح تمام الوضوح عند منشىء السيرة الذى ربما كرس حياته من اجلها ، وعند متلقى السيرة الذى احتفى بها كل الاحتفاء — كما ان العنصر الذاتى فيها واضح تمام الوضوح فنحن نلمح كاتبيها يختارون مما عرف من احداث التاريخ ما يعضد القضية التى يتبنونها دون النظر او المفاضلة او المناقشة . فالاختيار هنا اختيار المتفنن لا اختيار الدارس

من هنا كان اللقاء ، وبعد ذلك يأتى الخلاف . فالسير الشعبية لا تكتفى بالاحداث التاريخية كاساس للحديث عن صاحب السيرة وقومه ، بل هى تتجاوز الحقائق التاريخية الى خلق المواقف والاحداث وتخيل مجالات الحركة لصاحب السيرة ودفعه فيها ليؤثر التأثير المطلوب الذى قد لا تنتجه الاحداث التاريخية الثابتة .

وهناك ما هو اكثر من هذا .. اذ قد يدخل كاتب السيرة من الشخصيات ما لم يعرفه التاريخ ويجعل لها من الادوار ذات الاهمية ما يؤثر فى سير الاحداث . وهو فى بعض السير لا يكتفى بالشخصيات البشرية التى تسير تصرفاتها ضمن الاطار الانسانى المعقول ، بل جعل لشخصياته مظهرا لقوة ما فوق البشرية بحيث يرسم صورة الانسان الاعلى الذى لم يتحقق فى التاريخ حتى الآن ، والذى تتسم تصرفاته واعماله باللامعقولية والمبالغة والافراط فى الخيال . وقد يتجاوز المؤلف ذلك الى رسم شخصيات لا تمت الى البشرية بصلة كأصحاب الخوارق فى سيرة الظاهر بيبرس ، وملوك الجان اصحاب القدرة على الحركة والتشكل واتيان الخوارق فى سيرة سيف بن ذى يزن ، ثم الكهان اصحاب السحر والغيلان من المزيج المشوه والمسخ بين البشرية وخوارق الطبيعة كما فى سيرة عنترة .

هذا كله يجعل السير الشعبية تخرج عن المعنى العلمى الاصطلاحى المعروف لكلمة « سيرة » الى ما يقترب تدريجيا نحو اصطلاح حديث آخر هو اصطلاح « الرواية » . فالرواية عمل يجمع بين ذاتية الفنان وبين موضوعية التناول اكثر مما يجمع اى عامل آخر من الاعمال الفنية ، والرواية تقدم على احداث وشخصيات لها امتداداتها فى التاريخ سواء أعاصر او بعد ، ولها فى نفس الوقت حرية الذات المنشئة فى الاختيار مما عرف من احداث تاريخية ، وفى رسم الشخصيات لا لتطابق التاريخ وانما لتطابق مفهوم الروائى وارادته ، كما انها تخضع خضوعا تاما لرغبة صاحبها فى ربط الاحداث بالشخصيات ربطا يتمشى مع منطق الحياة البشرية ان شاء ، او يفوق هذا المنطق ويخرج عليه ان أراد .

فمن ناحية الشكل اذن تصبح هذه الاعمال أقرب الى الروايات منها الى السير اذا ما حاولنا ان نطبق المضامين العصرية لهذه الاصطلاحات . والادب المعاصر قد عرف العمل الروائى وقسمه الى ثلاثة اقسام هى : رواية تاريخية — ورواية خرافية — ورواية واقعية . فالأولى هى الرواية التى تستمد احداثها من شخصيات تاريخية دون التزام ما بالتاريخ نفسه . والثانية روايات تستمد وجودها من افتراضات يتخيلها المؤلف كرحلة الى القمر ومواقف من اهل هذا

العمر او وصف بيئته ، او رحلة الى باطن الارض مع حيوانات خرافية يتخيلها الكاتب . او هى ان لم تفرط هذا الافراط فانها تتحدث عن انسان بشرى يأتى بالخوارق فى المناطق البدائية من العالم ويحقق فكرة الانسان الاعلى . اما الثالثة فهى تلك الروايات التى تستمد احداثها من المعقولية والمطابقة لمنطق الحياة والتعرض لمجتمع الكاتب نفسه بالنقد والمناقشة والوصف والتحليل .

وان كانت سيرة كسيرة الظاهر بيبرس تجمع بين النوعين الثانى والثالث من هذه الروايات ، كما تعيش سيرة كسيرة سيف بن ذى يزن فى اطار النوع الثانى وحده ، فان سيرة عنترة بن شداد تجمع بين النوع الاول والنوع الثانى معا .

ونحن نلمح ان النوع الثانى من هذه الروايات ـ اى الرواية الخيالية ذات الاحداث الخارقة ـ يكاد يكون هو القاسم المشترك الاعظم فى جميع انواع هذه السير ، الامر الذى يدفعنا الى مناقشة هذه السير من وجهة النظر الروائية طبقا لاصطلاحها الحديث .

الذين يخرجون هذه السير من اطار الرواية يعتمدون على مفهوم ضيق لمعنى الرواية ويضعون امامهم نماذج معينة للاعمال الروائية الكبيرة ويطلبون تطبيقها على ما هم بصدده تطبيقا حرفيا . فحين يفعلون ذلك تخرج السير الشعبية من خضوعها لهذا المصطلح ـ كما يخرج معها كثير من الاعمال الادبية الاخرى ـ فهم يشترطون فى الرواية التاريخية شروطا تتجاوزها هذه السير ، اذ نلحظ دائما انها لا تتجاوز التاريخ فحسب وانما تعتمد اعتمادا كبيرا على الخيال المغرق . ولهذا السبب أبعدوها عن حظيرة الرواية .

وقد فضل البعض تسميتها باسم « الاسطورة » ، كما اطلق عليها البعض الآخر اسم « ملاحم » . فهل هذه السير الشعبية اساطير او هى ملاحم ؟

يقول العلامة « جريميه » : « ان قصصنا الشعبى عبارة ـ فى الواقع ـ عن بقايا الاساطير والملاحم التى سادت فى العصور القديمة جدا ، وان كانت قد اهملتها الطبقات الخاصة الا ان العامة احتفظت بها بعد ان كيفتها ببيئتها الجديدة ...

ولكن هذا الكلام يجب الا يؤخذ بنصه على تلك السير التى تحت ايدينا لانها ليست بقايا واشتات متفرقة تعيش فى اذهان الناس وينقلونها محرفة البطل احيانا ، ومحرفة الاحداث احيانا ، ومحرفة المدلول احيانا اخرى ـ كما نشهد فى حكايات جحا واشعب مثلا ـ وانما

هى اعمال متكاملة نستطيع ان نقول انها اعتمدت على القصص الشعبى بعض الاعتماد واقامت عليه اعمالا روائية كبيرة تخرج من حيز الاساطير الى حيز آخر نحاول ان نحدده .

والواقع ان الاساطير تحقق ذلك الارتباط بين البطل الاسطورى وبين الآلهة والكائنات ذات القوة الخارقة .. « فنحن نجد بطل الاساطير يتعامل مع كائنات غريبة هى مزيج من الالوهية والانسانية والحيوانية فى وقت واحد ، بل نجده يتعامل مع قوى الطبيعة التى تصور هى ايضا تصويرا حيويا ، فالبحار والانهار والاشجار العظيمة ليست مجرد اشكال من المادة ، بل ان لها ارواحا ، وهذه الارواح هى على الارجح ما سميت بعد بالآلهة . الانسان الذى يموت لا ينفصل تماما عن هذا العالم ، بل يعيش فى عالم الموتى الذى هو امتداد لعالم الاحياء ، وربما عاد الى عالم الاحياء فى صورة احد احفاده او فى صورة حيوان او نبات او حتى جماد تقدسه القبيلة وتنسب اليه » (١) .

ولعلنا نلمح بهذا تشابها كبيرا بين سيرة عنترة وبين الاسطورة . فعنترة يتعامل مع الجن ومع القوى الغيبية شأنه فى ذلك شأن اى بطل من ابطال السير الشعبية . وعنترة حين يموت يظل ممتدا على هيئة اولاده واحفاده وتنسب اليه القبيلة وتنصر بسيفه حتى بعد ان يوارى فى قبره ، بل ان كاتب سيرة عنترة شاء ان يجعل فى اختياره لاسم ابنته « عنيتره » رمزا واضحا لهذا . الا ان ذلك لا يعنى سوى مجرد التشابه الذى يدل على احتفاظ هذه السير بالكثير من خصائص الاسطورة تماما كما احتفظت التراجيديا اليونانية باصول من الاساطير اليونانية دون ان يعتبر احد ان هذه التراجيديات هى اساطير .

ويعتبر (فريزر) ان عصر السحر — اى عصر الانسان البدائى ، او عصر الاسطورة — شبيه بعصر العلم ، او هو على الاصح بعد عصر العلم عودا الى عصر السحر ، اذ ان كليهما يقوم على الايمان بما فى الظواهر الطبيعية من نظام دقيق .. فمثلا الطقوس تؤدى الى سقوط المطر كما ان الحرارة تحول السائل الى بخار (٢) .

ولهذا قامت عدة نظريات تبحث فى الاسطورة . فأتباع هوميروس اليونانى يعتبرون الاسطورة تاريخا متنكرا ، بينما يعتبرها فرويد نوعا من المرض العقلى او النفسى ولذلك فانه يطبق على تفكير الانسان البدائى — صاحب الاسطورة — نفس القوانين التى وجدها فى الاحلام والامراض العصبية . الا ان كل هذه التفسيرات تقوم على استبعاد

---

(١) البطل فى الادب والاساطير — الدكتور شكرى عياد ص ٧٤—٧٥

(٢) James G. Frayzer. — The Golden Bough, p. 824

الاسطورة من المنطق العقلى . ونحن فى الفن لا يهمنا المنطق العقلى فى شىء كما لا يهمنا الصدق الواقعى ولا مطابقة الاحداث لقانون السبب والمسبب . فعلى الرغم من ان الاسطورة تقترب من العلم من حيث ربط السبب بالمسبب ، الا انها لا تخلو من قسط كبير من البدائية فى التفكير والبدائية فى التعبير ، فهى قد نشأت معاصرة للسحر ومن هنا جاء تعريف الاسطورة بأنها « الجزء القولى المصاحب للطقوس البدائية » (١)

فهذا التعريف يربط بين الاسطورة وبين افعال السحر المرتبطة بالدين عند الشعوب البدائية . او بمعنى آخر يربط الفن هنا بالعمل . ويشايع هذا القول كثير من باحثى الانثروبولجى والدراسات القديمة حتى ليقول فريزر : « لعلنا لا نخطىء اذا افترضنا ان كثيرا من الاساطير التى لا نعرفها الان الا على انها اساطير كان لها فى وقت ما جانب فى السحر ، او بعبارة اخرى انها كانت تمثل كوسيلة للايجاد الفعلى للاحداث التى تصفها بلغة فعلية . وكثيرا ما تموت الاحتفالات بينما تظل الاساطير حية فيبقى علينا ان نستنتج الاحتفال الميت من الاسطورة الحية . » (٢)

والدراسات الانثروبولوجية ما زالت تعتمد على الطقوس فى تفسير موضوعية الاساطير ومنطقها . اما السير العربية التى تحت ايدينا — وخاصة سيرة عنترة — فليس لها ارتباط ما بالطقوس ولا بالسحر . فالسحر عنصر يعتمد عليه الروائى للاثارة وليس سببا غيبيا للاحداث وانما هو مظهر من مظاهر القوى الخفية التى يصارعها البطل فى سبيل اقرار الخير (٣) . وطول سيرة عنترة — التى تقع فى ثمانى مجلدات كبيرة — تنفى عنها صفة الاسطورة ، كما ان تطور الاحداث فيها حسب منطق خاص يعرفه المؤلف ، وظهور هذا المؤلف فى اكثر من مكان ظهورا سافرا او مستترا ، الى جوار الاعتماد على احداث تاريخية ثابتة وشخصيات معروفة ، كل ذلك يخرج بعنترة — كما يخرج بغيرها من السير . عن اندراجها تحت اصطلاح الاسطورة . فكاتب سيرة عنترة حين كتبها لم يكن يعيش فى عصر حياة العرب البدائية وانما كان يكتبها والحضارة العربية المتشابكة المكونات فى قمتها ، ولهذا فنحن نرجح الرأى الذى سبق ان قلناه فى بداية بحثنا هذا حول الاساطير من ان هذه السير استمدت بعض مادتها مما تبقى من اساطير ولكنها ليست هى نفسها اسطورة من الاساطير .

---

(١) البطل فى الادب فى الاساطير الدكتور شكرى عياد ص ٨٥.
(٢) المصدر السابق
(٣) الهلالية فى التاريخ والادب الشعبى

فاصحاب تسمية الاسطورة اذن ــ الذين حاولوا ان يطلقوها على هذه السيرة لما شاهدوا من اعتمادها على الخيال الذى يصل الى حد الاغراق احيانا ــ ليسوا على صواب .

ويفضل الدكتور عبدالحميد يونس تسمية هــذه السير باسم « الملاحم » (١) والواقع ان هذه التســمية تكاد تكون ــ من حيث النظرة الاولى ــ اقرب التسميات الى هذه السير . فشعراء الملاحم قد اغترفوا من معين الاساطير واستباحوا التغيير فيما اخذوه منها الا انهم وضعوا لانفسهم حدودا وقواعد جعلت من الملاحم فنا مقرر الاصول والانواع . فعناصرالملحمة معروفةوهى تقوم علىالخرافة ، وشخصية البطل ، والدور الذى يقوم به الابطال الالهة ــ او الآلهة الابطال ــ ففى الالياذة مثلا يتدخل الالهة بقدرات خارقة لينصروا فريقا على فريق ، أو ليعجزوا فريقا عن الحرب ويمكنوا منه الفــريق الآخر . كما تنصر الالهة اثينا لاوديسيوس ضد بوسيدون رب البحر . وكما يتحيز زوس كبير الآلهة للاكيان ضد الطرواديين وارادة البطل غالبا ما تتفق مع ارادة الالهة . فاخيل عند هوميروس تتفق ارادته مع ارادة الالهة وتشترك الالهة معه فى اثبات فضله . وهكذا نجد ان البطل الملحمى اقرب الناس شبها بابطال سيرنا الشعبية . فعنترة بن شداد فى السيرة العنترية ــ كما يصرح كاتبها ــ مؤيد بقوة خــارقة خفية تجعله لا يتعب من كثرة الصدام بل انه يزداد قوة على الحرب كلمــا طال به الوقت فى حومة الميدان . وحين يموت ابنه الغضــبان على يد الجن يمــده الجن الخير بجيوش وابطال يحارب بها عدوه من الجن الشرير الذىقتل ولده ، كما انهم يعطونه سيفا مطلســما يفعل فى الجن فعل الســيوف الحديد فى البشر ، ثم نحن نراه يحمل تميمة بذاتها تجعله يقاوم السحر ويبطل مكائد السحرة . وارادة عنترة تتفق مع ارادة الالهة التى تريد ان تمهد الارض لظهور محمد برسالته السماوية ، فجعلت من سيف عنترة اداة مسخرة للقضاء على كل الجبابرة الذين يعيشون فى الجزيرة ويمكن ان يعيقوا الرسالة المحمدية .

وفى هذا يقول الدكتور فؤاد حسنين : « اساطيرنا ــ بالرغم من تنوعها ــ تدور حول فكرة واحدة هى امكان السمو بالانســان وابلاغه مرتبة الآلهة فيحيا الحياة الابدية بعد ان كتب عليه الموت وحرم نعمة الخلود . ولذلك كانت بطولة اساطيرنا وملاحمنا غير قاصرة على الالهة، اذ شاركتهم فيها نفر من بنى البشر الذين بلغوا ــ او كادوا يبلغون ــ

---

١ ــ الهلالية فى التاريخ والادب الشعبى .

مرتبة الالهة ، فانتقلوا من الحيــاة الفانية الى الحيــاة الباقية حيث يحيون حياة الاطهار فى جزيرة الابرار » (١) .

الا ان الملاحم اليونانية — وهى اقدم الملاحم واكثرها تكاملا . تختلف مع السير فى هذه الزاوية . فابطالها يقفون فى بعض الاحيان امام ارادة الالهة ، ويتغلبون على قوتها الخارقة احيانا ، ويدخلون معها فى معارك احيانا اخرى . ويكاد هــذا ان يكون هو الفرق الاســاسى بين الملاحم والسير الشعبية ، فبطل السيرة لا يقف اطلاقا امام الارادة الالهية بل ان هــذه الارادة تنفــذ وتتم وان تعارضت مع ارادة البطل ، والبطل امامها عاجز مشلول . ولعل بيت الاحزان الذى قضى فيه عنترة جزءا من عمره حزنا على من ماتوا من ابنــائه واخــوته هو الدليل على عجز البطل فى السيرة امام قدرة الالهة .

وهنالك ظاهرة اخرى لها اهميتها وهى ان ســيرة كسيرة عنترة ابن شداد لا تحمل مضمون الالهة الجاهلية . فالهة العرب القدماء (كاللات ، العزى — ومنــاه ، وهبل) لا تــكاد تبين على الاطــلاق لا بشخوصها ولا باثارها ، وانما مضمون الالهة هنا مضمون اســلامى يجعل من الالهة شيئا واحدا هو الله الذى لا يستطيع ان يجسده فى السيرة وانما هو يرينا فقط مظاهر ارادته .. فالبطل منصور ان شاءت ان هذه الارادة تنفذ وتتم وان تعارضت مع ارادة البطل ، والبطل حدده الله من قبل فى اللوح المستور ولن يغير شىء ، ولن تغير ارادة ، هذا الذى سطر فى مبدأ الكون . ولهذا فان بطل الســيرة لا يمكن ان يرقى — من ناحية القــدرة — الى البطل الملحمى اللهم الا فى ســيرة واحدة هى سيرة سيف بن ذى يزن الذى استعاض عن شخصــيات الالهة فى الملاحم اليونانية بشخصيات خارقة القدرة كالجن واولياء الله، كما نلمح شبها بهذا فى سيرة الظاهر بيبرس . الا انهم جميعا يتحركون فى دائرة محدودة تقع ضمن دائرة اوسع تتحكم فيها ارادة اعلى ممايجعل هذه الظاهرة فى سيرة سيف اشــبه ما تكون بالقصــة الخرافية التى تستعين فى تسيير حوادثها بالخوارق منها بالملحمة التى يتصــارع فيها الالهة مع الابطال او الابطال مع الالهة .

وهــذا فى الواقع فرق جوهرى ، لان العمل الفنى ليس شــكلا فحسب ، ولذا لا يكفى مجرد ظهور القوى فوق البشرية لمساعدة ابطال السيرة حتى نضمها الى حظيرة الملحمة . فالمضمون الملحمى مهم فى تسمية

---

(١) قصصنا الشعبى — ص ٢٦

اى عمل من الاعمال باسم الملحمة . وقد راينا ان هذا المضمون لايتوافر فى سيرنا الشعبية ، وبالاخص فى سيرة عنترة ، التى تتقلص فيها هـذه القوى الغيبية فلا تكاد تؤدى دورا حقيقيا فى الصراع الدائر فى السيرة

والملحمة عمل شعرى يعتمد على الانشاد ، ولعل ماوجده الدكتور عبدالحميد يونس فى سيرة كتغريبة بنى هلال مثلا من اعتماد كبير على الشاعر المنشد فى الرواية — اى فى سرد الاحداث — وفى المواقف — اى فى الحوار ما ايد عنده التقارب بين الملحمة وبين السيرة، الا ان باقى السير تكاد تختفى فيها هذه الظاهرة . وسيرة عنترة بالذات تتم روايتها نثرا، ولا يكاد الشعر يدخل فيها الا فى مواضع محددة هى الترنم عندالحرب وعند الحب وفى المسامرة . وقد يكون الشـعر رفيق طريق او عـزاء حزين او طبول حرب ولكنه على اية حال ليس اساسا فى السيرة ، ولو انه حذف منها كلية ما نقصت شيئا .

وهذه الملاحظة تحدد لنا اشياء كثيرة . فهى تحدد اولا ان الملحمة شكل شعرى يقف امام الشعر الغنائى مثلا او الشعر المسرحى ، ولكنها لا تقارن بعمل نثرى مثل السيرة فهذا ميدان وذاك ميدان . واطلاق اسم الملحمة على عمل نثرى تجوز كبير لا نقره فليس معنى ان الباحثين فى الادب العربى لم يصلوا بعد الى صور من الملاحم الشعرية التى عرفها الادب الغربى أن نسمى الاعمال النثرية بهذا الاسم الوافد علينـا وان ننقله من ميدان الشعر الى ميدان النثر . وانما الاقرب — وقد لاحظنا تلك الخلافات الواضحة بين الملحمـة من ناحية المضـمون ومن ناحية الشكل وبين سيرنا الشـعبية — ان نجنب انفسنا هـذا الخطأ فندع ما للشعر وما للملحمة ونقرر فى بساطة ان السيرة الشعبية فن آخر يختلف عن الملحمة فى المضمون وفى الشكل .

ونحن فى تحليلنا لشخصية عنترة وجدنا انه مر بعدة مراحل . فهو يقترب من البطل الاسطورى فى مرحلة ، ويشابه البطل الملحمى فى مرحلة اخـرى ، ويكاد فى بعض المراحل يقترب من بطل التراجيديا عند اليونان ، ولكنه فى اخر الامر جماع هذا كله مما لا يمكن معه ان نطلق عليه سوى تسمية واحدة هى « بطل السيرة » .

ليست السيرة اذن — وليست عنترة على وجه التمثيل — سيرة بمعناها الاصطلاحى الحديث ، كما انها ليست اسـطورة بمفهومها عند الانثروبولوجيين ، ثم هى ليست ملحمة بمفهومها عند اليونان ، ولكنها كمـا لاحظنـا تقترب كثيرا من الرواية . فهى مـرة شـبيهة بالرواية التاريخية ، وهى مرة قريبة الشبه من الرواية الخيالية ، وهى فى مرة

ثالثة قريبة من الرواية الواقعية . وقد قلنا عن سيرة عنترة بالذات انها تجمع بين النوعين الاول والثانى ، فهى تاريخية لانها تتحدث عن شخصيات بعد العهد بينهم وبين تاريخ كتابة السيرة ، وتستمد احداثها - كما هو واضح - من كتب التاريخ . وهى خيالية لانها لاتحترم منطق التاريخ ولا منطق الاحداث . ونستطيع ان نلمح هذا فى عنترة عند مشهد تعليق القصيدة على الكعبة اذ يجمع المؤلف شعراء المعلقات جميعا دون ما اعتبار للفروق الزمانية ولا للظروف المكانية ، ولا لمنطق الحدث نفسه من تعذر وقوع مثل هذا اللقاء حتى لو توافر الشرطان السابقان . كما يبدو هذا ايضا فى عدم احترام الحقائق الجغرافية فعنترة يسير من الحجاز الى اليمن الى الحبشة دون ما عائق من بحر ، او ان جيش الهند يصل الى الجزيرة برا وعلى ظهور الخيل وذلك عن طريق جنوب الجزيرة العربية .

هذا الى جوار المظاهر الخارقة مثل قدرة عنترة الغريبة ، وبراعة شيبوب المذهلة وسرعته الفائقة مما لا يستقيم مع منطق الطبيعة البشرية . واذا كان من الجائز فى الرواية التاريخية عدم الخضوع لمنطق التاريخ ، فان باقى التحليلات التى استباحها المؤلف لنفسه لا تتفق اطلاقا مع الرواية التاريخية ، الا ان السيرة تسير مع الرواية التاريخية فى تسلسل الحدث ونماء الشخصيات واستقلال كل شخصية من الاخرى ، وارتباط هذه الشخصيات والاحداث جميعا بمضمون واحد يحقق هدفا بذاته عند الكاتب كما يتفق معه فى محاولات تحليل وتعليل الاحداث والوقوف عند البيئة ووصفها ، ثم فى الاعتماد على المشاعر الانسانية فى تسيير الاحداث واظهار قوى الشر فى تصارعها فى قطاعات متعاقبة نامية تصل الى القمة فى ان يضع المؤلف حلها بين يدى القارىء.

هذا هو وجه الشبه ، وقد كان ذلك هو وجه الخلاف . ولهذا فاننا نفترض ان السيرة اقرب الى الرواية التاريخية من حيث الاداة التى هى النثر ومن حيث الشكل وهو القص ، ومن حيث المضمون وهو الصراع ، الا انها تختلف آخر الامر فيما بينا من فروق

ولما كانت السيرة اسبق فى الظهور من الرواية ، لهذا فاننا نعتبر السيرة اصلا للرواية فى شتى صورها وبشتى انواعها ، ونستطيع - ما دامت السيرة هى الاسبق - ان نجعلها رواية لا تاريخية ولا خيالية ولا واقعية (وهى الاسماء التى عرفت عندما تقادم العهد بالرواية وتطورت وتخصصت) انما يمكننا ان نسميها « الرواية الام » او « الرواية السيرة » . وتصبح عنترة اذن رواية من نوع السيرة يغلب عليها الطابع التاريخى .

الفصل الثـــانى

شخصية عنترة فى السيرة

سيرة عنترة تعتمد اعتمادا كليا على شخصية اساسية تعتبر مركز الصراع فى الرواية والبؤرة التى تتجمع عندها خيوطها . والمؤلف يتناول احداث الحياة فى الجزيرة العربية ــ وفى غير الجزيرة العربية ــ بما له علاقة بهذه الشخصية ، فهو يذكر من الاحداث المعروفة تاريخيا ما له ارتباط بعنترة ــ اما مبــاشرة واما بطريق غير مبــاشر ــ كأن تكون مرتبطة بالاطراف المكونة لحياة عنترة كقبيلته وامته واصدقائه وحلفائه ، وهو يؤلف من الاحداث ما لم يورده التــاريخ اذا كان فى هــذه الاحــداث ما يكشف صفحات من بطولة عنترة وشخصيته ودوره .

فاذا استهوت المؤلف حادثة تاريخية او شخصية من شخصيات التاريخ ولم يكن لها صلة مباشرة او غير مباشرة بعنترة اللهم الا الصلة المكانية (اى الوجود فى الجزيرة العربية) فان المؤلف لا يتردد فى تطوير هذه الاحداث روائيــا ليخلق فيها مكانا لعنترة وليضــعه بين الابطال التاريخيين المعروفين الذين اسهموا فى تلك الاحــداث ، وكانما يريد لبطله ان يشترك فى كل حدث جدى يتفق وطابع الفروسية الذى وسمه به ، والا يفوت عليه مجدا من الامجاد التى حصــل عليها العــرب وان افتات فى ذلك على الحقيقة التاريخيــة مرة وعلى الترتيب الزمنى مرة بل وعلى التعذر الجنسى والمكانى مرات .

فشخصية عنترة اذن هى المحــور الاســاسى الذى تدور حــوله السيرة . والواقع ان اختيار هذه الشخصــية لم يكن عبثا من المؤلف فان فى الاسس الاولى لمكونات هذه الشخصية من الناحية التاريخية ــ التى تواترت صفاتها على السنة الرواة ــ ما يصلح تماما كأساس يعتمد عليه المؤلف فى بناء الشخصية النموذجية التى يريد منها ان تحقق له عدة أهداف تتصل بالفنية الروائية من ناحية وتتصل بنفسية الجمهور المتلقى من ناحية اخرى ، كما تتصل بفهم عام للحياة العربية والتقاليد العربية . ولسنا نستطيع ان نعرف ما اذا كان المؤلف قد حقق هــذه الاهداف التى رمى اليها ، ولا ان نكتشف حقيقة هذه الاهداف الا اذا درسنا تلك الشخصية ــ اى شخصية عنترة ــ من واقع عمل المؤلف الروائى نفسه ــ اعنى من خلال السيرة . فالشخصية التى ينقلها الينا تاريخ الادب بمصدريه : الاخبار والشعر : لا تعطينا الا جزءا من الصورة

التى نجدها فى السيرة . هـذا الجزء هو الاســاس الاول الذى بنيت عليه الشخصيةالروائية . والواقع ان معرفتنا بهذا الجزء يضع ايدينا على اول الخيط ويجعلنا نستطيع ونحن نعرف من اين بدأ المؤلف ــ ان نسايره فى عمله وهو ينمى الشخصية ويطورها معتمدا علىالاساس الاول الذى نعرفه .

القراءة النقدية الفاحصة للسيرة تجعلنا نطمئن مبدئيــا الى ان شخصية عنترة قد تطورت فى يد المؤلف علىعدة مراحل تمثل كلمرحلة منها هدفا من اهداف التأليف كما تمثل تمثلا للشخصية ناميا مع نمو فكرة للمؤلف وتطورها ، الا اننا نلاحظ ان كل مرحلة من هــذه المراحل لا يمكن ان يصل اليها المؤلف الا بعد المرور بالمراحل السابقة حيث ان كلا منها وليد التطور الذى يحدث فيما سبقها من مراحل .

ونحب ان نشير هنا ــ قبل تحديد هذه المراحل وبدء الحديث عنها ــ الى مقدمة السيرة ــ التى تنفرد بها الطبعة الحجازية ــ حيث ان هذه المقدمة التى تسبق ميلاد عنترة بازمان طويلة هى فىواقع الامر المدخل الطبيعى للحديث عنه . فالمؤلف يحاول ان يكون طبيعيا ومنطقيا حين يتحدث عن بطله ، والشخصية فى يده لاتنمو جزافا وانما هى تنمو تحت واقع احداث معينة بحيث يبدو هذا النمو طبيعيا متوقعا وغير شاذ . لهذا كانت تلك المقدمة الطويلة التى بدات منــذ اقدم الجــدود لعنترة وظلت تنحدر تدريجيا حتى تصل الى ابيه وتقف بنا عند حادثة التقاء ابيه بامه . فالمؤلف قبل انيركز الاضواء علىهذا يملؤنا احساسا بما يمكن ان ينتظر الولود الذى سيكون نتيجة لهذا اللقــاء من مصير ومن حياة . وهذه الطريقة الطبيعية فى السرد وفى التأليف هى التى جعلت من عنترة ــ رغم اسطورية شخصية التى تبدو بعد قليل من احداث السيرة ، بالاضافة الى ما اعتمد عليه المؤلف من شخصــيات عرفها التاريخ ، ومن احداث اشتهرت فى كتب الاخبار ــ وكل هذا كان المهاد الطبيعى للمراحل التى مرت بها شخصــية عنترة والتى نحددها فى خمس مراحل هى : ــ

١ ــ مرحلة التكوين
٢ ــ مرحلة الفروسية ، او المرحلة الذاتية
٣ ــ المرحلة الاسطورية
٤ ــ المرحلة الملحمية .
٥ ــ المرحلة التجريدية ، او مرحلة الامتداد .

١ - مرحلة التكوين

نستطيع ان نقول ان هذه المرحلة هى فترة ولادة الشخصية بكل ملامحها وسماتها وانها مرحلة تقديم هذه الشخصية للمتلقى ، ففيها تكمن الجذور الأولى لكل ما سنلمح من سمات تبدو واضحة فيما بعد . فنحن نحس — منذ اللحظة الأولى — أن بنى عبس ليسوا قبيلة كالقبائل ، وانما هم قوم غزو وأرباب سيف وفاتكو صحراء ، وهم كرام يكثر الطارقون عليهم ، ثم هم يقرون هؤلاء الضيفان بالغزو والغارة على أموال العربان كما هى العادة فى الجزيرة العربية كلها وكما هى العادة عند فرسان هذه القبيلة بالذات . نلمح هذا كله متمثلا فى تلك الغارة التى خرج فيها عشرة فرسان من بنى عبس — على رأسهم شداد — ليسوقوا أمامهم الف ناقة ترعاها أمة سوداء لقبيلة بنى جديلة . فاذا ما ساقوا النياق وتلك الأمة وولديها ، طلع عليهم أبطال بنى جديلة ودارت المعركة بين قبيلة بنى جديلة باكملها وبين هؤلاء الفرسان العشرة . وتنتهى المعركة نهاية لها ما بعدها اذ ينتصر فرسان بنى عبس العشرة على القبيلة التى هاجموها فى عقر دارها واخذوا الفا من نياقها .

ويصل بنا المؤلف بعد ذلك الى لقاء بين تلك الامة — التى هى زبيبة — وبين الامير شداد بن قراد وسط الصحراء وقد انتصر على حماتها وملك الأمة وأولادها . ويقف المؤلف لحظات عند مقاومة هذه الأمة لباقى الفرسان الذين ارادوا أن ينالوا منها ما نال شداد فيقول : « فأرادوا أن يفعلوا مثل فعله ، واتبعوه فى أمره ، فلم ترض تلك الامة لهؤلاء الرجال ، ولم تطعهم على ذلك الفعل والاعمال ، بل هربت من بين أيديهم فى الرمال ، وقد أنكرت منهم تلك الاحوال ، لأنها من نسل قوم كرام — وسوف نذكرها فى تأصيل نسبتها ونذكر سبب غربتها وفرقتها ، ولكن نذكر كل شىء فى مكانه بعون الله وسلطانه » (١) .

هذا الموقف الذى أطال فيه المؤلف لم يأت عبثا ، ففيه خيوط كثيرة نجد لها امتداداتها على طول السيرة ، كما أن لها أهميتها فى تحديد شخصية الوليد الذى سيأتى نتيجة لهذه الحادثة . فالأمة

---

١ — السيرة مجلد ١ ص ٧٦

السوداء تخالف العرف الذى تواضع عليه العرب فى معاملاتهم للاماء ، وهى تاتى من التصرفات ملا هو خليق بالكرائم والنساء الحرائر، اذ هى أسيرة فى يد امير يعدها بالزواج ، وهى امام بطل منتصر رأت بلاءه وشدة باسه ، وامام كل هذه العوامل تخضع له خضوع المرأة لمن يملكها بحد سيفه ، وخضوع المرأة امام مظاهر الفتوة والباس .

الى هنا وكل شيء يسير سيره الطبيعى كمألوف العادات والتقاليد العربية ، ولكن الذى لم يكن طبيعيا هو أن تنكر تلك الامة - وهى وحيدة أسيرة - على باقى الفرسان أن يقربوها . كما أن الذى ليس طبيعيا كذلك هو أن يؤيدها شداد ويطلب من باقى زملائه أن يعتبروها من نصيبه ، فيحفظ بذلك المؤلف للمولود صحة نسبه الى ابيه ، ويحفظ له كرامة أمه التى أشار الى أصالة نسبها . وكأنما يريد المؤلف أن ينبهنا الى أن الأب رجل غير عادى وان الأم امرأة غير عادية وأن هذا اللقاء بين الاثنين لقاء غير عادى كذلك وبالتالى فالمولود الذى هو حصيلة هذا كله لن يكون وليدا عاديا .

وتحمل زبيبة ، ثم يأتى حين ولادتها - « فلما كان تلك الليلة اخذها الطلق كما يشاء خالق الخلق ، فما زالت من أول الليل تصرخ الى وقت السحر ، فولدت مولودا ذكر وهو اسود ادغم مثل الفيل ، معبس الوجه مفلفل الشعر كبير الاشداق مكدر المنافس متسع الظاهر صلب الدغائم والعظام كبير الراس ، الا أن اعطافه ومناكبه شداد ، وخلقته تشبه خلقة أبيه شداد » . (١)

وبهذه اللمحة الناجحة يقدم لنا المؤلف الوليد الجديد الذى يغدق عليه من الصفات ما ينبيء بوليد غريب ليس ككل وليد . فاذا ما خرج الى العالم فانه يهمهم ويدمدم ويزوم اذا ما منع عنه الرضاع ، ويقطع كل يوم قماطا جديدا حتى ولو كان من حديد ، ويقلع أوتاد الخيام ولما يبلغ من العمر عامين ، ويعافر مع الكلاب فيقتل صغارها ، ويضرب الصبيان صغارهم وكبارهم . حتى اذا ما بلغ ثلاث سنوات ندم باقى الفرسان العشرة على أنهم تركوا مثل هذا الوليد لشداد وزعموا أن أمه كانت به حاملا حين لقوها فضمه الى نصيب شداد ظلما لأن الذى وقع فى نصيب شداد هو الام وابناها الكبيران فقط . ودار القتال بين الفرسان حتى وصل أمره الى سمع الملك زهير فاستدعى الطفل ليشهده . وهنا يقدم المؤلف ارهاصا جديدا لهذه الشخصية حين يرمى له الملك قطعة لحم فيسبقه اليها كلب فيجرى الطفل الصغير الذى لم يبلغ الرابعة من عمره وينتزع قطعة من اللحم من

---

١ - السيرة مجلد ١ ص ٧٧

ثم الكلب ثم يقبض على شدقيه ويشقهما شقا ويعود الى الملك وأصحابه وهو ياكل قطعة اللحم فيوصي الملك بأن يحتكم الفرسان الى قاضي العرب الذى يحكم به لشداد لما بينه وبين الصبي من شبه في الخلقة .

كل هذه المقدمات ترسم لنا ما ينتظر هذا الطفل من غد ، كما ترسم لنا امرا له خطورته ودلالته فى القصة اذ يعتز به أبوه ويقاتل باقى الفرسان من اجل نسبته اليه ، ويصل الأمر الى الاحتكام للملك مرة والى قاضي العرب مرة ، وكأنما يريد المؤلف بهذا الاصرار ان يؤكد لنا — منذ اللحظة الاولى — حق عنترة فى النسب ، وكانما هو أيضا يشير الى كل ما كان له دور فى تكوين شخصية عنترة كسواد لونه وقبح خلقته وتوحشه وقوته الخارقة

فاذا ما تقدمنا قليلا شاهدنا عنترة الصبى يقتل ذئبا ويعود برأسه الى أبيه ، وفى نفس الوقت يأسر شيبوب — أخو عنترة من أمه زبيبة — ثعلبا ويسوقه امامه وسط الخرفان فيقول شداد لزبيبة : « اعلمى ان أولادك شياطين ؛ فلا تفارقيهم أجمعين خصوصا عنتر فلا تبعدى عنه ليلا ولا نهارا » . (١)

ويظل المؤلف ينقل لنا صورا متتالية لمحاولة عنترة تعلم الفروسية وطعن الرمح والتحكم فى الخيل ، ويقدم لنا فى نفس الوقت صورا لشيبوب وهو يختلق من الاحداث ما يستر به افعال اخيه مبعدا فى الحيلة والخداع . ثم لا يلبث المؤلف أن يقدم لنا موقفا قصصيا يحدد شخصية عنترة وخلقه حينما يواجه « داجى » عبد « شاس بن زهير » وهو عبد ضخم كبير يمنع النساء من ورود الماء قبل مال شاس ، ويهين الكبيرات منهن . فيستفز هذا عنترة ويجعله يقف أمام العبد فيلطمه العبد لطمة تغيبه عن الصواب (اذ كان طفلا صغيرا) ، فلما افاق عنترة هجم على العبد وقتله بيديه ، فهاجت عليه العبيد وتجمعوا حوله . ويجذب عنترة عصا من أحدهم ويخلع عباءته فيلفها على يده ليستتر بها من الضرب ويواجههم وحده فلا يقدرون عليه . ويشهد فى هذا المنظر الأمير مالك بن زهير فيعجبه أمره ويخلصه من العبيد ، ولما عرف حكايته مع عبد شاس أعجب به واجاره .

وهكذا يكشف لنا المؤلف عن شهامة عنترة ونجدته ودفاعه عن الحق ، كما يكشف لنا عن قوته وشدة مراسه فى الحرب ، ثم هو بغير ذلك يحدد لنا مكان اعدائه ومكان أصدقائه منذ البداية ... فهو قد قتل عبد شاس وحظى باجارة مالك . ويصل المؤلف بالامر الى ذروته

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٨٢

حين يعجب زهير الملك بما فعل عنترة ، وحين تقبل عليه ابنة عمه عبلة لتشهد أمره وتسمع حكايته .

وتدخل قصة الغرام فى هذه المرحلة لتكمل الصورة التي ترسم صراع عنترة ومعركته مع الحياة . فهو عاشق محب ، ومن يهواها هى ابنة عمه التى تربت فى خيام أبيه يخدمها هو كعبد من العبيد المكلفين بأمر تلك الخيام وساكنيها ، والفتاة بعد مرموقة مطلوبة ، لها واحد من اكرم رجالات بنى عبس يحبها ويروم زواجها هو الربيع بن زياد الذى يحس قلبه العاشق بما بينها وبين عنترة من حب ينمو مع الزمن . ويعقد المؤلف الموقف حين يدس عبد من عبيد الربيع لعنترة عند أبيه الذى يضربه ويشد وثاقه ، وحين يتخلص عنترة من قيوده يبحث عن هذا العبد ويقتله ثم يقصد الى صديقه مالك بن زهير ليجيره فيجيره مرة أخرى ، ومن هنا يبدأ العداء سافرا بين عنترة والربيع وتتأكد مكانة عنترة وسط العبيد فيخافونه ويخشون بأسه ، كما تتأكد مكانته عند الامير مالك الذى يحبه الحب كله .

ويتآمر شداد مع بقية أعمام عنترة على قتله فيطلعون عليه فى البرية وهو وحيدا ، الا انهم ما ان يقتربوا منه حتى يجدوه فى صراع مع أسد مهول . ويحسبون أن نهاية عنترة قد قربت الا أن عنترة يرمى بسيفه بعيدا ويلقى الأسد عارى اليدين فيقتله ، ثم يوقد النار ويسلخ الأسد ويأكل لحمه كله بينما أعمامه ينظرون . فيقول عمه زخمة الجواد : « والله من يكون له مثل هذا ويفرط فيه فلا يكون عاقلا » (١) .

ويعود شداد واخوته ليخرجوا مع رجال الحى فى غزوة من غزواتهم بينما يظل العبيد — ومنهم عنترة — مع النساء . وفجأة يهجم على ديار بنى عبس فرسان من بنى غطفان فيتصدى لهم الصبى عنترة — ذو الاربعة عشر ربيعا — فيقاتلهم ويهزمهم ويسترد الاسلاب ويخلص النساء .

من هنا تتمكن محبة عنترة من قلب عبلة ، ويتأكد اطمئنان نساء القبيلة الى حماية الصبى الأسود . وحين تعود القبيلة من غزوها ويعرفون ما حدث يتأكد مكان عنترة بين فرسان بنى عبس ، كما يتأكد مكانته كشاعر اذ تحفظ امراة شداد ما قاله من شعر حين لقى الفرسان ويصل أمر هذا الشعر الى الملك زهير فيستنشده ما قال ويطرب له هو والحاضرون .

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٩٩

وتتكرر المعارك التى يظهر فيها فضل عنترة وقدرته ، بينما حبه يتمكن يوما بعد يوم من قلوب أصدقائه ، وبغضه والحسد له يتمكنان يوما بعد يوم من قلوب اعدائه ، فيرتب الامير شاس والربيع بن زياد كمينا لقتل عنترة ، ويلتقى هذا الكمين بفرسان اتوا ليأخذوا ثأرا لهم عند عنترة فيتحدون جميعا ضده ، ويهاجمونه وهو فى طريقه على راس موكب نساء بنى عبس ، وتعده أم عبلة بأن تحقق له الزواج من ابنتها اذا ما هو انقذهم من المغيرين ، فيلقهم وحده ويهزمهم ويولوا الادبار هاربين

وهكذا يقدم لنا المؤلف صورة جديدة لعنترة المدافع عن النساء المستضعفات ، والذى يواجه المؤامرات والحروب بقلب ثابت وجنان هادىء وبقدرة الفارس الصنديد ، وهو يقدم لنا أيضا صورا من تلك المؤامرات وقد تكاثرت على عنترة من اعدائه وحاسديه ، كما يقدم لنا أيضا عدة صور من حيرة عنترة بين حبه لابنة عمه وبين وضعه القلق كعبد من العبيد ليس له حق فى التمتع بما يتمتع به الاحرار من زواج بما يحبون وتقدير لما يقدمون من أعمال ويظهرون من فروسية . ويعرض لنا المؤلف صور المعارك يحمى فيها عنترة الذمار ويصون الأعراض والمال ، وهو قبل كل معركة منها يحصل على وعد بتحرره والاعتراف به ولدا لشداد ولكن عندما تنتهى المعركة وتنكشف الغمة بفضل سيفه وقوته يخلفون وعدهم ويتحللون من تعهداتهم .

والمؤلف هنا ينجح نجاحا كبيرا فى تحديد الموقف تحديدا واضحا . فعنترة يحصل فى كل يوم على ما يؤكد مركزه ، الا انه فى تقدمه هذا يحصل ايضا فى كل يوم على مزيد من بغضاء فرسان القبيلة وحقدهم وحسدهم . وشداد لا يستطيع الاعتراف به لأن القبيلة لا تشاء على الاطلاق الا أن تضع عنترة فى مكان العبيد رغم كل ما يقدمه لها من حماية ورفعة شأن . وعبلة تحب عنترة حبا اكيدا واضحا ولكنها تقف منه موقف الفتاة العربية التى لا تملك الا أن تأتمر بامر أهلها ، واهلها يعدون حين الحاجة وينسون بعد انقضاء هذه الحاجة . وعنترة يقف أمام هذا كله حائرا غاضبا متألما .

فالموقف اذن قد تعقد تماما وتبلورت كل دوافعه وظهرت جميع أطراف الصراع فيه . وكان لابد للمؤلف أن ينتقل بالموقف كله ـ وبشخصية بطله ـ نقلة أخرى بعد أن دخل الأمر بين عنترة وبين أبيه فى نوع من اللجاج اذ يتأكد عنترة من أمه انه ابن شداد ، فيذهب الى أبيه مطالبا اباه أن يلحقه بنسبة مطالبة علنية وهو سكران سكرا

بينا . فيثور شداد بل وتصل به الثورة الى حد الرغبة فى قتل عنترة لولا تدخل امرأته .

ويترك عنترة ابيات ابيه هائجا هائما على وجهه فى الصحراء فيلقى عياض بن ناشد فى كوكبة من الفرسان يريدون الغزو . ويريد عنترة الانضمام اليهم ،وهنا تثور مسألة النسب مرة أخرى وبطريقة أكثر مساسا بفروسيته ، ذلك ان العرب كانوا يعطون العبيد الذين يشتركون فى المعركة ربع سهم من الأنصبة ، وأراد عياض أن يكرم عنترة فاقترح اعطاءه نصف سهم لما له من شجاعة وبطولة ، ولكن عنترة أصر على أخذ سهم كامل فقال له عياض : « لقد أنصفت فى مقالك ، وانت تستأهل أكثر من ذلك، لاجل حسن فعالك . وانما نحن نخاف من معيرة العرب ، من بعد منها ومن اقترب ، اذا نحن قسمنا لابن الأمة مثل ابن الحرة . » (١) فيتنازل عنترة عن طلبه موافقا على أخذ نصف سهم ويرحل مع عياض فى هجوم على احدى قبائل بنى قحطان ، وهناك يهزم عنترة الفرسان ، ويلتقى بالحارث بن عبادة اليشكرى الذى يركب مهرة مشهورة يقع عشقها فى قلب عنترة فيحاول اللحاق بالفارس ولكنه يعجز . ويكلف الفرسان عنترة أن يسوق الغنيمة — احتقارا له — فيسير بها وهو غضبان وهم من ورائه على بعد كبير ، ويلتقى فى سيره بالفارس والفرس مرة أخرى فيحاول عنترة أن يستهدى الحارث اليشكرى جواده « الابجر بن النعامة » وتتم المساومة بينهما على أن يسترد الحارث أسرى بنى قحطان وما لهم من أموال على أن يأخذ عنترة الابجر . ويلتقى فرسان بنى عبس بعبدهم وقد راحت من يده الغنيمة التى غنموها ، فيهجم عياض وفرسانه على عنترة الذى سرعان ما ركب الابجر وواجههم ، ويخاف منه الفرسان فيلاينونه ويصالحونه ويعودون خاسرين .

وبينما هم فى طريقهم يلقون عروسا فى هودجها يحميها رجال ملك كبير من ملوك اليمن ، وهرب الحراس — بعد موقعة لم يشترك فيها عنترة — وقصدوا فى فريقين الى ابى العروس والى زوجها . أما عنترة فقد اقترب من بنى عبس — وكأنما ليسقيهم الكأس حتى الثمالة — وطالبهم بنصيبه من هذه الغنيمة الجديدة ، ورفض بنو عبس وشرعوا رماحهم لحربة واذا بأبى العروس يحضر بعد أن ابلغه الفرسان الهاربون بما حدث ، فيلجأ بنو عبس الى عنترة ليحميهم ، ويرد عنهم عنترة شر أبى الجارية الذى يولى أمامه مدحورا ، ولكنهم ما أن ساروا قليلا وقد اطمأنوا حتى يهجم عليهم زوجها — وهو فارس مشهور — الا أن عنترة يقتله كذلك مسجلا لنفسه نصرا كبيرا على فارس كبير .

(١) السيرة مجلد ١ ص ١٣٥

وتتكرر الأحداث بعد ذلك وقد أخذت جميعها طابعا واحدا هو أن بنى عبس يقعون دائما فى مآزق لا يجدى فيها حسامهم ولا رماحهم فيتقدم عنترة وينقذهم منها . فمرة نراه يفك اسر أبيه وأعمامه جميعا بعد أن وقعوا فى يد قبيلة كانت تطلب الانتقام منهم ، ومرة يدخل فى مغامرة دامية من أجل صديقه مالك بن زهير ، ومرة ينصر أخا مالك هذا فى الرضاع لانه كان يحب فتلة وجاء ليتزوجها فارس مشهور من بنى مازن ليس مثله فارس ، فينتصر عنترة لقصة الحب انتصارا لا دافع له سوى ما يحسه هو نفسه من حب وحرمان .

ويتقدم المؤلف بعد ذلك ليدخل عمارة — أخا الربيع — فى القصة . فعمارة يريد أن يتزوج عبلة ، ومالك أبوها موافق على ذلك رغم كثرة الوعود التى أزجاها الى عنترة فى أكثر من موقف ، وهو يريد من هذا الزواج المدبر أن ينهى تلك العلاقة التى بين ابنته وبين عبد أخيه . وتقف عبودية عنترة دونه فى الوقوف أمام عمارة . وهو صاحب مكانة كبيرة فى القبيلة حتى ان مالكا — أبا عبلة — يلطم عنترة حين يعترض طريق عمارة ، وما أن يرى العبيد هذه البادرة من مالك حتى يهجموا على عنترة ولا ينقذه من أيديهم سوى قدوم مالك بن زهير . هكذا يدب الخلاف فى القبيلة وتحدث الفتنة الكبرى التى يتدخل فيها الملك ، وتتشابك القضية حين يهين شداد عبده ، فيخلع عنترة ثياب الفرسان ويعود الى رعى الاغنام بعد أن هزم فى هذه الجولة هزيمة منكرة .

فدعوة عنترة اذن التى أراد أن ينال بها نسبه ومكانه بين الفرسان قد فشلت ، فلا هو نال حريته ، ولا هو نال حبيبته ، ولا هو حقق مكانته من القبيلة ، وانما غدا المذموم المدحور من كل ناحية . وتصل عقدة النسب هنا الى قمتها بعد أن عجزت امامها جميع الاقوال والافعال ، فيقف عنترة مستسلما يقول لأبيه : « يا مولاى .. افعل بى ما تريد ، واحكم على حكم الموالى على العبيد ، والعبد ما له غير مولاه ، أن أبعده أو أدناه ، وانا أشهد على نفسى انى من اليوم فصاعدا قد امتثلت أمرك ، ولا أقصر عن خدمتك ، ولا أفارق رعى الجمال ، وأكون على حفظ اموالك واعيا ، ولا أركب جوادا ولا اجرد حساما مع الابطال ، ولا انطق بالشعر ابدا ولوشربت كاسات الردى مع الانذال » . (١)

وتصل القصة الى قمة من قممها ، والى نقطة يتحول عندها

(١) السيرة مجلد ١ ص ١٨٧

مجراها حين تخرج القبيلة فى غزوة من غزواتها تاركة بعض فرسانها لحماية الحى ، فيهاجمهم عدد كبير من الفرسان لا طاقة لهم به ويهزمهم هزيمة لا يجدون لهم خلاصا منها الا فى عنترة الذى كان يقف بعيدا بين العبيد حيث ارادوا هم أن يقف . ويابى عنترة ان يترك مكانه الا بعد أن يستلحقوه ويشهروا نسبه بأبيه ، ويظهر منهم الذل والتقصير فيجيبونه الى ما طلب ويشهدون الناس على أنه من ولد شداد ، حينئذ يسرع عنترة فيكشف عنهم الغمة وتنتهى المعركة وقد غدا عنترة فارسا من فرسان بنى عبس وابنا معترفا به لشداد بينما مالك — فى حمى القتال — قد وافق على زواجه من ابنته عبلة .

وهنا ينتهى الصراع من أجل النسب ، ويبدأ صراع جديد من اجل تثبيت حقوق عنترة التى حصل عليها وذلك لأن أعداءه أخذوا يلجئون الى الحيلة والغدر بعد أن أعجزتهم القوة . فعمارة الوهاب يكترى فرقة من الصعاليك يقودها عروة بن الورد لقتل عنترة ، الا أن هذه المكيدة تنتهى بتثبيت مكان عنترة بين الفرسان اذ ينضم اليه عروة وفرسانه ويصبحون من أعوانه وأجناده .

ويقع عمارة اخوه فى اسر ذليل ومعهم الامير شاس الذى ناصب عنترة العداء منذ اليوم الاول ، ولا ينجيهم من هذا الذل سوى ذل اكبر منه وهو أن يكون مخلصهم عنترة . ويصانعه الكل بعد أن احسوا بأن سلاح الغدر لن يصلح معه كذلك .

ويلجأ مالك — ابو عبلة — الى حيلة اخرى ليبعد بها عنترة ، تلك هى أن يطلب منه مهرا لعبلة الفا من النوق العصافير التى لاتوجد الا عند الملك النعمان وهو ملك كبير لن يقدر عنترة — كما قدروا — على هزيمة جنده . الا أن هذه المسألة انما تعتبر خطوة جديدة نحو تثبيت الامجاد التى حصل عليها عنترة ، وفرصة له وقد اصبح حرا بين الأحرار وقائدا لعروة وفرسانه ، ان يصبح كذلك ذا مال وذا مركز حين يحارب جند النعمان وحين يلقى الفرسان فى بلاط كسرى وحين يرد هزيمة النعمان الى نصر وحين ينقذ أموال كسرى ، فيسير ذكره وتتحقق له من معالم الفروسية ما لم يكن من الممكن أن يتحقق بغير هذه الرحلة الخطيرة التى خرج فيها باحثا عن مهر عبلة من النوق العصافير فعاد بالنوق والشهرة والمجد واعتراف العالم كله بما له من مكانة بين الفرسان .

والمؤلف فى هذه المغامرة يربط لنا بين الجزيرة العربية وبين ما حولها من أمم ربطا واعيا ، فهو حينما وضع عنترة — البدوى الجلف — وسط بلاط كسرى صور لنا معالم تلك الحضارة المترفة

حين يحارب جند النعمان وحين يلقى الفرسان فى بلاط كسرى وحين مع غدر ملوك الفرس بالملك المنذر ، ملك الحيرة ، كما يعرض لنا صورا من معارك عنترة ضد فرسان « فارس » ارهاصا بما سنبراه من معارك لعنترة مع اشد فرسان الامم وأقواهم .

وفى هذه الرحلة يتعرف عنترة بعمرو بن نفيلة وزير المنذر ـ « وهو من جلة المعمرين المنتظرين لظهور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لانه قد عاش خمسمائة عام » . (١) كما يظهر فى القصة أيضاً عبد المطلب ـ جد النبى ـ وتسنح الفرصة لعنترة فيلتقى بفرسان الروم كما التقى بفرسان العجم ، ويرد عنترة على كسرى ماله وتصبح قصة حبه لعبلة هى حديث البلاطين ، ويقول له كسرى : « وحق النار يا عبسى لو اعطيتك ملكى لكان اقل قليل فى مقابلة فعلك الجميل ، فان عطاءنا ينفد ومديحك لنا يبقى ، فتأن واطلب مايكفيك فلعلنا على بعض فعالك تكافيك » . (٢)

وفى هذه الرحلة ايضا يجمع المؤلف بين فارس العرب ـ عنترة ـ وبين فارس اسطورى له كيان وقيمة فى الأساطير الفارسية ذلك هو رستم . وتتم بين البطلين الاسطوريين مصارعة تنتهى بهزيمة رستم واقراره بالفضل لعنترة فارس العرب .

وبينما عنترة عائد الى دياره ، اذا به يلتقى بعبلة لقاء رائيا وسط الصحراء حيث يجدها تبكى وتنوح لأن اباها وأخاها قد اسرهما فارس من بنى كنانة وعرض ان يطلق سراحهما نظير زواجه من عبلة فوافقاه وحملاها معهما فى طريقهما اليه ، فيلقاهم عبد من بنى الريان يأسر البنات ويتمتع بهن ثلاثة ايام ثم يسلمهن للعبيد الذين معه فاذا ما شبعوا منهن يذبحونهن ويشوونهن ويأكلونهن . ويلتقى الفارس الكنانى ـ الذى رام زواج عبلة ـ بهذا العبد من بنى الريان لقاء مخيفا فيقتله العبد ويأسر مالكا وابنه اللذين حاولا الهرب منه ولحقا بقافلة لعمارة الوهاب ولكن العبد أدركهم وأسرهم جميعا .

هذا اللقاء الروائى بين عنترة وعبلة الذى جسد فيه المؤلف كل ما يمكن أن يلحق بها وبأهلها ـ بل وببنى عبس جميعا ـ من ذل وهوان اذا ما تخلى عنهم عنترة يمثل القمة فى المرحلة الاولى من مراحل حياة البطل . فعنترة الذى خرج ذليلا حقيرا عاد فارسا شهيرا ، وبنو عبس ومعهم عبلة الذين غادرهم عنترة اسيادا يعود ليجدهم فى موقف لا يحسدون عليه بعد أن انتقلوا من ذل الى ذل

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٢٥٨

(٢) السيرة مجلد ص ٢٨٧

وأصبحوا يساومون على حياتهم بنسائهم . ويمهد هذا الموقف لنصر جديد يحرزه عنترة على كل أعداء عبــــلة ، ويقضى على ذلك العبد الباغى فيقتله هو ومن معه من عبيد .

الا أن المؤلف لا يختم هذه المرحلة الختام السعيد قبل ان يقيم الحجة على أعـــداء عنترة من بنى عبس كما أقامها على عبلة وابيها وأهلها ، فيدفع بعمارة الى محاولة جريئة لاختطاف عبــــلة الا انها تنتهى نهاية مريرة اذ يقع هو وهى معا فى الأسر ولا يخلصهم منه الا عنترة بعد أن حاول الربيع ــ أخو عمـــارة ــ انقاذ اخيه فوقع هو الآخر فى الأسر ولم ينقذهم من هذا الذل سوى عنترة الذى هزم الفارس وعاد بعبلة واهلها الى خيامهم .

رغم هـــذا كله ، ورغم ماحقــق عنترة من نصر تلو نصر ، ورغم ما أصاب بنى عبس من ذل اثر ذل ، الا أن المؤلف اخذ يطيل فى هـــذا الجزء من روايته اطالة تبدو متعمدة وكأنما هو يريد أن يبنى فوز عنترة بعبلة على أسس متينة لا مجال للشك فيها . فالمناوؤون لعنترة يجتمعون عليه ويرفضون حقه فى ابنة عمه ، ويخرج عنترة من ديار عبس مقررا الا يعود وفى الطريق يلتقى بمغامرة لها مابعدها اذ ينقذ امرأة وبناتها من الأسر بعد أن يقتل الباغى الذى أسرهن ويعود بهن الى ديار بنى الحارث ــ حيث كانوا يقطنون ــ رافضا أن يأخذ على جميله أجرا .

أما بنو عبس فيفرحون لهجرة عنترة ، ويستعد مالك ــ أبو عبلة ــ لزفاف ابنته الى عمارة وكأنما لا عهد هناك بينه وبين عنترة ، يؤيده فى ذلك الامير شاس ، غير ان الملك زهير يقف من الامر موقفا آخر اذ يغضب من ذلك غضبا شديدا ويأمر مالكا أن يرد الى شداد مال ابنه الذى جاء به مهرا لعبلة كما يأمر بعمارة فيجلد أمام الجميع بينما يفقد شاس فى احدى الغزوات ويقع أسيرا بين يدى واحد من بنى الحارث .

وفى الأسر يضطر شاس ــ حين يفتخر عليه بنو كندة بامرىء القيس بن حجر ــ أن يذكر لهم أمــر عنترة مفــاخرا به وبشــعره . ويتصادف أن تكون المرأة التى افتخرت عليه من بنى كنده هى نفس المرأة التى انقذها عنترة ــ وبناتها ــ من الأسر ، فترسل سرا رسولا الى عنترة يخبره بوقوع ابن ملكه أسيرا وتعمل على تخليص شاس من الاسر . حينئذ يقول شاس لنفسه : « هذه فعال عنترة معى ومع سائر الناس وهو ابن الأمة ، فكيف تفعل انت بضده ياشاس وانت ابن حرة مكرمة »(١) ويصل عنترة الى شاس فى الوقت المناسب لينقذه من الموت .

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٣٨٨

هذا الجانب من جوانب الكفاح والصراع الذى يقدمه المؤلف فى الجزء الأول من روايته يبين بجلاء أزمة العبودية التى حاول عنترة أن يخلص منها مقدما فى سبيل ذلك كل جهد ، كما يبين أن عبلة كانت تسبب له من مجالات الصراع الشيء الكثير . فقد سمع بها فارس من فرسان العرب يدعى « روضة » فأراد أن يغير على بنى عبس ليأسرها ويتزوجها ولكن عنترة يلتقى به ويأسره . ويقف بنا المؤلف عند هـذا الموقف ليقدم لنا جانبا آخر من جوانب شخصية عنترة ويرينا مقدار مايمتلىء به قلبه من رحمة وحنان اذ يضعف ــ بعد أن أسر روضة ــ أمام أمه واخوته الثلاث حينما طلبن منه ان يفك أسره فلان قلبه وأطلق سراحه :

ويعود عنترة بشاس وهو على شفا الموت الى بنى عبس ويصبح من اللازم على مالك أن يزوجه من عبلة ، ولكن مالكا كانت لاتزال فى جعبته اشياء فهو يطلب من عنترة أن يأتيه بفارسة شهيرة هى « الجيداء ابنة زاهر » لتقود ناقة عبلة عند الزفاف وكأنما أراد أن يرميه فى مهلكة أخرى اذن أن الجيداء كانت ابنة عم خالد بن محارب وهو من أكبر بيت فى بنى زبيد و « كان أبوه محارب بن جيشان يقرب الى معديكرب فارس بنى زبيد أبى سيدنا عمرو صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم » . (١)

فالمؤلف يجمع فى هذه المغامرة الجديدة بين فارس عربى مشهور كمعد يكرب وبين عنترة ، كما ينتهز هذه الفرصة ليحكى لنا قصة الحب التى بين خالد بن محارب وابنة عمه الجيداء .

ويأسر عنترة الجيداء بعد أن كان خالد قد أسر عبلة . وبعد فترة تقع عبلة فى أسر بسطام فارس بنى شيبان فيأسره عنترة ويسير به الى ديار بنى شيبان لتخليص عبلة الا انه يجد بنى شيبان وقد وقعوا فى أسر فارس جبار فيتحالف هو وبسطام ويخلصون عبلة وأخت بسطام من أسره .

وخطوة بعد خطوة تزداد قيمة عنترة كفارس وتزداد شهرته فى ارجاء الجزيرة العربية التى يقطعها من شمالها الى جنوبها فى مغامرات لا نهاية لها سعيا وراء تخليص عبلة . فمالك أبوها يتهرب من عنترة باستمرار وهو بهذا يوقع نفسه وابنته فى الشدائد التى لا يخلصهم منها الا عنترة الذى يزداد فرسانه واتباعه باطراد ، أما عمارة وأخوه الربيع فيصل بهما التآمر الى حد رشوة أحد القتلة المحترفين ليقتل عبلة بعد أن أعجزهم قتل عنترة . وتنتقل المغامرات مرة أخرى الى أرض النعمان

---

(١) السيرة مجلد ١ ص ٤١٩

ابن المنذر حينئذ يستطرد الكاتب فى سرد قصة النعمان مع المتجردة ابنة الملك زهير حينما هرب الزبيع الى أرض النعمان واخذ يقربه بها :

ويتجمع اصحاب المؤامرات على عنترة من كل ناحية (بنو زياد وبنو فزارة) الا أن عنترة يتمكن من اقامة الحجة عليهم ويثبت ختلهم ومكرهم ويدور القتال بالفعل بين بنى عبس وبنى فزارة (الذين استأجر الربيع عبدهم بشارة ليقتل عبلة) ، ويأسر عنترة الربيع واخاه عمارة ويحملهم الى الملك زهير ولكن الفتنة تقع بين بطون عبس فتفرق بينهم . وكحل لهذه الفتنة ينفصل بنو قراد ويخرجون من مضارب بنى عبس ، بينما يرسل الملك النعمان اخاه « الملك الاسود » ليقتل عنترة ويأسر قبيلة بنى عبس الا أن عنترة هو الذى يأسر الملك الاسود ويقضى على جيشه كما يأسر الفارس العربى معد يكرب الذى يعمل للنعمان مما يضطر الملك النعمان الى أن يفدى أخاه وفارسه بعبلة التى كان قد هرب بها اليه بنو زياد . ويتحرج موقف النعمان بعد أن تصل الى كسرى اخبار عجزه عن ملاقاة عنترة وقتله فيرسل اليه بقائده « خدوا » الذى عزله ووضع مكانه اخاه الملك الاسود .

وكما اثبت المؤلف دالة عنترة على بنى عبس اجمعين فانه يحاول كذلك أن يثبت له هذه المكانة على جميع فرسان العرب المشهورين ، ثم على اكبر ملوك العرب فى تلك الفترة وهو النعمان . وبعد ان مهد عنترة لنفسه الجزيرة العربية بتغلبه على اشهر فرسانهم من أمثال معد يكرب وذى الخمار — الذى كان يقارن بالف فارس — ودريد بن الصمة شيخ العرب ، تجتمع جيوش العجم ومعهم جيش العراق بقيادة الملك الاسود لمهاجمة عنترة وبذلك تصبح المعركة هى معركة العرب ضد العجم لاسيما وأن دريد ابن الصمة قد انضم الى عنترة واتحد معهم كبار فرسان الجزيرة مما سهل عليهم هزيمة جيش العجم وتمكنوا من اعادة النعمان الى ملكه .

ويعود عنترة من أرض العراق منتصرا محققا ما اراد من اقرار فرسان العرب له بالاولوية والبطولة ليجد ان قبيلته كلها — كما فيها الملك زهير — قد أسرت فيخلصهم عنترة . ويموت الملك زهير فيتولى مكانه ابنه قيس بن زهير الذى تربطه صلة النسب بالربيع وبنى زياد .

وتنتقل القصة الى بلاد اليمن لينصر عنترة محبا وقفت الاحداث بينه وبين حبيبته، ويثبت عنترة فى هذه الرحلة مكانته فى الجنوب كما أثبتها من قبل فى الشمال ، وفى هذه المرحلة من القصة يوضح المؤلف مكان عنترة عند ملك بنى عبس الجديد ، كما يذكر انتصاره على بنى زياد وبنى حذيفة الذين تمادوا فى عداوته ، ثم يلتقى عنترة بالفارس

القبطى « مقرى الوحش » فيأسره عنترة ويصبح هذا الفارس الكبير احد أعوانه . وتدور الدائرة على بنى فزارة بعد قتلهم للامير مالك ابن زهير — صديق عنترة وأخى قيس ملك عبس الجديد — ليقضى عليهم بنو عبس .

وتستقر الأمور لعنترة بعد ان اذل جميع اعدائه وتبوأ مكان الصدارة فى الفروسية غير منازع ، الا انه لازال فى قلبه من عبلة حرقة ، وهنا يقول الملك قيس لعنترة فى وليمة نصره : « وحق البيت والكعبة الغراء ، وأبى قبيس وحراء ، لا أقبل كلام انسان ، حتى تدخل عبلة على جامية عبس وعدنان » . (١) وبدأت القبيلة تستعد لزواج عنترة وفى هذا الزواج يتم تتويج عنترة ملكا على الفرسان اذ يقدم عليه جميع المشهورين من فرسان العرب بالهدايا وبالشعر يمدحونه فيه ويقرون بفضله .

وقد شئنا ان نتتبع تطور شخصية عنترة فى هذه المرحلة خطوة خطوة حتى نحس بذلك المجهود الذى استطاع المؤلف بواسطته أن يجعل من اللقاء السعيد قمة يقف عندها عنترة وقد تمهدت الأرض تحت اقدامه مرشحة اياه للمهمة التى أعلن عنها المؤلف فى صدر كلامه وهى تطهير الأرض من الجبابرة الكافرين امام الرسالة المحمدية . والواقع أن عنترة ما أن يصل الى هذه القمة الا وقد انعقدت له الوية النصر فى مجتمعه الخاص وفى مجتمعه العام بعد ان قتل من المحاربين كل من وقف فى طريقه ، وبعد ان اكتسب من الحروب التى خاضها فى شمال الجزيرة وجنوبها خبرة صقلته وجعلته صالحا للمرحلة الثانية من مراحل حياته فى تسلسل روائى طبيعى بعيد عن التعسف والتضارب بحيث نستطيع بعده أن نتقبل عنترة على أساس أنه المثل الحى لنموذج الفارس العربى الكامل ، فقد مر علينا فى سيرة حياته وفى أحداث كفاحه مايجعلنا نطمئن الى كل ماسوف يأتيه من أفعال بعد ذلك . وقد استطاع عنترة أن يتغلب على عقدة النسب اذ أرغم بشجاعته وقوته جميع الناس على الاقرار باصالته وبفضله ، كما أرغم أباه وقبيلته أن تفخر بنسبته اليهم وتوج كل هذا النصر بزواجه من احدى حرائر بنى عبس ، وبين الاعتراف الاعتراف ببنوته لشداد وبين زواجه من عبلة مرحلة كان لابد للمؤلف أن يقطعها على حذر ذلك انه لايريد لبطله أن يحصل على حقه افتئاتا وعن كره من الناس وانما شاء أن يجعل حقه هذا عن رضى كامل وباقرار واعتراف من الجميع .

وبطلنا فى هذه المرحلة (مرحلة التكوين) بطل ذاتى ، بمعنى انه

---

(١) السيرة مجلد ٣ ص ٢٣١

يعبر ــ كفرد ــ عن مشكلات خاصة به ويصارع فى سبيل التغلب على صعوبات تعترض طريقه ، هذه الصعوبات هى وليدة لنظام اجتماعى سيىء يعيش فيه العرب ويسبب للكثيرين من أفراده التفسخات والعقد النفسية نتيجة لما فيه من طبقية وارستقراطية تقسم الناس الى ألوان وأجناس ، وتجعل للصفات الجسدية (كاللون والشكل) ومن الصفات الوراثية (كوضع الأم الاجتماعى) اهمية تفوق تلك التى الخصائص الذاتية التى تؤهل الفرد فى المجتمع السوى للحصول على ما يريد .

هذه المرحلة ذاتية كذلك لان قصة الحب فيها تشغل الجانب الاكبر من اهتمام المؤلف كما تشغل الجانب الاكبر من اهتمام البطل حيث تصبح هى مدار اهتمامه وشغله الشاغل الذى يملأ حياته بشكل الوان الجهاد والكفاح .

هنالك دافعان اذن يتحكمان فى شخصية بطل هذه المرحلة ، احدهما دافع ينبع من وضعه الاجتماعى والثانى دافع ينبع من علاقة الحب ، والدافعان معا يثبتان ذاتية البطل كما يثبتان مافيهما من ضيق أفق الهدف بحيث نستطيع القول بأن عنترة فى هذه المرحلة عربى عادى يسعى وراء هدف ذاتى حين يحققه تنتهى القصة . ولكن هذه المرحلة فى السيرة تعتبر مرحلة ولادة للبطل الاسطورى الذى يواجه اشياء فوق الاحداث واقوى من العقبات وأبعد من مواصفات اللون والجنس والتقاليد واحد من كل قيد يربط البطل بمشكلات ذاتية تحدد معالمه . اى أن عنترة بحصوله على المكانة الاجتماعية والزوجة العربية قد انفلت من قيود ضيقة كانت تحد من حركته وتجعلها تسير فى نطاق ضيق ليبدا فى المرحلة الجديدة شيئا جديدا سوف نراه فيما بعد .

وهذه المرحلة الذاتية من حياة عنترة تعتمد الى حد كبير على مانقلته كتب الاخبار وكتب الادب مع ماعرف عن حياة عنترة ــ الشاعر العبسى ــ من معالم رئيسية تحدد معالم شخصيته وتروى قصة كفاحه ، الا اننا نحس ان هذا الجزء الذى يرتبط بالتاريخ قد تناولته يد تعرف هدفها فخلقت حوله من الاحداث والمواقف مايبلور الحقيقة التاريخية تدريجا لتكون تمهيدا لظهور بطل اسطورى اشبه ببطل الملاحم واقرب الى شكله العام من حيث أهدافه ودوافعه .

وليس من عجب أن اختار المؤلف هذه الشخصية بالذات من بين مئات الشخصيات التى تذخر بها كتب التاريخ والادب ، اذ ان الاهداف التى يسعى اليها عنترة ليتحرر تكاد ترمز ــ الى حد كبير ــ الى اهداف المجتمع العربى فى التحرر من ربقة التقاليد الخاطئة والنظم التى تحد

من انطلاقه وتطوره . والذاتية التى يعيشها البطل فى هذه المرحلة تكاد تمتزج امتزاجا بموضوعية واضحة المعالم هى صراع المجتمع العربى كله ، وهذا المزج يأتى طبيعيا وبلا تعسف بحيث لانكاد نحس به اطلاقا فضلا عن أنه يحقق لهذه المرحلة من الرواية سعة الافق ورجاحة الميدان .

ويضغط المؤلف فى حذق وبراعة على تحديد معالم المجتمع العربى من خلال شخصية بطله محللا الدوافع والاسباب التى ترسم حركته سواء فى علاقته الداخلية - بين أفراده هو - أو فى علاقته الخارجية مع الامم المجاورة سواء ماهو عربى الاصل منها وماهو اجنبى عنها تماما . وحين ينتهى المؤلف من هذه المرحلة يكون قد رسم لنا اطار المجتمع العربى رسما دقيقا وحدد العلاقات الحقيقية فيه مبررة بواقع البيئة مرة وبواقع التاريخ مرة وبواقع مايجيش فى هذه الجزيرة آنذاك من محاولة للتجمع واحتلال مكان مناسب على خريطة العالم .

ورغم احداث الرواية المتشابكة فى هذه المرحلة الا اننا لا نخطىء خلالها صورة دقيقة للجتمع العربى قبل الاسلام ، كما لا نخطىء خلالها صورة لما كان فى الجزيرة العربية آنذاك من ارهاصات بظهور دعوة توحد قبائلها وتواجه الامم المجاورة . ونحسب أن شخصية عنترة كانت هى المهاد الطبيعى الذى أعطى المؤلف فرصة تحديد العلاقات بين العرب والمناذرة وبينهم وبين الغساسنة ثم بينهم وبين اليمنيين من ناحية ، كما أعطاه الفرصة ليحدد العلاقة بين الجزيرة العربية وبين امبراطوريتى الفرس والروم المتاخمتين لها .

وقد أطلقنا على هذه المرحلة اسم « مرحلة التكوين » لانه فيها تكونت شخصية البطل ، وفيها تكونت معالم البيئة ، كما أن فيها تحددت العلاقات بين جميع الأطراف المكونة للرواية .

ولسنا نريد أن نترك هذه المرحلة قبل أن نشير الى النماءالتدريجى الذى عمد اليه المؤلف . فهو يقدم من الحوادث مايبرر كل تطور جديد فى شخصية بطله ، بل هو يعقد الأحداث ويجعلها تتشابك حتى يجعل من نصر بطله قيمة حقيقية فى تطوره . كما أن مزجه لقصة الحب بقصة المجد يدل على براعة روائية اذ قد أمكنه أن يعكس كل تطور جديد فى شخصية البطل على قصة الحب ، وأن يحدد معالم معينة فى شخصية

هذا الفارس تصبح بعد ذلك سمات ملازمة له ، فقلبه العامر بالحب هو الذى دفعه الى رفع سيفه دفاعا عن كل قصة حب وأن يتخذ موقفا معينا أمام النساء المستضعفات فيدافع عنهن وينصرهن ويساعدهن دون ثمن أو غاية .

وهكذا تسلمنا هذه المرحلة ــ فى طبيعية ويسر ــ للمرحلة التالية لها وقد تبلورت فى أذهاننا شخصية عنترة كمثال للفارس العربى فى خلقه وفى تصرفاته وفى دوافعه .

مرحلة الفروسية أو المرحلة الذاتية

لسنا نقصد حينما نسمى هذه المرحلة من مراحل تطور شخصية عنترة باسم « مرحلةالفروسية » أن نجرد المرحلة السابقة لها من هذه الصفة ، ولكننا نقصد أن شخصية عنترة فى هذه المرحلة قد تبلورت بعد ان تخلص من جميع الدوافع الذاتية التى كانت تتحكم فيه من قبل لتحل محلها دوافع اخرى تحدد تقاليد الفروسية العربية . فهذه المرحلة تعتبر تصويرا لسمات الفارس العربى فى الجزيرة العربية بكل مقوماتها ، كما أن البطل فيها مؤيد بقوة غيبية حددها الكاتب قائلا : « ان الله عز وجل اسكن فى عنترة بن شداد سرا خفيا لا يعلمه الا الله اللطيف الخبير ، وكان من عادته انه يقاتل الفارس الى ان يحل به التعب ، فاذا انفصل منه وتأخر قليلا — قدر باع او ذراع — رد الله عز وجل عليه قوته وضاعفها فيرجع الى خصمه ويأخذه من الميدان اسيرا أو يتركه قتيلا » . (١)

ويحدد المؤلف فى هذه المرحلة الفرسان الذين التقى بهم عنترة فأسرهم أو قتلهم بسبعين جبارا من جبابرة الفرسان مثل ذى الخمار — فارس بنى حمير — وصهره دريد بن الصمة ، ومثل زيد الخيل ، وعامر ابن الطفيل ، ومعديكرب الزبيدى وعمه خالد بن محارب ، ومثل عمرو بن العامرى الذى كان يعتبر فى ذلك الزمان « فارس من كفر » ، ومثل جبار بن صخر وعمرو بن ضمرة الغسانى وعمر بن العقاب فارس بنى كندة ، ومثل معاوية بن النزال ومسعود بن مضاد ، ومثل عقريب السواحل فارس جزائر البحار ، ومثل حجار بن عامر وسليكه بن سلكة واياس بن قبيضة وانس بن مدركة الخثعمى ومسحل بن طراق وأبى الاشبال وطود الاطواد وعبد زنجير وعبد هياف . وهؤلاء الفرسان لا يوجد مثلهم فى مشارق الارض ومغاربها ، فكان عنترة بن شداد يأسرهم أو يقتلهم او يجز نواصيهم . ومثل هذا فعله مع الملك الاسود وجون والرميم المسعور وفاز القضاعى ، وقيصر ملوك الافرنج ، وصافات صاحب بلاد الظلمات ، وكسرى ، ومثل ملوك أرض خراسان وبيوت النار الحمية والملكة الفارسية . وقد اسر عنترة ورد شاه وظالم وعروة والحارث بن ظالم واللقيط بن زرارة ... « قال الراوى : ياسادة —

---

(١) السيرة مجلد ٣ ص ٢٥٠

لو شرحت ذلك وذكرت قصة كل منهم لسكت الكتاب ، وكل اللسان عن الجواب . وكانت صفة عنترة فى ذلك الزمان كزناد خرج منه نار فمهد الله سبحانه به الارض ، فسبحان من خلقه وسواه وأعطاه . » (١)

اكتملت للفارس العربى عدة الجلاد ومميزات الفروسية مما يذكرنا بسمات الفارس المعروف فى القرون الوسطى فى الادب الاوروبى . فله سيف عزيز عليه يقطع كل شيء ولايثلم حده شيء ذلك هو «الضامى» الذى صنع من قطعة من شهاب سقط من السماء ، وله فرس لا يدركها فرس تسابق الريح وتفهم مواقف الحرب والنزال وتألف صاحبها اشد الالف ، يتحير من رشاقتها وسرعتها ومهارتها الفرسان تلك هى « الابجر » وله رفيق أتقن الحيلة وبلغ من الذكاء الغاية ووصل القمة بين السلالين ، أسرع من الريح اذا جرى وأمهر من الشيطان اذا تنكر ذلك هو أخوه « شيبوب » . وله رفقة سلاح يلازمونه فى معاركه ويحاربون تحت رايته مثل عروة بن الورد وصعاليكه ومثل صديقه الفارس الكبير مقرى الوحش . وله عزوة ينتسب اليها وقبيلة يعرف بها تنتصر له وينتصر لها تلك هى قبيلة عبس . وله حبيبة يناديها حين يخلو به الطريق فى الصحراء وينطق باسمها عند موطن النزال ويحارب من اجلها فى سبيل اشرف المثل وارفع الغايات تلك هى عبلة زوجته وابنة عمه .

ماضيه اذن ملىء بقصص البطولات والانتصارات ، وحاضره يحمل كل مميزات الفروسية التى عرفتها المدنية فى فترة من الفترات كظاهرة اجتماعية لها أهميتها ، واسمه أصبح رمزا للكمال حتى انه غدا مقصدا لكل طالب شهرة يريد أن يصيب من لقاء عنترة ذيوعا فى الاسم ورفعة فى القدر . ونحن نلمح تلك الظاهرة فى بداية هذه المرحلة حين يفاجئه فى ليلة عرسه فارس عنيد اسمه « العقاب » فيقتله عنترة .

ويبدأ عنترة اولى رحلاته بعد الزواج على شرف الفروسية اذ يخرج هو ورجاله ليعيدوا الى صديقه مقرى الوحش حبيبته مسيكة من بلاد الشام . كان مقرى الوحش قد خرج يبحث ــ مثل عنترة ــ عن الف من النوق العصافير هى المهر الذى طلبه ابوها ، الا انه اثناء غيابه احبها غدير بن الملك الغسانى وخطبها من ابيها الذى رفض فقرر غدير ان يخرج فى خمسمائة فارس ليسبى الفتاة . وهنا يصل عنترة ومقرى الوحش وتدور المعركة بين فرسان غسان وفرسان الحجاز الذين قتلوهم ونكسوا اعلامهم وعاد عنترة بصديقه وحبيبته الى ديار بنى عبس .

ولكنهم ما ان يصلوا الى بنى عبس حتى يجدوا الديار خالية .

(١) السيرة مجلد ٣ ص ٢٥١

فقد عرف النعمان بهلاك بنى فزارة فارسل جيشه ليقضى على بنى عبس اما قيس وقبيلته فقد هربوا يحتمون بالجبال ولحقهم عنترة . واخذ النعمان يؤلب القبائل على عبس بينما اخذ الشر يقع تدريجيا بين بنى عبس وبين القبائل التى تجاورهم فى الجبال حتى اذا ما حاول احد فرسان تلك القبائل اغتصاب فتاة عبسية قتله مقرى الوحش ، بينما قتل عنترة فارس بنى حذيفة لغدرهم بعبس التى بدأت تتحرك نحو اليمن .

وهنا نجد مغامرتين متتاليتين لا هدف لهما الا اقرار الحق ونصرة المظلوم والانتقام من الغادرين . ونلاحظ انه فى حالة مقرى الوحش يجابه عنترة ابن الحارث ذاته ويقتله دون خوف من منزلته ولا منزلة أبيه ، وفى حالة الفتاة العبسية يجابه عنترة بنى ريال كلهم حفظا لشرف فتاة عبسية .

ويستمر بنو عبس فى هروبهم من وجه النعمان الى ان يجاوروا قبيلة بنى سعد وكان لبنى سعد فارس مشهور هو معاية بن النزال الذى يرسل جاسوسة تستطلع اخبار بنى عبس فترى عبلة وتنقل للفارس أوصاف حسنها وجمالها فيهيم بها ويحتال لخطفها بعد اسر الملك قيس وبعض أشراف بنى عبس بواسطة الغدر والخيانة فتدور الحرب بين بنى سعد وبنى عبس حتى يهرب الفارس اليمنى ورجاله . هكذا نجد ان المعارك تدور هنا لا بين عنترة ومعادية وانما بين الشماليين والجنوبيين لا سيما بعد ان اتصل معاوية بملوك بنى تميم وحاول ان يعقد حلفا ضد بنى عبس ، ولكن المعركة تنتهى بهزيمة فرسان بنى تميم ومصرع معاوية . وتتجمع القبائل اليمنية كلها ضد بنى عبس ولكن النصر يستمر حليفهم على ملوك اليمن وفرسانها .

يحاول المؤلف بهذه القصة ان يؤكد فضل فرسان الحجاز على فرسان اليمن ، فهم — رغم قلتهم — ينتقلون من نصر الى نصر بفضل عنترة الذى يحقق للشماليين نصرا كبيرا على الجنوبيين . ويستمر زحف بنى عبس حتى يصلوا الى نهاية بلاد اليمن ويواجهوا بلاد السودان .

والواقع ان رحلة بنى عبس هذه تذكرنا برحلات كثيرة فى قصصنا الشعبى تحقق للقبيلة المهاجرة نصرا تلو نصر وكأن فارسها يجوب الافاق بحثا عن المغامرات وذيوع الصيت واقرار الامم له بالفضل والغلبة .

وتتكرر القصة مرة اخرى .. قصة غرام ملك جديد بعبلة ، وغدر جديد يقع على بنى عبس من جراء هذا الغرام ، وهزيمة جديدة تصيب القبيلة : الغادرة . وكأنما يريد المؤلف أن يجعل من عنترة فارسا كبيرا

لا يشق له غبار فى رد الغدر الذى يتمثل فى ملوك القبائل ورؤسائها ومترفيها ، كما اراد ان يجعل من عبلة رمزا للجمال تذل اعناق ارجال بحسنها كما اذلهم زوجها بشجاعته .

وهنا تظهر اولى صور السحر ، الا انها تتكسر عند اقدام عنترة الذى تحميه قوة اسطورية منه . ويتجمع الملوك فى شبه حلف ضد بنى عبس الا ان عنترة يقتلهم ملكا فى اثر ملك . وحين يصل الموقف الى تأزمه بين بنى عبس وبين قبائل اليمن الذين تجمعوا واتحدوا عليهم يظهر الملك عمرو بن هند – اخو النعمان – فى جيش لجب يفصل بين المتحاربين ذلك ان الملكة المتجردة – زوجة النعمان واخت الملك قيس ملك عبس – اقنعت زوجها النعمان برد غربة عبس فيوفد أخاه لاعادتهم ويرحل الجميع عائدين بعد ان يكون عنترة قد حقق فى بلاد اليمن نصرا كبيرا للشماليين .

وفى طريق العودة يتعرض لهم الفارس الشهير « ذو الخمار » اثناء غياب عنترة ولكنه ينهزم امام عددهم الكبير ، كما تتعرض لهم قبيلة بنى عامر ولكن هذا اللقاء يسفر عن مؤاخاة فارسهم عامر بن الطفيل لعنترة بعد أن أقر بفضله وقال لمن يحاجه فى أمره : « قد رأيت من كرم نفسه وطيب أصله وشجاعته ما لم ار مثله من بشر مع ما رأيت أنت من شجاعتى التى لا يحتاج معها الى خبر . وان كنت تقول له نسب فان نسبه حسن فعله وأدبه » (١) .

ويرحل عنترة واهله الى ارض عامر بن طفيل حيث يلتقى بفارس آخر هو عمرو بن ود العامرى ويستمر القتال بينهما يوما وليلة وينتهى بالحلف كذلك اذ يقول هذا الفارس: « قد بشرنى الكهان انى أعيش الى زمن النبى العدنانى المبعوث بأشرف الأديان، أحارب فارسه المشهور للايمان وقد كفانا ما لقينا من الحرب وتحيرت من افعالنا الشجعان ، ولا بيننا ثأر ولا كشف عار . وانا مقر لك بالفروسية والشجاعة والحمية وغرضى ان اتخذك صاحبا رفيقا وركنا وثيقا عند نوائب الزمان وطوارق الحدثان لانك اوحد الزمان ، وقد يكفيك قولى بين هذه الفرسان ما عدت أركب حصانا ولا أضرب بحسام ما دمت انت فى العصر والأوان الى ان يظهر النبى العدنان الذى دينه ينسخ الاديان ويكسر الاصنام » .

ويلتقى عنترة بالحطيئة – الشاعر المشهور – الذى يخبره بان أخاه عامرا قد وقع فى أسر فارس شديد البأس هو زيد الخيل بن المهلهل النبهانى ، فى الوقت الذى تتجمع فيه نساء بنى عبس باكيات بين يدى عنترة بعد ان غادر ديار عبس مغاضبا – شاكيات من شدة وطأة دريد

---

(١) السيرة مجلد ٣ ص ٤٣٦

بن الصمة واهله من هوازن على فرسان عبس حتى كادوا ان يفنوهم فيسرع عنترة بملاقاة دريد واسره ثم يثنى بزيد الخيل الذى يفتدى نفسه مقسما بانه لن يعود الى حمل السيف فى وجه عنترة .

وهكذا لم يعد امام عنترة من الفرسان المشهورين احد الا لاقاه ، وهو يصطنع الكرم مرة والشهامة مرة والحزم مرة ، ولم يبق أمامه سوى « ذو الخمار » الذى عاد فى تلك الاثناء لانقاذ دريد بن الصمة . ويلتقى الفارسان فى موقعة رهيبــة انتهت بأسر ذى الخمار . وكان يشرف على هذه الموقعة الملك عمرو بن هند ــ اخو النعمان ــ الذى حضر على رأس موكب المتجردة ــ زوجة النعمان لزيارة قومها العبسيين .. فيصلح عمرو بن عبس وهوازن الا أن ذو الخمار يصر على مبارزة عنترة قبل الصلح ويبرر طلبه قائلا : « ما قلت كلامى هذا على سبيل البغى ، ولكن انا ابين لك قصدى بهذا الكلام وهو اننى فى هذا العام كنت معولا على الحج الى بيت الله الحرام واعلق لى قصيدة من شعرى حتى تسجد لها ملوك الاقطار ويعلو بها قدرى عند ســادات العرب . والان فقد اصبحت مأسورا وما بقيت اعتمد على امر من الامور الا ان قهرت هذا الجبان وتشهد لى العرب بعلو المرتبة والاقتدار » .

وهكذا نشهد مبارزة ــ مثل مبارزات القرون الوسطى ــ تدور بين فارسين فى حفل رهيب يحضره عمرو بن هند وفرسان القبيلتين الذين يقضون ليلتهم فى سهر وشرب ومنادمة الا ان هذه المبارزة لا تتم فى حينها بسبب مرض ذى الخمار ، كأنما اراد المؤلف أن يطيل من أمد ذلك الصراع الذى يقوم به عنترة فى الجزيرة العربية ليصبح فارسها الاول ، وليترك فى نفس عنترة هدفا كبيرا جديدا يقول عنه لبنى عمه : يا بنى عمى : ما ذو الخمار الا فارس همام لايوجد مثله فى الانام ، وما سار الا وقد ترك فى قلبى نارا وكلاما . فقال له مقرى الوحش : يا ابا الفوارس ما هذه النار والكلام ؟ ابديه لنا ولا تخفيه . فقال ذو الخمــار لما كان بحضرة اخى الملك النعمان والملك قيس والفرســان قال لهم انه قبل اسرى له فى ذلك العام كان اراد ان يعلق له قصيدة على البيت الحرام ويترك سادات العرب يسجدون لها فزعا من رمحه والحسام ، وها انا اقدر منه عليها ولا ند لى ، أما ابذل روحى فيها واترك لبنى عبس شرفا يبقى من بعدى » (٢) . ويهول له مقرى الوحش هذا الامر الذى يريد أن يقدم عليه الا أن عنترة يصر على هذا الغرض الذى جعله هدفا له فى حياته الجديدة .

والواقع ان هذه الحياة ــ كما رأينا حتى الآن ــ ترسم لنا شخصية

---

(١) السيرة مجلد ٤ ص ٩

لفارس لا هم له الا حيازة قصب السبق فى مضمار الشرف كما يفهمه العربى . فهو كحامل سلاح يلقى فى حومة النزال اشهر الفرسان وينتصر عليهم . فمغامرات عنترة فى هذه المرحلة من حياته تذكرنا بمغامرات الفرسان فى القرون الوسطى فى القصص الانجليزى والفرنسى معا . ومجموعة التقاليد التى تقدمها هــذه المرحلة تشبه كذلك تلك التقاليد التى نراها فى قصص « سير والتر سكوت » وغيره من الروائيين ، اذ يعيش البطل على حصـــانه متنقلا فى البحث عن المغامرات التى ترفع من شأنه ، وفى السعى وراء الابطال لمنازلتهم والتغلب عليهم . واذ يقيم الامراء والملوك حلبات المصارعة ومجالات المنازلة بين الفرسان يشهدها جمع كبير من الناس ليحكموا اى الفرسان افضل . واذ يعيش الفارس على ذكر اسم محبوبته ـ او سيدته ـ التى يخوض المخاطر فى شرفها . وفى نفس الوقت يرسم لنا هؤلاء المؤلفون مجموعة من التقاليد الخلقية عن الفارس تجتمع فيها الشهامة والنجدة واغاثة الملهوف وقتل المعتدين والغاصبين مهما علت مكانتهم وسمت منزلتهم ، والدفاع عن النســاء المستضعفات والاخذ بايديهن ونصرهن دون طمع فى اجر او مثوبة .

الا ان مؤلفنا يقدم لفارسه شيئا جديدا هو الصق المظاهر بمعنى الشرف ورفعة الشـأن عند العربى ، ذلك الشىء هو التفـوق فى عالم الشعر والوصول الى قمة ما يطمح اليه شاعر من مجد ورفعة ، ذلك ان الشعر كان سمة من سمات العرب يفخرون به قدر فخرهم بالشجاعة ويعتزون به قدر عزهم بالنسب واصالة الآباء والجدود .

وقد قدم لنـــا المؤلف بطله شـــاعرا منذ اللحظة الاولى ، الا انه ما ان ينتهى من رسم صورته فارسا مشـــهورا لا يخضع الا لمقتضيات الفروسية ، حتى يبدأ فى وضع هدف جديد فى حياته هو تعليق قصيدة على الكعبة ليركع عندما سادات العرب ويصل صاحبها ـ وقبيلته ـ الى ما لم يصل اليه الا القليلون من الفرسان الشعراء ، ويصبح ذكر حبيبته على كل لســـان فى الجزيرة العـــربية وفى غيرها من البلاد التى يقصد ابناؤها الى الكعبة للدين أو للتجارة أو لهما معا .

والمؤلف هنا يستند الى حقيقة تاريخيـــة لا شـــك فيها وهى ان عنترة العبسى واحد من اصحاب المعلقات ، والواقع ان هذه هى الحقيقة الوحيدة التى تقف وسط خضم الاحداث الروائية التى يقدمها المؤلف بين يدى هذا المجد الذى يحاول عنترة ان يصل اليه فنحن ما نلبث ان نجد امامنا صورة جديدة للون من الوان الحياة العربية لم يعن المؤلف من قبل بتقديمها وابرازها ، تلك هى صور الجلسات الادبية الحافلة بالمناظرات الشعر والمعارضات القولية . فنشهد جلسة للربيع بن زياد

ينشد فيها قصيدة يتحدى بها عنترة وغير عنترة ، فيقول عنترة على السليقة : « هذه القصيدة التى لا يقدر احد يعمل منها بيتا او بيتين ولا ينظر شكلها ، ولكن اسمع منى على البادية ما سمح به الخاطر وما تبديه السرائر ، وما كنت به الضمائر ، فى وقتنا هذا الحاضر ، قصيدة مثلها اصحاب القصائد بالمعلقة على البيت الحرام ، ولا ينال احد غيرى هذه الطبقة من سائر الانام . ثم ان عنتر ترنم وجعل ينشد ويقول .. » (١) — ويورد المؤلف قصيدة يعارض فيها عنترة قصيدة الربيع ، ويدخل عامر بن طفيل فينشد هو الآخر قصيدة يعارض بها الربيع ، وينشد عروة بن الورد قصيدة رابعة ، ويدخل مقرى الوحش بقصيدة خامسة ، ويختم عنترة المجلس بقصيدة اخرى فيقر له الجميع بالفصاحة والبيان ، حينئذ يقول عنترة مخاطبا عروة : « يا ابا الابيض فمن يكون هذا المقال مقاله ، وهذا القتال قتاله ، ما يصح ان يعلق له قصيدة على البيت الحرام ، ويفتخر بها على الخاص والعام » (٢) .

ولا يقوم عنترة من مجلسه هذا حتى يقبل عليهم رجل يجرى ويخبرهم بانه جاء من البيت الحرام ، وانه سمع عبد المطلب يعظ اهل مكة ويخبرهم ان زمان النبى قد أهل ، ثم يذكر لهم انه قد اشتعل قلبه بهذا الذى سمع فراى حين نام رؤيا يقول فيها : « كأننى واقف قدام هبل وهو الصنم الاكبر الذى على الركن اليمانى ، وكأنى سألته عن هذا الرجل الروحانى ، وقلت له : يا مولاى متى يكن ظهوره ؟ وفى اى مكان ينتظم سروره ؟ فقال لى : اذا اينعت نخلة يثرب ، ووقع الجوع والغلاء فى بلاد المغرب ، وانشق ايوان كسرى وخرب ، ووقعت الوقعة العظمى ، وعلق قصيدته فارس بنى عبس الادهم ، واجل سفك الدماء فى الحرم وذلت له رقاب الفرسان من العرب والعجم ، وأتته الهدايا من ملوك اليمن » (٣)

ويظل المؤلف واقفا عند هذا المشهد ليصور لنا ما دار فيه من كلام ، وكيف غشى على عنترة ، وقوى امله فى تعليق القصيدة ، فيطلب هذا الرجل منه ان يصحبه معه هذا العام ليحقق ما راى فى المنام . ثم يصف لنا المؤلف موقف اعداء عنترة وموقف اصدقائه من هذا الذى اعتزمه .

ويترك المؤلف هذه الجلسة الادبية التى طالت ليعود الى وصف حياة عنترة الفارس الذى يخوض معارك كثيرة لينقذ فرسه « الابجر » الذى سرقة السلال « المختلس بن ناهب » وهنا يقف المؤلف ليرينا

---

(١) السيرة مجلد ٤ ص ١٠
(٢) السيرة مجلد ٤ ص ١٥
(٣) السيرة مجلد ٤ ص ١٧

تطورا جديدا حدث فى شخصية عنترة ، فبعد ان كانت عبلة هى المدار الاول لاحداث حياته نجده فى هذه المرحلة يساويها بسيفه وحصانه كما يجب ان يفعل الفارس . يقول عنه مؤلف السيرة .. « وما نام تلك الليلة ، ولا التفت الى عبلة ، لانه كان يحب جواده اكثر من حب عبلة ، وقد ذكروا ان عبلة عنده اعز من روحه التى بين جنبيه » (١) .

ويرسل الحارس بن الوهاب — ملك الشام — بجنود ليقتصوا من عنترة الذى قتل ابنه ، فيتجمع بنو عبس وينضم اليهم بنو غطفان وتبدأ المعارك بين العرب والنصارى كما رأيناها من قبل بين العرب والمجوسيين . وعلى الرغم من قتل رئيس الفساسنة « كافر بن فاجر » الا ان جيشه العظيم العدد يتمكن من اسر فرسان عبس جميعا — بما فيهم عنترة — . واخيرا ينتصر بنو عبس بحيلة من ملكهم قيس الذى اشتهر باسم « قيس الرأى » لمهارته وحذقه .

ويأتى لقاء آخر بفارس آخر ذلك هو عمرو بن معديكرب الزبيدى — وهو من فرسان الاسلام المعروفين — فيقف بنا المؤلف عند هذا الفارس ليحكى لنا تاريخ حياته وقصة غرامه بلميس التى يحبها فارس عنترة عروة بن الورد . كما يلتقى كذلك بسليك بن سلكه الذى كانت تسميه العرب « غول البر » . ويتوالى لقاء عنترة بالفرسان بينما ذو الخمار لا يزال يسعى لعقد مبارزة بينه وبين عنترة الا ان الظروف كانت تحول بينهما دائما . وهنا تظهر « غمرة » وهى فارسة سوداء اشتهر امرها وتمكنت من أسر ذى الخمار والعباس فارس قبيلة دريد بن الصمة صديق عنترة . ويقف المؤلف من هذه المعركة عند صورة مهمة فى تاريخ الفروسية العربية اذ يصور لنا اصرار غمرة — وقد اسر رجالها ذا الخمار بالتكاثر والعدد الكبير — على ان تأسره فى مبارزة متعادلة القوى حتى تثبت فروسيتها ويشيع اسمها ، فكانت تطلق سراحه كل صباح وتعطيه خيلا وعدة جلاد وتقضى النهار معه فى مباراة طويلة ، وتؤدى هذه المعركة الفردية بين الفارس والفارسة الى غرام ينشأ بين الاثنين فيعودان الى ديار ابيها ، ويقول لها ذو الخمار : « بحق من افنى عاد دعينى اتفرج على قتالك مع عنتر ، فان اسرتيه فاحكمى فى رقبته ، وان وقعت فى يده خرجت اليه وقضيت شهوتى من برازه . واذا بانت طبقتى من طبقته وعرفت ذلك فانا آمر صهرى دريد باطلاقك واطلاق من معك من الاسارى وعدنا من درياكم بسلام » (١) . وتوافق غمرة على هذا الاتفاق وتسير على راس جيشها للقضاء على فرسان بنى عبس . فاذا ما كان الليل وتحارس الجيشان خرجت غمرة تدور بالخيام — لتحرس قومها — ، وخرج عنترة يحرس فرسانه فيلتقى

---

(١) السيرة مجلد ٤ ص ٢١

الاثنان مصادفة ويأخذان فى الحــرب دون ان يعرف احدهما الآخر .
ويستمر القتال بينهما طوال الليل والنهار الذى يليه ثم يتحاجزان فترة ليستريحا فتخفف غمرة ثيابها حينئذ يعرفها عنترة ويشــغل بجمالها فاذا ما التقيا بعد ذلك اسرها بينما هو مأسور بجمالها .

وهنا يعود بنا المؤلف الى تقاليد الفروسية العربية ونشهد قصة شداد وزبيبة تتكرر من جديد ، الا ان غمرة لا تمكن عنترة منها الا اذا قدم لها صداقا هو سيفه واطلاقها من الاسر . ولكن غمرة ما ان تعــود الى جيشها حتى تحاول الغدر بعنترة ، وينقذه اخوه شيبوب من هذه الهجمة الغادرة بحيلة من حيله فتسرع غمرة بالهرب .

وهكذا تنتهى هذه المغامرة بتغير كبير فى شخصية عنترة الذى نراه يترك وراءه جنينا فى احشــاء غمرة وقد عاد الى طبيعة الفارس المغامر الذى لا يعرف ارتباطا قدر ارتباط الساعة ، اما قصة عبلة فتنزوى لتترك مكانا لمغامرات مشابهة تجعل من عنترة غازيا للرجال والنساء معا .

والمؤلف لا ينتهى من هذه المغامرة حتى يدخل عنترة فى مغــامرة جديدة ، ذلك ان الغساسنة ارسلوا جيوشــهم الى الجــزيرة العربية لجعلها مسيحية تدين بدينهم ، بينما تحالف بنو عبس مع بنى فزارة ــ اعداء عنترة ــ وانضموا الى جيوش الغساسنة للقضــاء على عنترة . وهنا نلمح تغييرا آخر فى موقف عنترة الذى يحارب قومه ــ عبس ــ لاول مرة بعد ان حالفوا كل اعدائه واستجلبوا جندا من خارج الجزيرة لقتاله . وهذا التحول معناه ببساطة ان فارسنا قد تحرر ــ الى حد ما ــ من قيود القبيلة وأصبح يخضع أول ما يخضع لحكم اللحظة الراهنة فيأخذ مكانه بين من يظاهرونه مهما كانوا ، كما يأخذ مكانه ضــد من يعادونه من اى قبيلة كانوا .

ويناصر شيخ العرب دريد بن الصمة عنترة فى جهاده ضد النعمان الذى يحكم بامر كسرى ، ويصف لنا المؤلف لقــاء الجيشــين وصــفا تفصيليا بما فى ذلك من بطولات وخدع قتال وغدر وخيــانة من بعض العرب انفســهم (يمثلهم سنان) الذين اســتدعوا جيش الحارث بن المنــذر ملك النصرانية ووعــدوه بالنصر وبالثأر لولده بدر الذى قتله مقرى الوحش . ويلتقى جيش العــراق بجيش الشــام ، وفى اللحظة الحرجة ينادى بنو فزارة بالصليب ويغدرون بعبس وجيش العــراق منضمين الى جيش الحارث النصرانى فينتصر ويتقــدم فى الجــزيرة مستوليا على القبيلة اثر القبيلة مما يجعل عنترة يقول : « وحق ذمة العــرب الكرام ، ان قعدنا عن عبــدة الصلبان تملكوا البيت الحرام ، وحرموا على العرب المسير اليه ، ورموا الاصنام من عليه ، ويتغير ما نحن

عليــه من الاحكام ، وربما يطلبون منا الخــراج والعداد ، ويستخدمون الرجال والاولاد » (١) .

لم تعد المعركة اذن بين عنترة والفرسان كل يريد لنفســـه رفعة الشأن ، وانما اصبحت المعركة بين النعمان والحارث ، او بين العراق والشــام . وهى صدى للمعــركة بين كسرى وقيصر ، او بين الفرس والروم . عنترة فى هذه المعركة يمثل دور الجزيرة العــربية التى هى هدف كل هذا الصدام ، والتى تريد ان تخرج من المعركة محافظة على كيانها واستقلالها . فعساكر العــراق جاءوا ليهزموا عنترة ودريد . ودريد هذا هو المعمر الذى تجتمع عنده كل الصفات التى تؤهله لان يكون رمزا للعــرب وقيادتهم ، ووقوفه الى جانب عنترة انما ليثبت الحق الذى يدافع عنه عنترة ضــد جيوش العــراق ومن حالفوهم من الاعراب ، ويأتى جيش الشام لنشر النصرانية فيحطم جيش العــراق ويسير متوغلا فى الجزيرة العربية . بينما يســتعد عنترة ودريد ومن انضم اليهم من الفرسان للوقوف امام هذا الطوفان النصرانى .

ويترك المؤلف عنترة فى جزيرته العربية ليحكى لنا معركة بين كسرى وقيصر اجتمع فيها الافرنج والروم بقيــادة قيصر وحاصروا كسرى وحليفه النعمان ومن معهم من فرسان العرب امثال ذى الخمار (الذى قصد الى ديار النعمان بعد أن يئس من زواج غمرة اذ استخفت عن الانظار حينما بدأ الحمل بين عليها) وحجار بن عامر وعمرو بن معديكرب اللذين حينمــا شاهد ملك الشـــام قتالهما قال : « وحق الملك الجبار ، ان فرسان هذه الارض لم يقع عليها عيار ، ولو ان معى عشرة منهم ينصرون دين المسيح لكنت فتحت بهم سائر الامصار » .

ويصف لنا المؤلف معركة الايام التالية وكيف اسر ذو الخمــار وعمرو بن معد يكرب ، بينما ذهب كسرى الى بيت النــار ليقدم لهــا العبادة ويطلب منها النصر . وفى هــذه الاثناء كان عنترة قد تمكن من الظهور على جيش النصــارى وتعقبهم الى بلاد الشــام حيث خلص الاسارى وهدم الكنائس مما اضطر الملك الحارث الى طلب الصلح من كسرى ليسرع الى بلاد الشام ويواجه غزو عنترة لها . ولكن عنترة يهزم جيش الروم هزيمة منكرة ويخلص اخا الملك النعمان من الاسر ويأخذ الرهائن من الروم .

ويحتفى كسرى بدريد وعنترة وبعد هذا النصر الذى احرزه له ، فيصلح بين عنترة وذى الخمار ويخلع عليهم ويقيم لهم مجالس السمر وحلبات السباق والبراز التى استمرت اياما التقى فيها ذو الخمــار

---

(١) السيرة مجلد ٤ ص ٢٠٥

بجميع الفرسان فهزمهم ، واخيرا وقف امام عنترة واشار اليه برمحه طالبا منازلته امام كسرى ومن معه من ملوك . ويظهر عنترة على ذى الخمار ، ولكن سرعان ما يعلم أن الحارث قد عاد بجيوشه فيسير بنو عبس لملاقاته تاركين عنترة فى بلاط كسرى حيث يسمع بأمر حاتم الطائى .

وهكذا نرى ان المؤلف يمهد لشيء جديد فى حياة عنترة ، فهو بعد أن أثبت فضل الفرسان العرب على جميع الفرسان الآخرين ، وبعد أن هزم جيوش النعمان مرة ، وجيوش الروم والافرنج مرة ، وبعد ان اثبت فروسيته التى لا تقارن وذلك بهزيمته لذى الخمار ، نرى المؤلف يحاول أن يدخل فى حياته عنصرا جديدا بهذا الذى سمعه عن حاتم الطائى وقصة كرمه وحياته مع الجارية المشهورة التى جمعت بينه وبين زهير بن أبى سلمى والنابغة الذبيانى وعبيد بن الابرص وظلت تختبرهم واحدا اثر آخر الى أن وقع اختيارها على حاتم وعزمت على الزواج منه .

ثم يحكى لنا المؤلف بعد ذلك قصة أسر حاتم جاريته مارية على يد فارس عربى يدعى عتبة ، ويلقاهما عنترة فيخلصهما من ذلك الفارس الذى ما ان يعرف انه يواجه عنترة الفارس الذى شاع ذكره حتى يلقى سلاحه . ويعجب حاتم بعنترة فيستضيفه لحضور عرس اخته ويصحبه الى ديار بنى طى ، وهكذا يتم اللقاء بين اشهر كرماء العرب واشهر فرسانهم .

فالمؤلف — كما نرى — يحاول ان يجمع بين ابطال التاريخ العربى المعروفين وبين فارسه وأن يجعل له افضالا عندهم تزيد من قدره وترفع من ذكره وتؤكد مكانه بين مشهورى الجزيرة العربية . كما يحاول المؤلف ان يخلق فى القصة امتدادات يقدم لنا فيها جيلا آخر من فرسان العرب يرعاهم عنترة ويقودهم ، ذلك ان شيبوب يكتشف أخا لعنترة يدعى « مازن » وهو فارس كبير يعيش مع أمه مجهول النسب ، كما يكتشف قيس بن زهير ابنا مجهولا لاخيه مالك يدعى « مجيد » ، اما زوجة مقرى الوحش فتضع ابنهما « سبيع اليمن » . ثم يحكى لنا المؤلف قصة حب « مجيد باسماء » والدور الذى لعبه عنترة فيها واسره لميسرة — ذلك الفارس الذى وقف فى طريقهما — حتى قال له الملك النعمان حين علم بالقصة : « يا ابا الفوارس ، وانت مرامك ما تزال واقفا على حوائج العشاق وجمع شمل الحبائب بعد الفراق » (١) .

---

(١) السيرة مجلد ٤ ص ٣٨٨

ويذهب النعمان الى مكة ليفسر منا ما رآه على سطيح الكاهن ، وهناك يلتقى بعبد المطلب الذى يريد ان يفسر منا ما راه هو الآخر . اما منام عبدالمطلب بن هشام فتأويله ظهور محمد عليه السلام ، وتأويل منام النعمان كان تحذيرا من غزو يقوم به العجم على ارض العرب . ويقص عنترة منا ما رآه قبل منازلة « ميسرة » ذلك الفارس الذى تعرض لمجيد وحبيبته اسماء ، فكان تأويل المنام ان ميسرة هذا هو ابن عنترة من امرأة مجهولة من أولئك اللائى اعتاد أن يقع عليهن فى غزواته.

يموت كسرى ويتولى بعده ابنه « خداوند » الذى تغريه حاشيته بالمتجردة زوجة النعمان وبابنته الرباب فيسير بجيشه قاصدا الحيرة لاخذهما ، وحين يطبق عسكره على النعمان وجنده يظهر فارس لينقذهم هو « هانىء بن مسعود الشيبانى » بطل موقعة ذي قار المعروفة وذلك بعد ان التقى بعنترة فتبارزا ولكن اثناء قتالهما عرف بقصة النعمان فأسرع لنجدته .

ويظل المؤلف يحكى لنا قصة المعركة بتفاصيلها واحداثها وما دار فيها من مبارزات وشد وجذب حتى تنتهى بهزيمة جيش خداوند ، ويسير هانىء مع الملك النعمان الى ذى قار حيث تجتمع قبائل العرب مع النعمان استعدادا للجولة الثانية — ان شاء خداوند — بينما جمع ابن كسرى الجيوش من كل البلاد الخاضعة له وارسلهم بقيادة اخيه « شيرسان » حيث تدور موقعة ذى قار الشهيرة ، وعلى الرؤوس تلوح نبوءة لسطيح الكاهن تقول ان العرب سينتصرون على الفرس حين ينادون فى المعركة قائلين « يا آل محمد » فقد آن ظهور النبى العربى . وينتصر العرب بفضل بلاء هانىء بن مسعود وبفضل صيحتهم « يا آل محمد » اما عنترة فلم يشهد هذه الموقعة لانه كان قد خرج مغضبا من قبيلته بعد خلاف بينه وبين ملكها قيس ، وبينما هو فى الطريق اذا بكمين أعده له بنو فزارة بالاشتراك مع عدوه اللدود الربيع بن زياد فيقع اسيرا هو ورجاله .

ويترك المؤلف عنترة فى الاسر ليحكى لنا كيف ان شهرة هانىء فى موقعة ذى قار حفزت ذا الخمار على مبارزته ، وتساوت كفة الفارسين كما تساوت جراحهما ، الا ان اصحاب ذى الخمار اخذوهما الى كسرى الذى احتال على هانىء ووسطه فى الصلح مع النعمان وارسل معه وزيرا من وزرائه بخلعة للنعمان . وتنطلى الخدعة على النعمان الذى ما أن يحضر لكسرى حتى يسلط عليه فيلا يصرعه فيسرع هانىء الى الحيرة ليحمل أهل النعمان على الهرب من وجه كسرى ، فترحل زوجته — المتجردة — الى ديار عبس محتمية باخيها الملك قيس بن زهير .

اما عنترة فيستمر فى شرب كاس الذل فى اسر بنى فزارة الى ان تهاجم جيوش كسرى وحلفاؤه مدينة دمشق فتطلق ابنة الحارث سراح عنترة ورفاقه ،وسرعان ما يخلص عنترة دمشـق من الغازين ، وبذلك يعود الى الحـارث ملكه على يد اسيره الذى يعترف هو وبنو فزارة بفضله وفروسيته ورياسته .

وتأتى الاخبار باستعداد كسرى للسير بنفسه الى بلاد العـرب للقضاء على فرسـانهم فيهرع الجميع الى مكة ليتشاوروا مع الشيخ عبد المطلب .ويتفق الجميع على البعث الى كل فرسان العرب ليجتمعوا يدا واحدة ضد الفرس . وهنا يقف بنا المؤلف وقفة شـعرية طويلة يلقى فيها الفرسان جميعا ــ ومنهم عنترة ــ بأشعارهم وقصائدهم .

وتبدأ المعركة بين جيش الفرس ،وقد انضم اليه ذو الخمار ،وبين جيش العرب بقيادة عنترة . وتكاد هذه المعركة ان تكون قمة المعـارك التى خاضها فارسنا اذ تمثل موقفه مدافعا عن العرب ضد الفرس . يقع ذو الخمار اسيرا فى يد عبدالمطلب وذلك ببركة الكعبة ،والرب الذى يحميها بينما يصاب عنترة بكثير من الحراب ويقع فى الاسر كما وقعت عبلة من قبل ، وينقلان مع بقيـة الاسرى الى عاصمة كسرى وهنـاك تستحوذ عبلة على عقل « اردشير بن كسرى » فيظل يحتال عليها الى ان تقتله بعد ان خدعته ،واوهمته انها قبلت ان تكون له ، الا ان الملك قباز ــ اخا اردشير ــ يحميها من الانتقام طمعا فى ملك ابيه فيطلق سراح عنترة ورجاله الذين يسرعون الى ميدان المعركة ويهجمون على كسرى ويتمكن هانىء من قتله وبذلك تنتهى هذه المعركة بين الفرس والعرب .

وتبدأ مغامرة جديدة لعنترة مع فارس اسـود مجهول اسـمه « غصوب » كان يأسر النساء اثناء عودتهن من اسر كسرى مع شيبوب . ويفر هـذا الفارس من وجه عنترة الا ان قلب عنترة شـعر بشىء من الحيرة والبلبلة تجاه هذا الفارس .

هذا الموقف يكاد يكون قمـة من القمم التى يصـل اليها عنترة فى حياته ، فهو يزيل ملكا ويقيم ملكا آخر . الا ان قصة المعلقة تعـود مرة اخرى لتصبح حديث المجالس فى بنى عبس . ويترك عنترة لعبلة اختيار القصيدة التى يعلقها بينما يكتبها عروة بالفضـة والذهب . ويسرع الجميع الى مكة لعـرض الامر على الشـيخ عبد المطلب الذى يعدهم بالنصر . وعنـدما ينتهى الحج يجمع الشيخ عبدالمطلب الحجاج ويقبل عنتـرة بن فرسانه كما يقبل ملوك العرب واليمن ثم شـعراء المعلقـات .

ويقف المؤلف طويلا عند هذا المجلس يصفه بدقة وعناية اذ يعرض عبدالمطلب ما يريده عنترة من تعليق قصـيدته على الكعبة ، فيعترض

اليمنيون ويثور بنو عبس على اعتراضهم فيحمل الجميع السلاح وتوشك المسالة ان تنذر بالحرب الا ان عنترة يتصدر المجلس وقدركب حصانه وسل سيفه وطلب منهم ان يصلوه في ميدان القتال. ويلتقي عنترة بالفرسان فارسا فارسا فيقتلهم واحدا اثر الآخر ، بينما يصف لنا المؤلف لقاءه بكل منهم في دقة وعناية . ويخشى شعراء المعلقات على الفرسان من القتل فيتقدم طرفة بن العبد قائلا : « يا أبا الفوارس ، ما انت الا قد كملت بالشجاعة ، ولكن قد بلغني انك رجل معلول النسب، ولولا ذلك كنا قبلناك وسمعنا ما قلته من شعرك ، وفي فصاحتنا ادخلناك ، ولكن انت تعرف سنة العرب .. انها ما تدخل تحت أمر حتى تغلب » (١) . ويقرأ طرفة بن العبد معلقته لعنترة ثم يشتبكان في معركة قوامها السيوف فيأسره عنترة . وتتكرر نفس القصة مع جميع اصحاب المعلقات .. كل منهم يقرأ معلقته على عنترة ثم يدور بينهما براز ينتهي بأسره ، وبذلك اجتمع عند عنترة كل اصحاب المعلقات مصفدين في الاسر .

ويثور الامر بين اليمنيين والشماليين في معركة طاحنة يظهر فيها بين فرسان اليمن ذلك الغلام الاسود « غصوب » الذي يأسر كل فرسان الحجاز فيخرج اليه عنترة وهنا يكشف لنا المؤلف القناع عن هذا الفارس فاذا به ابن عنترة من غمرة ، فيقول عنترة : « وحق من ادار الفلك الدوار ، خالق الليل والنهار ، لو اردت قتل هذا الفارس الكرار ما كان ثبت في يدي ساعة من نهار ، وانا قد خطر في قلبي خواطر فطلبت اسره ولم أطلب قتله » (٢) .

ويعتبر المؤلف هذا الحدث مهما غاية الاهمية اذ يجعل لعنترة امتدادا زمنيا . وتتطور المسائل بين عنترة وهانيء بن مسعود فيلتقيان في مبارزة كبيرة امام المجتمعين ، وهما تارة يتبادلان الشعر وتارة يتبادلان القتال ، وتنتهي المعركة باقرار كل منهما لاخيه بالفروسية فيتعانقان في ود ويقول هانيء بن مسعود بطل موقعة ذي قار للشيخ عبد المطلب امام كل الفرسان المجتمعين : « يا ايها السيد عبدالمطلب ، وافضل من ضرب في البيد وتد ، ومد طنب ، اشهد علي اني قد اقسمت بالرب العظيم ، وزمزم والحطيم ، ان عنتر فارس الزمان ، واثبت مني جنان ، واخبر بمداراة الفرسان . ولقد عفا عني مرارا كما تعف الرجال عن النسوان » (٣) .

---

(١) السيرة مجلد ٥ ص ١٤٨
(٢) السيرة مجلد ٥ ص ١٨٩
(٣) السيرة مجلد ٥ ص ٢٠٨

وهكذا يصل عنترة الى قمة الفروسية ، ويقر له اشهر الفرسان المعروفين بالغلبة وعلو الشأن ، ويرتفع نسبه اذ يظهر له ولد من أكبر الفرسان هو غصوب بينما يستعد للنصر الادبى الكبير وهو تعليق قصيدته على الكعبة . فيسرع عنترة بفك أسر الشعراء أصحاب المعلقات ، يقف امامهم موقف الامتحان حيث يجعلون من انفسهم لجنة تسأل عنترة فى امر اللغة والشعر والمعارف العربية ، وتنتهى هذه اللجنة الى صلاحية عنترة ادبيا وحيازته على قمة الثقافة العربية — آنذاك — وبذلك تعلق قصيدة على البيت الحرام ويصل الى قمة ما يطمح اليه فارس عربى .

وقد كانت هذه الحادثة تستطيع أن تكون نهاية جيدة لقصة ترسم حياة فارس من فرسان العرب ، الا ان المؤلف لا يريد ان ينهى قصته عند هذا الحد ، ولهذا فاننا نعتبرها نهاية مرحلة من مراحل حياة عنترة ، ونقطة تحول فى شخصيته .

هذه المرحلة من مراحل تطور شخصية عنترة تمثل — فى واقع الامر — تحقيق مجموعة من الخصال والسمات لبطلنا العربى تكاد ان تجعله ملكا على الفرسان. وقد مهد له المؤلف لقاء مع مشاهير الفرسان فى تاريخ الجزيرة العربية ليدلل لنا على مكانة عنترة الجديدة التى استطاع فيها بفضل سيفه وبفضل فصاحته ان يحصل على ما لم يحصل عليه غيره من مجد وشهرة ، كما هيأ له المؤلف لقاء مع دولتين كبيرتين هما دولتا الفرس والروم فكان عنترة فى هذا اللقاء يمثل الجانب العربى دائما ويعلى من شأن الجزيرة العربية وملوكها ويثبت عاداتها وتقاليدها ويهزم اعداءها سواء كانوا من العراق والشام أو من الفرس والروم.

وعنترة — فى هذه المرحلة — يمثل الفارس العربى اذ تكتمل له مكونات الفارس خصائصه . فهو يبارز من اجل الشرف ومن أجل الكرامة ومن اجل النجدة والمروءة وهو يخوض المغامرة تلو المغامرة ليربط قلوب المحبين بعضها ببعض وقد وجد فى ذلك شرفا له ومتعة . كما ان المؤلف يجعله يلتقى باليمنيين — الجنوبيين — فى معارك لسانية واخرى حربية وكأنما ليثبت تفوق اهل الشمال على اهل الجنوب .

والمؤلف فى هذه المرحلة يعتمد على التاريخ الى حد كبير ، ولكنه لا يعتمد على تاريخ عنترة نفسه — كما رأينا فى المرحلة السابقة — وانما يعتمد على تاريخ الجزيرة العربية بأحداثها . فبينما كانت المرحلة الاولى صياغة روائية مبنية على الاحداث التاريخية لعنترة نجد ان هذه المرحلة رواية اسطورية لحياة العرب فى الجاهلية وما اضطربوا فيه

من احداث وما كان بينهم وبين الامم المحيطة بهم من مواقف ، ثم ذلك الخلاف الذى كان بين اهل الشمال واهل الجنوب ، وكذا مكانة الكعبة وقريش بين قبائل العرب، وما دار بين اللخميين اهل الحيرة والغسانيين اهل الشام من معارك وخلافات ، كما انها ايضا تصور مجالس الشعر عند العرب واهمية هذا الفن فى رفعة شأن قائله وقبيلته وقومه .

هذه المرحلة اذن تعتبر قصة عنترة فارس العرب بينما كانت المرحلة الأولى تعتبر قصة عنترة فارس عربى . فهو ان حقق فى المرحلة الأولى نصرا على أعدائه الذين يقفون أمام رغباته الذاتية من اعتراف بالنسب وزواج من عبلة ، فانه فى هذه المرحلة يتغلب على أعداء الجزيرة ويحقق نصرا للعرب على العجم وعلى الروم كما يحقق للشماليين نصرا على أهل الجنوب .

وحين تنتهى هذه المرحلة يكون عنترة قد اشرف على قمة من القمم ، ثم يبدأ مرحلة جديدة من مراحل تطور شخصيته تكاد المراحل أن تكون تمهيدا لها .

٣ ـ المرحلة الاسطورية

تبدأ هذه المرحلة بعد أن وقف المؤلف عند نهاية سعيدة تصلح ختاما لقصة ففى الوقت الذى وصل فيه عنترة الى قمة المجد وحقق جميع غاياته من صحة النسب والزواج بعبلة واقرار الفرسان له بالرياسة ثم تعليق معلقته على الكعبة . فى هذا الوقت بالذات يهرب عدوه القديم ذو الخمار من الأسر ويهاجم فرسان عنترة ويضرب هانىء بن مسعود ضربة مميته مما يوقع الخلاف بين عنترة وصديقه دريد بن الصمة ـ نسيب ذى الخمار ـ فينفصل عنترة عن شيخ العرب الذى كان يجتمع حوله الفرسان ويجعلون من سيفه رمزا لقوة الجزيرة العربية .

وفى نفس الوقت يدس الربيع بن زياد عند عبلة فتجمع صويحباتها فى ليلة ويسكرن عنترة حتى يفقد صوابه ، عندئذ تحاول عبله اظهار دالتها عند عنترة فتطلب منه ان يقبل قدمهـا امام الجميع ، ويحس عنترة بما فى هذا الطلب من مذلة وتحقير فينصرف غاضبا ويترك الديار هو وشيبوب وحدهما .

وهكذا يفقد عنترة الصلة التى تربطه بعبلة ـ كما فقد من قبل الصلة التى تربطه بدريد بن الصمة . وبهذه الاحداث المتوالية يمهد المؤلف للمرحلة الجـديدة فى تاريخ عنترة وللتطور الجـديد الذى يصيب شخصيته ، اذ سرعان ما يهاجم فى الصحراء هودجا فيه فتاة وحوله عشرة فرسان فيقتلهم ويأسر الفتاة ويتزوجها غصبا ثم يتركها ويترك معها شيبوبا الذى احب جارتها .

وفى الطريق يلتقى بنادبات بنى عبس يندبن ولديه ميسره غصوب وكذا سبيع اليمن الذين هاجمهم ذو الخمار مع صديق جديد له هو « جبار بن صخر الاسرائيلى » فارس حصن خيبر ، فاسرهم وعاد بهم الى الحصن . وكان ذو الخمار قد انطلق قوة للشر يحدوه الحسـد ويعتمل فى قلبه الحنق على عنترة واولاده

وينطلق عنترة الى الكعبة ليحكى للشيخ عبد المطلب ماجرى من غدر ذى الخمار وفى طريق العودة يلتقى بيهودى يخلصه من الأسر فيعده

اليهودى بالمساعدة لتخليص أولاده من حصن خيبر ويسبقه اليه حيث يتفق مع قائد الحصن على مكيدة يوقعون بها عنترة فى الاسر .

هذه — فى الواقع — هى المرة الأولى التى يجمع فيها المؤلف بين بطله وبين اليهود . ونحن نرى أنه يسم معركته معهم — منذ أولها بالصفة التى عرفها العرب عن اليهود وهى الغدر .

وتحضر غمرة وتستولى على الحصن وتخلص ابنها غصوب بينما كان عنترة قد نقل خارج الحصن فظل فى أسر اليهود الذين حاولوا مرارا الاستيلاء على الحصن من غمرة ، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك سواء بالحرب أو بالخديعة ، وحينما علم قيصر بأسر عنترة سارع بارسال جيش ليساعد « ميشا » قائد اليهود على استرداد الحصن ، ويشتد الامر على غمرة ورجالها المحصورين فى الداخل ، ولكن عنترة يستطيع التخلص من الأسر بفضل غصوب فيسرع هو وأولاده ومعهم عروة وشداد وابنه مازن ويتسللون الى الحصن متخفين وراء أشجار انتزعوها من شعب الجبل الذى كانوا مأسورين فيه ، ويأسر عنترة من الحصن ثم يحرقه بما فيه ويخرج فى الظلام لمهاجمة الجيوش المتجمعة فيهزمهم وبذلك يكون قد انتصر على كل من اليهود والنصارى مجتمعين . .

ويعود شيبوب ليخبر عنترة بأن زوجته وزوجة عنترة التى اسرها فى الصحراء قد تاهتا منه . وفجأة يصل ذو الخمار وصديقه اليهودى « جبار » بعد أن هاجما بنى عبس وأسرا رجالهم وأحضروهم الى الحصن . ويلتقى الفريقان فيقتل جبار اليهودى شدادا — أبا عنترة — بينما ينكسر ذو الخمار ويولى الادبار . فيقتل عنترة جبارا اليهودى ويخلص عبلة واسارى بنى عبس ، أما غمرة وغصوب فيسرعان خلف ذى الخمار ويأسرانه .

ويقيم عنترة مأتما لابيه شداد الذى يتبادل الجميع الاشعار عند قبره ، وتقف سمية — زوجة شداد — على رأس القبر تذبح الاسارى اليهود واحدا اثر واحد ، بينما تعتذر عبلة لعنترة عما بدر منها ، ويرسل عنترة الى دريد بن الصمة يخبره بما بدر من ذى الخمار كما يخبره بأسره .

أما « سروة » زوجة عنترة التى تاهت من شيبوب مع جاريتها التى تزوجها هو فتصل الى ديارها وقد بدا عليها الحمل كما بدا على جاريتها ، وتضعان معا ، وتحاولان التخلص من الامر فتنسبان الوليدين الى الجارية — زوجة شيبوب — حتى لا ينكشف امر القبيلة أمام الناس .

وتطلب غمرة ـ أم غصوب ـ من عنترة أن يذهب معها الى بلاد السودان لتخلص أموالها . وفى هذه الرحلة يمرون بمغامرات كثيرة رهيبة فائقة الروعة ـ من الناحية القصصية ومليئة بأحداث الفروسية والشجاعة التى يتبارى فيها عنترة وابناه غصوب وميسره وأخوه مازن وسبيع اليمن بن مقرى الوحش ، كما تمتلىء هذه المغامرات بسلسلة من الحيل التى يبديها شيبوب . ويستمرون فى تقدمهم يقتلون الملوك ملكا اثر ملك حتى تصل غمرة الى بلدها .

هذا اللقاء بين عنترة وبين السودان لقاء جديد فى نوعه بالنسبة لمغامرات عنترة السابقة . أو هو بمعنى آخر لقاء بين الساميين والحاميين ، يصبح عنترة فيه قائد جيش عربى يغزو بلاد السودان . ويأسر عنترة ملكهم « لون الظلام » وينتهى الأمر بينهما على المصالحة ، ويقتل عنترة أعداء هذا الملك ويفرض سلطانه على باقى بلاد السودان . وفى هذه المغامرة أكثر من قصة حب يلعب فيها عنترة دور الفارس الذى يوفق بين الأحبة ، ويقضى على كل من يقف فى طريقهم ، كما أن المؤلف يستعمل فيها كثيرا من الالفاظ السودانية بحذق ولباقة .

ويلتقى عنترة بشخصية خرافية هى « الشيطانة داهية صاحبة حصن الغمام » وهذه الشيطانة من الجان وتحكم حصنا من عهد حام ابن نوح . وتدور بين عنترة وبين هذه الشخصية الخرافية معركة عنيفة تنتهى بأن يدمر عنترة حصنها ويقتلها هى وابنها .

ويستمر عنترة فى توغله حتى يصل الى بلاد الحبشة ، وهناك يلتقى بأخواله كما يلتقى شيبوب بأهله فاذا به ابن الملك « غوار » أحد ملوك الأحباش ، فيتم الصلح بين عنترة والملك غوار ويبطل بينهما القتال . وكان ملوك السودان يدفعون الخراج لملك اسمه «الدهمار» ، ويأتى رسوله يطلب الجزية من أصحاب عنترة فيقتله عنترة وتقع الحرب بينه وبين الملك الدهمار ، فيأسره عنترة ويذهب ابنه غصوب ليقتله فيكتشف فيه علامة من الخرز يسأله عن سرها فيخبره غصوب ان أمه غمرة قد أعطته اياها ، وينتهى الأمر باكتشاف أن الملك الدهمار هو خال غمرة ـ أم غصوب ـ ويتم الصلح بين عنترة والملك الدهمار

وهنا نلاحظ ان المؤلف يؤكد علاقة العرب بالسودان والأحباش تلك العلاقة التى تقوم على النسب واختلاط الدم . الا أن مغامرات عنترة فى هذا الجزء من العالم لا تنتهى عند هذا الحد اذ أن الملك الدهمار كان يعطى الخراج للملك النجاشى ، وهكذا كان لابد من لقاء بين عنترة والنجاشى . « وكان الملك النجاشى وهؤلاء الملوك كلهم أولاد

عم . وكانت أم عنترة ــ زبيبة بنت النجاشى ملك الحبشان ، وكان ملك الحبشان قد زوج أمها بالملك بسام وهو أبو الملك همام ، وان الملك النجاشى هو جد زبيبة من الأبوين ونسبهم الى حام بن نوح عليه السلام ، وقد غدر بزبيبة الزمان وحكم عليها القدر أن تقع فى يد العربان ، وأرسلها الى بنى عبس وعدنان ، واخذها شداد وأتت منه بعنتر » . (١)

وبذلك يثبت المؤلف نسب عنترة من أبيه وأمه ، ويؤكد علو شأنه اذ أن جده لامه هو النجاشى ، فهو وان كان عبدا فى اللون الا انه ليس عبدا فى النسب . ويعود عنترة من هذه الرحلة وقد حصل على مغنم شخصى كبير هو صحة نسبه ، والعلاقة التى تربطه بملوك الأحباش الذين وضعهم هو على عروشهم ، ثم بتحقيق فروسيته على كل فرسان السودان والحبشة لا سيما بعد قتله لفارسهم الاكبر « العبد زنجير » فى مبارزة دامت سبعة أيام كاملة .

والواقع أن هذه الرحلة لها أهميتها الكبرى فى رسم التطور الجديد الذى طرأ على شخصية عنترة ، فهو هنا أصبح رمزا لعلو شأن العرب وارتفاع أمرهم ، وما هذه الرحلة فى بلاد السودان وفى بلاد الاحباش الا دلالة على ما للعرب من قيمة كبيرة تجعل لهم السيادة على غيرهم من الامم . والحقيقة ان الجزيرة العربية ــ فى علاقتها مع الحبشة ــ كانت دائما هدفا للغزو من جانب الاحباش الذين فتحوا اليمن أكثر من مرة وحاولوا غزو الحجاز ذات مرة . والمؤلف هنا يربط فى النسب بين العرب وبين الأحباش ، وهو فى مغامرات عنترة معهم لا يحط من قدرهم كفرسان وان كان ينهى المسألة دائما بغلبة عنترة العربى عليهم

ويرجع عنترة من رحلته محملا بالغنائم والاسلاب ، ولكنه ما أن يعود الى أهله حتى يكون قد ظهرفى الجزيرة فارس مهول من بنى كنانة يدعى « ربيعة بن المكدم » . وقد تمكن هذا الفارس من اسر عمرو بن معديكرب وهزيمة ملوك اليمن والاستيلاء على مدنها ، كما تمكن من زواج هند بنت الملك قيس وهى الفارسة التى قتلت كل من تقدم لها اذ كانت تشترط منازلتهم فهزمها ربيعة وتزوجها . ويستمر المؤلف فى تصوير رفعة شأن ربيعة هذا وازدياد خطره فى الجزيرة الى أن يأسر دريد بن الصمة ثم يطلق سراحه لمقامه بين العرب ويفترقان على صلح واخاء ، وقد تقدم ربيعة بين الفرسان درجات .

---

(١) السيرة ــ مجلد ٥ ص ٤٠٢

ويلتقى عنترة بهذا الفارس لقاء رهيبا يقف عنده المؤلف طويلا ليصف لنا ما لاقاه كلا الفارسين من اخيه كما يصف لنا ما أبداه كل واحد من فنون الحرب والقتال ، ثم يعرض لنا موقفا لعنترة اذ ينكسر سيف ربيعة فلا يقتله وانما يعطيه سيفا آخر ليستمر فى القتال فيقع هذا الأمر من ربيعة موقعا كبيرا ويتصالح مع عنترة مقرا له بالفروسية والشهامة ، ويطلق سراح عمرو بن معديكرب . بينما يطلق عنترة سراح ذى الخمار لانه وعد دريد بن الصمة بذلك . وهكذا يعود عنترة الى التربع على عرش الفروسية العربية .

ويغدر بربيعة فارس اسمه « نبيشة » فيقتله . وتلجأ أم ربيعة وزوجته الى عنترة الذى يطارد نبيشة ويقضى على كل قبيلة تجيره حتى يتمكن منه ويأسره . ويعود عنترة بأسيره الى قبر ربيعة حيث نشهد صورة غريبة للانتقام والأخذ بالثأر . فالأسير مكبل بالحديد يقف عند رأس القبر ، ونساء بنى كنانة يقبلن ضاربات بالدفوف والمزاهر وفى مقدمتهن أم ربيعة التى ما أن تقترب من عنترة حتى تضمخه بالزعفران ، ويتقدم عنترة من الأسير فيمدده فوق القبر ويذبحه ، ثم يقدم له شيبوب باقى الاسارى فيذبحهم بنفس الطريقة واحدا اثر الآخر ، ويقيم على قبر ربيعة عشرة أيام فى حزن وبكاء . ويحكى المؤلف أن أمه وزوجته واخوته بقين على القبر يبكين بعد رحيل عنترة الى أن متن جميعا ودفن فى القبر ولم تبق منهن سوى احدى اخواته التى تزوجها عنترة .

وتبدو فى هذه الصورة مدى القسوة التى أصبح عنترة يجابه بها خصومه ، ومدى العنف الذى أصبح يطلب به الانتقام . كما تبدو فيها ظاهرة أخرى وهى أن عنترة قد زايلته طبيعة العبد الخائف المتردد الذى يخشى أن يقدم على أمر دون الرجوع الى أصحاب الشأن فيه واصبح يقضى فى كل أمر بنفسه دون وجل أو تردد .

وينتقل المؤلف بقصته بعد ذلك الى بلاد فارس ، حيث أرسل كسرى يستدعى عنترة وابنه غصوب ، ويقضى الضيفان أياما سعيدة فى بلاط كسرى الى ان تأتيه الاخبار بأن الجزية التى يدفعها له قيصر قد اعترض طريقها فارس أسود يدعى « الغضبان » بعد أن قتل فرسان الروم . فيخرج اليه غصوب ولكن الغضبان يأسره . ويظل المؤلف يرسم لنا صورا من بطولة الغضبان واعتماده على عبد معه اسمه « الخذروف » الى أن يلتقى بعنترة ، فيتبادلان الشعر أولا ثم يستمر القتال بينهما عدة أيام اذ تتكسر فى أيديهما السيوف والرماح فيتصارعان بالأيدى ، بينما تتم فى نفس الوقت معركة أخرى بين شيبوب وبين الخذروف — عبد ذلك الفارس — وأخيرا يتمكن عنترة

من أسر الغضبان ويهرب عبده الخذروف الذى لا يلبث أن يعود ومعه أم الغضبان لتكشف عن سره فاذا به ابن عنترة من سروة تلك الفتاة التى أسرها فى الصحراء وتزوجها ، واذا بالخذروف بن شيبوب من جارية سروة التى تزوجها هو الآخر .

وهكذا يصبح لعنترة من الاولاد ثلاثة : الغضبان وغصوب وميسرة ، وهؤلاء يمثلون الجيل الجديد من الفرسان الذين يقتدون بالمثل الأعلى عنترة ، كما يمثل الخذروف امتداد شيبوب ، وبذلك أصبح لعنترة فرسان من صلبه ، يرافقونه فى معاركه ويذودون عنه فى فخر واعتزاز بابوته ، ويتزعم الغضبان اخوته ويصبح الخليفة الطبيعى لعنترة .

ويعود المؤلف هنا الى حروب طويلة يشترك فيها أبناء عنترة ليصف قدرتهم وفروسيتهم وتغلبهم على الملوك والفرسان ، محققين — تحت قيادة عنترة — النصر على قبائل الجزيرة مرة وعلى ملوك اليمن مرة وعلى شداد الفرسان أمثال عفريت السواحل وسليك بن سلكة ، وعنترة فى كل ذلك يجير من يستجير به ويحمى الطريق لقوافل العربان .

وينتقل المؤلف بقصته نقلة أخرى اذ يقع العداء بين أبناء عنترة وبين فارس اسمه « عبد هياف » ، فيستنجد هذا الفارس بصديقه الملك الاخضر ملك الهند والسند الذى يسير بجنوده نحو الجزيرة العربية . ومرة أخرى يجتمع العرب عند عنترة ليقاوموا هذا الغزو الأجنبى ، فيكونون جيشا كبيرا على راسه دريد بن الصمة — شيخ العرب — وقائده عنترة بن شداد فارس العرب .

ويلتقى الجيشان ، وتدور المعارك جماعية مرة وفردية مرة ، وأخيرا يقع عنترة فى أسر عبد هياف ويشاع فى جيش العرب أنه قتل ، فينكسر بنو عبس ، ويسير عبد هياف الى كسرى وقد حسب انهانتهى من امر العرب . ويتحصن كسرى وراء أسواره بينما يسير الغضبان وراء جيش عبد هياف كالمجنون يريد أخذ ثأر أبيه . وسرعان ما يعيد العرب جمع صفوفهم ويذهبون لقتال جيش الهنود ، ويلتقى الغضبان بالملك الاخضر الذى يكاد أن يظهر عليه لولا تدخل فارس أسود يفصل بينهما ويقتل الملك الاخضر ، واذا بهذا الفارس هو عنترة الذى كان قد أصيب بجراح وطعنات ذهبت بلبه فتركوه بين القتلى ، ولكن بعض العربان اخذوه وطببوه ووجد عندهم شابين مال اليهما وسألهما عن نسبهما ، فقالا له : انهما ولدا عنترة من أخت ربيعة بن المكدم ، فأخذهما وسارا بهما لنصرة العرب على جنود الهند . وهنا يقول المؤلف : « ولما

بلغ صاحب الرسالة عن عنترة وشجاعته وما فعل وما فتك فى الجاهلية قال : « والذى بعثنى بالحق نبيا لو كان عاش عنترة وأتى الى وأسلم على يدى لسددت به ركنا فى الاسلام . » (١)

فالدور الذى يقوم به عنترة هنا هو سد ركن فى كرامة العرب وهيبتهم ، اذ يلتقى عنترة بعبد هياف لقاء يفيض المؤلف فى وصفه وينهيه بالمصالحة بين الفارسين بعد أن عرف كل منهما قدر صاحبه — فيعترف عبد هياف لعنترة بالفروسية ويخلع عليه ، ثم يسحب جيوشه ويعود الى بلده ، ويخلع كسرى على عنترة كذلك لما أحرزه من نصر .

هذه المعركة الجديدة فى حياة عنترة ترسم لنا لون العلاقة التى كانت تجمع العرب بالهنود ، فهى تحمل التوقير والاحترام من جانب العرب لحضارة الهند ، كما تبين فى نفس الوقت اعتداد العرب بأنفسهم وشجاعتهم ومقدرتهم على أن يتساووا مع تلك الحضارة العريقة . فعنترة هنا يمثل الشعب العربى كله فى اصراره وعزمه وشجاعته وبأسه ، فالنصر الذى يحرزه هو نصر صلح يحمل معنى الاقرار للعرب بالبطولة والمساواة .

وما أن تنتهى معركة عنترة مع الهنود حتى نشهد جيشا آخر يزحف على بلاد العرب قوامه الاحباش والسودان قاصدين الأخذ بالثأر . ويصف لنا المؤلف هذه المعارك الجديدة التى تتم طبقا « لتكتيك » حربى خاص ، يقوم على الحصار وحفر الخنادق وترتيب الكمائن وارسال دوريات الاستكشاف . وتنتهى هذه الغزوة بهزيمة الملك « يكسوم » ملك الاحباش . ويسير عنترة على رأس بنى عبس وراء فلول جيش يكسوم الى بلاد الحبشة حيث يدكون الحصون ويقتلون الفرسان . وفى بلاد الحبشة يصطدم عنترة بملك آخر يدعى « طود الاطواد » الذى يستنجد بامه وهى فارسة شجاعة تقول عنها القصة .. ان أمها كانت جنية وأباها أنسى ، فتسير بجيشها فى البر والبحر الى أن تلتقى بعنترة الذى يهزمها ويقتل ابنها طود الاطواد .

ويستمر عنترة فى سيره قاصدا بلاد الجزائر حيث ولداه فى الأسر ، فيفك اسرهما بينما يقع عروة بن الورد فى غرام فتاة يتزوجها فاذا بها « ودعه » أخت طود الاطواد التى قبلت هذا الزواج لتهرب من زواج لا تريده كان أخوها يريد أن يتممه ليخطب ود مارد مارق اسمه « سمور » . وتقبل ام طود الاطواد وتلجأ الى السحر فتسلط منه على جيش عنترة الوانا تحيرهم ، ولكن زوجة عروة — وهى ابنة هذه

(١) السيرة — مجلد ٦ ص ٢٥٢

الساحرة وتعلم علمها ـ تبطل سحر أمها . وينتصر جيش عنترة بعد قتل أم طود الاطواد ويعود الجميع الى أرض بنى عبس مرة أخرى .

وما أن يصل عنترة الى الحجاز حتى يعلم أن « المستوعر بن ربيعة البارقى » قد أنزل قصيدته من مكانها فى الكعبة متحديا بذلك عنترة فيسير عنترة اليه ويقتله هو ومن ناصره من فرسان اليمن ويعيد القصيدة الى مكانها فى حفل رهيب دعا اليه جميع قبائل العرب ، وأقام لهم الولائم والافراح .

وتكاد هذه أن تكون نهاية أخرى للسيرة ، فعنترة قد أصبح على راس الجزيرة كلها يرد عنها الأعداء ويحمى أرضها وكرامتها ويمنع عنها الغزاة ، غازيا سواء جاء من الهند أو جاء من الحبشة أو جاء من بلاد الفرس أو بلاد الروم . وعنترة ـ تلك الشخصية التى تصل فى مثل هذه المرحلة الى حد الرمز ـ يمثل فى مغامراته قمة الفروسية العربية من حيث السمات الشخصية ، ومن حيث السمات العامة . وهو كذلك يقضى على كل من يعارضه بمنتهى البطش والعنف . فاذا ما أعاد قصيدته الى مكانها على الكعبة ، فانما يعنى ذلك تتويجا له على فرسان الجزيرة وشعرائها يكمل التتويج الأول الذى انتهت به المرحلة السابقة .

وهكذا تنتهى هذه المرحلة من مراحل تطور شخصية عنترة بسماتها وخصائصها ، التى تجعل من شخصية عنترة رمزا أسطوريا بالمعنى الكامل ، وتجعل من أهداف عنترة اهدافا موضوعية لا ذاتية . والواقع أن عنترة فى هذه المرحلة ـ حتى من ناحية السن ـ يصل الى درجة النضج الكامل ، ويأخذ مكان المربى والمشرف على فرسان جدد هم أولاده الذين يعتبرون امتدادا طبيعيا لشخصيته وفروسيته .

وما تكاد هذه المرحلة تنتهى حتى نحس بأن عنترة قد وقف عند القمة فعلا ، وأن الطريق الوحيد أمامه فى الحياة هو الانحدار مرة ثانية من السفح الآخر للقمة ، وهذا ما سوف نتبينه بوضوح فى المراحل التالية من حياة عنترة .

٤ — المرحلة الملحمية

تبدأ هذه المرحلة بشيء جديد فى حياة عنترة ذلك هو قتل ابنه الغضبان على يد بعض فرسان الجان . بينما يهرب عنترة وجنوده من الوادى المسحور الذى يحميه هؤلاء الفرسان . وتبدأ مرحلة من الأحزان والرثاء والشعر الباكى على ابنه ، ويعيش عنترة فى بيت خاص اسماه « بيت الاحزان » حيث يقصده الأصدقاء معزين فى ولده . ويخرج عنترة بجيش مهول من بنى عبس ليبحث عن قاتل الغضبان بين الفرسان ، فيدور على القبائل قبيلة قبيلة ، وكلهم ينضمون اليه فى البحث عن قاتل ولده ، ويتأكد عنترة ان قاتل ابنه ليس من العرب .

وهنا أيضا تلتقى القصة بفارس بنى نبهان « وزر بن جابر » الملقب بالأسد الرهيص ، — وهو الذى سوف يقتل عنترة فى النهاية — فيحكى لنا المؤلف حياة وزر ومغامراته وطغيانه الى الحد الذى دفعه — بعد أن هزم جميع الفرسان — أن يجعل من كبش له رسولا منه عند القبائل يدفعون له الجزية ، كما أنه سبى أخت عمرو بن معديكرب وتزوجها .

ويعلم عنترة بأمر الكبش الذى يذل العرب جميعا ، ويدس الربيع — كالمعتاد — عند عبلة فتهدد عنترة بالمقاطعة ما لم يقتل الكبش ويأسر الأسد الرهيص . وتجمع الظروف بين عنترة ووزر فيأسره عنترة هو وقومه ولكنه يطلق سراح زوجته اكراما لاخيها عمرو بن معديكرب فتسرع « ريحانة » الى أخيها عمرو وتوسطه عند صديقه عنترة فيطلق سراح زوجها اكراما لصديقه كذلك . ويسير وزر وفى قلبه حقد أسود ، جعله يضمر الشر . ويؤلب القبائل على عنترة . وما ان يخرج عنترة لاحدى غزواته حتى يهجم الاسد الرهيص على ديار عبس فيستولى عليهم ويأسر فرسانهم ويسبى نساءهم .

اما عنترة فقد ساقته المغامرات الى أرض اليمن مرة أخرى ، فيصول ويجول ، ويرسل أخاه شيبوب ليستطلع أمر بنى عبس فى الغياهب ، فيعلمه بما حل بهم على يد الاسد الرهيص فيسرع عنترة عائدا ليغزو بنى النبهان فيهزمهم ويأسر الاسد الرهيص مرة ثانية . وتسرع

ريحانة ـ زوجة الاسد الرهيص ـ الى اخيها عمرو بن معديكرب . وحين ينصب عنترة لوزر بن جابر خشبة ليصلبه عليها بعد أن اشفى نفسه بتعذيبه اشد العذاب ، يصل عمرو ليتوسط فى الاسد الرهيص مرة أخرى فيطلق عنترة أسيره اكراما لصديقه .

ويعرض الاسد الرهيص بعد ذلك لأحد أبناء عنترة الفرسان ثم يتبعه بأسر شيبوب ـ أخى عنترة ـ ويخشى بنو نبهان ـ قوم وزر ـ سطوة عنترة فيطردونه من بينهم ، فيخرج الأسد الرهيص ليجمع كل القبائل المعادية لعنترة ، ولكنه مايلبث عند اللقاء أن يأسره عنترة مرة ثالثة . وحينما يهم عنترة بقتل الأسد الرهيص يصل عمرو بن معد يكرب متشفعا كالعادة . فيقرر عنترة أن يطلق سراح اسيره ولكن بثمن رهيب ، وهو أن يسلبه نور عينيه ، وبالفعل يكحل عنترة عينى الأسد الرهيص برمح محمى ، ثم يطلق سراحه بعد أن يقرر له راتبا سنويا يغنيه عن التكسب . فيسير الاسد الرهيص وقد اشتعل قلبه حقدا على عنترة

ويغدر بنو فزارة بغصوب ـ ابن عنترة ـ فيقتلونه ويسرعون بالهرب محاولين أن يستجيروا بقبيلة من القبائل الا أن الجميع يخذلونهم . وما يلبث عنترة أن يلحق بهم ، ويأسر منهم عددا كبيرا ينحره على قبر ابنه غصوب ويعود الى بيت الاحزان مرة أخرى .

ويهرب من بقى من بنى فزارة الى الملك الاسود ـ الذى تربطه بهم صلة نسب ـ فيرسل خطابا الى الملك قيس بن زهير يأمره فيه بارسال عنترة وولده ميسرة مأسورين اليه ، ويدبر قيس مؤامرة لاسر عنترة الا أن عنترة يكشف امرها فيقتل المتآمرين ويرحل عن ديار عبس مغضبا . وينضم قيس ـ بقبيلته ـ الى الملك الاسود الذى ينصبه ملكا على الحجاز واليمن ويتزوج من اخته المتجردة ـ زوجة النعمان سابقا ـ فيسرع عنترة بمهاجمة قيس متخفيا ويستولى على امواله ، ثم يتقدم الى أرض العراق للانتقام من الملك الاسود ، بينما يضطر الملك قيس الى مصالحة عنترة ، ويسير معه لحرب الملك الاسود فيغضب الملك الاسود ، ويأمر بخنق المتجردة ، ويستدعى ذا الخمار استعدادا لمواجهة عنترة وتدور المعركة رهيبة قوية حاسمة ، يقف المؤلف عندها طويلا ليصف أطوارها وفصولها وليذكر قصة الربيع بن زياد الذى خان عنترة وأخذ يتجسس عليه لحساب الملك الاسود وأخذ يداريه ويتملقه وعنترة لا يظهر له أنه قد عرف بأمر خيانته . كما يقف المؤلف وقفة طويلة عند لقاء عنترة بذى الخمار مرة أخرى ، ثم مايلبث عنترة أن يأسره .

وأخيرا تحل الموقعة الفاصلة التى يخرج فيها الملك الاسود بنفسه

ومعه الملك هامان أحد ملوك الفرس . ويتمكن الملك هامان من أسر عنترة وصديقه عروة بن الورد ويرسلهما الى الملك الاسود ، ولكن عنترة يستطيع التخلص من الاسر بفضل الوزير عمرو بن نفيل ــ وزير الحيرة وأحد محبى عنترة ــ وبفضل حيل شيبوب ، فيعود الى المعركة فى الوقت المناسب ، ويقتل الملك هامان ، ويهزم جيش الملك الاسود الذى يسرع الى كسرى مستنجدا ، فيجيش له كسرى جيشا بقيادة المرزبان بينما يتصالح عنترة مع ذى الخمار ، ويخوضان المعركة معه فيهزمان جيش الملك الاسود مرة ثانية .

ويحل بكسرى فى ذلك الوقت بلاء داهم ذلك أن عامله « شروين » قد امتنع عن دفع الخراج وأخذ يستقطع لنفسه الولايات ، فيشير وزير كسرى عليه بأن يصالح عنترة حتى يقضى له على شروين . ويتم لهم ما أرادوا ، اذ يذهب عنترة الى شروين ــ الطامع فى ملك كسرى ــ فيأسره ويعود به فيخلع عليه كسرى ويكرمه ويصلح بينه وبين الملك الاسود .

هذه المعركة فى بلاد الفرس معركة لها دلالتها ، اذ تبدو وكأنما هى بداية النهاية ، فقد وصل الامر بعنترة فيها الى حد اقامة ملك كسرى ، بعد أن أوشك على الانهيار . كما يضع المؤلف فيها بذورا لعوامل الشيخوخة التى تدخل حياة عنترة ، ولعوامل تحطيم تلك الشخصية . فبعد أن فقد عنترة ولدين من أولاده لايلبث صديقه بسطام أن يقتله فارس من بنى رميش ، فيسرع عنترة بأخذ ثأر صديقه فيقتل الملك الهيلقان ــ ملك بنى رميش ــ ويأسر الكثير من فرسانهم ليذبحوا قرابين على قبر القتيل ، بينما أخذ عنترة وهانىء وغيرهما من الفرسان يتبادلون القصائد فى رثاء بسطام .

ويتبع ذلك نكبة جديدة تحل بعنترة اذ يقتل صديقه عروة بن الورد على يد حسان بن ثابت فى ثأر له ، فيعود عنترة الى أحزانه ويسرع الى ديار حسان ــ فى بنى ضبيان ليخوض معركة ثأرية يأسر فيها ستمائة أسير يذبحهم على قبر صديقه ، وبعد ذلك لحق بحسان فقتله وعاد بالاسلاب ، ولكن بعد أن مات مازن فى هذه الموقعة ... « ولما حضر (عنترة) الى الاوطان ، قام اليه الملك قيس والتقاه ، وفى اخيه مازن وصديقه عروة عزاه ، فشكره عنترة واثنى عليه ، ومن شدة غيظ عنترة قطع الركوب والمنادمة ولزم بيت الاحزان على فقد عروة ومازن وما كان له من غصوب والغضبان ، فاستقام على ذلك مدة من الزمان » .(١)

وكان لقعود عنترة فى بيت الاحزان اثره على القبيلة ، اذ قل

(١) السيرة ــ مجلد ٧ ص ٣٠٩

مالها ، مما اضطر ميسرة الى الخروج على رأس فرسان عبس للغزو والسلب ، فيقعون على عروس من بنى طى كانت تزف الى فارس من بنى كنده ، فيخاف الملك قيس أن تجتمع عليه القبيلتان ، ويطلب من عنترة اعادة الاسيرة واسلابها ، ولكن عنترة يرفض ويخوض الحرب ضد القبيلتين — والملك قيس قد امتلأ رعبا وفزعا . وما أن ينتصر عنترة حتى يقرر الرحيل نهائيا ، لما بدا له من خوف الملك قيس وماعاناه من دسائس الربيع وأخيه عمارة . فيدعو عنترة عمه مالكا ، ويسلمه أموال عبلة وأمواله ويخرج بمفرده قاصدا دمشق عند الحارث بن وهاب سيد بنى غسان .

سر أعداء عنترة برحيله ، ولكنه ما أن وصل حتى وجد معالم الحزن تسيطر على دمشق ، ذلك أن الحارث قد قتل ، فيحضر عنترة تتويج عمرو بن الحارث على ملك أبيه ، ويحظى عنده بمكانة كبيرة . وفى هذه الاثناء يتآمر الملك الاسود مع كسرى على غزو دمشق ، الا أنهم مايعلمون بوجود عنترة فى بلاط عمرو بن الحارث ، حتى يتراجعوا عن عزمهم .

وفى هذا الوقت ، يطمع أحد الخارجين على قيصر — وهو فارس مشهور اسمه «هابيل» فى ملك عمرو بن الحارث، استصغارا منه لشأنه وجهلا بمكانة عنترة . فيخرج اليه عنترة ويقتله ويجلس الحارث على ملكه . ويصل خبر ذلك الى قيصر الذى يستدعى عنترة ، فيذهب اليه بمصاحبة عمرو بن الوهاب ومعهما شيبوب والخذروف .

ويصف المؤلف موكب عنترة فى عاصمة قيصر ، كما يصف تصرفات عنترة فى هذه المدينة التى تعتبر مركزا حضاريا جديدا بالنسبة لعنترة ، ويقف كذلك عندما دار بين عنترة وقيصر من حوار .. يقول عنترة لقيصر حين يسأله عن نسبه : « من بنى عبس الكرام الضاربين بالحسام، المسمين بين الأنام بفرسان المنايا والموت الزؤام . وأمى بنت الملك النجاشى سلطان الحبش والسودان ، وأبى سيد من بنى عبس وعدنان . وانني أخذت بنت عمى عبلة وملكتها بالحسام المشطب ، وأدخلت روحى فى الحسب والنسب ، وتزوجت بابنة عمى ، ولكن ماتزوجت بها حتى قتلت خلقا كثيرا من أجلها ، والآن جميع الملوك والفرسان اذا سمعوا ذكرى يفزعون من شجاعتى ويخشون سطوتى . » (١) — ثم يصف المؤلف بعد ذلك حلبات السباق التى أقيمت ليظهر فيها عنترة مقدرته وفروسيته أمام قيصر . كما يصف أفعال شيبوب والخذروف .

ويرسل قيصر الى عنترة جارية رومية من سرارى الملك الخواص

---

(١) السيرة — مجلد ٧ ص ٣٣٦

فيقبل عليها عنترة فى سكره ولكنه حين يفيق يغضب لأنه لايريد من نسله احدا فى بلاد الروم . وفى اليوم التالى تختفى هذه الفتاة ، اذ يخطفها فارس اسمه « كوبرت » ويبحر بها الى دياره .

ويصل الى قيصر رسول من الملك «الليمان» ملك البحر والجزاير يطلب منه أن يرسل عنترة مقبوضا عليه ، ليأخذ منه ثأره والافهو يهدد بفتح القسطنطينية . فيعلن قيصر رفضه للتهديد ويجهز خمسمائة مركب حربية يقودها عنترة ومعه ولى عهد قيصر « الملك هرقل » بينما يسير الملك الليمان بأسطوله لفتح القسطنطينية . ويلتقى الاسطولان فى البحر وتدور بينهما أول معركة بحرية فى السيرة يصفها المؤلف وصفا دقيقا . وتنجلى المعركة عن هزيمة الليمان ، بينما يستمر عنترة وهرقل فى طريقهما حتى ينزلا الى البر . وتبدأ معارك عنترة فى بلاد الجزائر ، والافرنج ينهزمون أمامه حتى يقتل ملكهم .

ويلتقى عنترة بجيش « سرجوان » ابن الملك الليمان فيقتله ويهزم جيشه ويأسر قائده « كوبرت » . وذات مساء يخرج عنترة مع شيبوب فيلمحا أن ضوءا يتجهان اليه فيسمعان حوارا بين امرأتين موضوعه عنترة وأسره لكوبرت ، ويجد عنترة فى احدى المرأتين « مريم » الجارية التى كان قيصر قد أهداها له ، فيقضى معها أياما سعيدة بينما يقع هرقل فى غرام الملكة « ميرمان » ابنة الملك الليمان ويتزوجها . وبعد ذلك يرضى كوبرت بالصلح ويدعوهم الى قصره حيث يلتقى عنترة بتمثال لفارس ضخم يركب فرسا كبيرا ، وهو موضوع بحيث يحمى المكان . . . « فهو صورة من النحاس الاصفر قد احكمته حكماء اليونان ، من قبل هذا الزمان . » (١) — فيقف عنترة مذهولا أمام تلك القطعة الفنية يتعلم كيف تعمل .

وفى بلاد الجزائر يلتقى عنترة بجيش الملك الصافات فيقتله ، الا أنه يجابه ظاهرة غريبة عليه، ذلك أن ماء يظهر ليحمى انسحاب جيوش الملك الصافات هو الماء المطلسم ، ولكن راهبا فى دير الصنم — الذى هو أقدم الاديرة ، وراهبه أقدم الرهبان — يكتشف فى وجود عنترة — الفارس العربى — فى بلاد الجزائر مصداقا لما عنده فى الكتب عن أحداث ستتم آخرها عند ظهور محمد عليه السلام . فيعلم أن أوان هذا الماء المطلسم قد انتهى ، ويخبر هرقل بكيفية ازالته ، فيكسرون الطلسم ويعبرون الماء ويستولون على البلاد ويضمونها الى ملك قيصر .

وفى قصر الملك الصافات يلتقى عنترة بفرس غريب الشكل ، مايكاد يقترب منه . وقد انتوى أن يركبه حتى يخاطبه الفرس ويخبره أنه واقف

(١) السيرة مجلد ٨ ص ٣٤

فى هذا المكان منذ زمن طويل فى انتظار عنترة . ذلك أن هذا الفرس ان هو الا ملك من ملوك الجان، فيخلصه عنترة من قيده بعد أن يعده بمساعدته فى أخذ ثأره من الجان الذين قتلوا ولده الفضبان . وتبدأ المعركة بين عنترة والجان بعد أن يزوده صديقه الجنى بسيف مطلسم يقطع فى الجان مثلما يقطع السيف العادى فى البشر ، ويأسر له الفرسان الثلاثة — من الجان — الذين قتلوا ولده الغضبان فيقتلهم عنترة بذلك السيف المطلسم .

ويقود عنترة جيوشه « الى أقصى بلاد فلسطين والجزائر القبلية والبحرية والشرقية والغربيـة والمصرى . » (١) — الى أن يلتقى بملك الأندلس « جنطيائيل » الذى يمارس الحرب راكبا على ظهر فيل ، فيقتله عنترة يفتح بلاد الاندلس . ويقف المؤلف وقفة طويلة ، يصف لنا فيها حياة عنترة فى بلاد الاندلس ، كما سبق أن وصف حياته فى بلاط قيصر وفى قصرى كوبرت والصافات .

ومن الأندلس يرسل هرقل كتبه الى الملوك والحكام يأمرهم بالدخول فى طاعة قيصر « فلم تكن الا مدة من زمان حتى أجاب صاحب برقة وصاحب تونس والقيروان ، كذلك هرمس صاحب الاسكندرية والديار المصرية . » (٢) — ويسير عنترة الى هذه البلاد حتى يصل الاسكندرية ، وهنا يقف المؤلف وقفة طويلة ليصف موكب عنترة فيها . « وهم يشقون الاسواق والحارات ، وأهل البلد قد علت منهم الزعقات ، واكثروا من الصياح والضجات والنـاس صاروا من أعالى الاسطحة يتفرجون على شجيع عبس وعدنان . » (٣) — بينما سار « المقوقس » ابن الملك هرمس ملك الاسكندرية فى ركاب عنترة .

ولكن ملوك مصر لم يقبلوا الخضوع لعنترة ، فسار اليهم وقتل الملك « هندراس » صاحب اهناس ، والملك « تدرس » صاحب دهشور ، والملك « سونحال » صاحب اشمون والملك « قراقيس » صاحب اخميم ، والملك « كردوس » صاحب أسوان ، وكذلك ملك النوبة ومن تحت يده من السودان . وتنتهى المسألة بالصلح ... « وقد اختلطت الجيوش المصرية والسودان والافرنج وسائر البلدان . » (٤)

ويعود عنترة — عن طريق البحر — الى قيصر حيث يفاجأ بانه قد امر بصنع تمثال له ولاخيـه شيبوب وابنه الخذروف تكريما لهم

(١) السيرة — مجلد ٨ ص ٦٨
(٢) السيرة — مجلد ٨ ص ٨٧
(٣) السيرة — مجلد ٨ ص ٩٠
(٤) السيرة — مجلد ٨ ص ١٠٥

وتعظيما . وبعد ذلك يعود عنترة الى بلاد الشـام ، حيث يجد عبلة فى انتظاره .

وافعال عنترة فى هذه المرحلة تكاد تعكس ــ فى واقع الامر ــ شيئين هامين . الشيء الاول هو الفتوح الاسلامية من فتح لمصر باجزائها المختلفة ثم منها الى طرابلس وتونس ومراكش فالاندلس ، وهى الفتوحات التى وصفها المؤلف على انها معارك يخوضها عنترة تحت لواء قيصر ملك الروم وفى هذه المعـارك نلمح نوعا من التعاطف بين الفارس وبين الملتقين به من ابناء هذه البلاد ، اذ يحاول المؤلف أن يربطهم ببطله عنترة ، وذلك عن طريق خلق دور له فى بلادهم . والشيء الثانى الذى تعكسه هذه المرحلة هو مكانة الفارس العربى فى هذه الحضارات والمدنيات الكبيرة ، فمن قبل وصف المؤلف لقاء عنترة بحضارة الفرس ثم بحضارة الهند ، ويكمل ذلك بحضارة الروم . وفى هذه المرحلة يدفع المؤلف ببطله فى رحلة طـويلة هدفها تثبيت ملك قيصر كما سبق له أن ثبت ملك كسرى . ومعنى ذلك ببساطة ــ فى رأى المؤلف أن سطوة هاتين الامبراطوريتين لم تكن قائمة على مهارة كسرى وقيصر ، وانما كان الفضل الاول فيها لفارس عربى . أضف الى ذلك انه بهذه الرحلات يثبت تفوق فرسان الجزيرة العربية على جميع فرسان العالم المعروف آنذاك .

وندهش فى الواقع ، حين نجد المؤلف يدخل فى قصته لونا جديدا من البطولة لم يذكره لفارسه من قبل وهو اللون الاسطورى الفـائق الخيال الذى يجعله يتغلب على الارصاد والطلاسم وينتصر فى معـاركه ضد الجان ، والذى يجمع فيه بين أبى الفوارس وكبار الكهان ممن لديهم علم الغيب ، كما يجعل هناك ارصادا موقوفة على أسم عنترة وهيأته . هذا اللون من البطولة الملحمية ، وارد فى كثير من السير العربية الاخرى مثل سيرة سيف ابن ذى يزن ، الا انه فى تلك السير يظهر هذا الطابع من أول فصل فيها ، أما سيرة عنترة فانه لايظهر فيها الا فى هذا المكان المتأخر جدا ــ وقد أوشكت السيرة على الانتهاء ــ وكأنما عنترة هنا قد تحول الى بطل أسطورى كامل تؤيده قوى غيبية وتحرسه قدرات علوية تجعل من سيفه القدر الذى يزيل الممالك ويقيمها ، وتجعل منه خرافة تسير على جواد من القسطنطينية الى اليونان الى بلاد الاندلس فشمال افريقيا حتى مصر وهو يحارب فى البر وفى البحر جميعا .

شيء آخر ــ نذكره على حذر ــ ذلك اننا نحس فى هذه المرحلة من السيرة ، أصداء من العلاقات بين العالم العربى وبين الصليبيين وحماة الكنيسة . وقد يكون فى الامر انعكاس للحروب الصليبية ــ فى امتدادها الواسع ــ وماكان بين الروم والمسلمين من معارك منذ العصر العباسى ،

يفهم ذلك من اصرار المؤلف على أن يخوض ببطله كل بلد من البلاد التي تدين بالمسيحية ، واتصل بها المسلمون فى ذلك الحين . أو قد يكون المؤلف أراد أن يدل ببطولة فارسه العربى على المسيحيين والاقباط من أهل البلاد فجعل لقاء بينه وبين فرسانهم المشهورين دون أن يمس شعورهم اذ أن فارسه يسير تحت علم قيصر حاميا ملكه ودينه ضد أعدائه والخارجين عليه .

قد يكون هذا كله ، وقد يكون غيره ، الا أن الشيء المؤكد هـو ان شخصية عنترة بن شداد فى هـذه المرحلة تختلف اختـلافا كبيرا عن شخصية عنترة بطل الجزيرة العربية . ويعود عنترة الى دياره مكللا بغار فوق غار ليجد أن بنى هوازن قد قتلوا الحارث ــ أخا الملك قيس ــ هو وزوجته . فيسرع عنترة للثأر وأخذ الاسرى ، ويتكرر مشهد ضرب رءوسهم فوق قبر القتيل . ولكن فى هذه الاثناء يموت ميسرة ــ ابن عنترة ــ فيدخل بيت الاحزان من جديد . ويقتل ايضا اخوه شيبوب على يد سلال من بنى ضهيبة فيبيدهم عنترة .

اما الربيع بن زياد واخوه عمارة فيدبران مكيدة للايقاع بعنترة الا انه ينجو منها بفضل صديق له هو « عمر ذو الكلب » ، فيقتلهما . . ويهول الامر على قيس وبنى عبس فيهجرهم عنترة ، ويذهب مع صديقه متجها نحو العراق الى أن يصل الى «بحر الفرات مقابل مدينة عانة(١) ــ ويتزوج عنترة من أخت عمرو ذى الكلب ويكاد ينسى بنى عبس الذين ما ان تعلم القبائل بامر خلافهم مع عنترة ورحيله عنهم حتى يتكاثروا عليهم رغبة فى افنائهم ، ولكن حينما يصل هذا الامر الى عنترة لا يستطيع الا أن يسرع لانقاذ قبيلته ثم يعود بعد أن يهزم أعداءهم ويؤمن اقامتهم .

ويرسل قيصر فى طلب عنترة ليعينه على خارج من اعدائه فيفعل وفى بلاد الروم تنتظره مغامرة غرامية اذ يستولى على قلب أخت ملك من ملوك الروم فيتزوجها ثم يتركها عائدا الى بلاده . وفى طريق العودة تؤذن القصـة على النهاية . . . فهنـاك ينتظره القدر على شكل الاسد الرهيص الذى يقدم وفى قلبه الحقد المرير وفى ضميره عزم أكيد على الاخذ بالثأر ، فيـكمن لعنترة بجوار بعض الغدران ، فاذا ما أقبل عنترة الى الغدير ــ فى حاجة له ــ صوب وزر سهمه اليه ــ بعد أن كان قد أمضى تلك الفترة الطويلة فى المران على اطلاق السهم بارشاد السمع لا البصر فيطلق سهمه عليه ليصيب منه مقتلا ، ويموت الاسد الرهيص بعد اطلاق السهم مباشرة . أما عنترة فقد عرف أن هذه هى النهاية وأقبل عليه أهله يبكون فيوصي عبلة قائلا : « يا ابنة العم ، اقصدى احد الرجلين اما ابن

---

(١) السيرة ــ مجلد ٨ ص ١٤٦

الطفيل واما الامير زيد الخيل ، فان احدهم يحميك ويرد عنك الاعداء ويقيك ، فكونى لاحدهم أهلا ويكون لك بعلا . » (١)

ويحمل فرسان عنترة رحالهم ويستوقون أموالهم متجهين الى ديار بنى عبس ، وقد ركبت عبلة فرسه وارتدت رداءه وتقلدت سيفه فكان اذا ماطلع عليهم اعراب فى الطريق ، خافوا منها على اعتبار أنها عنترة الا انهم بعد لاى يكشفون الحقيقة ويهجمون عليها ، فتسرع الى عنترة الذى يصرخ صرخته المعروفة ، فيهرب العرب الذين أرادوا الهجوم عليهم ، خوفا من عنترة ومهابة منه . ويلجأ عنترة الى ترتيب آخر ، فيتحمل آلامه الآخذة فى الازدياد ، ويركب حصانه ويتقلد سيفه ويطلب من عبلة ومن معها من فرسان أن يسرعوا هم الى ديار عبس ، بينما يقف هو ـ يغالب سكرات الموت ـ ليحميهم حتى لا يتعرض لهم أحد . ويسرع الركب الخائف الى دياره ، بينما يظل عنترة فوق جواده وقد فارق الحياة ، أما المهاجمون فيقفون أمامه من بعيد ، لايجسر أحدهم على الاقتراب منه . وبعد فترة يتحرك الجواد فيسقط عنترة عنه ويعرف المهاجمون انه قد مات فيدفنونه احتراما له . وتبجيلا بعد أن حمى عبلة وقبيلتها حيا وميتا .

وهكذا تنتهى حياة عنترة ، وتنتهى معها هذه المرحلة التى ترسم لنا صورة اسطوريةلفارس الطراد وحيةبطن الوادى الاميرعنترةبن شداد . وهذه النهاية التى ترسمها يد القدر تبدو كأنها غير طبيعية ، رغم أن عنترة لم يصل اليها ، الا بعد أن حقق فى حياته كل مايريد من مجد ورفعة شأن وذيوع صيت ، فى بلاده وفى غير بلاده ، والا بعد أن شهد نهايات كثيرة لاكثر من قصة حياة ، واكثر من قصة بطولة ، منها مايمت اليه بنسب كأولاده ، ومنها مالا يمت اليه بنسب ، كالفرسان من أصدقائه وأعدائه . وحين يأتى الموت بعد هذا كله لأيبدو غريبا ولا مستهجنا اذ الموت هو النهاية الطبيعية لكل شىء ، وهو أكثر طبيعية عندما يحقق الانسان كل الغايات من الحياة . ولكن المؤلف يريد أن يجعل من نهاية عنترة شيئا مفجعا لايقل فى غرابته عن مولده وعن حياته فيحيط به اجواء اسطورية لاتقل فى غرابتها عما أحاط حياته .

ويمكننا أن نسمى نهاية عنترة نهايةدرامية ، لان عنترة يموت فيها من خلال ضعف من ذلك النوع ، الذى يحب كتاب الدرامة أن يخلقوه لأبطالهم ، أو من خلال « الهامارشيا » كما يسميها أرسطو ويشرحها الدكتور شكرى عياد بأنها الافراط فى خلة من الخلال افراطا يفوق الطاقة

---

(١) السيرة ـ مجلد ٨ ص ١٧٦

البشرية فتؤدى الى مصرع البطل(١) ، والخلة هنا هى الشهامة ، فعنترة قد أسر الأسد الرهيص ثلاث مرات ، وفى كل مرة كان يطلق سراح أسيره ـ رغم اثمه المتزايد ـ حين يتوسط فيه صديقه عمرو بن معد يكرب ، وهكذا تؤدى هذه الشهامة المفرطة ، الى وضع البذرة الدرامية لمصير عنترة ، أو تكون هى « الهامارشيا » أو سقطة البطل بالنسبة لعنترة . ونحن نلحظ أن عنترة ـ وان كان يصلح بطلا دراميا فى بعض أطوار حياته ـ أى فى الجزء الذاتى من السيرة ـ الا أنه يغدو بطلا أسطوريا فى المرحلة التى بعد ذلك ، أما فى المرحلة التى نحن بصددها الآن فيكاد يصبح بطلا ملحميا .

ونهاية عنترة يمكننا أن تسميها نهاية اسطورية كذلك ، فعنترة يموت فى الوقت الذى تصل فيه بطولته الى القمة . وعلى الرغم من أن هذه النهاية تأتى وعنترة فى طور الشيخوخة ـ لا الشباب ـ الا أنه كان ـ فى الواقع ـ فى عنفوان نمائه ، وبعد أن يترك وراءه امتدادات جديدة تظهر فيما بعد فى أبنائه ، وولادة البطل فى الاساطير يسببها موت البطل . فالاساطير ـ التى هى وليدة طقوس وعبادات معينة عرفتها الشعوب البدائية ، حين عرفت عبادة البطل ـ كانت تقضى بموت البطل القديم قبل ظهور البطل الجديد ، وهذا الموت فى الاسطورة لايأتى طبيعيا ، وانما لابد أن يكون قتلا . فعلى هذه الاسس يمكننا أن نسمى نهاية عنترة ، نهاية أسطورية .

ونحن نلمح فى هذه المرحلة نوعا من التطور فى شخصية البطل الذى أخذ الشكل التراجيدى أول الامر ، ثم تحول الى الشكل الاسطورى بعد ذلك . هذا التطور يجعل من شخصية عنترة ، رمزا للامة العربية فى كفاحها وانتصاراتها وعلاقاتها بالامم من حولها ، كما يجعل من حياة عنترة أنشودة حب ، ولحنا صاخبا لكفاح طويل الامد فى كل مكان من العالم المعروف آنذاك ولقاء منتصرا بأبطال جميع الامم . وهذا يجعلنا نقول ، ان نهاية عنترة ، هى مزيج بين التراجيدية والاسطورية ، فاذا ما قارناها بالمراحل السابقة ، فان هذه النهاية تبدو وكأنها نهاية ملحمية . وسيؤكد هذا الذى ذهبنا اليه ، ما سنراه فى المرحلة التالية ، وهى المرحلة التى تبدأ بوفاته .

(١) البطل فى الادب والاساطير .

٥ ــ المرحلة التجريدية او مرحلة الامتداد

حين ينتهي عنترة ، تنتهي الى جواره الخيوط التي تربط مجتمعه الخاص ومجتمعه العام ، فتتفكك كلها وتتهاوى بعد موت البطل الذي كان يربط بينها ، وبذلك تنتهي زوجته كما تنتهي قبيلته . فعبلة تتزوج ــ كما نصحها عنترة ــ من عامر بن الطفيل ، ولكنها تكثر من المقارنة بينه وبين عنترة بحيث يبدو صغيرا ضعيفا تافها ، فيقتلها ليتخلص من هذه المقارنات ، وحينما يذهب أبوها وأخوها للمطالبة بثأرها يقتلهما كذلك ومعهما أمها ويقول المؤلف : « ومضت عبلة وامها وابوها وأخوها كامس مضى ، ومابقى لهم ذكر بين الرجال ، فسبحان الله العزيز المتعال . »(١)

أما قبيلة عبس ، فان حصن بن حذيفة وسنان بن حارثه يؤلبان عليهم القبائل ويهاجمانهم . وعلى الرغم من أن قيس بن زهير يتمكن من قتل حصن وسنان ، الا أن قبيلة عبس تفنى عن آخرها ويهرب قيس ابن زهير ليغدو وحيدا تائها في الجزيرة العربية ، يرمز الى ماحل ببني عبس لا تشرد فرسانهم فحسب ، وانما هي تخلع ديارهم وتخفى آثارهم . يقول وهب بن منبه في كتابه « التيجان » عند حديثه عن الحارث بن مضاض الذي تغرب ثلثمائة عام « ولقد كثرت فيه الأمثال ، وسار بغربته الصوت ، حتى ذكره حبيب بن أوس الطائي في الاسلام فقال :

غربة تقتضي بغربة قيس ٭ بن زهير والحارث بن مضاض
والفتى من تعرقته الليالي ٭ في الفيافي كالحية النضناض
صلتان : أعداؤه حيث كانوا ٭ في حديث من ذكره مستفاض(٢)

والحارث بن مضاض تغرب وتاه في الجزيرة العربية اثر اللعنة التي حلت ببني جرهم فزالوا عن الوجود واصبح الجراهمة من الامم البائدة . وهذا الشعر الذي جمع بين قيس بن زهير في غربته ، وبين الحارث الجرهمي انما كان يشير الى ماوقر في نفوس الناس من شبه بين نهاية القبيلتين . أما القلائل الذين نجوا من بني عبس فقد ذهبوا الى مكة يحتمون بالبيت الحرام .

---

(١) السيرة ــ مجلد ٨ ص ١٨٧
(٢) ص ١٨٠ ــ ط حيدر آباد

وهكذا حين يموت البطل وينهار كل شيء ، وكأنما كان بقاء الجراهمة موقوفا على بقائه ، فلما ذهب ذهبت كلها . ويكاد هذا ــ فى واقع الامر ــ أن يكون بمثابة اسدال الستار على القصة بحوادثها ومغامراتها ووقائعها ، فعبلة وآل قراد قد ماتوا ، وبنو عبس تشتتوا وضاعوا وملكهم تائه فى الجزيرة كالروح الهائمة . ولكن شخصية عنترة كانت قد وصلت معنا فى المرحلة السابقة الى الشكل الملحمى ، وفى الملحمة يعيش البطل مرتبطا بتاريخ الامة كجزء من مكوناته ، ورغم كل ما فعله عنترة فى هذه الرواية الطويلة فانه ــ بعد ــ لم يشترك فى الحدث الكبير الخطير الذى تم فى الجزيرة العربية ، الا وهو ظهور الرسول عليه السلام وانتشار الدين الجديد ، فكان لابد للمؤلف ــ كى يكمل الشخصية الملحمية لعنترة ــ أن يربط بينه وبين أحداث الرسالة فيما بعد . وهكذا تكون البداية بعد النهاية ، فيبدأ من جديد ــ بعد أن أرغمه الواقع التاريخى على ذكر مصرع عنترة قبل ظهور محمد عليه السلام ــ بمحاولة خلق امتداد لبطله يربطه بما حدث فى الجزيرة العربية من أحداث جسام .

ولما كان المتبع فى الاساطير أن موت البطل يمهد لظهور البطل ، فان المؤلف يستغل هذا الخيط ، ليقدم لنا مرحلة جديدة بطلها أيضا عنترة وان كان قد مات ، ويربط بين الاحداث التاريخية للجزيرة العربية وبين بطله ممثلا فى شخص أبنائه الجدد الذين سيظهرون بعد ذلك ويلتقون بصاحب الرسالة . ولهذا فنحن نعتبر أن عنترة ــ رغم عدم وجوده الجسدى فى الرواية ــ موجود بالضرورة الروائية الملحمية وان الامتدادات التى نجدها بعد ، انما تمثل انعكاسا لشخصيته التى تتحقق فيها باكثر من صورة وأكثر من شكل .

فالهيفاء ــ اخت عمرو ذى الكلب ، التي تزوجها عنترة قبل أن يموت ــ تلد فتاة تطلق عليها اسم « عنيترة » وتنشأ هذه الفتاة نشأة أشبه ماتكون بنشأة أبيها . وتظن عنيترة أن اباها هو عمرو ذو الكلب ، فتظل تتفرس وتسطو على الفرسان ، وتأتى من ضروب الشجاعة والاقدام مايذكرنا بافعال عنترة ، فهى تلتقى ببنى حمير وبفرسان اليمن وتأسر الزرقاء . عمة ذى الخمار ، الذى أصبح بعد موت عنترة فارس الجزيرة العربية دون منازع ، ثم تلتقى بذى الخمار نفسه وتأسره ، وأخيرا يجهز المنذر جيشا كبيرا للهجوم على بنى قضاعة ــ حيث كانت تعيش عنيترة ــ فتلتقى به مع خالها ذى الكلب وتهزمهم وتأسر الملك المنذر .

وكان اربعة عشر نفرا من بنى عبس قدفروا الى المنذر ومعهم زهير ابن قيس ملكهم الجديد بعد قيس ، فلما شهدوا هذه المعركة ، ذهب زهير ابن قيس الى عمرو ذى الكلب ، يسأله فى المنذر ، لما يعرف من صداقة

عمرو بعنترة فى حياته . فيرحب به عمرو ، ويتذكرون عنترة فيبكون ويترحمون ، وعنيترة لا تدرى من الامر شيئا . فيجد عمرو الفرصة سانحة ، ليخبر عنيترة بحقيقة نسبها ، حينئذ يعجب زهير اشد العجب ويقول : الحمد لله الذى أخلف علينا عنترة بن شداد حتى نرد كلبنا من الاحياء والبلاد . » (١) — فتطلق عنيترة سراح الاسرى جميعا وتنضم الى اهلها من بنى عبس ، ثم تجمع من حولها الفرسان ، وتسير بهم طالبة ثأر أبيها عنترة .

وتتجه عنيترة أولا الى ديار بنى عامر — حيث ماتت امها — وفى الطريق يلتقون بجرير بن عنترة والخذروف بن شيبوب ، كما يرسل اليها دريد بن الصمة فرسانه ، ويعود الحال الى ماكان عليه فى حياة عنترة ، فتأسر عنيترة عامر بن طفيل وفرسانه وتحطم دياره وتستعيد أموال عبلة وعنترة ، ثم تعود الى ديار بنى عبس القديمة فتقيمها وتحييها ويحضر كبار الفرسان ومشهوريهم للتهنئة ، ثم يسألونها فى عامر بن طفيل فتستجيب لهم وتطلق سراحه .

وكان زمن الرسالة قد أظل الجزيرة ، فما أن يخرج عامر بن طفيل من الاسر ، حتى يسرع على رأس فرسانه الى مكة يريد قتل الرسول . وينزل مختفيا فى بيت اخت عبد الله بن سلول المنافق ، بينما ينزل الوحى على الرسول يخبره بالامر ، فيستدعى عبد الله بن سلول ، ويذكر له أمر الفرسان الذين فى بيت أخته ، فيسرع هذا خائفا ويخرجهم من البيت وسلم أن الاعتداء من عامر بن طفيل من مكة ... وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الاعتداء من عامر بن طفيل ، فدعا عليه وابتلاه الله بغدة كغدة البعير فطلع له فى رقبته شيء يسمى الخرانيق حتى صار كالطبل العظيم ، ولم يزل حتى هلك ، فلعنة الله عليه . » (٢)

ويعود بنا الحديث الى عنيترة ومايدور فى بنى عبس من احداث فنشهد زيد بن عروة بن الورد وقد انضم الى عنيترة فى الوقت الذى احب فيه الرباب بنت الامير عمرو ذى كلب وتزوجها . ويرسل المنذر الى عنيترة يستنجد بها ضد فارس اسمه « الغضنفر » وأمه هى مريم بنت اخ ملك الروم و « كان أسمر اللون وله سواعد شداد مثل العمد ، وكان الملك قيصر كلما رآه مال قلبه اليه وأحبه ولكن كان فى بعض الاحيان طبعه ينفر منه لاجل سواد لونه دون الروم . ولما دخل فى قلبه الشك من اجل ذلك اللون الذى صار فيه قدمه على خمسة آلاف فارس من الروم — وهو دون البلوغ — وارسله هو وامه وجميع اموالهما وذخائرهما الى قلعة « برقعيد » وكانت هذه القلعة حد ملك قيصر من ملك الفرس ،

---

(١) السيرة — مجلد ٨ ص ٢٢٣

(٢) السيرة — مجلد ٨ ص ٢٤٣

وكان قيصر مراده أن يجعله فى تلك القلعة ليكون فى وجه العدو ..» (١)

ويحكي المؤلف صورا من حياة الغضنفر وبطولته وشجاعته الى ان يصل للقائه بعنيترة ، التى هبت لنصرة المنذر فيصف لنا مادار بينهما وبين جيشيهما من حروب مهولة انتهت بأسر عنيترة له . فلما علمت امه مريم بذلك ذهبت الى عنيترة وكشفت لها عن حقيقة الغضنفر ، فاذا به ابن عنترة من مريم الجارية التى تزوجها فى بلاط قيصر . فيلتقى الاخوان اللذان فرق بينهما الزمن ، ويسيرون جميعا الى ديار عبس . وفى الطريق يلتقى الركب بفارسين ، أحدهما أسمر والثانى أبيض فاذا بهما ياسر بن ميسرة بن عنترة ، وليث الميدان بن مازن أخى عنترة وينضم اليهم كذلك زحمة الجواد ــ عم عنترة ــ وسبيع اليمن بن مقرى الوحش واسيد بن غصوب والديال بن الغضبان ــ ولدى عنترة ــ وبذلك يعود الى بنى عبس غابر مجدهم .

وتسير عنيترة الى الشام ، لترد عنها جيشا غازيا جاء بقيـــادة « الجوفران » ابن الملك كوبرت ، وتدور بين الجيشين معركة يصـــفها المؤلف ، ويعكس لنا فى كل حادثة منها موقفا من مواقف عنترة القديمة . بينما يحمل القتال فى كل يوم ابنا جديدا من أبنـــاء عنترة ينضم الى الركب . ويبارز الجوفران جميع فرسان بنى عبس فيأسرهم ، بما فى ذلك عنيترة وأخوتها والخذروف ومن معه ويجمعهم فى ساحة القصر ليمثل بهم ، فتشاهدهم امه ، وتكفه عنهم كاشفة سرها الكبير وهو أن الجوفران ليس ابن كوبرت كما يعتقد ، ولكنه فى الحقيقة ابن عنترة الذى التقى بها فى بلاط قيصر قبل أن يتزوجها كوبرت . فيفرح الجوفران بهذا النسب ويقيم الافراح وينضم الى أخوته مقسما أن يثأر لابيه عنترة .

ويذهبون جميعا قاصدين ديار بنى نبهان ، وفى الطريق يلتقون بجيش من السودان على رأسه الملك صفوان بن معدان ــ خال عنترة ــ فينضم اليهم . وهناك يخرج لهم فارس هو جابر بن وزر (ابن الاسد الرهيص الذى قتل عنترة) فتبارزه عنيترة وتقتله ويقبضون على قبيلة بنى نبهان برمتها ويأخذون أموالها . وتستمر هـــذه الحملة التاديبية متنقلة من قبيلة الى قبيلة وقد حمل بنو عبس عظام عنترة على جمـــل يسوقه الخذروف وجرير فى مقـــدمة الجيش ، وكأنما ليشهدوه على ثأرهم ... « هذا كله يجرى والجمل الذى عليه عظام عنتر واقف فى الميدان .» وكلما قتلوا قبيلة تأتى عنيترة وأخوتها الغضنفر والجوفران وينادون له : يا أبانا ، هاقد افنينا العربان وابدنا الفرسان ، يكفى ماترى

---

(١) السيرة ــ مجلد ص ٨ ٢٤٣

يازين الشجعان والاسود ، فلم ينطق بلسان ، لانه عظام بالية من سنين وأزمان . فيقولون ان أبانا لم يزل غضبان ، سيروا بنا حتى نفنى بقية العربان . » (١)

وبعد أن يخضعوا جميع القبائل يعودون الى ديارهم ويرسلون الرسل الى كل القبائل يطلبون حضور حفل دفن عنترة من جديد ، ويجلس أولاد عنترة ، يتلقون العزاء وتنحر الابل على قبر عنترة الذى اجتمع عليه ابن كسرى بابن هرقل ، حيث قدم كل منهما بحمل العزاء فى عنترة بينما الفرسان يقولون الشعر فى رثائه .

ويحج عمرو مع عمه جرير الى البيت الحرام ، فيعلمون بظهور النبى صلى الله عليه وسلم ويعودون الى ديارهم ليقصوا لقاءهم بالرسول وكيف سألهم عن عنترة ، فأخبراه بما تم من أمره ، وأنهم جاءوا يحملون رسالة الاسلام الى بنى عبس . فيدخل الجميع فى الدين الجديد ويقيمون الى جوار النبى ويصبح جرير رسوله الى القبائل يدعوهم الى الاسلام ، ويرغب الخذروف فى الزواج من عنيترة فيزوجهما الرسول عليه السلام ، وتظل عنيترة تقاتل فى صفوف النبى عليه السلام الى أن قتلت فى غزوة الاحزاب .. « وماتت شهيدة على السنة والكتاب ، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحزن عليها وقال زملوها على ثيابها لتاقي الله وهو راض عنها يوم القيامة . » (٢) — ويتآمر بعدها على بنى عبس عمرو بن أمية الصخرى ، يقود جيوش قومه تحت راية الاسلام ، ويموت أمراء بنى عبس وفرسانهم جميعا فى غزوات الرسول . أما الملك زهير بن قيس فقد ولد له ابن اسمه ياسر ، قتل فى غزوة من الغزوات فحكم بنى عبس من بعده ابنه عمار بن ياسر ، وهو الصحابى المشهور « وكل من كان من بني عبس من زمن الجاهلية فانه اتبع الاسلام، وتركوا ماكانوا عليه من ضلال وشرب مدام ، ثم تقلبت الدهور والايام حتى شربوا كأس الحمام ، بعد أن نالوا مانالوا من العز والمجد والرفعة(٣).

وتنتهى هذه المرحلة ، وبانتهائها تنتهى السيرة . وعنترة — فى هذه المرحلة ايضا — هو الذى يحمل علم البطولة ويظهر فى اكثر من شكل وصورة . يظهر فى صورة عنيترة وفى صورة الغضنفر وفى صورة الجوفران ، وكأنما غدا رمزا ينعكس فى تجسيد يمثله ابناؤه ، ونشهده كالشبح ، وقد صارت عظامه محملة على جمل تتبع جيش بنى عبس ، وتحمل النقمة على كل من انتهز فرصة موته ليتطاول على قومه ، وسيوف أبنائه أمام الجمل — تضرب باسم عنترة وبقوة عنترة وببأس عنترة .

(١) السيرة — مجلد ٨ ص ٢١٦
(٢) السيرة — مجلد ٨ ص ٣٥٠
(٣) السيرة — مجلد ٨ ص ٣٥١

الفصل الثالث

البناء القصصي في سيرة عنترة

الفن القصصي ليس مجرد سرد حكاية او قص حادثة ، فكل انسان يستطيع ان يفعل ذلك لان اسلوب الحديث ـ الذي هو خاصة انسانية عامة ومشتركة بين جميع البشر ـ يعتمد اعتمادا كبيرا على السر والقص ولكن هذا الذي يتداول على السنة المتحدثين في كل مكان وفي كل حين ، لا يعتبر قصصا من الوان الادب ـ والقصصي لا يستوى حتى تتوافر له عناصر بذاتها هي الاسس التي يقام عليها بناؤه الفني .

واول هذه العناصر هو الموضوع الذي سوف يتخذه الكاتب مادة لقصته . فالناس جمعيا ـ ومن بينهم كاتب القصة ـ يصادفون في حياتهم عددا لا حصر له من الاحداث والشخصيات ـ التي توحي بموضوعات قصصية ـ سواء بالالتقاء المباشر او عن طريق المشاهدة أو القراءة او السماع . ولكن هذه الموضوعات لا تصلح جميعا كمادة للعمل القصصي ، وانما على الكاتب أن يختار من بينها موضوعا معينا تتوافر له صفة الاهمية . ولا نعني بالاهمية هنا اهمية الموضوع نفسه او اهميته التاريخية او الاجتماعية او ما شاكل ذلك لان الموضوع في حد ذاته مهما كانت اهميته الخاصة ، لا يكفي لاخراج عمل قصصي فني ، والا كان من السهل على كل انسان أن يختار الموضوعات الكبرى ، ليتخذ منها مادة قصصية . ومن ناحية اخرى نجد انه لا يمكن ان تكون لجميع القصص التي تتناول الموضوعات الكبرى قيمة أدبية ، اذ ان القيمة لا تأتي من الموضوع نفسه وانما تأتي من أن الكاتب قد تعمق هذا الموضوع ونظر جوانبه المتعددة وبذلك اكسبه قيمة انسانية خاصة . لهذا فان الموضوع قد يكون في اصله بسيطا وصغيرا ولكن القصاص ينظر اليه من وجهة نظر معينة فيرى فيه أهمية تجعله يتفوق عنده على كثير من الموضوعات الاخرى التي لها قيمة ذاتية كبيرة .

وهنا تبدو بوضوح اهمية عامل الاختيار الذي يقوم به القصاص في انتقائه لحادثة معينة أو لشخص معين يتخذه موضوعا لقصته . وذلك لان هذه الحادثة ـ أو الشخصية ـ كان لها وقع معين على وجدانه جعله يقف منها موقفا معينا ويفلسفها فلسفة معينة ويتخيلها شيئا له كيان ومعنى .

ولا يلزم أن يكون القصاص قد التقى بهذه الحادثة ـ او الشخصية التقاء مباشرا أو عاناها معاناة ذاتية ، فنحن لانستمد خبراتنا في الحياة

من هذا المعين وحده ، وانما نحن نستفيد من تجارب الآخرين أكثر مما نستفيد من تجاربنا الذاتية . فمن القراءة والاطلاع مثلا نحصل قدرا من الخبرة ، يعتبر أضعافا مضاعفة لما نحصل عليه بأنفسنا من خبرتنا الشخصية ، لأن حياة الانسان محدودة بالزمان الذى يعيش فيه ومحدودة بالمكان الذى يتحرك فى نطاقه ومحدودة بالعوامل والظروف التى يمكنه أن يحصل عليها ، ولهذا فان خبرته الذاتية تكون محدودة ضيقة ، أما الخبرة التى يمكنه أن يحصل عليها من خلال تجارب الاخرين فانها تكاد لا تحدها حدود . وكما تلفت الكاتب القصصى اشياء بعينها فى الحياة التى يعيشها فيتخذ منها موقفا بذاته ويفلسفها فلسفة خاصة فكذلك تلفته اشياء بذاتها من ذلك الذى يقرأ عنه أو يروى له فيتخذ منها موقفا بذاته ويفلسفها فلسفة خاصة ويجعلها مادة لعمله القصصى .

والانسان بوصفه كائنا حيا متفاعلا مع الحياة لا يستطيع ان يخلص نفسه تخليصا تاما من قيود حاضره ، ولهذا فان عملية اختياره لموضوع قديم لا تخلو من تأثير واقعة على هذا الاختيار ، اذ لابد أن يكون هناك عامل أو أكثر يربط بين ما فيه الفنان حاليا وبين ما قرأه أو سمعه من قديم الاخبار فيمتزج الماضى بالحاضر مزجا شعوريا فى نفسيته المتفننة ويثيران ــ معا ــ الانفعال الذى يقوده الى لحظة الابداع .

ومؤلف سيرة عنترة بن شداد قرأ تاريخ عنترة فلفتته فيه أمور ، وقرأ شعر عنترة فلفتته فيه أمور كذلك ، ثم سمع ما قيل عن عنترة من احاديث وروايات فامتزج كل ذلك فى نفسه واثار مشاعره وجعله يقف منه موقفا بذاته ويفلسفته فلسفة خاصة ثم يتخذه موضوعا لعمله الفنى الذى هو السيرة .

وربما التقى ما قرأه الكاتب عن عنترة باشتات من الواقع مستقاة من الظروف البيئية التى يعيشها ، فساعد ذلك على سرعة انفعاله بما قرأ وعاونه على أن يتخذ منه ذلك الموقف المعين وأن يفلسفه تلك الفلسفة المعينة . فعنترة يصور حلقات كثيرة متداخلة فى سلسلة الكفاح الفردى والجماعى ثم الجنسى . فهو كشخص فرد يرسم أقوى صورة من صور الفردية ، اذ أن كفاح ذلك العبد واجتهاده أوصلاه الى قمة المجد . وكفاحه فى ذلك ليس كفاح عمل فحسب ، وانما هو كفاح تواكبه الاخلاق القوية والخصال الحميدة .

وتاريخ كتابة هذه السيرة ، هو أواخر القرن الرابع الهجرى ، وفى هذا الوقت كان العالم الاسلامى يعيش فى فترة التقاء بالحضارات الاجنبية وبالدول الإوروبية التى بدات تحاول ان تجد لها متنفسا

فى ثروات الشرق ، كما ان القوى العاملة فى العالم ـ انذاك ـ كانت قد بدأت تتبلور بعد الهزة العنيفة التى زلزلت الارض تحت أقدامها ، اثر الهجرة العربية الكبرى ، التى تمت فى الفتوح الاسلامية . وقد كان لهذا تأثير مباشر فى ظهور دعاوى الشعوبية من الداخل وغزوات الروم والعجم من الخارج ، كما ان العالم العربى فى ذلك الوقت كان قد وقع تحت سيطرة اجناس دخلت الاسلام من غير ابناء الجزيرة العربية وبدأت تلعب دورها فى الحياة العربية حاكمة وموجهة .

لهذا كله فان اختيار المؤلف لشخصية عنترة بالذات كان يتواءم وظروف البيئة السياسية والاجتماعية التى كان يعيش فيها العالم العربى آنذاك . فعنترة عربى من الجزيرة العربية ، والانتصار له انتصار لفضائل الشخصية العربية التى بدأت العصبيات الاخرى تبعدها عن مجالات التفوق ، كما ان وضع عنترة كبطل امام الروم مرة وامام الفرس مرة بل وأمام الهنود والاحباش والسودان انما هو محاولة لاثبات قدرة الشعب العربى على الوقوف أمام كل أعدائه المعروفين فى تلك الحقبة الزمنية التى كتبت فيها السيرة ، وذلك عن طريق اثبات تفوق الجنس العربى على غيره من الاجناس . ويبدو ان كاتب السيرة كان عربيا ، ويبدو أنه كان أيضا من عرب الشمال ، ولهذا نراه فى السيرة ينتصر لفضائل بنى عدنان على القحطانيين .

ففى سيرة عنترة بن شداد تظهر كل العصبيات التى كانت تتناحر على السلطة آنذاك ، حيث تعكس لنا ـ انعكاسا تاما ـ موقف العدنانيين من القطحانيين ، وموقف الحجازيين من اليمنيين ، وموقف العرب من الفرس والروم وغيرهم من الأمم ، بل اننا لا نعدو الحقيقة اذا ما قلنا
الفرس والروم وغيرهم من الامم ، بل اننا لا نعدو الحقيقة اذا ما قلنا
أن العصبيات الصغيرة من قبائل الشماليين ، كانت هى الاخرى واضحة ومنعكسة تماما فى سيرة عنترة .

لهذا يمكننا القول ان اختيار المؤلف لشخصية عنترة ، كموضوع لسيرته الشعبية ، لم يأت عبثا وانما كان الاختيار نتاجا طبيعيا لمقتضيات العصر والبيئة .

* * *

والقيمة الفنية لسيرة عنترة تكمن فى ان المؤلف حاول ان يستغل هذه الشخصية اكبر قدر من الاستغلال مع عدم تجريدها من سماتها البيئية والتاريخية المعروفة . ولهذا فقد كان جل اعتماده على حقائق التاريخ ، التى جاءت فى كتب الأدب ، وكتب التاريخ ، مما يتعلق ببطله

وبالشخصيات التى عاشت معه واثرت فيه ، والاحداث الكبيرة التى شاهدتها الجزيرة العربية ، ويمكن أن يفترض لبطله دورا فيها .

والمتتبع لأحداث السيرة يحس احساسا كبيرا ، ان المؤلف قد قرأ الادب الجاهلى كله من شعر وخطب واسجاع كهان ، كما انه اطلع على كتب القصص التى عرفها العرب ، ووضع يده على كثير من الاساطير التى تناقلوها شفاها او دونوها وجمعوها فى كتب . وليس عبثا ان ينسب المؤلف سيرته الى الاصمعى ، كما انه ليس عبثا أن ينسب الجزء الاول منها (وهو مقدمة السيرة الحجازية التى تتحدث عن خلق العالم ومكان الجزيرة العربية ونسب بنى عبس) الى وهب بن منبه ، كما أن المؤلف ، تعمد أن يدخل فى صلب سيرته شعر عنترة الحقيقى وكثيرا من الشعر الجاهلى الصحيح ، مثل المعلقات السبع وشعر عروة ابن الورد والحطيئة وغيرهما .

وقد استغل مؤلف السيرة الكثير مما قرأ استغلالا كبيرا ..

١ ــ ففى الاحداث استغل دقائق حياة عنترة ، التى أثرت فى تاريخ الادب من حبه لعبلة وموقف عمه مالك من هذا الحب ، وكذلك الشك فى نسب عنترة ، وموقف أبيه شداد من هذا الموضوع ، ثم المغامرات التى يعرفها التاريخ لعنترة فى جريه وراء النوق العصافير .

٢ ــ ويستغل المؤلف ايضا احداثا كبيرة عامة ــ الى جانب استغلاله للاحداث الخاصة ــ كموقعة ذى قار التى حاول ان يخلق بين بطله وبين بطلها التاريخى (هانىء بن مسعود) نوعا من الصداقة القائمة على الاحترام المتبادل ، وذلك ليكسب شخصية بطلة قيمة روائية كبيرة .

٣ ــ وقد استغل المؤلف الشخصيات التاريخية المعروفة دون النظر الى التسلسل التاريخى للاحداث ، وذلك بحثا عن مكان لبطله بين الخالدين من ابناء الجزيرة العربية فى كل ناحية من نواحى الخلود . فمن ناحية الفروسية يخلق المؤلف المواقف التى يلتقى فيها بطله بمشهورى الفرسان العرب، كذى الخمار وعروة بن الورد وهانىء بن مسعود وعمرو ابن معديكرب وعمرو ذى الكلب وغيرهم . ويتبع المؤلف طريقة متكررة فى تقديم هذه الشخصيات ، فهو يصف لنا نشأة البطل ثم شهرته ثم تغلبه على كل من يعاديه حتى يقر له جميع الفرسان بالشجاعة والتفوق، وبعد ذلك يضع حوله هالات البطولة والفار ، واخيرا يجمع بينه وبين بطله عنترة لثبت اهميته وقيمته وليسطر اسمه فى سجل الفرسان العرب المعروفين فى التاريخ ، حين يتغلب عنترة على أولئك الابطال المغاوير .

وفى الحكمة يختار المؤلف ، أشهر الاسماء بين من شهد لهم تاريخ العرب بصواب الرأى ورجاحة الفكر كقيس بن زهير ودريد بن الصمة والشيخ عبد المطلب رأس قبيلة قريش ويخلق بينهم وبين بطله (عنترة) علاقات متينة تجعله أولا ، لا يصدر فى تصرفاته الا عن حكمة وصواب ، وتجعله ثانيا مرتبطا فى أذهان الناس بهذه الاسماء المشهورة فى هذا الميدان . ومن قبيل ذلك أيضا ما فعله المؤلف من خلق لقاء بين بطله عنترة وبين أشهر كرماء العرب « حاتم الطائى » وجعل من احداث السيرة ما يجعل عنترة صاحب فضل على صاحب الفضل المشهود له فى كتب التاريخ .

اما فى الشعر ، فالمؤلف يحشد لبطله كل اسم مشهور فى ميدانه ، ويكفى أنه خلق له لقائين بشعراء المعلقات جميعا ، يمتحنونه فيهما ويجمعون على الاقرار له بالفضل فى الفروسية وفى العلم وفى الشعر جميعا . كما انه خلق لعنترة لقاءات اخرى بكثير من الشعراء المعروفين كعروة بن الورد والحطيئة وغيرهم .

٤ — وفى الاماكن استعرض المؤلف امكانياته الكبيرة فى تنقل البطل بين مختلف انحاء الجزيرة العربية ، ذاكرا اسماء منازل القبائل واماكنها وموردا اسماء الجبال والوديان واسماء المدن والقرى فى حشد ضخم يشى بسعة اطلاعه ومعرفته ، ثم هو يربط بطله عنترة بأسماء كثير من الأماكن التى ترتبط فى أذهان الناس بأحداث معينة مثل مكة والحيرة وبلاد الفرس بلدا بلدا وبلاد الروم المعروفة عند معاصريه وحتى حين يدخله مصر يجعله يلتقى بفرسان من الاسكندرية ومن الفيوم ومن الجيزة ومن غيرها من المدن المصرية المعروفة .

هذا الالمام من جانب المؤلف له اهميته القصوى من ناحية البناء الموضوعى للسيرة لانه استطاع ان يكسب بطله رداء من الحقيقة القصصية التى تجعله شخصية مجسدة ، تعيش وتتفاعل مع شخصيات معروفة وتشترك فى احداث معروفة وتتحرك فى اماكن معروفة ، فلا يصبح بذلك مجرد عمل تجريدى وانما هو شخصية حية اكسبها المؤلف باطلاعه الواسع صدقا من لون خاص .

* * *

الكاتب اذن اختار شخصيته لاسباب معينة ، كما انه حين اختار الشخصية ، درس الاطار الزمنى والمكانى الذى تتحرك فيه هذه الشخصية دراسة وافية ، وهو الى جوار هذا قد درس شخصية بطله ايضا دراسة وافية من الداخل ومن الخارج كذلك .

.. اما دراسته لها من الخارج فتتمثل فى هــذا التقارب الكبير بين شخصية عنترة فى التاريخ ، وشخصية عنترة فى السيرة وخاصة فى المرحلة الاولى منها (وهى المرحلة التاريخية). فقد حــدد المؤلف ــ لنفســه والقارىء معا ــ الاشخاص الذين يكونون مجتمع عنترة الخاص ويلعبون الادوار الاساسية فى حياته . وقد استقى المؤلف هذه الشخصيات ــ الى حد كبير ــ من المعين التاريخى ، الامر الذى اقتضى منه معرفة وثيقة ببطون عبس وأشهر رجالها ليحدد من منهم فى صف عنترة ، ومن منهم سوف يأخذ موقف المضاد ، وقد وصل بقسمته هــذه الى اولاد الملك زهير أنفسهم ، فجعل منهم من يعاضدون عنترة ومنهم من يعــادونه ويتعصبون ضده .

ومن ناحية الوصف الخارجى كذلك وصف لنــا المؤلف عنترة فى صورة فارس لا يشق له غبــار ، مهول الخلقة ، متين البنيان ، يجيد الطعن والضرب واساليب القتال ، ويسود ميدان الحرب بشجاعة خارقة فائقة ، تبررها نشأة مستوحشة وملامح للقوة تبدو منه الطفولة ، الى جوار البنيان الجسدى الذى يسهب المؤلف فى وصــفه ، ولذلك فان عنترة حينما يتحرك فى اطار بطولى ، لا يبــدو هــذا شاذا ولا غريبــا ولا مستهجنا ، وجمع له المؤلف أيضا سمات الفارس العربى كما تعرفه الجزيرة العربية من شهامة وكرم ونجدة وجلد ، ووضع له ذهن المفكر العاقل الحكيم الذى يكتمل معه تكاملا بطوليا طبيعيا وذلك هو أخوه شيبوب الذى يستطيع بخفته وحيلته ولصوصيته ان يقدم على اعمال يعف عنهــا عنتــرة الفارس ، ولكنها ضرورية لكسب المعارك والتفوق على الاقران .

فمؤلف السيرة اذن قد فهم المظهر الخارجى لبطله تمام الفهم ، واعطى له من الامكانيات ما يتلاءم مع فهمه لشخصيته ودوره .

اما الدراسة الداخلية للبطل فيبــدو ان المؤلف قد توافر عليهــا تماما وكرس لها جزءا كبيرا من جهده ، لاننا رأينا فى دراســتنا لتطور شخصية عنترة فى السيرة ان المؤلف قد رسم حــدود كل مرحلة من مراحل حياة عنترة رســما دقيقا ووفر لها الامكانيات لتطابق الواقع الروائى والصدق الفنى .

فالمؤلف حين يرسم شخصية عنترة فى مرحلة التكوين ، يضع يده على موقفه من المجتمع الخاص الذى يعيش فيه ، وموقف هــذا المجتمع منه ، وما يسبب هــذا الصراع من عقد عنــد البطل وعند مجتمعه على السواء ، فعنترة يقاوم الأصل فى مجتمع لا يعرف الناس الا بأنسابهم وأحسابهم ، وعنترة يقاوم ضعة اللون فى مجتمع بدائى ،

يضع للون أهميته الكبرى ويرتسم للسود مكانا بذاته فى آخر درجات هذا المجتمع — ان لم يكن خارجه — وعنترة يقاوم عاطفة الحب التى خرجت الى العلن فى مجتمع يخشى على العرض خشية تفوق المعقول حتى أنه ليئد البنات خوف العار ، ويجعل من العاطفة المكشوفة المعروفة ، جريمة لا تغتفر وانتهاكا لمقدساتها .

فليس غريبا اذن ان يأخذ المجتمع الصغير نفسه موقفا من هذا البطل فيقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق أمنياته بتلقائية طبيعية ودون تعسف او تكلف من المؤلف

وكاتب السيرة لا ينسى فى هذه المرحلة أن بطله بشر ، تقطع فيه الكلمة اكثر مما يقطع فيه السلاح ، ويؤثر فيه التجاهل اكثر مما تؤثر فيه المواجهة ، وانه طالب حق يتمثل حقه مجسدا فى اشياء بعينها فيحاول ان يحطم الحواجز التى تحول بينه وبين هذا الحق . ومن خلال هذا الصراع تتبلور شخصية البطل وتزداد خبراته وتتأصل معرفته بالحياة وقدرته على مواجهة حقائقها . فاذا ما تغلب عنترة على هذه العقبات ، كان هذا هو الايذان بمولد بطل له من الصفات النفسية والجسدية ما يؤهله لأن يخوض المرحلة التالية من السيرة ، وكأنما يريد المؤلف ان يبرر لنا الصفات التى ينسبها لبطله تبريرا حدثيا لا تبريرا تقريريا ، فوقوفه عند كل مرحلة من مراحل الصراع ضد النسب أو ضد اللون أو ضد الحب انما هو جلاء لمكونات بطله ، جلاء يستغل فيه أحداث هذا الصراع فى عمله القصصى من ناحية ، ويمهد به اتكامل شخصية عنترة فيما بعد من ناحية اخرى .

وحينما ينتقل المؤلف الى المراحل التالية من شخصية بطله لا يهمل اثر المعارك الأولى التى خاضها والتصرفات التى تصرفها حيال الاحداث وحيال الناس ، فهو يرق لكل عبد يروم التحرر ، وهو ينصر بسيفه وبماله كل محب يريد أن يفوز بحبيبته ، وهو يؤيد بكل قوته كل طموح يريد أن يثبت نسبته .

ومؤلف السيرة لا ينسى بشرية بطله حتى فى المراحل الاسطورية من حياته ، فيقف به أمام الموت عاجزا حزينا مشلول الارادة لا يملك الا الدموع ، ويقف به امام الثأر عاتيا جبارا لا يرحم ولا يلين ، ويقف به امام الحب ضعيفا وامقا اسيرا لهواه .

وهناك نقطة هامة فى موقف المؤلف من بطله فى هذه المراحل ، تلك هى انه راعى التاريخ حين لم يذكر لعنترة اولادا من عبلة ولكنه راعى الفن ومقتضيات الاستمرار ، حين جعل له أولادا من غير عبلة ، وخرج من هذا المأزق بان جعل مغامرات عنترة الغرامية — مع غير عبلة —

مجرد لحظات عابرة لا تمحو حبه لها ، ولا تغير من تعلقه بها . فكأننا بهذا الكاتب وقد استبطن شخصية بطله المعقدة فى التركيب وتمثله وفهمها فأجاد فى عرضه لها وعرض ما يصدر عنها من اقوال وافعال .

مؤلف سيرة عنترة اذن عرف لماذا اختار شخصية البطل ، ثم عرف كيف يدرس هذه الشخصية وكيف يفهمها ثم كيف يقدمها فى قصته . فشخصية عنترة ليست من الشخصيات الثابتة — اى غير المتغيرة — وانما هى شخصية نامية تبدأ مع الكاتب مادة قابلة للتشكيل يضيف اليها كل حين جديدا وتتكامل بين يديه تدريجيا وتتطور خطوة خطوة ، بينما الكاتب يخلق لها العلاقات التى تربطها بالناس وبالاحداث ربطا طبيعيا ويخرجها من كل علاقة وقد ازدادت شيئا يقرب بينها وبين التكامل . ولهذا فقد قسم كاتب السيرة احداثها تقسيما راعى فيه التاريخ ، وراعى فيه الأهمية كما راعى فيه بناء شخصية البطل . فنحن نراه يقابل بين عنترة — وهو طفل — وبين كلب متوحش ، فاذا ما كبر عنترة اصبح الكاب اسدا ، ولسنا فى حاجة بعد هذا لان يخبرنا المؤلف أن بطله قد كبر وازدادت قوته شجاعته . وعنترة — فى أول أمره — يتزعم العبيد ، وعلى رأسهم أخوه شيبوب — ثم هو بعد ذلك يتزعم فرسان بنى قراد ، وعلى رأسهم أبوه شداد ، ثم هو يتزعم فرسان بنى عبس وعلى رأسهم زهير ثم ابنه قيس من بعده ، ولا يلبث عنترة أن يتزعم فرسان الجزيرة العربية بأسرهم ، وعلى رأسهم دريد بن الصمة وهانىء بن مسعود ، وليس المؤلف فى حاجة لأن يقرر لنا بعد هذا ان بطله قد أصبح فارس العرب لا فارسا من العرب .

واعداد عنترة فى أول الامر ، عمه مالك ، وفى المرحلة التالية ، الربيع ابن زياد الزعيم العبسى الكبير ، ثم بعد ذلك واحد من أبناء الملك زهير — واخ للملك قيس — ثم يعاديه اشهر فرسان الجزيرة العربية واكبر ملوكها ، فاذا مر بهذه المرحلة فالذى يعاديه هو ملك الغساسنة حينا وملك المناذرة حينا آخر ، واذا بنا نجده — بعد قليل — يعادى قيصر الروم وكسرى العجم ، وقيل اليمن ونجاشى الحبشة . وليس بالمؤلف حاجة بعد هذا لأن يقول لنا ان فارسه قد أصبح فارس العالم بأسره .

هذه الدقة فى الانتقال بالبطل من مرحلة الى مرحلة تدلنا بوضوح على براعة الكاتب وفهمه لشخصية بطله ولنمائها ، كما تدلنا ايضا على فهمه للاحداث وترتيبها وحين يعطينا الصورة التى يريدها لفارسه عنترة لا نجد فيها غرابة ولا شذوذا ، ولا نحس فى تقلبها بفضاضة او استنكار ، وانما نلمح آثار قدرة روائية خلاقة فاهمة تمام الفهم للعمل القصصى الذى يقدمه .

الشخصيات

وكما وفق المؤلف فى اختيار موضوع السيرة وفى رسم ملامح الشخصية الاساسية فيها ــ وهى شخصية البطل عنترة بن شداد ــ وفق كذلك فى اختيار بقية شخصيات السيرة بحيث تتناسب مع الاطار العام للموضوع من جهة ومع شخصية البطل ومراحل تطورها من جهة أخرى . فالشخصيات المكملة فى السيرة ــ سواء قصر دورها فيها أو طال ــ تسير جميعا فى خطوط متوازية مع شخصية البطل لتتفاعل معها فى نماء قصصى سليم ولتخرج لنا ــ فى النهاية ــ رواية متكاملة البناء .

وتنقسم شخصيات السيرة الى قسمين متميزين . فهناك شخصيات واقعية ــ اى معروفة تاريخيا ــ وهناك شخصيات خيالية اخترعها المؤلف ليكمل بها البناء القصصى . فموضوع السيرة موضوع تاريخى يصور حقبة معينة فى تاريخ الجزيرة العربية ، ومؤلف السيرة اختار لبطولتها شخصية تاريخية حقيقية عرف الناس صاحبها شاعرا وفارسا وعاشقا ، وتناقلوا اشعاره واخباره ، لهذا فلابد أن تكون بقية الشخصيات المتعاملة معه فى السيرة شخصيات تاريخية حقيقية ، وان تكون الاحداث التى تدور فيها تلك الشخصيات اقرب ما يكون الى الاحداث التاريخية الحقيقية خصوصا فى المرحلة الاولى من القصة التى تعتبر مرحلة تقديم لشخصية البطل .

ولما كان هذا البطل ــ كما يريد ان يقدمه المؤلف ــ انسانا له وجود تاريخى ولما كانت هذه القصة هى سيرة حياته ، لهذا لجأ المؤلف الى شخصيات التاريخ الحقيقى لعنترة ، واستعان بها ليستعملها فى المرحلة الاولى من السيرة استعمالا يكاد يطابق الواقع المعروف عنها تاريخيا . فأم عنترة زبيبة الحبشية ، وأبوه شداد ، وأخوه شيبوب وأعمامه ، ثم عبلة وأبوها وأخوها والربيع خطيبها ، وسمية زوجة شداد .. كل أولئك يجب أن يظهروا فى نفس الأدوار الحقيقية التى أثيرت عنهم تاريخيا ، والتى وردت فى تأريخ حياة عنترة وما تدول حوله من روايات . وقبيلة عبس بأفرادها الحقيقيين ، وملكها زهير ابن جذيمة وقصة زواجه المشهورة ، وتأمره على بطون قيس عيلان برمتها ، ثم اصهار النعمان بن المنذر له .. كل ذلك يجب أن يبدو فى سياقه الطبيعى ليعطي للسيرة واقعها التاريخى المطلوب .

ومع أن المؤلف قد استقى تلك الشخصيات من التاريخ وحاول أن

يجعلها تلعب نفس الدور الذى لعبته فى الحقيقة ، الا ان طريقة عرضه لها وتعيين مواعيد ظهورها ، وتحديد علاقاتها ببطل السيرة ، يدل على أن المؤلف لديه حاسة قصصية سليمة ، تعرف كيف تحرك هذه الشخصيات فى اطار قصصى بعيد كل البعد عن السرد التاريخى المسترسل ، كما تعرف كيف تنمى الشخصية تدريجيا بحيث يتعرف عليها القارىء أولا ثم يتابعها بعد ذلك وهو مطمئن لما عرف عنها .

وعلى الرغم من أن دور معظم تلك الشخصيات ، يكاد ينتهى بانتهاء المرحلة الاولى من مراحل حياة عنترة — اذ تبدأ بعد ذلك مراحل تبعد تدريجيا عن واقع التاريخ — الا ان المؤلف اجاد استغلال هذه الشخصيات فى بقية السيرة ، وشكلها فى مهارة لتلتقى مع الاحداث التى اصطنعها بعد ذلك ، ولتأخذ دورها القصصى على طول السيرة ، ثم لتعطى المضامين التى يهدف اليها ، كل ذلك مع الاحتفاظ لها بمعظم السمات الحقيقية التى اثرت عنها تاريخيا والتى اضفاها عليها فى المرحلة الاولى .. فشيبوب مثلا يستمر فى مصاحبة عنترة فى جميع مراحل حياته التالية، سواء كانت أسطورية أو ملحمية، ويشترك معه فيها بأعمال تحمل السمة المميزة له وهى الدهاء واصطناع الحيلة ، فهو الذى يتجسس ليأتى له بالاخبار ، وهو الذى يخادع لينقذه من الاسر بحيلة او بأخرى، ثم هو الذى يشترك معه فى الزواج أيضا فيتزوج من جارية الفتاة التى اقترن بها عنترة، وذلك ليخلق المؤلف امتدادا لهما معا ممثلا فى الغضبان ابن عنترة وصاحبه الخذروف بن شيبوب اللذين يحمل كل منهما شخصية أبيه ويلعبان دورا هاما فى المرحلة النهائية من السيرة .

ومثل هذا نجده فى شخصية ملك بنى عبس ، فزهير يؤدى دوره الحقيقى مضافا اليه كثير من الاضافات التى يتطلبها البناء القصصى لشخصية عنترة ، فاذا ما اتى ابنه قيس من بعده لعب دورا قصصيا خالصا وشارك فى خلق المواقف الدرامية التى تنتقل بالقصة من مرحلة الى مرحلة حتى تنتهى بالحقيقة التاريخية ، التى هى فناء قبيلة بنى عبس وخروج قيس بمفرده هائما فى صحراء الجزيرة .

ولعل اجمل الشخصيات التاريخية التى صورها المؤلف تصويرا قصصيا ممتازا ، وشاركت مشاركة فعالة فى احكام بناء السيرة هى شخصية عبلة ، ومن احاط بها كأبيها وأخيها وعشاقها وخطابها العديدين . فعبلة — بجمالها — هى التى تدفع عنترة الى السعى وراء المجد والشهرة فى المرحلتين الاولى والثانية من السيرة ، وعبلة — بدلالها — هى التى تدفعه الى ترك القبيلة مغضبا ، فى المرحلتين الثالثة والرابعة ، ثم ان الرغبة فى حمايتها والذود عنها هى التى بنت ذلك المشهد الدرامى الرائع الذى يختم به عنترة حياته .

وهكذا نجد ان مؤلف السيرة قد اختار لها شخصيات مكملة من تلك التى لها دور تاريخى حقيقى فى حياة عنترة ، حسب مقتضيات موضوع السيرة ، وانه شكل هذه الشخصيات وطوعها ، لتعمل متساندة فى احكام البناء القصصى لعمله الروائى مع محاولة الاحتفاظ لها بدورها المعروف تاريخيا وزمنيا .

وهناك شخصيات تاريخية اخرى لم يكن لها دور واقعى فى حياة عنترة بل وربما اختلفت معه – من حيث الوجود – زمنيا ومكانيا ، ومع ذلك فقد استعملها المؤلف واوجد لها دورا فى روايته رغم استحالة حدوث ذلك تاريخيا . وربما كان هدف المؤلف من هذا العمل ، هو تأكيد الواقعية التاريخية لقصته باستغلال أسماء ذكرها التاريخ ، ووقرت فى اذهان الناس من ناحية ، ثم تحقيق الاهداف التى يريد ان يصل اليها بطله من ناحية اخرى ، وايهام المتلقى بان ما يورده من احداث تتسم بميسم الحقيقة ، وذلك اذا ما كانت الاطراف المشتركة فيها لها واقع تاريخى حقيقى .

فعنترة الفارس، لكى يتبوأ مكان الصدارة فى الفروسية، يجب عليه ان ينازل جميع الفرسان الذين عرفهم تاريخ الجزيرة العربية بصرف النظر عن مكان وجودهم وزمانه . ففى المرحلة الاولى من حياة عنترة نراه يلتقى بعروة بن الورد من فرسان العرب المعروفين تاريخيا ، وبرستم من فرسان العجم المعروفين تاريخيا كذلك ، ويصف لنا المؤلف هذا اللقاء وصفا قصصيا مطولا . وما أن تبدأ المرحلة الثانية من مراحل حياة عنترة – وهى مرحلة الفروسية – حتى يعدد لنا المؤلف أسماء سبعين فارسا من فرسان العرب والعجم والروم والاحباش – معظمها أسماء ذكرها التاريخ – ليقول أن بطله التقى بهم وقهرهم جميعا (١) .

وعنترة الشاعر لكى يحصل على امارة الشعر ويعلق قصيدته على الكعبة ، لابد له أن يلتقى بجميع شعراء الجزيرة العربية لا سيما أصحاب المعلقات ، ويجب ان يبزهم لا فى قول الشعر واتقان علوم العربية فحسب ، وانما فى الفروسية واستعمال السلاح كذلك (٢) .

وعنترة الفاتح الذى يسير على رأس جيش واسطول بحرى يفتح العالم بلدا بعد بلد ، يجب ان يلتقى بالملوك الحقيقيين لتلك البلاد . فهو بعد ان التقى بكسرى وقيصر اشرك معه « هرقل » – ابن قيصر – فى غزو جنوب اوروبا وشمال افريقيا ، ثم التقى بهرمس فى الاسكندرية وبالنجاشى فى الحبشة . ويقول الدكتور فؤاد حسنين على أن «حضرموت»

---

(١) السيرة مجلد ٣ ص ٢٥١
(٢) السيرة مجلد ٥ ص ١٤٨

فارس ايران المشهور الذى هزمه عنتره هو « بوهيمند Bohemund » الفارس المعروف تاريخيا ، (١) وان «جوفران» ابن عنترة من مريم التى أهداها اليه قيصر هو فى الواقع احد فرسان الحروب الصليبية المسمى « جودفراى Godfrey » (٢) .

ثم أن هناك جوانب اخرى للفروسية يجب ان يستكملها البطل عن طريق اتصاله بمنابعها التاريخية الحقيقية . فاذا ما اراد المؤلف ان يؤكد له صفات الكرم والشهامة ، جعل له فضلا على أشهر كرماء العرب « حاتم الطائى » عن طريق اتصال مباشر به . واذا ما أراد المؤلف أن يؤكد لبطله الحكمة والقيادة الفكرية جعله صنوا لشيخ العرب دريد بن الصمة وصديقا له ، واذا ما اراد أن يحقق له أخطر أهداف السيرة بتحديد مكانه من الدين الاسلامى ، وايجاد دور له فى الرسالة المحمدية ، جعله يتصل اتصالا مباشرا بعبد المطلب ـ جد الرسول ـ ويشترك معه فى رد حملات الهنود والاحباش عن الكعبة ، واذا ما اراد ان يجعل منه حاميا للجزيرة العربية ضد الغزوات الاجنبية اشركه فى موقعة ذى قار الشهيرة ـ عن طريق غير مباشر ـ فجعل من بطلها الحقيقى « هانىء بن مسعود » صديقا لعنترة وجنديا من جنوده.

فالمؤلف فى اختياره لهذه الشخصيات جميعا يعتمد على التاريخ ولكن بشكل يختلف عما اصطنعه فى الشخصيات السابقة ذات العلاقة التاريخية المباشرة بحياة عنترة ، والتى كان تاريخها الزمانى والمكانى يسمح باتصاله بهم، اما هذه الشخصيات التاريخية الجديدة فلا يربطها بعنترة اى رابط اللهم الا رغبة المؤلف فى استغلالها لتأكيد مفاهيم معينة، وتحقيق اهداف يتطلبها البناء القصصى ، بالاضافة الى محاولة زيادة الاقناع بما لروايته من واقع تاريخى .

ثم يستمر البناء القصصى فى نمائه ، مما يتطلب خلق شخصيات تناسب المواقف القصصية التى يوردها المؤلف دون أن يكون هناك أى اتصال بينها وبين الواقع التاريخى ، وهنا تتجلى براعة الكاتب فيما يظهر من قدرة فائقة على التأليف القصصى وحسن تفهمه لمقتضيات الخلق الدرامى . فهو حين قدم أحداثا تاريخية ثابتة استغل فيها الشخصيات التاريخية الحقيقية التى لها اتصال بالبطل وبموضوع السيرة ، وحين قدم أحداثا قصصية لها علاقة بالشخصية التاريخية للبطل ، ولها دور فى بناء تلك الشخصية، وتطويرها ، استغل شخصيات

---

(١) قصصنا الشعبى ص ٧٥

(٢) قصصنا الشعبى ص ٧٦

تاريخية كذلك وان كان لا يربطها بالبطل الواقع الزماني والمكاني ، أما حينما حاول تقديم أحداث قصصية درامية لا علاقة لها بالتاريخ ، وانما اتت لمقتضيات البناء الفني وحده اتجه في اصطناعه لشخصياتها الفني وحده اتجه في اصطناعه لشخصياتها اتجاها آخر هو الاتجاه الرمزي الذي يؤكد المضمون الدرامي ، ويحقق قوة التأثير وينقل المشاعر الانفعالية الى المتلقي .

فامتداد عنترة - بعد وفاته - يجب ان يأخذ جميع السمات التي كانت له حتى يكون امتدادا طبيعيا وحتى يعطي التأثير المطلوب ، ولن يوحي بهذا الامتداد اكثر من اسم يحمل سمات الامتداد في الاحرف والتركيب والايحاءات الصوتية . لهذا نجد ان المؤلف قد اطلق على ابنة عنترة اسم « عنيترة » ليعطي تشابه الاسم ايحاءات لتشابه الشخصية وتشابه الحياة . ومثل هذا يقال في اختيار المؤلف للاسم الذي اطلقه على ابن شيبوب (اخي عنترة) والذي حمله جميع سمات ابيه بل وجعل دوره في الرواية - بالنسبة لعنيترة - هو نفس الدور الذي كان يقوم به ابوه شيبوب لابيها عنترة ، ولهذا فقد اطلق عليه اسم « الخذروف » .

وتتواتر في السيرة هذه الاسماء الموحية التي تحمل الرمز الكامل لدورها الدرامي في القصة ، فملك السودان اسمه « لون الظلام » (١)، وقائد النصارى الذي اراد انيهاجم الكعبة اسمه «كافر بن فاجر» (٢)، والسلال الذي سرق الابجر - فرس عنترة الاثير - اسمه « المختلس بن ناهب » (٣) ، وفارس الاحباش يدعى « عبد زنجير » (٤) ، بينما يدعى أمير السواحل الجنوبية « عقريب السواحل » (٥) . أما الفرسان الذين هزمهم عنترة وهو في اوج مجده الفروسي فمنهم «محارب بن جيشان» ومنهم « معاوية بن النزال » ، في حين ان صديق عنترة الحميم وزميله في السراء وفي الضراء يدعى « مقرى الوحش » .

فاختيار المؤلف لهذه الاسماء الرمزية الموحية التي تكاد تحمل - في ذاتها - كل المعاني الدرامية التي يريد ان يحملها للحدث والتي هي في نفس الوقت بعيدة عن الاسماء التاريخية المعروفة أتت لتدل على ان الكاتب يعطي هنا احداثا غير تاريخية تخيلها هو واصطنعها ليكمل بها البناء القصصي وليستفيد منها في تطوير شخصية بطله ورسم الصورة التي تصورها له ولاطوار حياته .

من هذا نستطيع - في بساطة - ان نفرق في سيرة عنترة بين الشخصيات التاريخية الحقيقية التي لعبت دورا اساسيا في حياة البطل ، وبين الشخصيات التاريخية التي استعارها المؤلف ليكمل

الصورة التاريخية له ويبرز بسمات وملامح معينة شاء أن يضفيها عليه، ثم بين الشخصيات المكملة التى انشأها المؤلف انشاءا تخيليا استجابة لمقتضيات البناء القصصى واستكمالا للصورة الروائية التى اراد ان يرسمها لعنترة .

ولا يقتصر حذق مؤلف السيرة على حسن اختياره للشخصيات وعمق فهمه لادوارها فى روايته التاريخية (حتى بمفهوم النقد المعاصر لها) وانما يتعداه الى حسن اصطناعه لتلك الشخصيات والسير بها فى نماء قصصى ممتاز . وقد وضحت لنا مظاهر هذا الحذق ، حينما تتبعنا نماء الشخصية الرئيسية فى الرواية — وهى شخصية عنترة — بحيث امكننا فى يسر مسايرة الكاتب منذ أول خلقه للشخصية ثم تطوره بها حتى نهايتها ، وبعد ذلك فى امتداداتها وارهاصاتها . وقد تم له احكام بناء تلك الشخصية بواسطة الخطوات المتعاقبة المتناسقة التى سار بها ، وبواسطة المراحل المتتالية والمتساندة التى اصطنعها بحيث كانت كل مرحلة من مراحل بناء شخصية عنترة ، تؤدى الى المرحلة التالية لها أداء طبيعيا مقبولا ، كما كانت كل مرحلة من تلك المراحل تعتمد اعتمادا كليا على المرحلة السابقة لها وتتعاون معها لتقودنا الى المرحلة التالية لها ، وهكذا .

والذى رأيناه فى بناء شخصية عنترة نجد مثله فى بناء معظم شخصيات السيرة ، فاذا تتبعنا اى شخصية من تلك الشخصيات وجدنا ان المؤلف يقدمها لنا — أول الامر — فى مكانها الطبيعى المناسب ، ثم يستمر ينميها نماء قصصيا سليما ومسايرا للبناء العام حتى يصل بها الى القمة الدرامية ، دون أن نحس فيها بأى نقص أو انحراف أو اهتزاز ودون ان يفقد الكاتب الخيط الذى يربط الشخصية باحداث القصة (التى تبلغ نيفا وأربعة آلاف صفحة) مهما طالت الفواصل بين مواضع ظهور تلك الشخصية ومهما صغرت المواقف التى تظهر فيها . فشداد — أبو عنترة — الذى يأخذ دورا رئيسيا فى الفصول الاولى من الرواية ثم يستخفى الى حين ، يظل محتفظا بشخصيته وبالسمات المميزة له حين يظهر بعد ذلك فى الفصول الاخيرة . ومثل هذا عروة بن الورد الذى يظهر ويختفى بين الحين والحين ، ودون حدوث أى اهتزاز فى شخصيته ودون أن ينسى المؤلف أى لمحة أو سمة من اللمحات والسمات التى أضفاها عليه من أول الأمر .

ولعل شخصية عبلة أن تكون هى الشخصية المثالية فى تبيان مدى كفاية المؤلف واتقانه عملية بناء الشخصيات وانمائها . فعبلة فى أول السيرة فتاة مدللة تستهوى الرجال وتقودهم الى حبها وتبدو

الشوك فى طريق ذلك الحب ، وهى الفتـاة العربية التى تخضع لاوامر أبيها دون اعتبار لمـا يمليه عليها قلبها . وحينما يفوز بها عنترة تصبح عبلة الزوجة الوفية العاملة على اسعاد زوجها ، ولكن تدللها لايلبث أن يظهر فى صورة اخرى ، تدفع بعنترة الى الغضب منها وهجرها ، وهى فى نفس الوقت المرأة العربية التى تحتـاج دائمـا الى سيف رجلها ليدافع عنها فمهما تركها الى غيرها من النسـاء فانه لن ينسى أن من واجبه حمايتها . حتى ولو دفع حياته ثمنا لذلك . فاذامابلغنا نهاية القصة عاودتنا عبلة المتدللة ، ولكن تدللها هذه المرة يكون السبب فى نهايتها ، اذ لا يحتمله عامر بن طفيل ، فيقتلها ويقتل معها اباها واخاها.

وهكذا نحس الترابط القوى فى مراحل نماء شخصية عبلة ، كمـا احسسناه فى مراحل بناء شخصية عنترة ، وكما يتوافر فى بنـاء كافة شخصيات السيرة التى لو اننا تتبعناها شخصية . شخصية لما شذت واحدة منها عن المنهج السليم الذى اصطنعه مؤلف السيرة فى بنـاء الشخصيات ونمائها .

وهناك ظاهرة ثالثة نلمحها فى شخصيات السيرة — بعد حسن اختيارها وحسن نمائها — هى سلامة الربط بينها وبين الأحداث . فكل شخصية اصـطنعها المؤلف أظهـرها فى الوقت المناسب والمـكان المناسب ، بحيث يتم التناسق بينها وبين الحدث الذى تتفاعل معه لبناء الكيان القصصى العام — فشيبوب مثلا الذى تقتضى الاحداث ملازمته لعنترة يستمر ظهوره فى كل فصل من فصـول السـيرة بينما شداد يستخفى بعد الفصول الأولى ليعاود الظهور فى الفصول الأخيرة ، حين تبدو حاجة عنترة اليه فى شـد أزره وتجميع القبـائل حـوله لدفع الخطر عن الكعبة . وعروة بن الورد يصبح جنديا من جنود عنترة منذ بدء القصة حتى نهايتها بينما لا يلتقى عنترة بهانىء بن مسـعود الا قبيل موقعة ذى قار ليترك له فرصة التربع على عرش ذلك اليوم من أيام العرب — طبقا لاحداث التاريخ — ثم يضمه بعد ذلك الى عداد جنده واتباعه . وشعراء المعلقات يلتقون بعنترة مرتين ليقرروا نجاحه فى حيازة السيف والشعر جميعا ، ويوافقوا على تعليق قصـيدته فى الكعبة بينما لا يلتقى عنترة بحاتم الطائى الا مرة واحدة ليعترف له بالفضل ، أما الشيخ عبد المطلب فيكرر لقاء عنترة به كلما حزب الجزيرة العـربية أمر من الأمور وتعرضت لتهديدات كافر أتى يريد السـوء بكعبتها المقدسة .

وأوضـح مظهر لمدى الترابط بين شخصيات السـيرة وبين الاحـداث التى تتحرك فيها هو ظهور زبيبة — أم عنتـرة — فى أول

السيرة ، حيث ينتهى دورها بخروج عنترة من حيز الاقليمية القبلية الى ميدان الفروسية الدولية ، ثم لا تلبث ان تظهر بعد منتصف الرواية تقريبا ، حينما يلتقى عنترة بالأحباش ، لتلعب زبيبة دورها فى الربط بين عنترة وبين جدها النجاشى ، مؤكدة علاقات الود والترابط بين العرب والاحباش ومثبتة لسلامة نسب عنترة من جهة امه كما اثبتتها له من جهة أبيه بامتناعها على بقية الفرسان المصاحبين لشداد فى أول الرواية .

وهكذا نجد ان مؤلف السيرة قد أجاد أيضا فى تحريك شخصيات روايته ، وفى الربط بينهم وبين الاحداث ، بحيث يتفاعلان معا لينتجا البناء القصصى السليم وليحققا المضامين التى هدف اليها من وضع سيرته ، وهى المضامين التى سوف نتحدث عنها فى الفصل التالى .

***

هذا من حيث الشخصيات الفردية فى السيرة ، اى الاشخاص الذين لهم دور ذاتى يلعبونه بأسمائهم المحددة ووجودهم الفردى . فاذا انتقلنا الى الشخصيات العامة ، اى مجموع الاشخاص الذين تتطلب الاحداث وجودهم فى المواقف المختلفة كجزء مكمل للصورة التى يرسمها المؤلف ، كان أهم ما يعنينا هو ملاءمتهم للموقف الذى يلعبون دورهم فيه من ناحية ، وصدق تعبيرهم عن البيئة التى يجرى فيها الحدث من ناحية اخرى .

وسيرة عنترة تنتقل بأحداثها فى اكثر من بيئة ، وتتناول أكثر من مجتمع . فهى لا تقتصر على الجزيرة العربية - رغم اختلاف مجتمعاتها من بدو فى الشمال ويمنيين فى الجنوب ، ويهود ومسيحيين - ولكنها تنتقل الى بلاط كسرى مرة ، والى بلاط قيصر مرة اخرى ، ثم تحملنا معها الى بلاد الاحباش والسودان وتجوب ممالك جنوب أوروبا وشمال افريقيا ، وتصف جيوش الهند وجنود الجن . والمؤلف لا يقتصر فى تصوير هذه المجتمعات المختلفة المتباينة فى صورة واحدة وانما ينقل الينا أوجهها المختلفة ، فهو حين يأخذنا الى بلاط قيصر مثلا يصور لنا مجتمعه من زوايا شتى فيرسم لنا صورة للحياة العامة فى قصر قيصر وفى قصور غيره من الامراء ، ثم ينتقل مع بطله عنترة الى السجن مرة والى حلبات المصارعة والترفيه مرة اخرى ، ثم الى تجهيز الجيوش ثالثة ، يضاف الى هذا تصويره للمواقع الحربية ومواقف المبارزة والقتال التى تختلف من بيئة لبيئة ومن شعب لشعب .

واظهر ما تدل عليه السيرة هو أن مؤلفها على علم واسع بمعظم البيئات التى أجرى فيها أحداث روايته ، وعلى معرفة عميقة بمجتمعاتها وأوصاف أهلها وعاداتهم وتقاليدهم ، كما أنه على خبرة تامة بمواقفهم من العرب ـ أو على الأصح ـ بموقف العرب منهم سواء قبل الاسلام أو بعده . وكذلك فان الصدق الفنى والواقعية والوصف المستند الى الحقائق الجغرافية والطبيعية يبدو بوضوح فى كل ما يكتبه عنهم فاذا ما انتقل الى أماكن خيالية كأرض الجن والغيلان فى تصويرها ورسم لها أشكالا تدل على ما يتمتع به ـ كمؤلف ـ من أو الى مناطق لا خبرة له بها مثل مجاهل بلاد السودان اعتمد على خياله فى تصويرها ، ورسم لها أشكالا لا تدل على ما يتمتع به ـ كمؤلف ـ من تصور واسع وخيال عريض يسعفانه بما يريد وبما يتلاءم ملاءمة تامة ابرازها من وراء ذلك .

ولعل أبرز ما يوضح لنا دقة هذا المؤلف فى رسم الشخصيات العامة فى البيئات المختلفة ، هو اختياره لصفة ـ أو مجموعة من الصفات ـ تبين شخصية القوم وتدل عليهم دلالات واضحة . فنحن نجد مثلا أن أول صورة أعطاها للقارىء عن بلاط كسرى تتناول الدسائس والمؤامرات المتفشية فيه ، والتى يحكيها رجال القصر والاتباع بعضهم لبعض ، ثم هدف المؤلف الى اثارتنا ضد هذه الاوضاع بأن أظهرنا على دسيسة حاكها أتباع كسرى للملك العربى « المنذر » ليوقعوا بينهما ويثيروا حفيظة كسرى عليه . (١) وحينما تنتقل القصة الى حصن خيبر حيث يقف عنترة أمام سكانه اليهود يبنى المؤلف جميع معاركهم ضده على أسس من الغدر ويجعل كل أحداث هذا الجزء من القصة تجرى بسبب خياناتهم وحنثهم بالوعود . (٢) وعندما بلغ مصر ، قدم لنا صورة لم يسبق لها مثيل فى القصة هى وصفه لسير ركب عنترة فى طرقات الاسكندرية وخروج سكانها لتحيته .. « وقد علت منهم الزعقات ، وأكثروا من الصياح والضجات ، والناس صاروا من أعالى الأسطحة يتفرجون على شجيع عبس وذبيان . (٣)

ومما يدل على المام المؤلف بالمعالم العامة لكل بيئة من البيئات التى اجرى فيها أحداث قصته ، وعلى المظاهر المميزة لكل شعب من شعوبها انه اختار أبرز تلك المعالم فى كل اقليم وصوره فى قصته

---

(١) السيرة ـ مجلد ١ ص ٢٤٦
(٢) السيرة ـ مجلد ٥ ص ٢٣٢
(٣) السيرة ـ مجلد ٨ ص ٩٠

تصويرا دقيقا رائعـا فمن البيئة البـدوية فى الجزيرة العربية تخير المؤلف صـورتين بارزتين رسـم لكل منهما لوحة كاملة : الأولى هى صورة الاجتماعات الادبية ومجالس المطارحات الشعرية والمعارضات القولية (١) ، أما الصورة الثانية ، فيرسمها فى أواخر القصـة مبينـا طريقة اخذ الثأر من أسرى الأعداء (٢) فاذا انتقلنا الى بلاط كسرى أو قيصر ، أو حتى بلاط النعمان ، فلا مكان للاجتماعات الأدبية التى يحل محلها لون آخر من الرياضة الجماعية هو حلبات المبـارزة واختبـار قوى الفرسان ثم ما يعقبها من حفلات سمر وطرب وشراب .

ولمـا كانت العادات الفردية مظهرا من مظاهر تحديد الشخصية الجماعية كذلك ، فان مؤلف السيرة لم يهمل ابراز هذا الجانب. لهذا كان فى كل لقاء يجريه بين عنترة وبين فرسان بيئة من البيئات يصف لنا ــ فى دقة وتعمق ــ طريقة ذلك الفارس فى لقاء خصمه ، والاسلوب الذى يتبعه فى النزال ، كما يضف نوع السـلاح الذى يحمله وطريقته الخاصة فى استعماله ، بحيث أصبحنا نستطيع بسهولة أن نميز بين طريقة قتال الفارس العربى والفارس العجمى والفارس الرومى وفرسان اليمن والجنوب . ثم ان المؤلف كان يتحرى ان يضيف الى كل لقـاء من تلك اللقاءات بعض الاحداث الصغيرة أو المحاورات القولية ، التى توضح جوانب شخصية ذلك الخصم وتعكس صـورة لبيئتـه وقومه تساعد على تحديد شخصيتها العامة .

وقد فطن المؤلف السيرة كذلك الى مظهر من أهم المظاهر التى تحدد شخصية الشعوب ، ونعنى به نوع الملابس وألوانها ووسـائل التأنق فيها ونوع الزينات التى يصطنعها الافراد ويقبلون عليها . ولهـذا وجدناه كلما انتقل الى بيئة جديدة أو اجـرى مبارزة بين عنترة وبين فارس أجنبى تعمد وصف هيئته وملبسه ومظهره .

بهذه اللمسات الناجحة استطاع مؤلف السيرة أن يرسم صـورا دقيقة للشخصيات العامة ، لا تقل فى اتقانها وفاعليتها عن تلك التى رسمها للشخصيات الفردية فى روايته ، وبحيث تتعاونان معا فى تشييد بنـاء قصصى سليم يجعل من سيرة عنترة عملا أدبيا قد توافرت له جميـع الاركان الفنية .

(١) السيرة مجلد ٤ ص ١٠
(٢) السيرة مجلد ٦ ص ٧٣

المضامين

حسمت السير الشعبية بعامة موقفها من العمل الفنى ، اذ بنيت منذ أول نشأتها على وجود هدف أو أكثر تخدمه بما تسوق من احداث وبما تسرد من افعال واخبار ، وقد حدد هذا — الى حد كبير — كون السيرة عملا تقصد به الجماهير ، اذ أن الصورة التى نعرفها عن المتلقين انهم جماعة يستمعون الى راو ، فكان لابد لهذا الراوى — كى يستحوذ على أسماعهم — أن يمس من المشكلات ما يرضيهم ويتجاوب مع مشاعرهم ، وكان لابد له كذلك أن يعبر عن وجهة نظرهم وأن يقف بأحداث سيرته واخبارها موقف المبارك لما يعارضون والمؤيد لما يؤيدون . وهكذا نجد أن مشكلات العصر قد اطلت براسها فى هذه السير الشعبية .

وقد حملت لنا كتب الأدب من الروايات ما يقرر أن سلطات حاكمة فى عصور بذاتها قد أملت بعض هذه القصص أو أوحت بها لتحمل من الآراء والمعتقدات ما يوجه الجماهير المتلقية الوجهة التى يريدون ، وقد ذهبنا نحن الى نفس هذا الرأى ولكن بصورة عكسية هى مناهضة السلطات الحاكمة الدخيلة والوقوف فى وجه تعسفها وجورها ، والواقع أن الاعتماد على السير الشعبية فى تغليف الاتجاهات السياسية وتثبيت عصبيات بعينها وتبرير أوضاع بذاتها عمل يتفق مع امكانياتها الضخمة ، وطبيعة انشائها وتلقيها . ولهذا فانه ليس من الغريب حين ندرس سيرة ما أن نسأل ونحن نتتبع الاحداث المثيرة التي تتضمنها : ماذا وراءها ؟

وسيرة عنترة تثير هذا السؤال بحكم ما اختارته من شخصيات وما تتحرك فيه من بيئات . فالشخصيات التى وردت فيها تعكس دفاعا عن أكثر من قضية ، والبيئات التى جرت فيها احداثها ، تضع الاجابة لاكثر من سؤال ، يتردد عن الصراع بين العرب وغيرهم من الشعوبيين . فلا شك ان هذا الاخبار اذن كان يستهدف مضامين سياسية بذاتها ، تلح على العصر الذى كتبت فيه ، كما تلح على أهل هذا العصر الذين احتفلوا بسيرة عنترة كمخرج فنى لكثير من مشكلاتهم .

حظيت معظم قبائل العرب بذكر خالد بعد الاسلام لارتباطها بأكثر من بطل ، لعبوا أدوارا هامة فى نشر الدعوة المحمدية ، ولكن قتيلة

عبس كان حظها ضئيلا ــ أو معدوما ــ (١) ولا يأتى ذكرها الا داخل قبيلتها الأم « ربيعة » . ومن الطبيعى حين يتفاخر الناس بعد الاسلام بمشاركتهم فى الدعوة ، ان يبحث بنو عبس عن سند يعتمدون عليه فى أن يكونوا أصحاب حق فى الدعوة الجديدة ، ولهذا اخذ العبسيون يبحثون فى تاريخهم فوجدوا أن اظهر شخصيات نقلها التاريخ الجاهلى اليهم هى شخصيات عنترة وزهير الملك وقيس ابنه وعروة بن الورد . وقد اشتهر زهير وابنه قيس بالحكمة واصالة الرأى ، واشتهر عروة بالشعر والفروسية وبجماعة الصعاليك التى كان يتزعمها حتى لقد أطلق عليه « عروة الصعاليك » (٢) أما عنترة فلعله الوحيد فيهم الذى نقل التاريخ عن حياته ما يصلح أن يكون مجالا لعمل قصصى بل وأن يكون مجالا للدفاع عن أكثر من قضية .

وحين اختار واضع السيرة شخصية عنترة ليجعل منه بطلها وليدير الاحداث حوله ، استغل الشخصيات الباقية جميعا ، لتلعب أدوارها فيما يسوق من احداث ولتسهم بسماتها ومآثرها فى ابراز القضايا التى يدافع عنها وتأكيد المضامين التى يريدها .

وهكذا استطاع مؤلف سيرة عنترة أن يجعل لقبيلة عبس مكانا فى التاريخ وأن يخلق لها كيانا يصلح أن يكون بيئة اجتماعية فيها الخير عند عنترة وفيها الشر عند الربيع بن زياد ، وفيها النجدة عند عروة وفيها الرأى الحكيم عند قيس وعند زهير . واستطاع المؤلف أيضا أن ينمى هذه البيئة ويبعث فى مجتمعها الحياة بحيث لا تصبح مجرد خلية من خلايا المجتمع العربى القبلى بل يجعلها أهم خلايا هذا المجتمع قاطبة ، تدور حولها الاحداث وتتصارع فى سبيل رفعتها مجموعة من الابطال العبسيين على رأسهم عنترة ، بل وتتكتل القبائل العربية ــ التى عرفها التاريخ والتى استمرت بعد ذلك تسهم فى الاحداث الاسلامية ــ لتقضى على قبيلة عبس فتنجح مرة وتفشل أكثر من مرة ولكنها فى كل مرة تؤكد أهمية هذه القبيلة وقيمتها فى تاريخ الجزيرة العربية .

وحين نشهد هذا الجهد الكبير الذى يبذله المؤلف لتثبيت قيمة هذه القبيلة نحس أن جزءا كبيرا من أهدافه ، يمكن فى تأكيد مركز القبيلة خاصة حين نجده يعلن أن عنترة ما ظهر الا لأمر تريده القوة

---

(١) معجم قبائل العرب لعمر رضا كحلا ج ٢ ص ٦٨٩ « وربما يعود هذا لانتهاء تكتلهم قبيل الاسلام . اذ فنى منهم من فنى ولجأ من بقى الى قبيلته يحاول الحاق نفسه بها » .

الغيبية الكبرى ، ادخرته له وزودته بالفروسية الخارقة ليحققه وامدته - فى سبيل ذلك - بقدرات خارقة غير عادية اذ يقول المؤلف ان « عنترة كان فيه سر خفى لا يعلمه الا الذى ركبه فيه ، وهذا انه كان اذا انتهى به التعب مع خصمه من شدة القراع وانفصلا عن بعضهما البعض وصار بينهما من الإتساع باع أو ذراع زال عنه تعبه ، واستمد بقوة الله عصبه ، وكأنه لم كان ويشتاق الى الحرب والطعان كما كان فى أول الحال » . (١)

ويضيف مؤلف السيرة ان السبب فى هذا التأييد المادى الذى أيده به الله سبحانه وتعالى هو أن العرب فى الجاهلية « كانوا يعبدون الاوثان ولا يخافون الله ولا يراقبونه ولا يخشونه ولا يحترمونه » (٢) ، فأراد تعالى اهلاكهم « وقهرهم بأقل الأشياء عليه ، واحقرهم لديه ، وكان ذلك غير عسير عليه ، وذلك بالعبد الموصوف بأنه حية بطن الواد ، الذكى الفؤاد ، الطيب الميلاد ، عنترة بن شداد ، الذى كان فى زمانه شرارة خرجت من زناد ، فقمع الله به الجبابرة فى زمن الجاهلية حتى مهد الأرض قبل ظهور سيدنا محمد خير البرية . » (٣)

فالمسألة اذن ان رسالة العبسيين - ممثلة فى عنترة - كانت تمهيد الجزيرة العربية للدعوة الجديدة ، وكانت القضاء على الجبابرة من الفرسان العرب الذين قد يعوقون انتشار الدين الاسلامى . وقد حرص المؤلف على ايراد الابطال والفرسان الذين اشتهر أمرهم فى المعارك الاسلامية وليقوموا بدور فى السيرة ، اما كأعداء لعنترة يقفون منه نفس الموقف الذى وقفوه من الاسلام فيما بعد مثل ذى الخمار وغيره ، واما كأصدقاء مؤيدين لعنترة وهو نفس الموقف الذى وقفوه من الدعوة الاسلامية ، مثل دريد بن الصمة .

وهكذا نجد أن المؤلف حريص كل الحرص على أن يثبت فى الأذهان أن العبسيين وان لم يقوموا بدور فى الاسلام فقد خدموا الاسلام فعلا بالتمهيد له ، بل انه يحرص فى نهاية السيرة على أن يذكر ان أولاد عنترة وعلى رأسهم عنيترة والخذروف بن شيبوب قد أسلموا على يد الرسول وحاربوا فى صفوفه واستشهدوا فى غزواته ، وزاد على ذلك انهم جمعوا للرسول من تبقى فى الجزيرة من بنى عبس فى شبه كتيبة عبسية اسلامية محاربة . (٤)

---

(١) السيرة - مجلد ٦ ص ٣٩٦
(٢) السيرة - مجلد ١ ص ٤
(٣) السيرة - مجلد ١ ص ٥٠٤
(٤) السيرة - مجلد ٨ ص ٣٥٠

وثمة ملحوظة اخرى تلفتنا الى هذا الجهد الذى يبذله المؤلف لتثبيت مكان قبيلة عبس ودورها فى الدعوة الاسلامية تلك هى خاتمه للعلاقة بين عنترة وبين عبد المطلب — جد النبى — تلك العلاقة التى تقوم على الاحترام المتبادل والطاعة من جانب عنترة والتأييد من جانب عبدالمطلب فى موقعة ذى قار ، وفى تعليق قصيدته على الكعبة ثم فى استدعاء عبد المطلب له ليرد عن الكعبة غزاتها من الهنود والروم النصرانيين .

والمؤلف يلجأ الى وسيلة اخرى لتثبيت هذا المعنى تلك هى الصورة الاستعلائية التى ظهر بها عنترة على فرسان الروم والفرس وغيرهم من الامم التى حاربها الاسلام بعد ذلك وانتصر عليها ، وكأنما يريد أن يقول أن هذا الفارس العبسى ، قد واجه أعداء الدعوة الاسلامية من قبل فأذلهم وانتصر عليهم وبث فى قلوبهم الرعب من فرسان العرب المسلمين بعد ذلك .

يمكننا اذن ان نعتبر قضية عبس — كقبيلة — واحدة من القضايا السياسية التى تبناها مؤلف السيرة . ورب قضية اخرى لها الصبغة السياسية ايضا ، هى دفاع عن موقف أهل الجزيرة الشماليين من أهل اليمن الجنوبيين . ولعلنا نفترض لقيام هذه القضية سببين : السبب الأول هو أن أهل اليمن لهم من التاريخ والحضارة والعراقة ما يجعلهم يستندون فى فخرهم وتثبيت مكانتهم الى رصيد كبير من الابطال الاسطوريين والتاريخيين معا — فمنذ عرف العرب الاساطير وهم يرددون اسماء الملوك من التبابعة كمظهر من مظاهر القوة والعظمة وعنوان على السيطرة ورفعة الشأن ، فلتبع الاول حكايات كثيرة هزم فيها الممالك من حوله وقضى على الأعداء الذين نازعوه الانفراد بحكم العالم المعروف آنذاك (١) ، والى جوار اسمه وضعت الأساطير أسماء تبع الاوسط « شمربرعش » وتبع الاصغر والملك الصخر ذو القرنين بل وسليمان الحكيم وملكة سبأ (٢) ثم حكايات كثيرة عن تهود اليمن وتنصرها تثبت أسماء « ذى نواس » وغيره ، بالاضافة الى معارك مع الاحباش والفرس خلقت فيما بعد أبطالا أسطوريين مثل « سيف بن ذى يزن » .

اما عرب الشمال فلعل تاريخهم الحقيقى يبدأ منذ الاسلام أو قبل ذلك بقليل ، وحتى من سكنوا الشمال من الجزيرة كالجراهمة

---

(١) السيرة مجلد ٨ ص ٣٥٠
(٢) كتاب التيجان لوهب بن منبه

والعمالق ، فقد أسندتهم الاساطير الى أصول يمنية لاشبهة فيها (١). وحين قدم اسماعيل الى الجزيرة ليبدأ العنصر الشمالى فيها امتزج بهؤلاء الجراهمة ليدع للاساطير الحق فى أن تجعل من عرب الشمال امتدادا جنسيا لعرب الجنوب . ولسنا هنا فى مجال مناقشة هذه الاوضاع كلها ، ولكننا نريد فقط القول بأن عرب الشمال احسوا بخلو تاريخهم الاسطورى من عمد يستندون اليها فى منافسة عرب الجنوب عراقتهم وأمجادهم ، وحين يجىء عنترة العبسى الشمالى يخوض من المعارك مايرسم لليمنيين — والجنوبيين بصفة عامة — صورة ضعيفة هزيلة يتعمدها المؤلف ، فأبطالهم أمامه يفرون من الميدان ولا يصمدون بالسيف أو فى مباراة بالشعر ، وكلما احتاج الى مال غزا اليمن والجنوب كأنما هى من البساطة واليسر بحيث تأخذ شكل الغنيمة الباردة ، بل ان بعض الابطال الذين هزمهم عنترة ، كان يدخل وحده الى مدينة كبيرة من مدن اليمن فيهزم جيوشها بمفرده ويسوق امامه ملوكهم فى الاسر وأموالهم فى الغنيمة . (٢)

فالمؤلف اذن لا يكتفى بان يجعل من عنترة بطلا شماليا يشابه أبطال الجنوب المعروفين فى التاريخ والاساطير ، وانما هو يدخل عنترة فى مجال المقارنة والمفاضلة بينه وبين أبطال اليمن ليعلن تغلبه عليهم .

أما السبب الثانى فى قضية دفاع المؤلف عن موقف الشماليين ضد اهل اليمن فهو ماافترضناه من أن سيرة عنترة كتبت بمصر ، ونحن نعلم — مما حكاه تاريخ الفتوحات الاسلامية أن جيش عمرو بن العاص الذى فتح مصر كان يتكون أساسا من اليمنيين (٣) ، ومما لاشك فيه أن هذه العناصر اليمنية كونت دعائم المجتمع العربى فى مصر . فربما كان فى الامر نوع من العصبية يريد أن يحد من غلواء اليمنيين الذين يعيشون فى مصر مرددين أمجادهم السوالف ومسيطرين على الاجهزة الحاكمة فى مصر وخاصة بعد انتقال الحكم الى ايدى الفاطميين فلم تعد الدولة تحميهم من لسان القاص وأحداثه المؤلفة .

هذان السببان يجعلان من موقف الشمال العربى عنصرا آخر من عناصر المضامين السياسية لسيرة عنترة بن شداد .

والقضية السياسية الثالثة قضية اكثر عموما من القضيتين السابقتين ، اذ تتعلق بموقف العرب من الشعوبيين من أبناء الامم الاخرى .

---

(١) راجع خطط المقريزى جـ ٢ ص ٧٦ ومابعدها .

(٢) السيرة — مجلد ٤ ص ١٤٣

(٣) راجع خطط المقريزى جـ ٢ ص ٧٦ ومابعدها

وبطل السيرة ، ان كان يمثل امته فى المعارك الدائرة داخل الجزيرة ، فانه يمثل أمته فى المعارك التى يخوضها مع أعداء الجزيرة والشعوب المحيطة بها . ومؤلف السيرة لا يجعل بطله يخوض المعارك مع دولتى الفرس والروم فحسب ، وانما هو قد أدار معاركه مع الهنود تارة ومع الاحباش تارة ومع الافريقيين والافرنج تارة أخرى ، وهو فى كل ذلك لا ينسى الصدق الفنى ، فيما يحكى اذ نراه حريصا كل الحرص على أن يجعل النتائج التى يصل اليها من رسم اللقاء بين بطله وبين هذه الشعوب تبدو مقبولة ومعقولة . فحين يتعرض للهند يرسم صورة خطيرة لقوة الهنود وغناهم وحضارتهم وأسلحتهم وفنون حربهم» (١) ولهجته حين التحدث عنهم يملؤها الاحترام والتقدير ، وهو ان أراد أن يؤكد تفوق بطله عليهم ، فانه لا ينسى مكانتهم وقوتهم فينهى حرب العرب معهم صلحا ورضاء بعد اعترافهم بقيمة فارسه ومقدرته (٢)

أما حين يصطدم عنترة بالاحباش فهو يخلق جوا أسطوريا ضبابيا يتناسب مع جهله بالحبشة وعدم معرفته بحياة أهلها ، بل ان السحر والغيلان لا تظهر الا فى حرب عنترة مع الاحباش(٣) ولكن مؤلف السيرة لا يستطيع أن يتجاهل مانشأ بين الاحباش والعرب بعد الاسلام من تآلف ومودة جعلتهم يذكرون النجاشى بشىء من التقدير المشوب بالحب الذى لعل مرجعه هو موقف النجاشى من المهاجرين المسلمين فى مبدأ الدعوة الاسلامية وقد هيأ هذا الاحترام الفرصة أمام المؤلف ليخلق نسبا بين عنترة والاحباش ، وليصلح من موقف زبيبة — أم عنترة — وليعيد العبسيين من الحبشة كما عاد المهاجرون المسلمون منها وهم يحملون أطيب الذكريات ويتحدثون عن علاقات النسب التى تربطهم ببلاد الحبشة .

أما موقف مؤلف السيرة من الاحداث التى جرت بين عنترة والفرس فهى تعبر — الى حد كبير — عن موقف الامة الاسلامية من دعوى الشعوبية التى تزعمها الفرس ، اذ أنها ترسم صورة للصراع بين العربى كفرد وبين الفارسى كفرد ، وتؤكد أن عنترة — البطل العربى يفوق أبطال الفرس المعروفين من أمثال « رستم » القائد الفارسى المشهور . ويقف المؤلف طويلا ليدير المبارزات بين عنترة والاعجام الذين يحملون من الاسلحة كل ماهو مهول مخيف ولكن عنترة يتغلب فى كل مرة على « عبدة النار » من فرسان كسرى . بل ان المؤلف يرسم

---

(١) السيرة مجلد ٦ ص ٢٠١
(٢) السيرة مجلد ٦ ص ٢٥٢
(٣) السيرة مجلد ٦ ص ٢٦٠

صورة رائعة لتنصيب عنترة ـ وابنه الغضبان من بعده ـ سيدا على كل الفرسان فى مالك كسرى ، وحين يشتد الامر بكسرى ويطبق عليه الروم من كل جانب ، لايجد سوى سيف عنترة، ليفك من حوله الحصار ويشتت المهاجمين ، ويصل الامر عنده الى أكثر من هذا فحين يثور فرسان من المتمردين على كسرى ويستقلون بأجزاء من ملكه لا يردهم الى طاعته غير سيف عنترة (١) .

والمؤلف فى هذه الصور التى يرسمها لايريد أن يجعل من عنترة سيد فرسان دولة كسرى فحسب ، وانما هو يريد أن يجعل له الدالة على كسرى نفسه ، فكأنما ملك كسرى الذى يتشدق به أصحاب الشعوبية من سلالات الفرس ما حماه واقامه الا سيف عربى لولاه لانهار هذا الملك وانتهى .

ونفس هذا الموقف تماما هو مايقفه المؤلف من الاحداث التى يجريها مع الروم بحيث يتشابه هرقل مع كسرى فى التسليم لعنترة بالفروسية ، وفى الادانة لسيفه العربى ببناء ملكهم وحفظه من الضياع. ويتلاعب المؤلف بهذا الموقف كثيرا، فحين ينهزم الفرس امام الروم، يقف عنترة الى جوارهم فينتصرون ، وحين ينهزم الروم امام الفرس، يقف عنترة الى جوارهم فيستردون مافقدوا . وكما ثبت عنترة ملك الفرس فانه يخوض معارك كثيرة فى صف الروم، ليثبت بها ملكهم فى امبراطوريتهم الواسعة ، ويؤكد مكانة الفارس العربى فى كل جزء منها .

من هذا يبدو لنا ان المؤلف يدافع عن قضية الشعب العربى امام العناصر التى دخلت الاسلام من شعوب أخرى تزعم لنفسها عراقة ومجدا دونهما عراقة العرب ومجدهم . وهذه تكاد تكون هى ابرز القضايا السياسية التى عالجها مؤلف السيرة ، اذ انها تبدأ عنده منذ وقت مبكر جدا وتستمر الى نهاية روايته بينما تنتقل الاحداث دائما لترسم صورة العلاقة بين العرب وغيرهم من الشعوب محددة مكان العرب منهم ومبينة فضلهم وتفوقهم .

---

(١) السيرة مجلد ٧ ص ٢٦٠ .

المضامين الاجتماعية

كما تحمل سيرة عنترة بن شداد من المضامين السياسية ما يدافع عن قضية العرب امام الشعوبيين ، فانها الى جانب ذلك تمثل موقفا اجتماعيا معينا يدافع عن كيان الشخصية العربية ، التى وضعها المجتمع الجديد – زمن كتابة السيرة – فى غير موضع الصدارة . فالحكام ليسوا عربا خلصا وانما هم دخلاء استولوا على البلاد من يد الخليفة العباسى صاحب السلطة الشرعية فى الدولة الاسلامية . وكان قوام جيش المعتز – الذى فتح مصر – جندا من المغاربة على راسهم قائد غير عربى هو « جوهر الصقلى » ، كما كان ذلك بتدبير وزير غير عربى – بل وغير مسلم كذلك – هو يعقوب بن كلس اليهودى (١) كما استقدم الخليفة معه شاعره الخاص – غير العربى – ونعنى به « ابن هانىء الاندلسى » الذى كان يريد ان يفاخر به شعراء المشرق . (٢)

وكان من الطبيعى أن يحتل المغاربة والشيعيون جميع المناصب الرسمية فى الدولة من وزارة وقضاء وامامة وغيرها بعد ان اقصوا عنها اهل البلاد والسنيين ، وبذلك اصبح مكان الصدارة لانصار الدولة من مغاربة واتراك واكراد ، بينما تقهقر مكان اهل البلاد الاصليين خطوات كثيرة للخلف . يضاف الى هذا ان الكثيرين من اهل الذمة (وهم النصارى واليهود) سارعوا باعتناق المذهب الشيعى واعلان ولائهم له رغبة فى الحصول على المناصب والعطايا فعاملهم الفاطميون معاملة تتجلى فيها المحاباة والرعاية (٣) .

وهكذا نجد أن المجتمع المصرى قد انشطر الى فئتين متميزتين : فئة الحكام وانصارهم واتباعهم ، وهى فئة تتكون من غير العرب الذين احتلوا مكان الصدارة ، وظهروا بمظهر الغاصب المتجبر المستعلى ، واعتنقوا المذهب الشيعى ، وجاهروا بالشعوبية مفاخرين متباهين . أما الفئة الثانية فهى فئة الشعب المغلوب على أمره الذى أتاه من اغتصب منه بلده

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى – للدكتور حسن ابراهيم حسن جـ ٣ ص ٢٥٢ و ٢٥٣

(٢) المرجع السابق ص ٥٥٢

(٣) المرجع السابق ص ٦١٣

وبالتالى اغتصب مكانه الممتاز فى مجتمعه فنحاه عن موضع الصدارة واعتبره فئة من العبيد بنى العبيد (١) .

هذه الفئة المستضعفة التى كان لها مجد فزال ، وكان لاهلها المركز الاول فى مجتمعهم فأزيحوا عنه الى الاماكن الخلفية ، والتى كان منهم الحكام والقضاة والرسميون فأصبحوا زراعا اجراء ، ونفراءيتحكم فيهم المغاربة والاتراك والاكراد ... هذه الطبقة من المجتمع التى تطرأ عليها مثل تلك المظاهر العارمة المدمرة لابد أن يعانى أفرادهامن الاحساس بالنقص ومن العقد النفسية ، ونحن نجد مدى ذلك واضحا فى سيرة عنترة الشعبية . فمؤلف السيرة يحمل بطله ترجمات صريحة لتلك الاحاسيس والعقد النفسية التى يعانيها الشعب ثم يجعل عنترة يتخلص منها ويتغلب عليها .

وأول هذه العقد عقدة اللون . فاللون كان هو السمة التى تميز رجال الدولة الجديدة من مغاربة واتراك عن سواد الشعب ، وكان هؤلاء يباهون بلون بشرتهم ويعتزون به ويتخذونه مجال مفاخرة على السمر من أبناء البلاد . لذلك نجد أن مؤلف السيرة يختار لبطولتها عبدا أسود اللون ، ويخلق له نفس العقدة اللونية التى تجعله فى مكان العبد من سادة يميزهم عنه لونهم . ولكن عنترة سرعان ما يتغلب على هذه العقدة ــ لا بالنسبة لنفسه فحسب ــ وانما بالنسبة للمقاييس العامة والأحكام الصحيحة اذ يستطيع بقوته وشجاعته ، أن يرغم الناس جميعا على تجاهل اللون كأساس فى تقييم الاشخاص وفى المفاضلة بينهم ، وأن يجعل من صفات أخرى ــ غير اللون ــ المقومات والاسس التى تعمل على رفعة صاحبها أو خفض قدره .

وفى هذه الفترة الزمنية كان أمر الشعوبية قد استفحل فجهروا بمناهضة العرب والحط من قدرهم وقيمتهم الاجتماعية ، وكان أحد سهم وجهه الشعوبيون الى العرب هو سهم النسب ــ لا من حيث الاب وانما من ناحية الام . وقد سلك الشعوبيون الى ذلك طريقين أولهما الطعن فى النسب الخاص ــ أى الفردى ــ وذلك لان العرب فى الجاهلية كانوا يغيرون على بعضهم البعض فيأسرون الرجال ويأخذون النساء سبايا مردفات على حقائب الابل ويطؤوهن . (٢) ولهذا « قالت الشعوبية انما كانت العرب فى الجاهلية ينكح بعضهم نساء بعض فى غاراتهم بلاعقد

---

(١) الحياة الفكرية والادبية بمصر ــ للدكتور محمد كامل حسين ص ٢٢٥ .

(٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٧١

(٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٧٤

نكاح ولا استبراء من طمث ، فكيف يدرى أحدهم من أبوه ؟ » (١) . والطريق الثانى الذى سلكه الشعوبيون فى ذلك هو الطعن فى النسب العام ـ أى نسب العرب جميعا ـ باعتبار أنهم من ولد « هاجر » وهى جارية . ولهذا نعتوهم ببنى اللخناء فى مقابل بنى الاحرار الذين هم العجم من أولاد سارة الحرة (١) .

وقد تناول مؤلف سيرة عنترة هذه العقدة من ناحيتها كذلك ، فهو أولا يثبت نسب عنترة الفردى مؤكدا أن أباه هو شداد وحده لان أمه زبيبة امتنعت على رفاقه من الفرسان (٢) ولان قاضى العرب حكم بذلك (٣) ، فاذا ما أبى اشراف القبيلة أن يعترفون بذلك أرغمهم عنترة على ادخاله فى نسبهم والتسليم له بحقه المشروع فى الانتساب الى أبيه شداد ، وبذلك يكون عنترة قد حقق لنفسه النسب الخاص . أما النسب العام فان مؤلف السيرة يمهلنا الى مابعد منتصف الروايةليعود الى هذه العقدة فيجلوها بارجاع زبيبة ـ أم عنترة ـ الى أصل ملكى ودم أزرق نبيل هو دم النجاشى ملك الاحباش (٤) . وكأنما يريد المؤلف أن يؤكد أن عدم معرفة أصل الام السوداء ـ أو غير السوداء ـ ليس دليلا على وضاعتها وعدم اصالتها وانخفاض قيمتها الاجتماعية .

ويلجأ المؤلف الى حيلة بارعة يرد بها هذا السهم الشعوبى المسموم الى نحور مطلقية ، فنراه يعيد قصة عنترة وطريقة ولادته وعدم ظهور نسبه ، فيكررها لابناء عنترة جميعا مع فارق واحد ، هو ان الامهات هذه المرة ليسوا من العرب وانما هن من الفرس والروم والاحباش واليمنيين جميعا . فعنترة يقع على نساء من تلك الشعوب ويتركهن ليلدن أبناء له ينشأون دون أن يعرفوا أباهم ثم يتضح بعد ذلك أنهم ينتسبون الى ذلك البطل العربى الكبير فيفرحون ويعتزون بهذا النسب ، وكأنما يريد المؤلف أن يثبت ان كل الشعوب ـ على اختلافها ـ تتعرض لمثل هذا الموقف ، وانه اذا مااعتبرنا هذا الموقف مأخذا من المآخذ فلن ينجو منه أحد على الاطلاق .

ويستمر المؤلف فى مواجهته لدعاوى الشعوبيين الذين اخذوا يفتخرون بانتمائهم الى دول غير عربية وأن هذه الدول لها من التأصل فى الحضارة المدنية والرقى ، ما لم يصل اليه أولئك البدو المتبربرون.

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٧٣
(٢) السيرة مجلد ١ ص ٧٦
(٣) السيرة مجلد ١ ص ٨٠
(٤) السيرة مجلد ٥ ص ٤٢٠

وكان بديهيا أن يخلق هذا الموقف للعرب عقدا نفسية كثيرة زاد في تعقيدها مكان هذا العربي المحكوم فيدولته الاسلامية، بينما يرجع حكامه بنسبهم الى شعوب أخرى غير عربية . وقد حل مؤلف السيرة هذه العقدة بابراز مقدرة عنترة الفائقة على هزيمة كل أعدائه مهما كان نسبهم ومهما كان أصلهم وموطنهم ، فهو يتغلب على أشهر فرسان الروم والفرس ، ثم يقتل اعتى ملوك السودان والحبشة واليمن . ثم يزيد المؤلف على ذلك بأن يبرز عنترة في مظهر المنقذ لعرش كسرى والمقيم لملك قيصر والمتحكم في ملوك السودان والاحباش والفاتح لجميع ممالك العالم المعروف آنذاك . فعنترة الفارس العربي ـ الذي هو في الواقع رمز للجزيرة وللعروبة ـ قد أقر له اشهر الفرسان المعروفين في جميع انحاء الارض بالغلبة وعلو الشأن ، كما اعترفت له امبراطوريتا الروم والفرس بالفضل وبدوره في اقامتهما بحد سيفه العربي بعد أن انتصر على فرسانهم ، فأخضعهم وفتح بلادهم ، ثم آزرهم فقضى على جميع أعدائهم وفتح لهم الممالك والبلدان . أى أن هؤلاء الشعوبيين ـ مهما كان مجدهم ـ فان فضل اقامته كان للعرب كما ان تقويضه جاء على يد العرب كذلك .

***

والى جانب هذا فان سيرة عنترة تحمل من المضامين الاجتماعية مايبين مواقف طبقات المجتمع العربي ومكوناته ونظرة العربي الى هذه المكونات سواء اكانت معنوية أو مادية . ومن هذه المكونات : ـ

١ ـ **الدين** : والدين في السيرة دينان ، دين عربي ودين غير عربي . ويتمركز مفهوم الدين العربي في الالتفاف حول الكعبة وسادنها الشيخ عبد المطلب ، أما الاديان الاخرى غير العربية فتختلف بين عبادات غريبة في بلاد الحبشة والهند والسودان ، والمجوسية عند العجم والمسيحية عند الروم والافرنج . ومؤلف السيرة قد حاول محاولة جيدة لاثبات فضل الدين العربي على غيره من الاديان ، وكأنما هو يبث في ذلك أرهاصا لظهور الدعوة المحمدية . فعنترة يصادق مسيحيا هو « مقرى الوحش » ، وهو بعد ذلك يتزوج من مسيحيات وينجب أولادا مسيحيين ، ومع ذلك فهم جميعا يتمسكون بالحفاظ على الكعبة ضد من يهاجمها من الشعوب المسيحية . وعنترة قد يوقر المجوس وقد يدخل كنائس النصارى ، ولكنه ما أن يغادر بلاد الفرس والروم حتى يعود الى الكعبة والى الالتفاف حولها هو وأهله . وفي خلال رحلات عنترة المتتالية في مختلف بلاد العالم نحس انه لا يعدل بدين العربي دينا آخر .

هذا الموقف الذى يقفه عنترة من الدين العربى هو فى واقع الامر مقدمة لازمة لتلك الرسالة الدينية التى زعمها المؤلف لعنترة والتى ربطه فيها بالاسلام كدين عربى يمتد من اصالة ارتباط العرب بالكعبة. فرسالته هى تمهيد الجزيرة واعدادها لاستقبال الدين الجديد ، وذلك بالقضاء على الجبابرة الظالمين ثم بحماية الكعبة من المغيرين الآثمين .

وقد استدعى هذا من المؤلف الا يتعرض لموقف عنترة من الاصنام متعمدا تجاهل هذه النقطة حتى لايربط بطله بوثنية مكروهة ، لذلك نراه يربطه برسالة مبهمة غامضة تتجه نحو المكان الذى تواتر تقديسه على مر الاجيال ــ عند العرب وعند المسلمين ــ وهو الكعبة .

٢ ــ **مفهوم الشرف :** يمكننا أن نعتبر سيرة عنترة محاولة لوضع قيم جديد لمعنى الشرف ، وهى قيم تقاوم مظاهر المدنية والحضارة فى الفترة التى كتبت فيها السيرة حيث أدى التطور الاجتماعى الطبيعى الى ظهور طبقة الاشراف بالوراثة والاشراف بالمال والاشراف بالتبعية . وهذه القيم الجديدة للشرف يستمدها المؤلف من المفاهيم العربية التى وجدت فى المجتمع العربى الجاهلى ، فهو يحط قدر امكانه من العوامل الخارجية لتكوين معنى الشرف ، ويحاول أن يستمد هذا المعنى من تصرفات الذات نفسها . ويتبلور هذا المفهوم فى مبادىء الفروسيةالتى يعتنقها عنترة ويدافع عنها ويسير حياته بمقتضياتها ، من ذلك مثلا الدفاع عن الضعيف ونصرة المظلوم واطعام المحتاج وتامين الخائفواخذ الحق وعدم قبول الضيم والتغلب على الاعداء ورد المعتدين واقصاء المخطىء مهما بلغ ارتباطه بالقبيلة ومهما كانت قيمته فى النسب مثلما فعل عنترة مع الربيع بن زياد ومع الاسود بن النعمان (١) .

٣ ــ **مكان المراة :** تلقى السيرة أضواء حقيقية على مكانة المراة فى المجتمع العربى الذى اعتبرها ــ الى حد كبير ــ متاعا وترفا مهما بلغت من الاهمية والشجاعة حدا يعجز عنه الرجال . فمؤلف السيرة يدافع عن قضية أن المراة وعاء للاطفال دون ما اعتبار لذاتيتها وشخصيتها . لهذا نجد أن السيرة تظهر أكثر من صورة لامراة عربية بلغت فى الفروسية مكانا مرموقا ومع ذلك فهى ضجيعة لا أزيد ، وأم لا اكثر . وبما أن هذا هو وضع المراة ، لذلك فانها لا يمكن ان تكون شخصية اساسية محركة للاحداث ــ الا اذا تم ذلك عن طريق غير

(١) السيرة مجلد ١ ص ٩٣ ومجلد ٣ ص ٣٥

مباشر . وعبلة هى ذروة الصورة التى يرسمها المؤلف للمرأة ، فهى التى انعكست عليها مجالات الصراع فى السيرة لان البطل جعل من الحصول عليها هى حصولا على تحرره من جميع عوامل العبودية التى كانت تحط من قدره ، الا أن عبلة نفسها يتغير موقفها بمجرد الزواج — لانها لا تستطيع أن تكون أما — فيهجرها عنترة الى غيرها من النساء ليصيب منهن الذرية ، وتتوارى شخصية عبلة من صدارة الاحداث الى ذيلها ، حيث نراها فى النهاية مقتولة قتلة مهينة بعد أن فقدت حاميها عنترة . فعبلة اذن — فى حد ذاتها — لا قيمة لها ، وانما الذى خلق لها القيمة وأعطاها الاهمية هو علاقتها بعنترة — أى بالرجل — . ولعل هذا أن يعطينا تفسيرا لتعدد الزوجات عند عنترة ، فدور المرأة المشاركة مشاركة كاملة — فى السراء وفى الضراء — لا مكان له فى حياة عنترة ، ولا مكان له فى السيرة كذلك ، وانما الدور للمرأة الغنيمة ، والمرأة المتعة ، ثم المرأة الام ، ولا شىء وراء هذا .

٤ — **الاسرة :** تعكس السيرة أهمية رابطة الاسرة عند العربى ، والواقع أنها كانت منذ البدء هى الاساس الذى تدور عليه وحوله الحياة العربية ، فرابطة الام التى تربط أفراد الاسرة هى اساس العلاقة بين المجتمع العربى الكبير ، فمن أجل الحصول على القوت للاسرة ، يشن الفرسان الغارات ويتعرضون للموت ، ومن أجل ثارات القتلى من الاسرة تنشب المعارك أخذا للثأر باعتباره واجب اسرى . فكأنما الدفاع عن الاسرة — أحيائها وأمواتها — هو المحور الاول للمجتمع العربى .

والاسرة العربية التى تعكسها السيرة تعطى صورة متكاملة للاب الحنون المثل الاعلى فى الفروسية ، وللاخوة الاشقاء المتساندين فى السراء وفى الضراء على حد سواء ، ثم للمرأة الوحيدة التى لها احترامها وهى الام . ومع ذلك فان احترامها هنا ليس رعاية وتقديرا وانما هو عطف ومنة . وفى أسرة عنترة يقف شداد مثالا للاب ، ويقف شيبوب مثالا للاخ ، كما تقف زبيبة مثالا للام —. والعلاقة بين الاب والام ليس لها جذور عميقة وانما هى مشهد سطحى للاغتباط بشىء واحد هو الولد ، وكذلك يبدو الارتباط بين الاب والابناء ، وكأنه انعكاس للاعتراف بالجميل والولاء . ومثل هذا يتضح فى موقف أولاد عنترة من أبيهم — وخاصة الغضبان — فنداء الدم يعرف كل منهما بالآخر ويمنع أحدهما ان يسفك دم الآخر وهما فى موقف النزال ، بينما لا يزيد الامر عن الولاء لرأس القبيلة وزعيمها بعد ذلك ، بل ان الموقف قد يتغير اذا ماكان الابن أكثر فروسية من أبيه فيتبع الاب ابنه فى ولاء وطاعة مثلما حدث لشداد مع عنترة .

أما موقف الاولاد من الام فهـو موقف باهت يـكاد يكشف عن ضعف فى الصلة ، اذ أن دور الام كمربية فى مجتمع مثل ذلك المجتمـع العربى الجاهلى يكاد ألا يكون له وجود ، وصورتها التى تظهر لنا تكاد تضعها فى موضع العبودية لزوجها ، فهو سيدها الذى لا تملك معه من الامر شيئا ، وهو يعطف عليها ان شاء ويهملها الى غيرها اذا أراد .

وهناك صورة أخرى للام تتكرر فى أكثر من مكان فى السيرة آخذة دور الام الحانية العطوف التى تقرب من الرجال فى حملها للسـيف ومقارعتها للفرسان وحدبها على الاولاد ، غير أن معظم هذه الصور انما يوردها مؤلف السيرة عن أمهات أجنبيات أما من السودان والحبشة وأما من الرومان والافرنج ، وهى تبرز أكثر ماتبرز فى صور أمهـات أولاد عنترة ، ومبررها ــ فى رأينا ــ هو اختفاء الاب فلابد ان تحل الام محله حتى اذا ماظهر توارت صورتها وانطفأت .

٥ ــ **التقاليد الاجتماعية** : وتعكس السيرة صورا من علاقات أجزاء هذا المجتمع بعضه ببعض لترسم لنا مفاهيمهم وعاداتهم ، ومن هــذه المظاهر الاجتماعية مايلى : ــ

(ا) الزواج : تلعب فكرة الزواج دورا أساسيا فى خلق صـلات المجتمع العربى بعضه ببعض ، بل وصلاته بغيره من المجتمعات . فصلات الزواج هى التى تخلق علاقات النسب بين القبائل وتـكون أساسـا للاحلاف فيما بينهم ، وهى نفسها التى تربط البطل فى السيرة بكثير من الابطال الاخرين الذين يظهرون فى الجـزيرة فتنشأ بينهم روابط لا انفصام لها مثلما حدث بينه وبين عمـرو ذى الـكلب الذى تزوج أخته (١) ، أما بالنسبة لغير الشعب العربى فان الزواج أيضا هوالطريق الذى خلق العلاقات بينه وبين الاحباش ــ عن طريق امه ثم عن طريق زواجه هو واخيه ــ وبينه وبين الروم .

والواقع أن علاقات النسب هذه جعلت من المتعذر اقامة أى دعوى للمفاضلة (من تلك الدعاوى التى كان يثيرها الشعوبيون) ، لان علاقة الزواج قد حققت المساواة امام الامومة وامام الاصل ، وخلقت الارتباط بين الشريف والوضيع ، وبين العربى وغير العربى . ثم ان الاخوال ــ الذين هم من أصل غير عربى ــ يلعبون دورا كبيرا فى نصرة أولاد عنترة بل وفى نصرة عنترة نفسه .

ب ــ الصداقة : لعل اقدس العلاقات عند العربى ــ كما تظهرها السيرة ــ هى علاقة الصداقة التى ترتفع الى مرتبة الارتباط بالدم أن

(١) السيرة مجلد ٨ ص ١٠٤٦

لم تفقها فى كثير من الاحيان حيث كان مزج الدم هنا يأخذ صورة عملية كاجراء من اجراءات المآخاة (١) . وصداقة العربى فى هذه السيرة مبنية على الاحترام المتبادل والاقتناع بكفاءة الصديق والاعتماد عليه اعتمادا كليا فى جميع الامور ، نلمح ذلك فى صداقة عنترة بعروة بن الورد وفى صداقته بمقرى الوحش ثم فى صداقته بهانىء بن مسعود ، كما أننا نستطيع أن ندخل فى هذا الباب تلك العلاقة المتينة التى نشأت بين عنترة وبين أخيه من أمه شيبوب وذلك أن هذه العلاقة ارتفعت من مرتبة الاخوة الى مرتبة الصداقة بكل معانيها .

ومن تقاليد الصداقة العربية استمدت السيرة الكثير من مفاهيم الشرف اذ رسمت ـ بما قدمت من صورها ـ معانى الوفاء والايثار والنجدة والبذل ، كما استطاعت عن طريق هذه العلاقة ان تربط بين البطل وبين الكثيرين من ابطال التاريخ الحقيقيين كدريد بن الصمة والشيخ عبدالمطلب وهانىء بن مسعود ، لان ربط عنترة بهم معناه انه يتحلى بالصفات التى تقربه اليهم وتجعل منهم أكفاء له وتجعله صنوا لهم جديرا بصداقتهم واخوتهم ، كما تؤكد له الواقع التاريخى وتضفى على السيرة ظلال الحقيقة والاقناع .

جـ ـ الاخذ بالثأر : لعلنا نخص بالذكر هذه العادة من عادات العرب لما كان لها من أثر كبير على حياتهم وعلى تكوينهم الاجتماعى ، كما كان لها دور فعال فى السيرة اذ اعطت المبرر للكثير من الاحداث الدموية غير المفهومة ، كما اعطت المبرر للكثير من الوقائع الحربية التى ادت الى ارتفاع قدر بنى عبس ، كما اعطت المبرر ـ آخر الامر ـ للنهاية التى انتهى بها بنو عبس حين تجمعت عليهم ثارات العرب . وهذه العادة الاجتماعية هى التى منحت عنترة حرية كبيرة فى الحركة وحيوية ونشاطا وتناوبا لقوى الشد والجذب ، فحين يأخذ عنترة بثارات قبيلته فانه ـ بذلك وفى نفس الوقت ـ يكثر من الثارات عليها ، وهو فخر للقبيلة حين يأخذ بثاراتها من اعدائها ولكنه ايضا نقمة عليها لانه يكثر بذلك من الطالبين لثأراتهم منه ومنها .

وهذه العادة الاجتماعية تبرر لنا ايضا موقف القبيلة من عنترة فهى تريده ولا تريده فى آن واحد ، تريده حين يشتد بها الخطب ويصبح وجوده ضروريا للحفاظ على أرواح أبنائها وحريتهم وكرامتهم ، ولا تريده فى اوقات السلم حين يكثر من غزواته فيزيد الثارات ويؤلب الاعداء ويصبح مجرد وجوده بين ظهرانيها منذرا بحملة او هجمة لقتله

(١) النظم السياسية والاجتماعية عند قدماء العرب ـ لمحمد محمود جمعة .

والاخذ بالثأر منه والافتئات على امن القبيلة وسلامتها لمجرد انتسابه اليها . وهكذا نجد أن هذه العادة الاجتماعية ، قد أباحت للمؤلف الحركة بحرية والقدرة على خلق الاحداث ووضع المبرّرات لها ، كما منحته مجالا واسعا يبرز فيه الحياة العربية . وما فيها من مد وجزر ومن خير يولد الشر ، وشر يولد الخير .

وقد استعان المؤلف بهذه العادة الاجتماعية ايضا فى ابراز عمق حزن عنترة ومكانة المصروعين من ابناء القبيلة عنده وذلك حين كان يسوق ابناء القبائل التى قتلت اولاده واحباءه الى قبر القتيل ليذبحهم بالمئات والالوف، فمن خلال هذا المظهر القاسى استطاع المؤلف ان يبرز مدى احساس عنترة بالالم والحزن .

وفى ختام السيرة تأتى نهاية عنترة على يد الاسد الرهيص كمظهر من مظاهر الاخذ بالثأر ، وكتصوير لمدى تأصل هذه العادة ومدى عراقتها ، حيث لم يستطع أن يقف فى طريقها توالى الهزائم كما لم يمنعها فقد البصر .

د ــ الفرس والسيف : تعكس السيرة اهمية الفرس فى حياة العربى ، فهو يسميها الاسماء وهو يحتال للحصول عليها وينفق فى سبيل ذلك كل ما فى يده من اموال ومتاع ، ويهيم عنترة بحب فرسه «الابجر» حتى يكاد ينسى حبه لعبلة . وترسم لنا السيرة صورة مجموعة من الناس اسمهم « السلالين » مهمتهم سرقة الخيل والاتجار بها وخوض الحروب والمعارك فى سبيلها ، كما ترسم لنا مدى ارتباط الفارس بفرسه وتصور كيف يطعمه ويغذوه ويرتب له من يعتنون به . ويستغل مؤلف السيرة هذه العلاقة بين الفارس والفرس فى خلق الكثير من الاحداث وفى اقامة المعارك المتكررة المتتالية بسبب سرقة فرس يخرج صاحبه ــ مع قبيلته ــ ليصرع السارق بينما تخرج القبيلة كلها لتحمى من سرقه من ابنائها .

وليس هذا الارتباط بين الفارس والفرس وليد الهواية أو الصدفة، وانما هو وليد الحاجة الحقيقية . فعلى قدر اصالة الفرس وقوة احتماله ومدى فهمه يكون نجاح الفارس فى التغلب على اعدائه والحفاظ على حياته .

والسيف كالفرس ، له اسماؤه المدللة وله انواعه المتعددة واطواله المختلفة وله عند الفارس الالف الذى يشيع فى نفسه الامان ويشيع فى قلب اعدائه الذعر . ومن اجل سيف ودرع تنشب المعارك الطاحنة التى يعتنى بها مؤلف السيرة فيفصلها ويفسرها ويصفها وصفا دقيقا .

ومن أجل هذا ايضا لا يرضى المؤلف لبطله حمل سيف عادى مألوف ، وانما يجلب له سيفا صنع من شهاب . لهذا كان السيف والفرس ركنين اساسيين يحددان معالم القيم فى المجتمع العربى الذى اقامته البراعة فى ركوب الفرس والمهارة فى استعمال السيف .

هـ ـ الماء : تنعكس البيئة العربية انعكاسا كبيرا فى تحديد معالم الصراع بنوعيه ، صراع الافراد من اجل الحياة ، وصراعهم من اجل التفوق . فالصراع من اجل الحياة فى مثل هذه البيئة يعنى تذليل قسوتها من ناحية الجدب وقلة الماء ، وسيرة عنترة ترسم لنا صورا متعددة لفناء قبائل بأسرها اذا ضلت عن الطريق الى الماء أو هزمت فى محاولة الوصول اليه ، كما ترسم صورا لمدى حرص العربى على ان تكون منازله بجوار الغدران .

اما الصراع فى سبيل التفاضل فيدخل فيه الصراع العربى من اجل موارد الماء ومنابعه وكفاحه من أجل الاستيلاء على اكثر الاماكن امنا ـ وهى الاماكن التى يتوافر فيها الماء . هذه الظاهرة تؤدى الى مظهر اجتماعى هام من مظاهر المجتمع القبلى هو مظهر «الموارد او الاحلاف» الذين يستأذنون القبيلة المالكة للغدير فى الاقامة بجوارها حيث أن الماء متوافر والمرعى خصيب . وهذا التجاوز يتحول عادة الى أحد امرين ، فاما ان يكون عاملا من عوامل الربط والتحالف القوى بين القبيلتين وهذا نادر الحدوث ـ او على الاصح نادر الدوام ـ واما ان يكون سببا لمداومة الاحتكاك والصراع بين القبائل اذ يطمع كل منهم فى الاستئثار بالمكان وما فيه من ماء وعشب ، فتبدأ الحزازات بينهما ثم تكبر كالدوائر لتشمل اكثر من قبيلة فى اكثر من معركة .

وسيرة عنترة تصور لنا هذا المظهر الاجتماعى كأوضح ما يكون ، اذ يستغله المؤلف اولا فى بناء العلاقات بين القبائل ثم فى خلق اسباب النزاع بينها ، واخيرا فى رسم صور للمعارك الطاحنة التى تدور بسببه .

الفصل الرابع
شخصية عنترة
فى الأدب الحديث

لم يكن الاعجاب بسيرة عنترة والانفعال بها وقفا على سواد الناس الذين يلتفون كل ليلة حول القاص الشعبى ، ولكن تأثيرها فى المثقفين كان اقوى وافعل . فالمستشرقون الذين وقعوا على هذه السيرة لم يألوا جهدا فى ترجمتها وحملها معهم الى بلادهم ، وادباء العرب الذين سمعوها او قرؤها لم يكونوا اقل تأثرا بها من غيرهم . وبما ان هؤلاء من المتفننين فلا غرو ان هذا التأثير سوف يختزن فى نفوسهم ــ بعد ان لمس وجدانهم ــ ليظهر وشيكا فى اعمال ادبية من انتاجهم اما صريحا واضحا واما متفاعلا مع غيره من المؤثرات لينتج عملا ادبيا جديدا متأثرا بتلك المختزنات .

وفى عصرنا الحاضر نلتقى بثلاثة اعمال ادبية حديثة تدور جميعا حول عنترة وحبيبته عبلة . ومن الواضح ان تأثيرات الاعمال وجذورها تعود الى سيرة عنترة الشعبية وليس الى تاريخه الحقيقى الذى لم نجد فيه بعد البحث والعناء ما يكفى لاعطاء صورة متكاملة عن عنترة وحياته بينما السيرة الشعبية التى فى متناول اليد قد قصت الكثير عنه وعن احداثه .

وعلى ذلك فان هدفنا من اضافة هذا الفصل الى البحث هو تناول تلك الاعمال الادبية الحديثة بالتحليل بغية الوصول الى مدى ارتباطها بالسيرة الشعبية والوقوف على قيمة الاثر الذى تأثر به المنتج الحديث ، وعلى مقدار ما بين عمله وبين الاصل من اوجه الالتقاء والاختلاف . كما ان هدفنا فى المكان الاول هو الوصول الى كيفية تصور هؤلاء المنتجين المحدثين لشخصية عنترة بن شداد ومدى فهمهم للسيرة الشعبية كعمل فنى متكامل .

وقد آثرنا ان نتناول هذه الاعمال حسب اسبقية وجودها الزمنى فبدأنا بمسرحية « عنترة » للشاعر احمد شوقى ، ثم مسرحية « حواء الخالدة » للقصاص محمود تيمور ، واخيرا قصة « أبو الفوارس » للاديب محمد فريد ابو حديد .

مسرحية «عنترة»

للشاعر : احمد شوقى

كتب الشاعر احمد شوقى مسرحية شعرية بعنوان « عنترة » ، ادارها — كدأبه — حول مفاهيم عقلية ، وان استعان الى اقصى حد باحداث التاريخ وبالروايات السطحية التى رويت عن عنترة وعن علاقته بمحبوبته عبلة . ولكنه بعد عن تلك الروايات التاريخية فى احداث مسرحيته ليخدم الغرض العقلى الذى هدف اليه ، كما لجأ فى تسمية الاشخاص الى اصطناع اسماء لها شهرة معينة فى التاريخ واطلقها على اشخاص مخالفين لطبيعة ما اشتهرت به . فمثلا أطلق على رفيق عنترة اسم « داحس » ، ومعروف تاريخيا ان هذا الاسم لاحد الجوادين المشهورين اللذين تسببا فى قيام الحرب التى عرفت باسمهما واطلق على الثرى الذى نافس عنترة فى حب عبلة اسم « صخر » ، والمعروف تاريخيا أن هذا الاسم اشتهر به أخو الخنساء الشاعرة الذى لم يكن له أى علاقة بعنترة وعبلة .

ومهما يكن من أمر فان الهدفين الذهنيين اللذين هدف اليهما الشاعر احمد شوقى يتعلق اولهما بالعاطفة والحب بينما يعتبر الثانى هدفا اجتماعيا يتعلق بحياة العرب جميعا . فصاحب المسرحية يثير قضية عاطفية وهى : هل تميل المرأة بقلبها نحو الشاب الامرد الحسن الصورة ، الانيق الملبس ، اللاهى العابث ، الظريف الذى يجيد الغواية واحاديث الهوى ، المؤصل الحسب والنسب ، الرافل فى حلل النعيم ، ولو انه لين العريكة بعيد عن الشدائد ، يفر من وجه الصعاب . ام انها تترك هذا وتمنح قلبها لعبد أسود خشن المظهر ، سيىء الهيئة ، طاعن السن ، لا يعرف من الحياة الا امتشاق الحسام وخوض المعارك ؟.

ومنذ البداية يطلعنا شوقى على رأيه فى هذه القضية ، اذ يجعل المناظرة فيها بين صخر كطرف اول وبين عبلة التى اختارت فعلا عنترة العبد الاسود الخشن واخذت تدافع عنه وعن قضيته كطرف ثان فى المناظرة . ويصطنع صخر المنطق محتجا بان الجميل للجميل ، والشباب للشباب ، لا ان تزف الظباء الى الذئاب . ولكن عبلة ترد بان اهم من هذا وذاك حماية الذمار ورد المغير . فيجيب صخر بان الحياة خير وسلام وليست هى شرا وقتالا ... وقبل ان يكمل حديثه يأتيه

جواب عملي من غير عبلة اذ يهاجمهم اللصوص، فلا يلبث هو أن يستخفى ليظهر عنترة في الميدان وكأن واقع الحياة الطبيعي في البيئة العربية البدوية قد كفاه المحاجة وغلبه في المناقشة وأنهى القضية لصالح عنترة.

ويكاد يكون هذا الجزء من المسرحية ـ الذى يعالج فيه الشاعر هذه القضية الذهنية ـ خاليا خلوا تاما من رسم الشخصيات لاسيما شخصية عنترة سواء بصورته التاريخية او بصورة جديدة تخيلها الشاعر واظهر ملامحها . فجهد الشاعر كله كان مركزا حول الجدل المنطقى لدرجة انه جعل عنترة ينام الى جوار خباء عبلة فيهاجمها اللصوص ويضطرب الحى ، ويعلو الصراخ وقرع السيوف ، بينما عنترة فى سباته لم توقظه كل تلك الضوضاء ، فاذا ما نادى عليه ابوه شداد بصوت خفيض افاق من غفوته وهرع لانقاذ الحى .

وقد حاول صاحب المسرحية أن يستغل فى هذا المشهد الموقف التاريخى المعروف لاستلحاق عنترة حين امتنع عن القتال فوعده شداد باستلحاقه اذا ما فعل . ولكن شوقى لم يتم الموقف هكذا ، وانما جعل امتناع عنترة عن القتال يتلاشى عند علمه بان عبلة اسيرة فيسرع لانقاذها ، اما اعتراف ابيه به فلم يعنه فى شىء . ولعل شوقى قد فعل ذلك خدمة لقضيته الذهنية الاولى التى ادار حولها النصف الاول من المسرحية وأنهاه بمناظرة أخرى بين عبلة وعنترة اذ تخبره بأنها انما تحبه لشجاعته وقوته وحمايته للذمار فيشقى بذلك عنترة ويخاطبها متسائلا :

لم لا تعشقين عبـل جوادى لم لا تعشقين عبـل حسامى
أو ليسا هما شريكى فى الفتـك وضرب الطلى وحصد الهام(١)

فلا تحير عبلة جوابا . وهكذا تتميع القضية من جديد ، وتتميع معها شخصية عبلة وشخصية عنترة على حد سواء . ثم لا تلبث شخصية عبلة ان تتميع اكثر واكثر على لسان ابيها الذى يصفها بانها تبغض الرجل الدميم والرجل العنيف فى حين ان هاتين الخصلتين هما قوام شخصية عنترة ، أو هما المحور الذى اراد صاحب المسرحية ان يدير حوله المأساة ، ولكن عنايته بقرض الشعر الهته عن احكام بناء القصة فبدا فيها هذا التفكك والتميع ، وهى بعد لم تبلغنا شيئا مما نريد وهو تصوير شخصية عنترة .

---

(١) المسرحية ص ٣٨ ط ١٩٣٢

فاذا انتقلنا الى الهدف الذهنى الثانى فى المسرحية ـ وهو الهدف الاجتماعى الذى يتعلق بحياة العـرب ـ محـاولين ان نستشف منه شخصية عنترة كما تصورها احمد شوقى لوجدنا ان صاحب المسرحية قد أدار هذا الجـزء الثانى من مسرحيته بعيـدا كل البعد عن عنترة كذلك . وعلى الرغم من ان المحور الاساسى للقضية التى ساقها المؤلف هو عنترة ، الا أن كل مادار حول القضية كان يجرى خلف ظهر البطل ودون اشتراكه فيه ، وبالتالى دون ان تتضح ملامح شخصيته او يظهر تصور المؤلف لها . فضرغام ـ الفارس الثانى الذى نافس عنترة فى حب عبلة ـ يشـهد لخصمه عنترة بانه قد الف القـوم وقادهم الى النصر فيحاجه مالك ـ أبو عبلة ـ بأنه لايرضى بأن يؤلفهم عبد ، وان خسف كسرى وذل قيصر احب اليه من ان يكون عبد شداد هو مانعهم وحاميهم . وكعادة المؤلف الذى لا يحب المناقشـات الجدلية وانما يقطعها دائمـا بشواهد عملية مقنعة ، يهجم عليهم جيش الفرس بقيادة رستم وقد تحالفت معه قبيلة « بنى لخم » ، فيتصدى لهم عنترة ويهزمهم ويقتل قائدهم رستم . وهنا تقف عبلة خطيبة فى بنى لخم تعنفهم على محالفة كسرى الذى اتخذ منهم جسرا الى بلاد العرب ، وتذكرهم بانهم اخوة ابناء جنس واحد ، وتدعوهم الى نبذ الفرس والانضمام الى اخوانهم العرب ليكونوا حلفا قويا يسـتطيع الصـمود امام كسرى وامام قيصر وامام جميع اعداء العرب .

هـذه هى القضية الذهنية الثـانية التى عالجها احمد شـوقى فى مسرحيته وهى ـ كما نرى ـ لم تصـور لنـا اى لمحة من لمحـات شخصية عنترة ، اما الفصل الختامى الذى انهى به الشاعر مسرحيته فقد صور لنا فيه عنترة مصطنعا الحيلة ليفـوز بحبيبته ، فبينما عبلة تزف الى صخر ، يتدخل عنترة سرا ويتفق معها على أن تستخفى هى وتدع مكانها « ناجية » تلك الفتاة العبسية التى تحب صخرا . وما ان تتم مراسم القران حتى يظهر عنترة ويكشف عن حيلته ويرغم الجميع على قبولها ، وينتهى الموقف بأن تكون ناجية لصخر وعبلة لعنتر .

هذه النهاية المسرحية ـ وان دارت كلها حول عنترة ـ الا انهـا لا ترسم لنا الا مظهرا واحدا فقط من مظاهر شخصيته هو فى واقع الامر بعيد كل البعد عن الشخصـية الحقيقية لعنترة ، او انه مظهر جانبى بعيد الاثر هين الشأن يعتبر ايراده مع اغفال الجوانب الهامة والمظاهر الاساسية للشخصية عملا غير مستساغ . فاصطناع الحيلة شىء تافه بالنسبة لشخصية عنترة ، أو هو شىء تال للعمد الاساسية فى بناء شخصيته البطولية ـ كما أنه من ناحية أخرى ـ أمر بعيد عن

الواقعية ، فمن المعروف ان الشجاعة تعتمد على الاقدام وسرعة البت وربما التهــور ، بينما تعتمــد الحيلة على الروية فى التفكير واصطياد الطرق الجانبية للوصول الى الهدف ، وبذلك يكون الجمع بين الشجاعة والحيلة ــ وان لم يكن مستحيلا ــ فهو على كل حال امر بعيــد عن الواقع مخالف ، لمنطق الاشياء ، كما يكون اهتمام المؤلف بهذا المظهر الجانبى لشخصية عنترة مع اهمال جميع المظاهر الاساسية عملا مخلا باحكام البناء القصصى والفنى .

وليس هذا حكما على مسرحية شوقى باعتبارها عملا متكاملا ، فنحن لم نحاول طرق هذا الموضوع ، وانما انصب جهدنا على جانب واحــد فقط هو متابعة تصوير المؤلف لشخصية عنترة .

مسرحية « حواء الخالدة »

للاستاذ محمود تيمور

تعتبر مسرحية حواء الخالدة عملا ادبيا قائما بذاته بعيدا عن كل من التاريخ الحقيقى لعنترة ، وعما ورد فى السيرة الشعبية المؤلفة حوله . فالمسرحية ليس فيها من الواقع التاريخى الصحيح شىء ، اللهم الا أسماء ابطالها والبيئة الصحراوية التى جرت فيها احداثها ، كما انه ليس فى المسرحية من السيرة الشعبية شىء كذلك ، اللهم الا اشتراك عنترة فى حروب فارس . وحول هذين الاساسين بنى الكاتب مسرحيته ليعبر بها عن فكرة جديدة تتركز حول عبلة وليس حول عنترة — كما يوحى بذلك اسم المسرحية — وهذه الفكرة هى تلك الاسلحة الخفية التى حبا بها الله حواء منذ بدء الخليقة والى الابد ، تلك الاسلحة التى استعملتها حواء مع آدم ، ودليلة مع شمشون ، وكليوباترا مع انطونيو ، كذلك استعملتها عبلة مع عنترة ، وستظل تستعملها كل حواء ما واتتها الفرصة وسمح لها الحال . فمهما كان الرجل نبيا أو عظيما أو شجاعا أو غير ذلك من الصفات — سواء قلت أو كثرت — فانه لن يستطيع الصمود أمام أسلحة حواء الخفية ، فلابد له أن يهزم ، ولابد له أن يسلم ، ولا بد له ان يرضى بمصيره المحتوم وهو ان يكون العوبة فى يد المرأة .

وهكذا نجد ان الكاتب يحاول ان يصور لنا عنترة العوبة فى يد عبلة ، تصيره كما تشاء ، وتسيره أينما أرادت ، وتدفعه الى عظيم الافعال وخطيرها لمجرد نزوة طارئة أو رغبة عابرة . فعليه أن يصارع الهزبر الاشم بيديه العاريتين ، حتى يحصل لها على جلده سليما لتزهو به أمام اترابها من بنات القبيلة ، وعليه ان يضرب فى مشارق الارض ومغاربها سعيا وراء حجر الزبرجد ليهديه اليها . ثم هى اذا ما أرادت أن تعابثه دفعته الى ازالة لحيته المهيبة ، ولكنه ما ان يفعل حتى تهزأ به وتعيره بمظهره الامرد .

واذا ما يئست عبلة من عنترة ، وظنت أنه هلك فى الرحلة التى دفعته اليها لم تأبه لذلك ، واخذت فى القاء شباكها حول رجل آخر مستعملة نفس الاسلحة التى تجعل منه عجينة لينة بين يديها ، واخذت فى ارهاقه بالمطالب وبالدلال ، لتتأكد أنها ما زالت تستطيع استعمال اسلحتها بكل مهارة ونجاح . فاذا ما التقى الغريمان فان الامر اهون من

أن تأبه به ، بل هو على العكس من ذلك ، يعتبر موقفا أفضل فى تبيان تلك المهارة وادعى الى شحذ همة حواء ، واغرز فى ارضـاء غرورها . فللغريمين أن يتشاحنا بسببها ، وأن يقتتلا من اجلها ، أما هى فسوف تفوز فى النهاية بايهما يكتب له النصر . وهكذا نجد ان عبلة تدير المعركة بين عنترة وبين الامير عمارة بكل كياسة وحنكة حتى تصل بهما الى الذروة فيقتتلان وتفوز هى فى النهاية بالغالب منهما .

هذه هى الفكرة العامة لمسرحية « حواء الخالدة » ، بطلها الاول هو عبلة وليس عنترة ، وهدفها ليس تصوير البطولة ورسم صور الفروسية ، ولكنه على النقيض من ذلك ، يكاديكون سخرية من البطولة واستهزاءا من الفروسية ، وتحطيما لها على يد المراة ، او هو بعبارة اخرى موازنة بين اسلحة الفارس واسلحة المرأة وتبيان لاى منهما تكون الغلبة . وقد انتهى كاتب المسرحية الى رأى لم يؤيده التاريخ ولم يأت به السير ولكنه الوضع الطبيعى على اى حال .. فكما كانت الغلبة لحواء على آدم ، ولدليلة على شمشون ، ولكليوباترا على انطونيو ، كذلك كانت الغلبة لعبلة على عنترة .

وكاتب المسرحية يقدم لنا « الحب » فى صورتين مختلفتين ، ومع ذلك فان معينهما واحد ونهايتهما واحدة ومصيركل منهما فى يد المرأة . فعنترة يحب عبلة فى أول الامر ذلك الحب البدوى القوى الذى جعل قلبه يهيم بأفتن بنات البادية ، وركز آماله فى الحصول عليها ، وطلب رضائها مهما كان الثمن ، فكانت هى بذلك هدفه الاوحد والاسمى فى الحياة . وهنا نجد ان سعيه وراء عبلة كان لمرضاة ذلك القلب الكليم ، واستجابة لتلك الرغبة الذاتية الجامحة . فاذا ما سافر عنترة وتغرب سعيا وراء حجر الزبرجد الذى طلبته فاتنته التقى بحياة اخرى ، وباحداث مختلفة شغلته عن تلك التى خلفها وراءه فى ديار عبس ، ووضعت أمامه أهدافا أخر ليس لعبلة فيها مكان ، وأصبح النصر فى الحروب والحصول على المغانم هو الذى يشغل بال عنترة وهو الذى يستحوذ على نفسه وعلى قلبه جميعا بحيث نستطيع ان نقول فى بساطة انه برأ من حب عبلة واصبحت بالنسبة اليه امراة بين النساء وليست ذلك الصنم المعبود ، وهو يصرح امامها فى صراحة بان معبودته الآن هى الحرب .. تلك التى وهبها عقله وقلبه ووقف عليها عمره اجمع (١).

ولكن متى كانت حواء تتقبل الهزيمة ؟ ان فى جعبتها لكل موقف اسلحته ، ولكل ظرف ما يناسبه . فاذا كانت اسلحة الاغراء قد فل حدها ، ففى اسلحة الغيرة ما يبتر القلب العصى . وحيث أن الحرب

---

(١) المسرحية ص ٩٧

هى التى اصبحت شغل عنترة الشاغل ، وحيث ان هدفه إصبح دائما الفوز على خصومه ، اذن فلتدفعه هى ، الى حرب هدفها الفوز ، ويكون مظهر هذا الفوز هو الحصول عليها هى .

وهنا نشهد الصورة الثانية للحب الذى لا يتجه مباشرة نحوالمراة وانما تكون هى فيه منزوية فى جانب من الجوانب كجزء من النتيجة ، اما هدفه المباشر فهو الرغبة فى ارضاء نزعة الفوز والظهور على غريم . فالحب هنا ــ أو الغيرة أو غير ذلك من الاسماء ، ليست مركزة فى حواء ولا موجهة إليها، وانما مظهرها الرغبة فىالفوز واثبات القوةالشخصية. فهى حب للنفس قبل ان تكون حبا للغير ، وهى مظهر من مظاهر القوة الذاتية ، وليست رغبة فى المراة واشتهاء اليها . ومع ذلك فان حواء تعرف كيف تستغل كل ذلك لصالحها ، وتحوله الى مكسبشخصي لها . وهذا ما فعلته عبلة مع عنترة اذ حارب فى سبيلها وهو يظن انه يحارب فى سبيل نفسه ، وحصلت هى عليه فى النهاية دون ان يفطن " ، انه هو الذى سعى اليها .

هذه هى الخطوط العريضة لمسرحية حواء الخالدة،ومنها نجد ان المسرحية عمل أدبى مستقل قائم بذاته لا يربطها رابط بأى من تاريخ عنترة او سيرته ، وان فكرتها العامة فكرة جديدة قديمة فى نفسالوقت، استغل المؤلف شهرة عنترة وعبلة لاظهارها وخرج بمسرحيته من حيز « التراجيديا » الى ميدان « الفارس الخفيف » بحيث نستطيع ان نعتبرها مسرحية حديثة او عصرية استمدت رموز شخصياتها من التاريخ .

وهكذا نجد اننا لا نستطيع ان نحاسب كاتب هذه المسرحية عن تصويره لشخصية عنترة ، بل ولا نستطيع كذلك ان نستشف الصورة التى تخيلها هو لبطلنا . فواضح ان عنايته لم تكن منصبة على تصوير الشخصيات ، وانما اتجهت اتجاها اخر نحو توضيح الفكرة الذهنيــة للمسرحية ، وهى عرض أسلحة المراة الخفيــة ، ونحو اضفاء شىء من الهزل وخفة الروح عليهــا . ولذلك نجد انه قد طوع الشخصــيات لهذين العاملين دون النظر الى بنائهمــا بنــاء فنيا سليما ، وعلى ذلك ضاعت منه معالمهما ، وانقطعت جميع وشائج الصلة بين شخصية عنترة الحقيقية وبين تلك الشخصية التى اصطنعها كاتب المسرحية ، وأصبح لا يجمعهما سوى الاسم والشهرة والارتباط بعبلة .

ابو الفوارس

للاستاذ محمد فريد ابو حديد

يبدأ الاستاذ ابو حديد قصته بتصوير عنترة كعبد من عبيد شداد تتنازعه عواطف شتى متباينة . فهو ابن شداد كما اخبرته امه زبيبة بذلك ، وهو يحب اباه ويعتبره صورة للبطل العربى ، ومع ذلك فان شدادا لا يقبل أن يلحقه بنسبة ويعترف ببنوته . ثم هو فارس بنى عبس وحاميهم ومفرج كربهم وجالب الاسلاب لهم ، ومع ذلك فانهم لا يجعلون له سوى نصف سهم من الغنائم لانه عبد وليس بسيد . وهو بعد ذلك محب لعبلة هائم بعشقها ، منشد لارق الشعر واجمله فيها ، ولكنه لا يستطيع التطلع اليها ولا الوصول الى مكانها الا بوصفه خادما وبوصفها مولاته .

وكان عنترة يشقى بكل تلك المشاعر ، وكم غضب من نفسه لقبولها والسكوت على ذلك الوضع المهين ، وكم حدثته نفسه بترك بنى عبس الذين يعيش بينهم عبدا الى قوم آخرين يمكنه أن يعيش بينهم سيدا . ولكنه لا يلبث ان يقرر امرا .. لماذا لا يكون سيدا بين بنى عبس انفسهم ؟ ان الذى يمكنه من ان يكون سيدا بين غيرهم لا بد وان يوصله الى نفس المكان بينهم . وهكذا يوطد العزم على الوصول الى بغيته ويعاونه فى ذلك اخوه شيبوب — ابن زبيبة — بعد ان حاول صرفه عنها وعن حب عبلة كذلك ولكنه لم يستطع .

وتتضافر قوى الشر على عنترة فيقع العداء بينه وبين عمارة ابن زياد ، ويرفض ابوه شداد الاعتراف به خوفا من معرة العرب ، واخيرا يتقدم عمارة لخطبة عبلة فيفزع عنترة الى الصحراء يحكى همه لرمالها . ولا يلبث بنو طيىء أن يهاجموا عبسا فيظهروا عليهم ، حينئذ يستنجد شداد بعنترة ويعده بان يلحقه بنسبه اذا ما هزم الاعداء . وهكذا يحقق عنترة اول هدف من اهدافه ، ولكن مالك بن قراد لم يلبث ان حمل اهله وابنته عبلة وغادر وادى الجواء بعد ان جهر عنترة بحب عبلة وشبب بها . ونزل مالك الى جوار بنى شيبان حيث تكاثر الخطاب على عبلة ، وتعهد احدهم وهو « بسطام بن قيس » بان يأتى برأس عنترة مهرا لعبلة . ولكن عنترة ترفع عن قتله بعد ان قدر عليه عدة مرات ، فلما علم ابوه قيس بن مسعود بذلك اعجب بعنترة واستضافه فى منازله وعطف على قضيته واقنع مالكا بأن يحكم عبلة فى امرها فاختارت ابن عمها . وخرج عنترة يضرب فى الصحراء قاصدا العراق ليفوز بمهر عبلته — الفا من النوق العصافير . وهناك يأسره النعمان ، ولكنه لا يلبث ان يعجب بشجاعته وفصاحته فيضمه الى جيشه ويحرز

له عنترة النصر تلو النصر ، فيكافئه النعمان بفيض من الخلع والعطايا. ويعـود عنترة الى قومه فى ركب عظيم وثروة طائلة ليجد أن عبلة على وشك الزفاف الى غيره فيرسل أخـاه شـيبوبا ليفـرق ثروته على آل عبس ، ويأخذ هو مكانه فى الصحراء وحيدا شريدا ، ولكن سرعان ما يتجمع القوم حوله ليقدموا اليه عبلة زوجا .

وهكذا نجد ان موضوع قصة الاستاذ فريد ابو حديد يكاد يتفق فى مبناه واحداثه مع القسم الاول من سيرة عنترة ، بل انه يكاد ينقل عنه فى كثير من الاحيان فقرات بأكملها من الحـوار بعد صقلها لتلائم الاسلوب العام الذى اصطنعه الكاتب لقصته ، ومع ذلك فاننا اذا نظرنا الى هذا العمل من الزاوية التى نحن بصددها ــ وهى تصوير شخصية عنترة ــ لوجدنا أن الفرق شاسع بين العملين . فتصـوير الاسـتاذ ابو حديد لشخصـية عنترة يختلف اختلافا كبيرا عن تصـوير كاتب السيرة لها رغم اتفاق الموضوع وتطابق الاحداث . والسبب الاساسى فى هـذا يرجع الى اختلاف طريقة التنـاول عند الكاتبين . فصاحب السيرة اصطنع طريقة السرد القصصى التى يقدم فيها الاحداث مجردة من أى شرح أو تعليل ، ودون ان يعرض لاسبابها ودوافعها ويناقش احتمالاتها ونتائجها . وهو يدير فى داخل القصة الشخصيات بأجسادهم وحركاتهم دون ان يعنى بأفكارهم ومشاعرهم وما يعتور فى صدورهم من انفعالات أو مايتوالى على اذهانهم من أفكار ، اللهم الا لمحات بسيطة قد تظهر فى الحوار . وبذلك فانه يعطينا فقط صورة خارجية لعنترة تصور حركاته وافعاله دون ان تغوص فى اعماق نفسه البشرية لتجلو لنا احاسيسه ومشاعره .

اما صاحب « ابو الفوارس » فقد اصطنع فى قصته المنهج النفسى ــ بالمعنى العام لهذه الكلمة ــ فهو اذ يسرد الاحداث التى تعطى الصورة الخارجية لعنترة نقلا عن السيرة ، لا يلبث فى كل موقف من المواقف ان ينتحى جانبا ببطله ليغوص فى أعماق نفسه ويطلعنـا على مكنـونات سريرته ، ويتناول النوازع والمشاعر بالبحث والتحليل والعرض الموفق الذى ينساب بين الاحـداث فى تلاؤم وامتزاج يجعـل من عمله انتاجا جديدا مغايرا للاصل المنقول عنه ، ليس فى طريقة التناول فحسب ، ولا فى التصوير النفسى لشخصية عنترة فقط ، وانما فى معانى القصة وقضاياها كذلك .

فالاستاذ ابو حديد لا يكتفى بعرض شخصية عنترة عرضا شكليا وموضوعيا ، وانما يعرض لنا فى مقابلها شخصية اخرى تصور الجوانب النفسية العكسية التى أضفاها على عنترة هى شخصية أخيه ــ من أمه ــ شيبوب . فبينما هما ابنا أم واحدة ، ويعيشان تحت ظروف بيئية واحدة ، اذ بهما يقفان على طرفى نقيض . فعنترة لا يحتمل ذل العبودية وشيبوب يستمرئه ويرضاه ، وعنترة ثائر على لونه الاسـود

بينما شيبوب غير عابىء به ، وعنترة حانق على وضعه فى القبيلة كعبد أو كخادم ، ولذلك يبذل كل جهده لتغيير وضعه ، أما شيبوب فقانع بما هو فيه لا يشعر معه بحطة ولا يسعى لتغييره . وعنترة يسمو بالحب ويتمثله عاطفة نبيلة يركزها حول عبلة بينما لا يعرف شيبوب سوى الرغبة الجنسية التى يطفئها مع اى امرأة فى اى مكان ، ثم ان عنترة يقدر الفضائل ويعتنقها فلا يكذب ولايسرق ولا يخون ، أما شيبوب فانه لايتورع عن اقتراف شىء من هذا ، بل ويعتبرها أساس السلوك وقوام الحياة التى يحياها . واخيرا فان عنترة يعتبر ان بنى عبس قومه وان جاروا عليه بينما يعتبرهم شيبوب اعداءه .

وهكذا نجد أن الاستاذ أبو حديد لم يكتف بعرض شخصية عنترة عرضا نفسيا ، وتوضيح جوانب تلك الشخصية من جميع نواحيها ، وانما زاد ذلك ابانة بعرض شخصية مقابلة لها عرضا نفسيا كذلك ليكون فى عرضها وتوضيح للضد الذى هو شخصية عنترة ، ولهذا كانت قصته أبعد الاعمال الادبية جميعا فى رسم صورة مشرقة دقيقة واضحة المعالم بارزة القسمات لشخصية عنترة ، والابانة عن معالم البطولة فيها سواء من ناحية البطولة العامة او الموضوعية التى يتفق فيها مع السيرة ، وكذلك ن ناحية البطولة الذاتية أو المعنوية ، كما يجب أن تكون فى كل فرد . وهذا هو الفرق فى الغاية المستقاة من كلا العملين . فهو يتفق مع كاتب سيرة عنترة فى توضيح معالم البطولة الموضوعية من شجاعة واقدام وحسن خصال وما الى ذلك مما تصوره اعمال عنترة ، ثم يزيد على ذلك تصوير نوع آخر من البطولة التى لاتتمثل فى جلائل الاعمال وانما تنبع من قرارة النفس البشرية ويكون مجالها النزوع الى الافضل واطراد التقدم واباء الضيم والرغبة فى الحق والتسامى عما يشين . ثم هو يوضح لنا غاية اخرى تشبت ان طالب التحرر والرفعة لابد بالغهما اذا ماهو سعى اليهما وأصر فى سعيه على ادراكهما .

ولعل الفترة الزمنية التى كتب فيها الاستاذ ابوحديد قصته ، والظروف السياسية والاجتماعية التى أظلت ذلك العصر ، أن توضح لنا سبب اختياره لهذه الشخصية بالذات وهى شخصية عنترة بن شداد وانتقاله للقسم الاول من سيرته المعروفة ، ثم اصطناع الاسلوب النفسى لعرضها بهذا الشكل . وكأنما يريد الكاتب ان يقول ... ان مايصدق على الفرد يصدق كذلك على المجموع ... وان المصريين الذين كانوا يرزحون تحت نير الاستعمار آنذاك مثلهم مثل عنترة الذى كان يعانى من العبودية ... وان هناك طريقين لمواجهة هذا الموقف : طريق البطولة الذى سلكه عنترة ، وطريق الاستكانة الذى ارتضاه شيبوب . فعلى الشعب أن يختار أيهما ... وقد رأينا كيف أن طريق عنترة قد ابلغه العزة ونوله المراد ، وكيف بقى شيبوب كما هو عبدا وان اختلف الاسياد .

ثبت المراجع الأجنبية

1. An Introduction to Mythology	Lewis Spence
2. An Introduction to Mythology and Folklore	Sir George William
3. An Introduction to the Iliad and the Odyssey	R.C. Gebb
4. Arabia before Mohamed	O'leary
5. Arabic Thought	O'leary
6. A short history of the Fatimid Khalifah	O'leary
7. Bibliographie des Ouvrages Arabes	Victor Chauvin
8. Encyclopaedia Britanica	
9. Folklore and Historical Science	Sir George Gomme
10. Geschichte der Arabischen Literatur	Carl Brockelmann
11. Kinship	Smith
12. Modern Mythology	Lang
13. Mohamed and the rise of Islam	D. S. Maregoliouth
14. Myth ; Ritual and Repigion	Lang
15. Pre-Islamic Arabia	Della Vida
16. Primitive Society	R. Lowic
17. Primitive Culture	Tylor
18. Principles of Sociology	Herbart Spenser
19. Literature Arabe	Huart
20. Lit. History of Arabs	Nicholson
21. The Encyclopaedia of Islam	M. Hartmann
22. The golden bough	Sir James G. Fraser
23. The Origins of Arabic Poetry	D.S. Maregoliouth

١٥٧ شارع عبيد – روض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦ – ٤٥٤٠٥ – ٣١٦٢٥

Bibliotheca Alexandrina
05528137

العدد ٧ الثمن ٢٥ قرشا